

فتح العرب للمغرب

تأليف

د. حسين مؤنس

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر - القاهرة

ت: ٥٩٢٢٦٢٠ - فاكس: ٥٩٣٦٢٧٧

فتح العرب للمغرب ، ****************************



تأليف

د . حسين مؤنس

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين ، وعلى أهله وصحبه أجمعين .

وبعد ، فإننى حاولت أن أتتبع فى الفصول التالية الأعمال السياسية والعسكرية التى قام بها العرب بين سنتى ٢١ و٨٥ هجرية والتى انتهت بدخول الشمال الإفريقى من حدود مصر إلى المحيط الأطلسى فى نطاق الدولة الإسلامية .

ولم يتسع المجال لدراسة النتائج المباشرة وغير المباشرة لهذا الفتح العظيم ، لأن استيفاء هذا الموضوع يقتضى دراسة تاريخ المغرب والأندلس وغرب البحر الأبيض المتوسط خلال العصر الوسيط كله ، فقد كان فتح المغرب من الفتوح الحاسمة التى استتبعت معها نتائج بعيدة الأثر فى تاريخ الشرق والغرب : منها فتح الأندلس وما نتج عن ذلك من قيام حضارة إسلامية زاهية فى أرض أوروبية ، ومنها فتح صقلية الذى جعل للمسلمين طريقاً إلى جنوبى إيطاليا ، ومنها سيطرة المسلمين على غرب البحر الأبيض المتوسط طوال بضعة قرون ، وغير ذلك من الظواهر التاريخية التى يعد كل منها حدثاً هاماً له أهميته وأثره فى تاريخ الإنسانية كلها .

ولم تتسلسل هذه الحوادث التاريخية الكبرى إحداها عن الأخرى تسلسلا هيناً سهلا ، ولم تكن إحداها نتيجة طبيعية للأخرى ، وإنما كانت هى الأخرى نتيجة لجهود متصلة عنيفة قام بها العرب ومن معهم من البربر عن قصد ومعرفة بأهميتها ، ففتح الأندلس مثلا لم يكن مجرد انسياح طبيعى وإنما كان فتحاً عسيراً قدّر الذين قاموا به معظم نتائجه ، وكذلك كان فتح صقلية والسيطرة على غرب البحر الأبيض ، ولم يكن العرب الفاتحون أصحاب الفضل الأول فى هذا كله ، إنما كان معظم الفضل فيه للبربر ، وتلك هى الظاهرة الفريدة فى بابها التى تجعل فتح المغرب ظاهرة لا نكاد نجد لها فى تاريخ الفتوح الإسلامية شبيهاً : فهؤلاء قوم يدافعون العرب عن بلادهم شبراً شبراً ، ويناجزونهم عن حريتهم مناجزة لم يعهد العرب لها مثيلا ، فما هو إلا

أن يطول القتال حتى ينشأ فى نفوس البربر إعجاب بهؤلاء الفاتحين البواسل الذين يكادون يشبهونهم فى كل شىء ، ثم يظهر البربر شيئاً فشيئاً على طبيعة الرسالة الإنسانية التى يحملها الفاتحون إليهم ، فتبدأ نفوسهم تهوى للإسلام ، ويأخذ نفر منهم يشترك فى جيوشه المظفرة ، ولا يكاد فتح المغرب يتم ، حتى نجد هؤلاء البربر الأمجاد «يقودون» العرب إلى الأندلس حيث يقيمون معهم صرح دولة من أمجد وأجل ما أنشأ المسلمون فى تاريخهم السياسى كله .

ذلك هو ما يستهوى النفس فى دراسة المغرب وما يتصل به ، وليس يتسع المجال فى كلمة كهذه للإفاضة فى هذا الموضوع ، فلندعه إلى أن يأذن الله فنمضى فى تأريخ ما تلا هذا الفتح المجيد من أحداث ونتائج .

وقد وقفت بالحوادث عند ولاية حسان بن النعمان وأعماله ، لأن حسان أكمل الفتح وثبته ووضع أسس المغرب الإسلامى ، ولم تكن أعمال موسى بعد ذلك فتوحا وإنما كانت نشاطا عادياً نعرف مثله لكل عامل مسلم نشيط ، ولم يكن غرضها أكثر من تهدئة البلاد وتنظيم أمورها .

ومن الحق أن أقرر هنا أن معظم الفضل فى هذا البحث إنما يرجع إلى أستاذى الجليل عبد الحميد العبادى بك أستاذى ومرشدى فى كل جزء من أجزائه ، فليس يفى بشكره كلام .

وقد أفدت أجل الفائدة من التوجيهات القيمة التى تفضل بها الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب باشا فله منى أخلص الشكر وأصدقه .

ومن الحق كذلك أن أقدر هنا ما لقيت من العون من صديقى مهدى افندى خير الدين أثناء طبع الكتاب ، وما تفضل به زميلى الأستاذ حسين فهمى من كريم المعاونة فى رسم خريطتى الكتاب .

حسين مؤنس

موضوعات الكتاب

صفحة

صفحة

تمهيد

فى تحديد المراد بألفاظ إفريقية ، المغرب، بربر ، بُتْر ، بَرانس ، زَناته

أطلق الفينيقيون لفظ افرى (Aphri) على أهل البلاد الذين كانوا يسكنون حول مدينتهم طاقة Utica « المدينة القديمة » وعاصمتهم قرطاجنة « المدينة الحديثة» ، وعنهم أخذه اليونان ، فأطلقوه على أهل البلاد الأصليين الذين يسكنون المغرب من حدود مصر إلى المحيط ، ومن ثم سميت هذه المنطقة افريكا[1] أى بلاد الأفرى ،

---

(١) لازال أصل لفظ إفريقية خافياً لم يصل الباحثون فيه إلى رأى يركن إليه ، ولمؤرخى العرب فى ذلك آراء مختلفة جمعها البكرى فقال : « قال قوم أنها إفريقية أى صاحبة السماء . وقال آخرون : سميت إفريقية لأن إفريقس بن أبرهة بن الرايش غزا نحو المغرب حتى انتهى إلى طنجه فى أرض بربر ، وهو الذى بنى إفريقية وباسمه سميت ؛ وقيل سميت بإفريق بن ابراهيم عليه السلام من زوجته الثانية قطورى ، وقال قوم إنما سموا الأفارقة وبلادهم إفريقية لأنهم من ولد فارق بن مصريم ؛ وقد زعموا أن إفريقية ليبية سميت ببنت يافوه بن يونش الذى بنى مدينة منفيش بمصر ، وهى التى ملكت ملك إفريقية أجمع فسمى بها » . ولبقية مؤرخى العرب آراء كهذه لا محل لذكرها ولايمكن الأخذ بها ، فربما جعل بعضهم إفريقية مشتقاً من لفظ فرق ، ويغلب أن الذين رأوا ذلك الرأى أخذوه مما ينسب إلى عمر بن الخطاب من أنه قال : « إفريقية المفرقة غادرة لا أغزيها أحداً ماحييت » . وقد حاول دوبرا أن يكشف أصل هذا الاسم ، فذهب إلى أن بوشار قال أن اللفظ مشتق من كلمة يونانية بمعنى épi ،وذهب كذلك إلى أن أصل الاسم ربما كان مشتقاً من لفظ opara الهندى الذى يريد به الهنود الغرب وذلك أن للفظ opara مرادف هو aprica ومعناه الغرب أيضاً ، وهذا رأى بعيد لا يمكن الأخذ به ، لأننا لانملك من الدلائل مايؤكد لنا اتصال أهل إفريقية بالهند، وربما كان دافع دوبرا إلى ذلك الزعم ماذهب إليه من أن أصل البربر جنس آرى هاجر من نواحى الكنج ، بيد أن دى سلين ذهب فى تعليقه على هذا اللفظ أثناء ترجمة ابن خلدون إلى أنه « لابد أن يكون معناه فرقة أو جزء أو طائفة منفصلة، أو نفراً من المستعمرين الذين هجروا الوطن الأصلى » وهذا رأى مقبول . ولم يرد اسم إفريقية فى الأنجيل ، وأورد هوميروس ذكرها محاطاً بالغموض .

البكرى : وصف أفريقية ، ص ٢١ — البكرى : معجم ما استعجم ، جـ ١ ص ١١٦ — ابن خلدون : تاريخ جـ ٦ ص ٩٨ De Slane, iv, p. 571 — 572. Duprat : p. 4, n. 1 Gautier, Siècles Obscures p 100.

واستعمل هذا الاسم للدلالة على هـذه المنطقة، فنجد هيرودوت يطلق لفظ افريكا على كل ما يلى مصر غرباً من البلاد حتى المحيط الأطلسى . فلما غلب الرومان الفينيقيين على هذه النواحى ، أخذوا عنهم هذه التسمية فأطلقوا اسم ولاية افريقية القنصلية Africa proconsularis على قرطاجنة وما حولها حتى نوميديا .

وأخذ معنى هذا اللفظ يتسع شيئاً فشيئاً كلما اتسع سلطان الرومان فى إفريقية، فأصبحت ولاية إفريقيـة القنصلية تضم ولاية إفريقية الأصلية والجزء الشرقى من تونس الحالية الذى كان يسمى زوجيتانيا ، والمنطقة الداخلية منهـا التى تمتد حتى فزان المسماة Bezacena، أما بقية إفريقية الرومانية فسمى الجزء المقابل منها للجزائر الحالية نوميديا ، ويلى ذلك مَرطانيـه[1] بقسميها القيصرية والطنجية[2] . ثم اتسع معنى هذا اللفظ فى العصر البيزنطى ، فكانت إفريقيـة البيزنطية تشمل كل ما دخل فى طاعة الروم من هذه القارة من برقة إلى طنجه .

وعن البيزنطيين أخذ العرب لفظ إفريقية وتحديدهم الأول لمعناه ، فأرادوا به فى أول الأمر كل ما يلى مصر غرباً حتى ساحل المحيط الأطلسى ، ولهذا نجد أقدم مؤرخيهم كابن عبـد الحكم والبلاذرى يطلقون لفظ إفريقية على كل ما يلى مصر غربا من شمال هذه القارة ولا يقسمونها أقساما ، ولـكنهم استثنوا من ذلك برقة « بنطابلس » وطرابلس ، إذ اعتبرهما أغلب المؤرخين ولايتين قائمتين بين مصر وإفريقية .

ثم أخذ لفظ إفريقيـة يضيق شيئاً فشيئاً ، وبدأ لفظ « المغرب » فى الظهور فاقتصر اسم إفريقيـة على ما يلى مصر غربا حتى بُجَـايه ، أى أنه ضم تونس ونصف مقاطعة قسطنطينه الحالية ، ثم يلى ذلك المغرب حتى المحيط ، وربما أدخل

---

(١) تعريب للفظ Mauretania وهكذا رسمها البكرى ، وصف إفريقية ، ص ٢١٠

(٢) Mercier, Hist. de l'Afr. Septentrionale, vol I, p. 180

فيه بعضهم الأندلس نفسها ، فياقوت مثلا يحدد إفريقية بقوله « وحد إفريقية من طرابلس الغرب من جهة برقة والاسكندرية إلى بُجايه ، وقيل إلى مليانه فتكون مسافة طولها شهرين ونصف شهر[1] » وعنده أن المغرب هو ما يلى ذلك من بلاد المسلمين غرباً ، ويؤيد ذلك ابن أبى دينار بقوله « وعند أهل العلم إن أطلق اسمُ إفريقية فإنما يعنون بلد القيروان » أى البلاد المحيطة بالقيروان ، ثم يعود فيؤكد ذلك بقوله « وافريقية أوسط بلاد المغرب[2] » .

ويبدو أن المراد بلفظ المغرب فى أول الأمر كان تحديداً جغرافياً ، أراد به الذين اتخذوه كل ما يقابل المشرق من البلاد ، ومن هنا أدخل فيه بعض المؤلفين مصر والأندلس[3] ، وقصره آخرون كابن عذارى على المغرب الحالى ، وأخرج منه الأندلس ، وجعلوا حدود المغرب « من سبب بحر النيل بالمشرق إلى ساحل البحر الأبيض من ناحية المغرب[4] » .

بيد أن طائفة من الكتاب ظلت تخلط بين لفظى « مغرب » « وإفريقية » ولا تميز بينهما ، فالبكرى مثلا يحدد إفريقية بقوله: « وحد إفريقية طولها من برقة شرقا إلى طنجة الخضراء غربا ، واسم طنجة مرطانية وعرضها من البحر إلى الرمال التى هى أول بلاد السودان[5] » وهذا حذوه نفر من المؤرخين[6] . على أن ذلك لم يستمر طويلاً فلم يلبث معنى كل من اللفظين أن تحدد بشكل واضح فنجد ابن أبى دينار يقول : « وحد إفريقية بالطول من برقة إلى طنجة ، وعرضها من البحر الشامى إلى الرمال التى أول بلاد السودان قاله غير واحد ، قلت : فى زماننا هذا لا يعبر بإفريقية إلا من وادى الطين إلى بلد باجة[7] » وقد أكد

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة إفريقية (٢) المونس ، ص ١٣

(٣) المقدسى ، أحسن التقاسيم ص ٢١٧ — ٢١٨ (٤) المونس ص ١٦

(٥) البكرى ، وصف إفريقية ص ٢١ (٦) راجع تحفة الملوك ص ٣٩٧ — ٣٩٨

(٧) المونس ص ١٦ ؛ وحدد كاستليونى المراد بلفظ إفريقية فى الرواية العربية بقوله :

الإدريسي ذلك بقوله عن بجاية : « ومدينة بجاية فى وقتنا هـذا مدينة المغرب الأوسط أى أول بلاد المغرب الأوسط[1] » .

وينقسم المغرب إلى قسمين : المغرب الأوسط ويمتـد من بُجاية حتى وادى مَلَوية ، والمغرب الأقصى وهو ما يلى ذلك حتى المحيط[2]، وقد يطلق اسم السوس على الجزء الغربى المطل على المحيـط من بلاد المغـرب ، ويقسم إلى قسمين : السوس الأقصى ، ويضم سلسلتى الأطلس (دَرَن) وما جنوبهما وغربهمـا من النواحى العامرة حتى تارودانت وتافِلَلْت (سجلماسه) ، والسوس الأدنى ويشمل الجزء الشمالى من مراكش الحالية على وجه التقريب[3] .

والغالب أن معنى لفظ المغرب انتهى عند المؤرخين والجغرافيين إلى أن يشمل كل مايلى مصر غرباً حتى المحيط ، ثم يقسمونه بعد ذلك أجزاء : هى برقة وطرابلس ثم افريقية حتى نهر مَلَوية ثم المغرب الأوسط ثم المغرب الأقصى فالسوس[4] .

ومن هنا صح استعمال لفظ المغرب للدلالة على الإقليم كله ، ثم تقسيمه بعد ذلك إلى الأقسام المشار إليها ؛ وفى هذه الحدود استعملتُ تلك الألفاظ فى هذا البحث.

***

ويفرق المؤرخون بين ثلاث طوائف من السكان كانت تعمر المغرب

= « يريد مؤرخو العرب بإفريقية ولاية Africa Propria الرومانية (أنظر خريطة رقم ١) وزوجيتانيا Zeugitania وكذا الولايات البحرية الأخرى كطرابلس ونوميديا وبعض أجزاء من موطانية القيصرية وبنطابلس وتمتـد فى الداخل حتى واحة آمون ,وجزء من فزان Castiglioni ; Memiores . p 4 ويبدو أنه أخذ هذا التحديد عن دهربلو : D' Herbelot Bibliographie Orientale : مادة إفريقية .

(١) الأدريسى ، ص ٩٠

(٢) ابن خلدون ، تاريخ ، ج ٦ ص ٩٨ — ١٠٢
السـلاوى ، الأستقصاء ص ٣٣ — ٣٤

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة سوس

(٤) انظر ابن حوقل ص ٤١

زمان الفتح[١]، فيذكرون الرومَ والأفارقة والبربر ؛ فأما الروم فالمراد بهم البيزنطيون الذين وجدهم العرب فى البلاد إذ ذاك[٢] .

وأما الأفارق أو الأفارقة فالمراد بهم أخلاط من الناس كانوا يسكنون النواحى الساحلية العامرة المحيطة بالمدائن البيزنطيـة والأجزاء المزروعة الأخرى الداخلة فى الرباطات البيزنطيـة ؛ وهؤلاء خليط من المستعمرين اللاتين Colons وبقايا الشعب القرطاجنى القديم ومزارعى البيزنطيين وصناعهم ونفر من البربر ممن استقر ودخل فى طاعة البيزنطيين ، وتتضح التفرقة بينهـم وبين البربر من قول جوتييه : « وعلى أى الأحوال يسمّى الأهالى الثائرون بأسماء قبائلهم ، أو يسمّون الماءور (les Maures) أو البربر جملة ، ولكنهم لا يسمون «الأفارقة» أصلا ، إن هذه التسمية قصر على خصومهم حماة النظام وهم أهل قرطاجنة أو رعاياها[٣] » وهذا يدل على أن العرب أخذوا هذه التسمية عن المؤلفين اللاتين .

---

(١) قسم الحسن الوزان أهل إفريقية إلى : عنصر فينيقى قديم جداً ، عنصر عبرى ، وعنصر لاتينى ، وعنصر أصلى Leo Africanus : p. 187 طبعة ماسينيون

(٢) De Slane, Journal Asiatique, 1848. p. 424.

وقال فى مكان آخر : « يريد كتاب العرب بالروم إما رعايا الأمـبراطورية البيزنطيـة أو مسيحي أوروبا ، أو اللاتين الذين سكنوا شمال إفريقية journ. Asiat. XII, p. 420 n. 5 » ، ويلاحظ أن كتاب العرب لايريدون بالروم مسيحى أوروبا الغربيـة لأنهم يسمونهم الفرنجة تمييزاً لهم عن الروم ، ويلاحظ ذلك واضحاً فى اهتمام ابن خلدون بالتفريق بين الأفرنج والروم . وقد اختفى الروم من إفريقية بعد الفتح العربى ؛ ولكن التيجانى يذهب إلى أن طوائف منهم بقيت فى بعض نواحى البلاد كواحات الجريد فقال « وأهل توزر من بقايا الروم الذين كانوا بإفريقية قبل الفتح الاسـلامى . وكذلك أكثر بلاد الجريد ، لأنهم — فى حين دخول المسلمين أسـلموا على أموالهم »

رحلة التيجانى ، ورقة ٦٨ أ

(٣) Gautier, p. 100

وقال ابن عبد الحكم فى تاريخه : « وأقام الأفارق ، وكانوا خدما للروم على صلح يؤدونه إلى من غلب على بلادهم » ، مما يؤيد أنهم كانوا زراعا وصـناعا فقط ، وأنهم كانوا خاضعين للروم . ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٧٧

والبربر هم سكان البلاد الأصليون . و ينقسمون طائفتين متباينتين وهما طائفة البربر الحضر الذين يسكنون النواحى الخصبة الشمالية والسفوح المزروعة ، وطائفة البربر الرحل الذين يعمرون الصحارى والواحات التى تلى ذلك جنوباً وشرقاً .

والفوارق بين الطائفتين اجتماعية لا جنسية ، وليست ناشئة عن انتساب كل منهما إلى أب كما يذهب نسابة البربر وفى مقدمتهم ابن خلدون ، إذ أن البربر المستقرين ينزلون النواحى الخصبة المحيطة بجبال أوراس ، أى جنوب ووسط الجزائر الحالية وجنوب مراكش و بعض أجزاء تونس الغربية ؛ وطبيعى أن يكونوا على جانب من الحضارة لاتصالهم بالقرطاجنيين واللاتين وحضارات البحر الأبيض المتوسط ، فتناولوا الزراعة والصناعة وظهر فيهم نفر أخذ بأسباب الحضارة اللاتينية مثل يوبا أمير نوميدية الذى درس وتربى فى روما ، و يوجرثا عدو الرومان اللدود ، وماكسن الذى لعب دوراً سياسياً هاماً فى الحرب بين روما وقرطاجنة .

وأما البربر الظواعن فهم بدو يعيشون على الرعى و يميلون إلى الاغارة على ما يجاورهم من نواحى العمران ، حتى لقد وصفهم كودل بقوله : « إنهم ليسوا أمة و إنما هم لصوص »[1] ، وهو وصف مبالغ فيه، نقله كودل عن المؤلفين الرومان والبيزنطيين مثل سالوست و بروكو بيوس .

كان هذا الاختلاف فى الأحوال الاجتماعية سبباً فى نزاع طويل وحروب مستمرة بين الفريقين ، فكان الرحل لا ينفكون يغيرون على مزارع المستقرين وقراهم ، فاضطر هؤلاء إلى أخذ الحذر منهم والاحتماء من شرهم والاستعانة عليهم باللاتين أو البيزنطيين ، مما أدى إلى ظهور الفوارق بين الطائفتين بشكل جلى واضح كان له أبعد الأثر فى مستقبل البلاد السياسى ، إذ حال دون اتحاد أهلها، وسهل غزوها ومكن الفاتح الأجنبى من أن يستعين بفريق على فريق ،

(1) Caudel, I. 68

وحال دون نشوء دولة بربرية واحدة أو شعب متآلف متناسق .

أفاد الرومان من هذه الحال فائدة كبرى فاستعانوا بفريق على فريق ، فأمكنهم ذلك من البلاد وثبتت قدمهم فيها . أما البيزنطيون فلم يوفقوا إلى الفائدة من تلك الحال مما جعل سلطانهم على البلاد ضعيفاً واهياً .

وكان البيزنطيون (والرومان كذلك) يقسمون البربر شعوباً بحسب الأقاليم التي كانوا ينزلونها ، ولم يقسموهم إلى قبائل[1] .

فلما اتصل العرب بالمغرب فهموه كما رأته عيونهم وكما تصورته أذهانهم التي تختلف كثيراً عن العيون والأذهان الغربية . فكان أول ما حدث تغيرُ الاصطلاحات ، فاختفى لفظ أفريكا — كتسمية عامة شاملة على الأقل — وبدأ لفظ المغرب يحل محله . . واختفى كذلك اسم الليبيين وظهر لفظ « البربر » للمرة الأولى أو ظهر على الأقل بمعناه الذى نفهمه منه الآن . ومن المعقول جداً أن يكون العرب قد أخذوه عن اللاتينية مع تغيير معناه ، إذ يذهب جسل S. Gsell إلى أن أصله لفظ Barbari الذى كان الأفارقة اللاتينيون يطلقونه عادة على الأهلين ، وهذا الرأى لم يصبح بعد قضية مسلمة نظراً لصمت المراجع[2] ، وتفطّن العرب إلى نظام البربر البدو وإلى انقسامهم قبائلَ وبطوناً ، فأخذوا يقسمونهم على مثال تقسيمهم

---

(١) شمال برقة يسكنه Asbystes - Barcytes - Ghibigammes
جنوب برقة وطرابلس : الليبيون Libatai وحرفه العرب إلى لواته
واحات برقة وطرابلس وبعض نواحى خليج سدره يسكنه Nasamons
بقية ساحل سدره : Makés ، Psylles
المغرب الأوسط : النوميديون
تونس : Zonakes, Libo - Pheniciens
المغرب الأقصى : Maures . . الخ أنظر Mercier, vol. I, p. xvii - xvii

(٢) ربما جاز الأخذ برأى چوتييه وجسل ، لأن آراء نسابة العرب والبربر ومؤرخيهم فى ذلك الموضوع ضعيفة جداً ، فالغالبية منهم على أن « إفريقش بن قيس بن صيفى من ملوك التبابعة لما غزا المغرب وإفريقية وقتل الملك جرجيس وبنى المدن والأمصار ، وباسمه زعموا =

هم — أى العرب — إلى قبائل تتفرق فى نواحى البلاد ، وتجتمع إلى جد أكبر اخترعوا له إسماً مشتقاً من اسم الجنس : سموه — بُر بن قيس[1] ، وكما انتظمت القبائل العربية كلها فى جذمين عظيمين : قحطان وعدنان فقد قُسمت قبائل البربر كلها قسمين : قسم ينتسب إلى مادَغيس بن بر الملقب بالأبتر فسموا البتر ، وقسم ينتسب إلى بُرنس بن بر فسموا البرانس .

هـذا التقسيم مقبول على علاته ، بل هو أدل على أحوال البلاد وأكثر اتفاقا مع طبيعة نظام أهلها الاجتماعى من أى تقسيم آخر ، واتباعه يلقى ضوءاً كشافا على كثير من أحداثها ؛ ولكن المبالغة فى الاعتماد عليه ربما أدت إلى الخطأ ، ولهذا لم يكن جوتييه على الصواب حين حاول أن يفسر كل أحداث التاريخ المغربى على هـذا الأساس أى على أنه نزاع بين البتر والبرانس ، أى بين البدو والحضر ، وفاته أن ابن خلدون لم يجعل البتر كلهم رحلا ، ولا البرانس كلهم حضراً مستقرين ، وإنما كان تقسيمه نسبياً فقط لا علاقة له بحال القبائل الاجتماعى أو نظام قبائلها ، وآية ذلك أنه — أى ابن خلدون — جعل زناته أكثر قبائل البربر حضارة وعمراناً ، وزناته بترية فى الأصل[2] ، ثم إن نسبة الحضر إلى البدو قليلة جداً ،

= سميت إفريقية — لما رأى هذا الجيل من الأعاجم وسمع رطانتهم ، ووعى اختلاطها وتنوعها تعجب من ذلك وقال : ما أكثر بربرتكم فسموا البربر » كما يقول ابن خلدون ، وهذا تعليل ضعيف غير مقبول نقـده ابن خلدون نفسه فقال : « والبربر معروفون فى بلادهم وأقاليمهم متميزون بشعارهم من الأمم منذ الأحقاب المتطاولة قبل الإسلام ، فما الذى يحوجنا إلى التعلق بهذه الترهات فى شأن أوليتهم ويحتاج إلى مثله فى كل جيل وأمة من العجم والعرب » أنظر Gautier p. 190 - 191 وابن خلدون ، ج ٦ ص ٨٩ — ٩٨

(١) وقيس هذا هو الذى هاجر بالبربر من بلاد العرب ، وهو الذى عرف بإسم إفريقس ؛ وذهب البكرى إلى أن تسميته بهذا الإسم الأخير سببها أنه « كان اسمه قيساً فلما ابتنى إفريقية أضيف اسمه إلى بعض اسمها فقيل : إفرى قيس (أى إفريقيس) البكرى . معجم ما استعجم ج ١ ص ١١٦ طبعة وستنفلد .

(٢) اعترض الأستاذ وليم مارسيه على جوتييه فقال : أن البتر والبرانس ليس معناها =

فالبربر الحضر بضع قبائل قليلة قريبة من مراكز العمران فى الشمال ، والبدو بقية البربر .

وزناته فى الأصل قبيلة من قبائل البدو أخذت تظهر ويقوى أمرها فى العصر الإسلامى ، وكانت منازلها الأولى وسط المغرب والصحارى المحيطة به من الجنوب ، وكان الزناتيون — بحكم حياتهم الصحراوية وابتعادهم عن غيرهم من القبائل — يعيشون فى شبه عزلة ويتحدثون بلغة خاصة بهم ، فلما دخل الإسلام البلاد كانوا من أول القبائل اعتناقاً له . وقد علل جوتييه ذلك بما بينهم وبين العرب من شبه ، ولكن العرب أخطأوا فى السياسة التى اتبعوها معهم فعسفوهم وأرادوا أخذهم بالشدة ، فلجأت زناته للثورة وانضم إليها غيرها من القبائل الناقمة على العرب ، ولما كانت هى أقوى هذه القبائل فقد بدأ اسمها يطغى عليها ، وبدأت القبائل الصغيرة تدمج فيها فكبرت بمرور الأيام ، حتى أصبح اسمها يطلق على قبائل البتر جميعاً ، فصار البربر الذين يسكنون مناطق العمران الداخلية التى تمتد من غدامس فى الشرق حتى تازا وسجلماسه فى الغرب يسمون زناته ، وبلغ الأمر إن ابن خلدون جعل زناته فرعا من البربر قائماً بذاته [1] . ومن هنا أخطأ بعض الباحثين فجعلوا زناته فرعامن البربر مستقلا يختلف عن البرانس والبتر كليهما . فمرسيه مثلا يقسم البربر إلى أجناس ثلاثة : بربر الشرق أو جنس لوا ، وبربر الغرب أو جنس صنهاجه ، وجنس زناته [2] .

= البدو والحضر ، وإنما هو تقسيم اصطلاحى فقط وضعه نسابة العرب والبربر . وذهب إلى أن لفظ الأبتر ربما أريد به العارى من الثياب وبرنس أريد به لابس البرنس أى المتدثر ، راجع R. Basset, Berbèrces فى (Enc. de l'Islam) Mercier: I, pp. 17-18. Gautier pp. 190 - 214.

وابن خلدون ج ٦ : ص ص ٨٩ — ١١٤

(١) وقد ذكر السلاوى فى نسب زناته أن جدهم «زانا بن يحيى بن ضرى بن زحيك بن مادغيس الأبطر» أى أنه ومادغيس الأبطر سواء أى أن زناته هم البطر : الاستقصا ، ج ١ ص ٣١

(٢) مرسيه ج ١ ص ١٨١ و ١٨٢

الباب الأول

إفريقية البيزنطية

أفريقيـــة البيزنطية

الدولة البيزنطيـــة بعـــد جستنيان

حلقت بيزنطة على جناح الخيـال أيام جستنيان زماناً قصيراً ، وترامى بها الطماح الخادع حتى أخرجها عن الحد المأمون ، إذ أراد لها جستنيان بعثاً جديداً تعيد به عهد روما فى أوجها ، فمضى يجد بها فى المسير لإدراك تلك الغاية حتى أجهدها وهى شـيخة تتهادى نحو القبر ، فلم تلبث علائم الانحلال أن تمشت فى كيانها المتداعى ، وجستنيان بعدُ يقضى سنواته الأخيرة بين أحزان الشيخوخة وآلام الفشل .

« ثم إنه لم يكد ينتقل إلى الدار الأخرى ، حتى بدأت ثمرات جهوده تصفى تصفية محزنة ، فأعلنت الدولة فى الداخل إفلاسها ماليًّا وحربيًّا ، وجثم على صدرها شبح الفُرس مخيفاً لا يردّ ، وما هو إلا قليـل حتى انهال على الدولة طوفان الغزو العربى ، ولم تكذِّب المنازعات الدينية أن أقبلت مسرعة تزيد الفوضى السياسية سوءًا على سوء ، فهذا القرن السابع (٦١٠ — ٧١٧ م) يعـد من أسود عصور الدولة : عصر أزمة حادة ، وفترة حاسمة كان مصير الإمبراطورية نفسها خلاله فى الميزان »[١] ، وربما كانت سياسة جستنيان نفسها سبباً من أسـباب ضعف الدولة واضمحلالها ، فقد فرق جهدها وأقام على ظهرها حملا ثقيلا لم تلبث أن ناءت به فهوى إلى الأرض مبعثراً مفككا .

وكانت أفريقيـة جزءًا من ذلك الحمل الثقيل ، استعادها جستنيان فى بضعة شهور على يد قائده الماهر بلزاريوس — ، فلم يكد يغلب من بها من حطام الوندال حتى أعلن أن أفريقية قد ردت إليه ، وبعث إليها من القسطنطينية بالقوانين والأنظمة والقيود مما لا يتفق مع طبيعة البلاد ، فكانت قوانينه فاصلا بين الحاكم والمحكوم ، لا سبباً من أسباب الاتصـال بينهما ، ولم يلبث الأفارقة أن عصوا

---

(١) Ch. Diehl; Pyzance, Grandeur et Décadence, p. 8.

قانونه فسارع إليهم يرغمهم على طاعته ، فبدأ النزاع الذى أصبح خصومة مشبوبة لا يكاد يخمد أوارها بين الروم وأهل البلاد وأصبح مع الزمن مدار تاريخ افريقية خلال القرن الذى انقضى بين وفاة جستنيان و إشراق شمس الإسلام عليها .

وكان للدين مكانة من اهتمام الروم حكومةً وشعباً ، وكانت بيزنطة كلها من الإمبراطور إلى أصغر رعاياه يغرمون بجنون الخصومات الدينية غراما شديداً ، ولا نزاع فى أنه من العبث أن نظن أن الباعث الوحيد على منازعات العقائد التى لا آخر لها ، والتى أثارت أشد الاضطرابات فى التاريخ البيزنطى ، كان مجرد ميل الشعب للخلاف وشغفه بالمناقشة الفارغة أو ولع الحكام بالتشريع ورسم العقائد ، إذ كان الغالب أن تخفى المنازعات الدينية تحتها آراء وخصومات سياسية شتى ، وكان صالح الدولة لا مجرد الرغبة فى التجديد فى الدين ، هو الدافع للأباطرة إلى ما أتوا من الأمر فى كثير من الأحيان [1] .

وكان الانحلال الاجتماعى دليلا آخر على ما كانت الدولة تعانيه من الآلام فى هذا العصر العصيب ، فقد كانت نفوس الناس قد وهنت ، فلم تستطع هممهم أكثر من الإنصراف إلى منازعات الخضر والزرق وما يتصل بها من مباهج الملاهى وعبث الملاعب ، حتى قيل إن هذه الأخيرة « كانت مرآة الحياة الاجتماعية اليونانية طوال العصور الوسطى [2] » ، فكان الأباطرة أنفسهم أسبق الناس إلى حلقات الملاعب والمسرات ، وكان النساء كذلك سباقات إليها يخالطن الرجال فى تبذل انتهى بالمجتمع كله إلى التدهور السريع ، ومن هنا نشأت الدسائس والمؤامرات التى تتصل بهذه الألوان من العبث فنخرت عظام الدولة الواهنة ، وأخذت دائرتها تتسع حتى شملت بلاط الإمبراطور ، فأحالته مسرحاً لكثير من الخصومات والجرائم والآثام . وكلما

---

(١) Diehl, Byzance, p. 8

(٢) Ibid. 121

انتصر فى القصر حزب ارتفعت له فى نواحى الدولة أعلام بعضها الأنصار و بعضها مذاهب مختلفة فى الدين والسياسة ، وكلما مات حاكم نزل البلاء بأشياعه وأتباعه ومناصريه فى العقيدة والرأى وندمائه فى المباهج والشراب .

ففى هذا البلاط الذى يعج بالخصيان والنساء وكبار الموظفين — الذين لا عمل لهم — كانت المؤتمرات دائرة بدون انقطاع : فى مخادع النساء وفى مساكن الحرس، يتدافعون كلهم للقضاء على صاحب الحظوة فى يومه ، وكل السبل مطروقة لاحرج فيها : من ملق واتهام بالباطل و بذل للمال و إزهاق للأرواح ، فكانوا يدبرون فى الظلام مصرع الوزير بل مصرع الإمبراطور [1] .

وكانت بيزنطه نفسها لا تكاد تقاس فى المساحة إلى ما تملك من أرضين ، وكلما ازداد بها الضعف انسلخ عنها جزء وتقطعت بينها و بينه الأسباب ، وكلما اشتد ساعد جار اقتطع منها على قدر ما تستطيع سيوفه ، حتى إذا كان القرن السادس واشتد ساعد الفرس أقبلوا ينهبون أرض الدولة انتهابا ، فاقتطعوا أكثر آسيا الصغرى والشام ومصر ، وأخذوا يستعدون للمضى إلى شمال افريقية ، فلم يكن للدولة بد من أن تبذل ما قد بقى فى كيانها الواهن من قوة لتدفع خطرهم ، حتى إذا تمكنت من ذلك على يد هرقل ، لم يبق لها بعد ذلك من القوة ما يقيمها على أرجلها ، إذ كانت الحروب قد كلفتها الثمن الغالى ، فأنشأت تعتصر دماء من بقى لها من الرعايا حتى كادت توردهم موارد التلف و بدأوا يحتجون ويعترضون ، فلجأ الحكام إلى العنف يقضون به على ما بدا لهم من بوادر الاضطراب ، فاشتد الحقد وتأصلت الكراهية بين الجانبين ، ولم يكد الفريقان يحسان بما بينهما من خلاف بسيط فى مسائل الدين ، حتى خُيِّل لهم الحقد الدفين ان الخلاف بعيد يتناول كل مرافق الحياة ، فنشبت الفتنة وأهوى الحاكم على رأس المحكوم

---

(1) Diehl, Byzance, pp. 151 - 4

بسياط الظلم ، وأبى المحكوم أن يجيب أو يطيع ، فعظم الاضطهاد وسالت الدماء ، واشتعلت بعض نواحى الدولة كمصر وافريقيــة بهذه النار الحامية ، فأتت على ما فيها ، وحقت على افريقية قالة كوريبوس التى أجمل فيها وصف البــلاد بقوله fumans perit Africa flammis أى أن افريقية التى كان يتصاعد منها الدخان كانت تختنق بين ألسنة النيران .

أفريقــية البيزنطيــة

كانــ جستنيان يرجو لإفريقية من وراء جهوده خيراً كثيراً ، ويبدو أنه كان على شىء من العلم بطبيعتها،فأفردها من بين ولاياته بنظام خاص دقيق ينطوى على الحذر الشــديد من أهلها ويرمى إلى جعلها مورداً من موارد المــال والمئونة للدولة ، فلم تكد بشائر الفتح ترد عليــه حتى رفع افريقية إلى مصــاف ولايات الدولة الكبرى ، وأقام على حكومتها عاملا مدنياً لا عسكرياً [١] ، وذلك حتى « يعبر عن عطفه الخاص على هذه الولاية — التى رحب مسروراً بعودتها إلى أحضــان الإمبراطورية — ويؤكد لأهلها حسن نيته نحوهم ، ويظهر الأهمية التى يعلقها على تخليصها من الأسر الوندالى [٢] » .

وكانت افريقية البيزنطية لا تشــمل المغرب كله من حدود مصر إلى المحيط ومن البحر إلى قلب الصحراء ، وإنمــا كانت جزءاً صغيراً يبــدأ من حدود مصر ويضم برقة وطرابلس وحوض مجرد (تونس الحالية) وجبال الأوراس ، ثم يأخذ فى الاقتراب من الساحل حتى ينتهى عند طنجه وسبته [٣] ، أما فى الجنوب فلم يكن

(١) كانت أفريقية معتبرة ولاية عسكرية تابعة لإيطاليا فى التنظيم السياسى للدولة الرومانية يحكمها Proconsul فجعلهــا جستنيان ولاية مدنية مثلها مثــل بيزنطه نفسها يحكمها مدير Praefect واختار لها والياً من أقدر ولاة الدولة هو ارخلاوس Archelaos الذى كان حاكما لولايتى بيزنطه والبلقان وهذا يدل على عظيم اهتمامه بأمرها

(٢) Cod. Just. I, 27,1,8. Diehl: L'Afr. Byz. 97

(٣) ذكر جوليان أن جوستنيان أقام فى سبته حرساً هاماً ؛ وذكر كذلك أن أقصى حدود افريقية البيزنطيه كان عند أعمدة هرقل أى على مقربة من سبته الحالية أنظر : Julien, Hist. de l'Afr. du Nord, p. 297.

يتعدى نصف امتداد افريقية الرومانية ، فكان أقصى إتساعه سهل مجرد وهضبة الأوراس ووقفت حدوده الجنوبيــة عند تبســه Tebessa ومسكولا Mascula وتمجاد Thamugadi ولمبـيزه Lambeisis وطبنه Tobna والمســيله Msila أما فيما عدا ذلك فكانت حدوده ملاصقة للســاحل لا تكاد تتعدى أرباض الموانى من أمثال تيفش Tipasa وقيصريه Caesaria وتانس Tenes ووهران Oran[1] .

وكانت البلاد مقسمة إلى سبعة أقسام إدارية هى :

ا — الولاية القنصلية (شمال تونس الحالية)	Proconsularium	يحكمها قناصل Consulaies
ب — الولاية الداخلية (بيزاسيوم)	Byzacium	
حـ — طرابلس	Tripolitania	
ء — نوميديا (إلى قسطنطينيه)	Numidia	يحكمها مديرون Praesides
هـ — مرطانية الأولى	Mauritania Sitifiensis	
و — مرطانية الثانية وتشمل	« Cesariensis	
(شمال مراكش)	« Tingtana	
ز — سردانيــه		

وقد امتد سلطان الدولة فى أول الأمر إلى أبعد من هــذا الحد الرسمى فدخل فى طاعتها نفر من بدو البربر الضاربين على حدود الصحراء ، وأقيمت المحارس على طول الرباط الأخــير لكى تضمن طاعة هؤلاء للدولة وترد عنها أذاهم ، ولــكن سلطانها أخذ يضعف شيئاً فشيئاً ، فأخــذت تنسحب إلى الشمال ، حتى لم يبق من أملاكها آخر الأمر إلا ساحل ضيق ويضع محارس حصينة فى الداخل ، مثل تبسه وسُبَيْطِله ، واحتل البربر ما خلا ذلك من الحصون .

---

(١) راجع الخريطة رقم ١ وقد عملت بناء على ما ورد فى كتاب ديل عن أفريقية البيزنطية

وكانت برقة البيزنطية لا تكاد تعدو مدائنها الخمس[1] ، وكذلك طرابلس لم تعدُ ثغورَ الساحل مثل صُرت Syrta وطرابلس نفسها وصَبره وقابس .

الإدارة البيزنطية فى إفريقية

جمع جستنيان لحاكم إفريقية كل السلطات ، فكان هذا الحاكم يحمل من تبعات الحكم فوق ما يطيق ، وكان مثقلا بالألقاب وشارات الشرف ، يرافقه جيش من الموظفين ويحف به الأتباع والخدم[2] ، وأطلقت يده فى كل شىء حتى بلغ من اتساع سلطته « أن كُتّاب ذلك العصر أعوزهم اللفظ الذى يعبرون به عن السلطان — الذى لا حد له — الذى كان يتمتع به ذلك الحاكم »[3] .

كان هذا الحاكم مكلفاً بأن يجمع من الولاية مالاً طائلا ، لأن جستنيان أراد أن يسترد ما أنفقه فى فتحها ، وكان يرجو أن يستعين بما يأتية منها على إتمام ما يريد من فتوح وإقامة ما يحب من أبنية ، وكان عليه كذلك أن يرسل إلى العاصمة فى كل عام عدداً من السفن المحملة بالغلال لغذاء أهل القسطنطينية ، ولهذا كان لا بد له من عدد كبير من الموظفين لتحصيل هذه الضرائب كلها ، فكان العبء ثقيلا على ولاية فقيرة كأفريقية[4] ، وقد حفظ لنا المؤرخون البيزنطيون قوائم مفصلة بهؤلاء الموظفين واختصاصاتهم ، « وهى — أى القوائم — تشبه أن تكون دليلا لوزارة من وزاراتنا تعج بالموظفين، وقد انتشروا من العاصمة إلى الأرياف

---

(١) هى كما ذكرها دى سلين فى تعليقه على الترجمة الفرنسية للبكرى Cyrene, Barca, Tenchera (Arsinoe) Berenice, Appollonias, J.A. 1858 p. 422 note 3

(٢) Caudel, I. p. 23

(٣) Diehl, L'Afr. Byz. p. 98

(٤) يكفى لتصوير ثقل هذا العبء أن نورد التقدير الذى أورده ديل لمرتباتهم مقدرة بالفرنك (بحسب سعره قبل الحرب الكبرى الأولى) فقال إنها كانت تبلغ ١٠ر٢٩٩ر٧٣٧ من الفرنكات أى نحو نصف مليون من الجنيهات المصرية ، وهذا لمرتبات الموظفين فقط غير ما يرسل للامبراطور وما يدفع جعالات لرؤساء البربر. وما يجمع من القمح ، ثم نفقات جيش الاحتلال ونفقات المبانى والحصون والأسوار ودور الصناعة : Diehl, Op. Cit. p. 106

كذلك ، فضمت كل مدينة فرقة منهم ، وقام فى كل قرية واحد [١] . وما دامت الأعباء المالية ثقيلة على هذه الصورة ، فلم يكن فى إمكان الحاكم التفرغ للقيام بشئون الحكم الأخرى ومراعاة مصالح المحكومين ، فانصرف جهد الحكومة كله إلى جمع المال ، ومن البديهى أن تعجز الولاية عن النهوض بذلك العبء الثقيل ، فلجأت الحكومة إلى أخذ السكان بالعنف للحصول على مالها بالضغط والإرهاق ، فاشتطت مع رعاياها اشتطاطاً بالغاً ، فلم يجد هؤلاء بداً من ترك مزارعهم ومتاجرهم والنجاة بأنفسهم واحتراف اللصوصية وقطع الطرق والاعتداء على الآمنين ، ولم تنشأ هذه المساوىء فى نهاية العصر البيزنطى أو بعد أيام جستنيان ، بل بدأت فى أيامه ، وآية ذلك قوانينه التى كان لا يكف عن إصدارها محذراً عماله من إرهاق الرعية ، حاضاً إياهم (فى نفس الوقت) على الاجتهاد فى تحصيل المال [٢] .

هكذا كانت حكومة افريقية البيزنطية مليئة بالنقص والأخطاء من أول الأمر ، وقد كان معقولا أن يصلح هذا النظام فى بلد غنى كمصر تكفى موارده لسد هذه المطالب كلها ، أما إفريقية الفقيرة فلا قبل لها بذلك ، فكان مقدراً لهذه الحكومة

---

(١) Diehl, Op. Cit p. 23.

(٢) « ليعرف رعايانا جميعاً أننا أصدرنا هذا القانون لأننا معنيون بمصالحهم مهتمون بأن يكونوا بمنجاة من كل حيف ، وبأن يعيشوا فى رخاء ، وإنما ينبغى عليكم — يا رعاياى — نظراً لما تعرفونه من عظيم رعايتنا لكم أن تؤدوا الضرائب العامة بإخلاص شديد ، دون حاجة إلى استعمال العنف الإدارى وأن تظهروا من الطاعة ما يؤكد صدق الولاء والاعتراف بالجميل الذى تقابلون به عطفنا » Diehl, Op. Cit. p. 116.

« وكان نظام الضرائب فى إفريقية البيزنطية يدل على استقصاء منظم شامل لكل موارد البلاد ، فتتبع المشرع ، الثروة الخاصة فى كل ناحية وأثقلها بالمال ، ففرض على الممتلكات العقارية ضريبتى Tributum و Captio وقدرت الفروض المختلفة على الزراعة والتجارة والجمارك والملاحة ، وبلغ من اهتمام الحكومة بالضرائب أن كان خمسا الموظفين مختصين بالتحصيل وأكثر من النصف يقومون بشئون المال » Caudel, I, p. 24.

ولأى حاكم يقوم بأمرها الفشل التام ، مهما أوتي من الحذق والمقدرة ، ولعل ديل لم يخطىء حين علق على هذا النظام بقوله: « وإنه لما يؤسف له أن كان بين آمال الإمبراطور الخادعة المتفائلة وحقيقة الأشياء بون شاسع »[١] .

وقد أحسن كودل إذ وصف هذه الإدارة بقوله: «كانت الضرائب هي الغاية الوحيدة التي ترمي إليها الحكومة ، بل كانت هي علة وجودها sa raison d'être وسبب حياتها ، إذ كان من الضروري توفير الأسباب لحماية البلاد بالجند والحصون ودفع الجعالات لرؤساء الأهالي الذين عجزت الحكومة عن التغلب عليهم ؛ كان لابد من حراسة البلاد على هذا النحو حتى يتيسر الاحتفاظ بها والاستمرار في جباية الضرائب ، وكان النصير قد جعل هذه الضرائب عبئاً ثقيلا يغض أهل البلاد في حكامهم ، وكان لزاماً على البيزنطيين أن يظلوا على الحذر من هؤلاء الخصوم الأقوياء حتى يأمنوا جانبهم ؛ ولهذا انتهجت الدولة في تنظيم افريقية البيزنطية — من الناحية العسكرية — خطة جديدة تختلف عما اتبعته في ولاياتها الأخرى كمصر والبلقان : فالمعروف أن القوة الحربية البيزنطية التي كانت تحمي مصر مثلا كانت تعسكر في مراكز رئيسية مثل بابليون والإسكندرية ، وترابط فرق صغيرة منها في مواضع أخرى كالفرما وتندنياس (أم دنين) ، أما في إفريقية فقد اتجهت عناية الدولة إلى إحاطة أملاكها برباطات قوية من الحصون المتقاربة ، وأقامت في كل مربط طائفة من الجنود تستطيع حمايته والدفاع عنه ، وأسرفت الدولة في ذلك إسرافا يسترعي النظر ، فلم تكتف برباط واحد بل أقامت ثلاثة ، وقسمت البلاد إلى أربع مناطق عسكرية لكل منها عاصمتها التي ترابط فيها فرقة يقودها قائد أو دوق Dux [٢] ، فأصبحت البلاد شبكة من الحصون

---

(١) Diehl, op. cit. p 34

(٢) هذه الأقسام هي : طرابلس وعاصمتها لبدة Leptis Magna =

والقلاع ، ولما كانت الموارد ضئيلة لم يكن فى الإمكان المحافظة على هذه التحصينات فى حالة طيبة ، بل عجز الروم عن مجرد الاحتفاظ بها ، فإذا عرفنا أن هذه المنشآت لم تكن متينة البناء — إذ أقيمت على عجل — استطعنا أن نعرف مدى قوة هـذا النظام الدفاعى لإفريقية البيزنطية[١] . وقد روعى فى اختيار مواقع هذه الحصون أن تكون محارس تقوم على أبواب البلاد ومنافذها[٢] : فقامت قابس على باب سهل تونس تصد من يقبل مساحلا من الشرق، وتليها حصون أخرى على الساحل مثل يونكا Yunca ومقمداس Macomades، وقامت سُبيطُله Suffetula على أحد المنافذ المطروقة التى يسلكها من يريد الانتقال من سهل تونس إلى هضبة الأوراس ويمر بها الرباط الثانى الذى يبدأ من سوسه ويمر بمدرسومة Madarsuma وثِلِيت Thelepte ويلى ذلك الرباط الثالث الذى تقوم فيه سَبيبَه Sufes وممس Mamma وجلولاء Couloulis .

= الولاية الداخلية (بيزاسيوم) وعاصمتها Thelepte وقفصه
نوميديا وعاصمتها قيصريه Caesarea
مرطانيه وعاصمتها قسطنطينية

١) اعتمد البيزنطيون فى إقامة هذه الحصون والقلاع على ما كان قائماً فى البلاد قبل ذلك من المنشآت الرومانية كالحمامات والملاعب والمعابد ، فلم تكن منيعة قوية كما يتصور الإنسان لأول وهلة . وسنرى مثلا من ذلك حين يحاصر العرب حصن الجم Thysdrus فى حملة عبد الله بن سعد (أوائل سنة ٢٨ هـ ٦٤٨ م) ، إذ تبين الروم المحصورون به عدم صلاحيته للدفاع ، إذ كان أصله ملعباً (طياطر) تحيط به العقود والحنايا ، فسلموا على عجل . وفى صفة هذه الحصون يقول كودل « استحالت معابد سبيطله الثلاثة حصوناً، وتحولت الأبنية فى كل مكان إلى معدات للدفاع، وقد تهافت البناة على خرائب المدن التى وجدوها فى طريقهم بدون احترام لما وقع فى أيديهم منها ، فأخذوا من الملاعب القواعد الفاخرة مع ما تحمل من تماثيل ، ومن المعابد الأعمدة وقواعدها وعقودها ومن المدافن أحجارها الرخامية : Caudel, II, p. 18

(٢) وقد أوجز جوليان وصف هذا النظام الدفاعى بقوله « أنشأ البيزنطيون سلسلتين من الحصون ، أما الأولى فسلسلة من الاستحكامات تربط المحارس بعضها ببعض ، وخلفها سلسلة من المدائن الحصينة التى كانت تستعمل دائماً ملاجىء للناس » وربما كان قول الأستاذ « أن الرباط البيزنطى كان يمثل القوة الرومانية فى حالة اضمحلالها تحت ضغط الهجوم الجديد الآتى من الصحراء » إيجازاً لطيفاً لحالة البلاد الحربية إذ ذاك Julien, op. cit.: p. 297.

طبيعى بعد ذلك أن تكون إفريقية البيزنطية ضعيفة من الناحية الحربيــة . وكلما تقادم العهد بالروم فى افريقية زاد الضعف وضوحاً وخطراً ، وكان أهل البلاد يلاحظون تخوف البيزنطيين منهم ، ولا يكادون يتركون فرصــة للاشتباك معهم إلا انتهزوها ، فزاد الأهــلون مرانةً وخبرة فى حين ضعف البيزنطيــون وسقطت هيبتهم، واضطروا إلى التخلى عما عجزوا عن الدفاع عنه من هذه المحارس والحصون، حتى إذا أذّن القرن الســادس بالمغيب كان البربر قد استولوْا على الرباط الثالث وأنشأوا يطمعون فى الرباط الثانى ، وكان قيام الروم بمحارس هذا الأخير إسمياً فقط إذ تركت العناية به لمن أحاط به من الزراع يعتصمون فيه من المهاجمين من البربر ، ولم يكفـ هؤلاء عن اختراق هذا النطاق واجتياح مايليه من المزارع والبــلاد ونهبها ، بحيث لانخطىء إذا قلنا إنه لم تعد له قيمة حربية تذكر منذ أوائل القرن السابع الميلادى، واقتربت حدود الولاية البيزنطية من الساحل وأصبح واجب الدفاع عن داخل البلاد منوطاً بالأهالى أنفسهم لابالروم ، بل سنلاحظ فى منتصف القرن السابع أن الضعف ينتهى بالولاية البيزنطية إلى حد تجد نفسها معــه أعجز من أن تدافع عما بيدها ، فيضطر حاكمها البطريق جُرجير إلى التراجع إلى الداخل والاحتماء بالبربر لصد العرب .

وكانت الاضطرابات وكثرة الثــورات البربرية قد أحالت حكومة أفريقية البيزنطية إلى منطقة عسكرية يحكمها قائد حربى Exarcns يلقب بالبطريق، فكان هذا التحول[1] خطوة فى سبيل انفصال افريقية عن بيزنطة ، لأن الحكام العسكريين الذين يطول بهم البعد مع جندهم عن مركز الدولة يميلون دائمــاً إلى

---

(١) يرى چوليان أن هذا التحوّل بدأ فى عهد چستنيان نفسه ولكنه لم يأخذ شكلا ظاهراً إلا فى أيام جناريوس الذى استطاع أن يخمد ثورة البربر فى سنة ٥٨٢ فكان بهذا أول الحكام العسكريين Julien, op. cit. p. 209

الإنفصال و إعلان الاستقلال ، وهذا ماحدث فى إفريقيـة : إذ لم يكد البطريق جرجوريوس (جُرجير) يختلف مع الدولة حتى ثار بها واستقل عنها وأعلن نفسه امبراطوراً وكان هذا قبيل الفتح العربى .

العلاقات بين الروم وأهل البـلاد

كان الروم على حق حين اتخذوا الحذر لاتقاء شر البربر، ولـكنهم كانوا مخطئين إذ بالغوا فى ذلك مبالغة أشعرت الأهلين بخوفهم وأوجدت بين الجانبين — من أول الأمر — شعوراً من العداء. والكراهية كان بعيد الأثر فى مستقبل الحكم البيزنطى فى شمال أفريقيـة ، فكانت الاستحكامات الحربية الكثيرة والجيوش المتنقلة والثابتة إيحاء للحاكمين بالاستبداد والاعتماد على القوة فى معاملة أهل البلاد ودافعاً لهؤلاء إلى أن يقفوا موقف العداء من الروم وكل ما يتصل بهم من حضارة ولغة .

وكانت الرباطات قد قسمت البلاد قسمين : القسم الأول الساحلى الذى يظهر فيه الحكم الرومى واضحاً جلياً ، وتنتشر فيه الحضـارة واللغة البيزنطيتان ، والقسم الداخلى الذى باعدت السياسة الرومية بينه وبينها فبقيت فيه القبائل البربرية محتفظة بما لها من القـوة والشخصية والاستقلال ، بل أخذت بكثرة الاحتكاك بالروم والصراع معهم تتعلم منهم وسـائل جديدة فى الحرب حتى أصبح الصراع بينهما صراعاً بين كفتين متعادلتين تقريباً ، بل كان النصر لأهل البـلاد فى كثير من الأحيان ، فزادت جرأتهم على اختراق الرباطات والهجوم على الولايات البيزنطية واحتلال كثير من الحصون والمحارس ، وكلما انسحب الروم من جزء حل البربر محلهم فيه حتى انتهى الأمر بأفريقية البيزنطية إلى أن تكون شريطاً ضيقاً لايكاد يعدو الخط الممتد من سوسة إلى سبيطلة فى أوسع أجزائه ، أما فيما عدا ذلك فاقتصر على مدائن الساحل وأرباضها وماحولها من المزارع .

وحاول الروم أن يرضوا الأهلين بدفع الجمالات المنتظمة إلى رؤسائهم

— إذ كان المال أقوى وسائل السياسة البيزنطية —[1] فأصبح هؤلاء يعتبرون ذلك حقاً لهم وثمناً لطاعتهم، فإذا انقطع كانوا فى حل من الطاعة ولم يعد عليهم حرج من العصيان ، فكان هذا سبباً من أسباب الشقاق والنزاع، ولو كانت الحكومة البيزنطية قد استمرت على سياسة الحذر واليقظة لبقيت سيطرتها على البلاد قوية لاينال منها شغب الأهلين ، ولكن علة الحكم البيزنطى كانت ضعف الحكام وقلة خبرتهم مما استفز الأهلين إلى العصيان .

كان الأهلون قد استقبلوا الفاتح البيزنطى —أول مجيئه — استقبالا طيباً ، وتوقعوا أن يكون خلاصهم من فوضى الوندال على يديه ، وكان بلزاريوس رجلا قديراً ماهراً فأحسن استغلال ذلك الشعور الطيب ووجهه إلى مافيه خير الحكم البيزنطى، فغمر رؤساء القبائل بالهدايا والأموال ، وطلب إليهم رهائن يحفظها عنده حذراً من غدرهم ، فلم تلبث هذه السياسة أن كسبت ودهم ، فبذلوا له ما أراد من طاعة وقبلوا ماشرط من حدود[2] ، بل قدموا إليه جنوداً تحارب فى صفوف الامبراطورية وسُمح لهم بأن يحيطوا أنفسهم بحرس لخزى من الروم ، فكان هذا احتياطاً له معناه إذ كان وسيلة فعالة للرقابة عليهم وضماناً طاعتهم[3] .

حافظ سليمان—خلف بلزاريوس فى حكم إفريقية—على هذه السياسة الموفقة، بل زادت ثقته بالأهلين فجعل يعتمد عليهم فى إقرار السلام فى المناطق التى يسكنونها ، والمجاورة لهم فأقرّ انطالاس Antalas على رأس قبائل الولاية الداخلية ، ويابْداس على القبائل التى تسكن هضبة الأوراس يعاونه رئيسان صغيران هما كوتسينا وأورتاياس ، وأقرّ ماسونا ماستيجاس على مرطانية بأقسامها[4] .

سارت الأمور على هذا النحو زمناً قصيراً كانت الدولة خلاله تقوم حَكَماً بين

---

(١) Diehl, Byzance, pp. 55-60

(٢) Diehl, L'Afr. Byz. p. 319

(٣) Ibid. p. 320

(٤) Caudel, I, p.21

الأهلين فيما يشجر بينهم من خلاف وربما كسبت حق اختيار رئيس القبيلة في حالة موت رئيسها [1] ، وكثر دخول البربر في جيش الامبراطورية فرساناً ومشاة [2]، فبعث هذا في نفوسهم شعوراً من القوة وعرفهم بأساليب الحرب، ولكنهم آثروا البقاء على الولاء ماحفظت الامبراطورية لهم حقوقهم ، وكان أكثر عمل البربر في فرق الحدود ، يرابطون عندها داخل أرض الدولة مستعدين لقتال من يغضبهم من أعداء الدولة أو رجالها على السواء ؛ ولم يقتصر استخدام البربر على جيوش أفريقية بل رغبت الدولة في الاستفادة من مواهبهم في سرعة الحركة وركوب الخيل ، فأخذت فرقاً منهم حاربت في إيطاليا واشتركت في الحرس الامبراطوري ، وحارب كثير منهم في صفوف الدولة في ميادين فارس [3]؛ وسنرى أن هرقل سيأخذ فرقاً منهم حين يبرح افريقية لإسقاط فوكاس سنة ٦١٩ م .

لم يدم هذا الصفاء طويلا، إذ كان الروم مضطرين إلى الغلو في تقرير الضرائب واستعمال العنف في جبايتها لكثرة ما تستلزمه الإدارة والدفاع والبناء من تكاليف، فأخذوا يتأخرون في دفع أعطيات الجند وجمالات الأهلين ، واشتد ضغط الجباة فارتفعت الأصوات بالشكوى في كل مكان، وأخذت أسباب الاضطرابات تتوافق وتتكاثر ، فأنشأ الجند يشغبون ويغيرون على مزارع الأهلين ويروعون الآمنين، وتحولوا شيئاً فشيئاً إلى طلاب غنم وقطاع طرق، وعجزت الحكومة عن ردهم إلى الطاعة فأصبحوا من عوامل الفوضى والاضطرابات ، وتهاون من بقي منهم على الطاعة في القيام بواجباته العسكرية « فتقاعدوا عن القتال أو تهاونوا فيه أو ادعوا الحاجة إلى الطعام أواصطنعوا التعب واعتذروا بشدة البرد، وإذا ساروا للقتال دخلوا الميدان من غير استئذان وخرجوا منه دون انتظار أوامر قائدهم ، وربما تركوه دون تردد

(١) Diehl, L'Afr. Byz. p. 322

(٢) Ibid. p, 326

(٣) Diehl, op. cit. p. 324

ساعة الخطر[١] ، وكان البربر يرقبون ذلك فتزداد جرأتهم على الحكام وتتحرك الثورة فى نفوسهم ، ولم يلبث الإرهاق الذى أصاب أهل البلاد أن مهد لهم السبيل ليعلنوا ما يضمرون من كراهية وحقد ، وعلة ذلك ما كان من تغافل الحكام الذين تولوا بعد سلامون(سليمان)عن قوة البربر واحتقارهم إياهم ومعاملتهم معاملة العبيد .

بدأ البربر يشكون إلى الحكومة عدوان الجند عليهم وتعديهم على أرضهم ومراعيهم، فردت الحكومة على الأهلين رداً جافياً قاسياً أثار نيران غضبهم إذ قتل الحاكم رجال الوفد الذى انتدبه البربر لإبلاغ الشكوى إليه[٢]،فاستطارت نيران الثورة ، وتصادف ان سليمان كان قد خاصم إذ ذاك أكبر رؤساء البربر وهو أنطالاس رأس قبائل برقة وقتل أخاه ، فثار رجاله واتصلت ثورة إفريقية بثورة برقة وطرابلس وخف سليمان للقضاء على انطالاس فخر صريعاً فى الميدان أمام البربر سنة ٥٤٤ م لأن جنده تخونوه وغدروا به ، وبهذا أصبحت إفريقية بدون حاكم وخرجت عن طاعة الأمبراطورية جملة، فلم يسع الجند الثائرين إلا السير نحو العاصمة والاستيلاء على قرطاجنة برياسة زعيمهم جنفارت .

ولو لم يقيض الله للدولة قائداً أميناً اسمه أرطبان جمع من بقى من الجند على الولاء ، وسار بهم إلى قرطاجنة وهزم جنفارات وأعاد العاصمة إلى طاعة الأمبراطور[٣] ، لاستدعى الأمر غزو البلاد من جديد بل ربما استعصى على الدولة أن تستعيدها .

---

(١) Diehl, op. cit. p. 327

(٢) عين جستنيان ابنى أخ سليمان وهما قيرس Cyrus وسرجيوس Sergius حاكمين على برقة وطرابلس ، وكانا يافعين مترفين منصرفين إلى لهوهما ، فلما قصد وفد لواته أحدهما (سرجيوس) للشكوى إليه من عدوان الجند قتل رجال الوفد كلهم، فلم ينج إلا واحد أسرع يرجف بنبأ الفاجعة إلى القبائل فرفعت علم الثورة .

(٣) ويكفى للدلالة على تحرج الحال وانتشار روح الثورة أن أرطبان هذا رفض أن يكون =

استبانت الدولة أن حكم إفريقية لم يعد بالأمر الهين ، فأخذت تميل إلى الاعتماد على الأساليب العسكرية فى التفاهم مع الأهلين ، وتحولت إفريقية البيزنطية إلى ولاية عسكرية يشرف على أمورها قائد، لكى يستطيع أن يداوم الحرب مع الأهلين ويثبت لهم ، ولكنه لم يستطع أن يردهم إلى الطاعة ، فأخذ بربر انطالاس ينسابون بجموعهم فى أراضى الولاية الداخلية حتى استولوا على سوسة وأخذوا ينهبون ما يجدونه نهباً ذريعاً ، فخلا أكثر المزارع من السكان وتُركت لا يرعاها أحد ، إذ فر المزارعون إلى صقلية أو بيزنطة ، وخلا أكثر المدن من الصناع والسكان ، وتطلب الأمر منقذاً يخلص بالبلاد من هذه الفوضى التى جر إليها فشل الحكم البيزنطى .

لم يبالغ ديل إذن حين تساءل « وأى فائدة للرباط إذن ، لقد عبر البربر الحدود وعدوا عليها ، ونُهبت البلاد وفوجىء الناس وأخذوا أسرى » ؟ بل لم يكن مبالغا حين تساءل عن فائدة الجيش المحتل نفسه إذا كان قد عجز تماما عن رد الأهلين إلى الطاعة وتفوّق البربر عليه تفوقا ظاهراً حتى إن تيودوسوس حاكم إفريقية قتل فى حربه معهم سنة ٥٦٩ م وفى السنة التالية ٥٧٠ م قتل قائد ولاية افريقيا فيوكتيتوس ، ولم يسلم القائد العام لإفريقيا البيزنطية من هذا المصير سنة ٥٧١ .

فشل الحكم البيزنطى إذن فى افريقية وعجزت الدولة عن السيطرة عليها فعلياً فأصبح جندها فى حال أقرب إلى الاستقلال، وبدأ قادتها يفكرون فى الانفصال وإعلان أنفسهم حكاماً بأمرهم .

= حاكما لأفريقية حينما خلع عليه الامبراطور هذا الشرف جزاء له على ولائه، كأنما كان هذا الرجل يعرف قيمة منصب كهذا ، ويعرف أن حاكم أفريقية لا بد مقتول على يد البربر أو على يد الجند أو على يد الامبراطور نفسه .

الحضارة البيزنطية فى البلاد

هذا عن الحالة السياسية . أما عن حضارة الروم فى افريقية ومدى توفيقهم فى نشرها بين الأهلين ، فقد وفقوا إلى بعض ما أرادوا من إعادة الحضارة الرومانية فى افريقية إلى ما كانت عليه أيام الرومان فى مدائن الساحل ومايتصل بها ، وبذلوا جهداً كبيراً ليعمروا الولاية الداخلية والنواحى المهجورة فى الأوراس ، فازدهرت زماناً فى أوائل حكم جستنيان ، ولكن الاضطرابات وثورات الأهلين ومساءات الحكام ما لبثت أن عدت على ذلك فأعادته خراباً كأن لم يغن بالأمس . أما بلاد الداخل — فيما وراء الرباط — فلم يمسسها الروم بتغيير كبير ، فظلت على حالها يقيم فيها أهلها من البربر ، ويهمون منها للاغارة على ما يجاورهم من مراكز العمران ، ويعتصمون فى جبالها وشطوطها من الروم .

وقد ازدهرت الأساليب المعمارية البيزنطية فى البلاد ووفق المهندسون إلى إقامة كثير من القصور والحصون والكنائس البيزنطية الطراز ، ولا زالت آثارها باقية فيما أخذه المسلمون من بقاياها واستعملوه فى إنشاء مساجدهم كما فى مساجد القيروان وسفاقس وسوسة التى أخذ الكثير من أبوابها وأعمدتها ونوافذها من مبان بيزنطية ، ولا زالت النقوش الباقية على هذه المعاهد تشهد ببراعة روم إفريقية فى التصوير والزخرفة والتصميم (١) ، ولا نزاع فى أن الطرز المعمارية والزخرفية الإسلامية تأثرت فى شمال افريقية بهذا التراث تأثراً ظاهرا ، بل يذهب ديل إلى أن الملاحظ لا يعدم فى بعض آثار المناطق التى لم يصل إليها الحكم الرومى لمحات لطراز افريقى بيزنطى أصيل. وآثار افريقية البيزنطية غنية بالقاشانى المزخرف الذى يبدو أنه كان شائع الاستعمال فى مبانيها ، مما يدل على أن الصناع الأفارقة بلغوا فى إجادته مبلغا عظيما، ولا تقتصر قيمة ما وجد من هذا القاشانى على الدلالة على

(١) أنظر اللوحات الخاصة بمساجد عقبة والزيتونة وحمودة باشا وزخارف القاشانى الواردة فى كتاب G. Marçais, Manuel d'art musulman, l'architecture. vol. I (1926), II, 1927.

مبلغ روم افريقيــة فى إجادته ، بل إن نقوشه ورسومه لتدل على نواحٍ كثيرة من حياة أهل البلاد كتصاوير الملاعب واللاعبين وملابس الرجال والنساء . .

الأدب

وكان لافريقية الرومانية ماض مجيد فى عالم الآداب ، ولا زال كاتبها سنت أوغسطين صاحب كتاب « مدينة الله » يذكرنا بذلك العصر الزاهر ، فلاغرابة أن أثمرت جهود البيزنطين فظهر بعض الشعراء والكتاب ، فهذه أشعار كوريبّوس دليل ناطق على ذلك ومعيناً لا ينضب لتاريخ ذلك العصر ، ولكنه لم يكن إلا مقلداً للرومان القدماء متبعاً تقاليدهم ، وربما أخطأه التوفيق فى كثير من الأحيان ، وكتابه « القصائد الجوهانية » تاريخ شعرى لحروب جان تروجليتا مع البربر ، وهو خال من الجمال الشعرى الحقيق الذى هو أساس القيمة الأدبية ، ولكن قيمته ليست بالقليلة ، إذا اعتبرناه وثيقة تاريخية[1] ، إذ أن الرجل استطاع أن يصور فى أشعاره حروب البيزنطيين مع البربر وأساليبهم وملابسهم وعاداتهم فى الحروب وما إلى هذا مما لا غنى عنه فى دراسة تاريخ افريقية البيزنطية . كذلك أخرجت الكنائس عدداً طيباً من الكتاب الدينيين الذين وصلت لنا كتاباتهم ، فكانت وثائق تاريخية جليلة الفائدة لا تخلو من لمحات أدبية صادقة[2] .

---

(١) أنظر : Procopius, Corpus scriptorum historiae byzantinae, Bonnae 838

(٢) أنظر : Gautier, Siècles obscures, pp. 179-187 على أن جوتييه بالغ فى تقليل أثر الرومان فى البلاد ، لأنه إذا كان البربر قد ظلوا بعيدين عن حضارة الرومان ، فقد حفلت البلاد بالمدائن والمستعمرات التى كان يسكنها الرومان الذين أخذوا يجتهدون فى إقامة مظاهر الحضارة اللاتينية حتى وفقوا فى ذلك توفيقاً كبيراً ، وأعانهم على ذلك أن إفريقية نالت حظاً وافراً من العناية منذ أيام سفيروس (٢٢٢ — ٢٣٥ ق م) لأنه كان إفريقى المولد ، وكان شديد الحب لموطنه الأصلى ، فتزوج بزوجة قرطاجنية ، وكان لا يفتأ يعنى بشئون إفريقية وأمورها حتى أصبح للفرق البربرية فى الجيش الرومانى سلطان قوى ، مكنها من عزل خليفته مكسيميان (٢٣٥ — ٢٣٨ م) وإقامة ضابط إفريقى آخر هو جورديانوس الملقب بالأفريقى امبراطوراً . لهذا ارتفع مستوى البلاد الاقتصادى وعمها العمران ، وساد الجزء الرومانى الرخاء ، ودخلتها زراعة الزيتون والكروم =

على أن الإنسان إذا قارن هذه الآثار بمثيلاتها مما كان موجوداً أيام الرومان، لم يسعه إلا أن يقرر أن افريقية البيزنطية ما هي إلا فترة اضمحلال للحضارة الرومانية في افريقية بل لم تكن إلا محاولة مخفقة لإعادة هذا العصر الزاهر.

* * *

وكانت المسيحية قد دخلت البلاد خلال القرن الثاني فوجدت قبولا طيباً، لأن السراة والأغنياء كانوا مستعدين لقبولها، إذ أن الفلسفة كانت قد أعدت عقولهم لذلك كما يقول جوليان. دخل كثيرون من البربر المسيحية ونشرها فيهم رهبان من مصر أو من إيطاليا نفسها، ولكن انتشارها ظل محدوداً أثناء العصور التي نشطت الدولة الرومانية في محاربة المسيحيين خلالها، وعلى الرغم من ذلك أقبل كثيرون من أهل البلاد على الدخول في النصرانية حتى لقد استشهد منهم نفر كبير، وانتشر الرهبان بين البربر فكانت المسيحية سبيلا للاتصال بين الرومان والأهلين، وكانت الكنائس وسطاً صالحاً للاتصال والتفاهم، وبهذا وفق الرهبان فيما عجز الحكام دونه وهو اجتذاب نفر من أهل البلاد.

ولم يقتصر الأمر على سهل الساحل بل اعتنق النصرانية نفر من بربر الأوراس ونوميدية، وانتشرت في إقليم الزاب على الخصوص، وكثر انعقاد المجالس الدينية في قرطاجنة فيجتمع فيها الرهبان والأساقفة يمثلون بلادهم ونواحيهم[١].

= والفواكه. وتبع ذلك نشاط صناعى فى استخراج الزيوت وعصر الخمور وما إلى ذلك. وفى هذه المدائن اللاتينية نشأت مدارس لاتينية تعلم فيها الكثيرون؛ فازدهرت اللاتينية وأصبحت لغة المثقفين فى البلاد، وأقبل عليها سراة البلاد ورؤساء الأهالى فنبغ فيها منهم نفر منهم يوبا المعروف؛ وهذا تراث إفريقية القديمة الفكرى نصفه لاتينى: فكوريبوس صاحب القصائد الجوهانية وصاحب مدائح جستيان وفولجنتيوس فراندوس صاحب حياة القديس فولجانتى أسقف روسبنس Fulgentius Ferrandus . Sanctii Fulgentii Episcopi Ruspensis وبريماسيوس هادرميتوس وسنت أوغسطين صاحب كتاب مدينة الله كل أولئك كتاب لاتين على درجة مشكورة من الإقتدار على النثر والنظم اللاتينيين Julien, op. cit. pp. 162, 187, 791

(١) Julien, op. cit. p. 211

وكان الدعاة والمبشرون لا ينفكون يفرون إلى داخل البلاد نجاة من الاضطهاد والقتل، فرحبت بهم القبائل واتبعهم من أهلها نفر كبير ، ولما كان هؤلاء الهاربون أعداء للرومان ، فقد اهتموا بأن يبثوا فى نفوس الأهلين كراهية الرومان وعداءهم ، وكلما ازداد اضطراب الدولة الرومانيــة وكثرت مساوئها وثقلت ضرائبها ازداد الأهلون لها كرهاً، حتى إذا نشب الخلاف المذهبى بين الأسقف دوناتوس وأسقف قرطاجنة فرّ دوناتوس إلى البربر واعتصم فيهم ، فآزروه وأجاروه ورفعوا علم الثورة على الرومان : ثورة سياسية فى الواقع دينيــة فى الظاهر ، وعبثاً حاولت كنيسة قرطاجنة القضاء على الدوناتية — نسبة إلى دوناتوس — أو تفل غربها .

ولم يلبث الوندال أن أقبلوا فأنشأوا يضطهدون الدوناتيين وأعداءهم معاً لأنهم، أى الوندال ، كانوا أريوسيين[1] .

بهذا تفرق أمر المسيحية فى افريقية ، واختلف أتباعها شيعاً وأحزاباً ، فلم يلبث أن ارتد عنها الكثيرون ، وضعف أثرها فى الداخل فكان على جستنيان أن يحاول نشرها فى البلاد من جديد .

* * *

اهتم جستنيان اهتماما بالغاً بإعادة افريقية إلى المسيحية ، فأعاد بناء كثير من الكنائس وأنشأ بعضها، وشجع البعثات التبشيرية ، فأخذت المسيحية تنشط من جديد وانتشرت بين القبائل البربرية المحيطة بصبرة Sabrata [2] ، وفى طرابلس و بعض نواحى نوميدية مثل وادى شِلف (حول تلمسان) ، بدليل أن أهل هذه الناحية

---

(١) Julien, op. cit. pp. 211, 261

وقد أبان الأستاذ C. A. Scott فى موسوعة الأديان والأخلاق « أن الدوناتية فى حقيقتها خلاف شخصى إقليمى بين طوائف الرهبان ، وأكد أنها ليست هرطقة ولاخروجا على الدين وقرر أن ميدانها كان فى نوميديه وموطانية Encycl. of Religion and Ethics : vol IV, p. 844

(٢) Fournel, Les Berbères, vol I, p. 326

أرسلوا وفداً عظيما من القساوسة ليقدم الطاعة والخضوع إلى الإمبراطور سنة ٥٧٣ م ، وبدليل ما لا يزال باقياً إلى الآن فى منطقة التل المحيطة بوهران من قبور مسيحية على هيأة الأهرام تجللها من الداخل نقوش مسيحية [1] ، بل أن المسيحية تغلغلت فى داخل البلاد ، فأقيمت الكنائس فى واحات مثل أوجله Augila وغدامس Cydamus ، ولا ينبغى أن نغفل الإشارة إلى ما تقرره الرواية العربيـة من وجود قبائل مسيحية فى أثناء الفتح العربى مثل أورَبه قبلية كَسيلة وغمارة فى إقليم طنجه

بيد أن الكنيسة الأفريقية لم تكن خلال العصر البيزنطى على حال يبعث على الأمل فى مستقبل المسيحية فى البلاد ، فكانت إدارتها مختلة النظام إذ تلاشى النظام الكنسي ، واقترف القس ذنوباً كثيرة تدل على العصيان أو التدهور الأخلاقي والفساد [2] ، وكانت الدوناتية وخصومتها المشبوبة مع الكنيسة البيزنطية

---

(١) وفى بناء هذه القبور وفى نقوشها دليل على أن المسيحية لقيت قبولا عند الأفارقة من أهل الساحل والقبائل القريبة منهم فى الأوراس وبعض نواحى نوميدية، وقد علق الأستاذ جوليان على ذلك بقوله: « ويبدو أن إفريقية — التى كان هرقل قد عهد فى حكومتها إلى ابن عمه — قد هدأ أمرها بعض الشىء ، فسارت المسيحية وطاعة الامبراطور فيها جنباً إلى جنب، حتى تركت الأولى أثراً واضحاً فى منطقة الجريد وفى الأوراس وفى الزاب . ولدينا برهان يؤكد أن المسيحية تقدمت فى مرطانية إن لم تكن قد استقرت وثبتت قدمها فيها ، وهو أنه وجد فى ناحية الجدار ثلاثة عشر مدفناً يرجع تاريخها إلى القرنين السادس والسابع الميلاديين على هيئة الأهرام يبلغ ارتفاع بعضها خمسة وأربعين متراً ، وهى قائمة جنوب تاهرت إلى الغرب » ثم أورد الأستاذ وصف داخل هذه المدافن كما أثبتها لابلانشير ثم ختم كلامه بقوله « وهذه الآثار التى بناها عمال رومان وبيزنطيون . تدل — من النقوش التى على جدرانها — على أن عائلة بربرية قوية مسيحية كانت على علاقات — مبنية على الأقل — مع الامبراطورية ، وقد ذكر بروكوبيوس فى حديثه رجلا مسيحياً من أهل البلاد اسمه ماسوناس Masunas كان على اتصال دائم مع سليمان فرجح جسل أن يكون هو هذا الشخص وأن سلطانه شمل كل منطقة وهران ، بل أكد جوتيه أن نفوذه امتد إلى الأوراس ، وكل تلك دلائل تشهد بأن المسيحية قد انتشرت فى هذا الجزء من البلاد ولقيت عند بعض قبائل نوميديه والأوراس قبولا طيباً ، ومما يؤيد ذلك أن هذه الأجزاء كانت نصرانية أثناء الفتح العربى إذ فيها كانت مواطن أوربة وزعيمها كسيله النصرانى Julien, op. cit. pp. 311-312

(٢) Greg. Epist. 9,24—7,342. Diehl, op. cit. p. 506

عاملا آخر من عوامل ضعف هذه الأخيرة ، إذ استطاع دعاتها أن يفروا إلى داخل البلاد نجاة من الاضطهاد؛ وهناك كانوا يثيرون الناس على الكنيسة البيزنطية فيفر منها الكثيرون ، بل أخذ البعض يُعَمِّد نفسه من جديد وفق طقوس الدوناتيين .

وكانت الكنيسة الغربية قد أخذت تنهض نهضة عظيمة فى ذلك الزمن بفضل جهود جريجورى الأكبر ، وكانت الخصومة ناشبة بينها و بين كنيسة بيزنطة ، فوجد جريجورى فى تفرق أمر المسيحية فى أفريقية فرصة طيبة يتدخل بها فى شئون كنيسة أفريقية ليكسب رعاياها إلى صفه ؛ فاستعان بقساوسة ذوى قدرة وشهرة من أمثال دومنيك كبير قساوسة قرطاجنة وكولمبوس أسقف نوميدية ، فأخذ مسيحيو إفريقية يتجهون نحو روما متأثرين بما كان جريجورى يذيعه فيهم من نداءات و بما يبذله قساوسته من جهد و بماحرصت عليه الكنيسة الغربية من إعزاز لأمر الدين و إخلاص فى نشره؛ و بهذا ازدادت العلاقات العامة بين بيزنطة وافريقية ضعفا على ضعف ، [1] ولم يلبث جريجورى أن حوّل هذا السلطان الدينى الذى كسب الى سلطان سياسى ، فأخذ يتدخل فى إدارة شئون أفريقية ويتصدى للدفاع عن المظلومين و إنصاف ذوى الشكاوى فى عصر كثر فيه المظلومون وقل من يسمع الشكوى .

من ذلك الحين أخذت طائفة دينيــة — من أتباع كنيسة روما — تنشأ فى افريقية ؛ وتكسب لمبادئها أنصاراً يعتزون بها و يخاصمون فيها غيرهم من أصحاب المذاهب القائمة في افريقية ، مما جعل المنازعات الدينية أحدَّ وأقسى و زاد فى انحلال البلاد التى كانت — لهذا الزمن — قد تفككت تفككا بالغاً لا يرجى معه أمل فى صلاح أمورها .

كانت سياسة البيزنطيين إذن قاضية على الآثار القليلة التى خلفها الرومان

(١) Diehl, L'Afr. Byz. pp. 508 - 509

فى نفوس أهل البلاد ، بل دفعت هذه السياسة بالبربر البدو إلى العدوان على الولايات البيزنطية التى قامت فيها معالم الحضارة ، ولو لم تكن المسيحية قد ثبتت بعض الثبات فى بعض النواحى كالزاب وتلمسان ، لما كان للبيزنطيين أى أثر فى حضارة أهل البلاد ، ولا مبالغة فى القول بأن كثيرين من زراع البربر انصرفوا عن الزراعة وهجروا المزارع والمدن وعادوا إلى ما كانوا عليه قبل دخول الرومان .

* * *

تبين الأباطرة أن نظام الحكم الذى وضعه جستنيان لأفريقية لم يحقق الغرض المراد منه ، إذ استمرت الثورات تقلق البلاد وتفصل أجزاءها عن جسد الدولة جزءاً جزءاً ، وظهر لهم بجلاء أنه لا بد من إيجاد نظام جديد لحكمها يلائم أحوالها التى صارت إليها ، وثبت فى أذهانهم أنه لا بد أن يراعى فى النظام الجديد تغليب الناحية العسكرية على الناحية المدنية[1] ، وجعل الأولى فوق الثانية ومشرفة عليها بعكس ما رسم جستنيان ، وأقيم على الولاية حاكم عسكرى Exarcus له الإشراف التام على كل مرافقها وموظفيها ، بما فيها الحاكم المدنى القديم Praefect . وأقيم على الأقسام الإدارية الجديدة حكام عسكريون يلقبون بالأدواق ، وعلى المدن قواد عسكريون على رأس حاميات .

كان تحويل افريقية البيزنطية من ولاية إلى منطقة عسكرية بدء النهاية

---

(١) بدأ هذا التغيير يحدث منذ أوائل أيام الامبراطور موريس (٥٨٢ — ٦٠٢ م) الذى أدخل تعديلا على تقسيم إفريقية البيزنطية يلائم حالة البلاد الجديدة، ففصل طرابلس عن إفريقية وضمها إلى مصر . وجمع مرطانية السطيفية Mauretania Setifiensis إلى ما بقى من مرطانية القيصرية M. Cesariensis وكون منهما ولاية واحدة سميت مرطانية الأولى ، وأضيفت سبته Septem إلى جزائر البليار وبقية أملاك البيزنطيين فى أسبانيا وألفت منها جميعاً ولاية مرطانية الثانية ، وأنشئت ولاية جديدة لسردانية وقرصقة . واكتفى فى الدفاع عن البلاد بتحصين عدد قليل من المدن لاتكاد تتعدى خط العواصم الثانى (الرباط) الذى يمر « بتبسا » وتمجاد وباغاية وتيجس وقسطنطينه وصدفه وسته

كما يقولون لأنه كان نذيراً بفشل البيزنطيين فى حكم البلاد ، و إيذاناً بوقوف كل الجهـود السلمية والإصلاحية التى كان يرجى قيامهـا فى ظلهم ، ودليلا على قرب انسلاخها عن جسد الدولة ، لأن الحكام العسكريين لايترددون فى أغلب الأحيان فى الثورة على الدولة المركزية والاعتصام منها بالجيوش التى تحت أيديهم إذا قامت بينهم و بين المركز خصومة ، وزاد فى خطر هـذا النظام الجديد أن الدولة جعلت للحاكم العسكرى الإشراف الكامل على مرافق الولاية كبيرها وصـغيرها حتى شئون الكنيسة[1] .

أثمر هذا النظام فى أول الأمر ثمراً طيباً ، إذ انتظمت أمور الولاية فى حدودها الجديدة ، وسادها الهدوء فترة من الزمان ، وكان للمظهر العسكرى الذى ظهرت به أثره فى القبائل البربرية ، فلم تعد تستخف بالحدود البيزنطية ، وكفت عن مهاجمتها إلى حين[2] ، ولكن البلاد أصبحت رهنـاً بإرادة من يولى عليها من الحكام العسكريين ، لا تملك الدولة قبلهم شـيئاً ، و إذا عرفنا — إلى ذلك — أن هذه الدولة كانت تعتمد على افريقية فى الحصول على جزء كبير مما يلزمها من القمح ، وأن افريقية كانت قريبة من مصر التى تمد العاصمة بجزء آخر (فيستطيع حاكمها أن يوقف قمح مصر وقمح افريقية) ، عرفنا إلى أى حد كان الوثوب بالدولة هيناً على حاكم افريقية .

---

(١) المدبر praefect فى نظام الحكم الرومانى حاكم مدنى ، يرسل كل سنة كممثل للقاضى الرومانى الأكبر praetor لكى يراقب سير القضـاء فى الولايات ، وقد ينتدب لتنظيم المتلكات الرومانية التى لم يكن فيها سكان مدنيون أو حكومة منظمة ، وبذلك يتناول سـلطانه الادارة . أما القناصـل السابقون proconsuli فحكام عسكريون أصلهم قواد Consuli ، ولما كان القانون الرومانى يحرم استمرار القنصل فى حكومته أكثر من عام ، فقد عهد إليهم فى حكومة ولايات الحدود والمستعمرات الكثيرة القلاقل ، ويسمون قناصل سابقون proconsuli وقد يسمون Eparci

(٢) Diehl, op. cit. p. 262

فى سنة ٦٠٨ أقام موريق Maurice على افريقيــة البطريق « هرقل »[١]، وهو قائد ماهر من أصــل أرمنى ، له ماض حربى مجيــد فى الحرب مع فارس ، وكانت أفريقية فى هــذه الفترة فى حاجة إلى رجل ممتــاز فى الحرب ليرد البربر إلى الطاعة بعد أن ثاروا ثورة شــديدة أخرى عقب موت جستنيان ، استمرت ثلاث سنوات متوالية (٥٦٩ — ٥٧١م) استولوا خلالها على العاصمة ، وأنشأوا فيها شبه حكومة منظمــة على رأسها قائد الثورة Gasmul جاسمول ، ولم تخمد نيرانهــا إلا حين ندب الأمبراطور القــائد جناديوس Gennadius الذى اســتطاع حوالى سنة ٥٨٠ م أن يقتل جاسمــول ويهزم أتباعه . ولــكن الهــدوء لم يطل أمده ، إذ عادت الثورة فشبت من جديد ســنة ٥٨٨ م واستمرت زماناً طويلا حتى عجز جناديوس عن القضاء عليها .

أقيم هرقل حاكما على افريقيــة لينقذ البلاد مما صارت إليه ، ونُدب لمعاونته فى إدارة البــلاد أخوه البطريق جريجوريوس Gregorius ، فبدءا يعملان معاً ليعيدا الأمور إلى نصابها فى هــذا الأقليم المضطرب ، ولــكن هرقل لم يكد يبــدأ العمل ، حتى فوجىء ســنة ٦٠٢ م بثورة فى القسطنطينية ، انتهت بقتل موريق وإقامة فوكاس إمبراطوراً ، وكان الإمبراطور الجــديد يعرف ما كان بين هرقل وموريق من حب وولاء ، ولــكنه آثر أن يدعه حيث هو حذراً من الشر الذى يصيبه إذا هو أقدم على عزله ، ولزم هرقل من جانبه حياداً تاماً حيال النظام الجديد ، ولــكنه لم يستطع أن يقف مكتوف اليدين أمام ما كان يسمع به من مظالم فوكاس ، فلم يلبث أن اتجه وجهة معادية وأنشأ يعمــل على الانفصال عن الدولة ، وكانت أولى الخطوات التي اتخذها لبلوغ ذلك ، أن حجز فى قرطاجنــة السفن التى تنقل

(١) Neciphore, p. 3; Theophanès, p. 295—297; Diehl, op. cit. p 517.

ثورة هرقل سنة ٦١٠ وإسقاطه فوكاس

القمح إلى العاصمة كل عام ، فلم يلبث الموتورون من فوكاس أن اعتبروه منقذاً للدولة وتوجهوا بآمالهم نحوه ، وانثالت عليه الرُّجى تستحثه إلى المبادرة بإنقاذ الدولة مما صارت إليه ، و بعث إليه مجلس شيوخ القسطنطينية يسأله القدوم ، وكتب إليه برسكوس Priscus — صهر الأمبراطور وحاكم القسطنطينية — يستحثه على النهوض للقضاء على فوكاس ، وتخليص الناس من شره[١] .

بيد أن هرقل كان فى الستين من عمره ، وقد علت به السن عن أن ينهض بعمل كهذا ، فندب ابنه هرقل لإنقاذه ، واختار ابن أخيه نقيتاس Nicetas لمعاونته ، ولكنه تردد فى التنفيذ ، إذ كانت امرأته « ابفانيا » Epiphania وخطيبة ابنه يوديسيا Eudicia تزوران القسطنطينية فى ذلك الحين ، فلم يكد فوكاس يستشعر نية البطريق وانصراف الناس إليه ، حتى سارع فاحتجز الاثنتين وأودعهما أحد الأديرة[٢] ، فلم يفت ذلك فى عضد هرقل ، إذ أن الاضطراب كان قد عم نواحى الدولة ولم تسلم منه أفريقية نفسها ، فثارت طرابلس و بنطابلس ، وأقبلت القبائل البربرية على هرقل تستحثه على المضى فى الأمر ، فبدأ بإرسال بعث احتل بنطابلس ، ثم سير حملتين : إحداهما بحرية يقودها ابنه هرقل ، تقلع من قرطاجنة إلى سلانيك ، وهناك يلقاها أعداء الأمبراطور فيعاونونها على الاستيلاء على القسطنطينية ، والأخرى يقودها ابن أخيه نقيتاس Nicetas مكونة من جيش كبير — انضمت إليه فرق عديدة من الأهالى —[٣] تخترق مصر وتستولى عليها ثم تخترق الشام وآسيا الصغرى ، لتصل الى القسطنطينية فتثير الولايات فى طريقها ، وبهذا يكون القضاء على فوكاس تاما[٤] .

(١) Theophanès, p. 295. Diehl, op. cit. p. 518

(٢) Theophanès p. 295. Diehl, op. cit. p. 519

(٣) Jean de Nikiou, p. 541. Diehl, op. cit. p. 519

(٤) Theophanès p. 295. Diehl, op. cit. p. 310

لقيت خطة البطريق هرقل ما قدر لها من نجاح ، فلم يكد أسطوله يقترب من القسطنطينية حتى انفجرت الثورة فى العاصمة ، إذ كان أعداء فوكاس يترقبونها بنافذ الصبر ، وأسرع برسكوس — صهر الإمبراطور — فضم جنوده إلى جنود هرقل ، فلم يجد صعوبة فى إسقاط فوكاس والقبض على أشياعه وتسليمهم للجمهور الساخط يفعل بهم مايريد ، فلما تم له ذلك أحب أن يعود إلى أفريقية ، ولكن رجال الدولة وأساقفتها ألحّوا عليه فى قبول التاج حتى قبل واحتفل بتتويجه فى ٥ أكتوبر سنة ٦١٠

— ٣ —

الهدوء يسود أفريقية فى أواخر أيام العصر البيزنطى

ساد السنوات الأخيرة للحكم البيزنطى فى أفريقية هدوء نسبى ، لأن هرقل الكبير لم يعد يعنى بشئون أفريقية كثيراً ، بعد أن أصبح ابنه إمبراطوراً ، إذ صرفته شئون الإمبراطورية ، فزال الضغط عن أهل البلاد وشعروا بشىء من الحرية واطمئنان الحال ، وكان هرقل إلى ذلك يعرف لهم يدهم التى أسدوها إليه و إلى ابنه ، وفضلهم فيما صار إليه من ملك وسلطان لما كان من حسن عونهم له فيما أراد من إسقاط فوكاس ، فأحسن معاملتهم وتقرب منهم ، فركنوا إلى الهدوء والسكون. و يمكننا القول بأن البلاد كانت أهدأ حالا وأكثر إزدهاراً فى ذلك الحين منها فى أى وقت آخر من العصر البيزنطى .

كنيسة روما تدخل فى شئون أفريقية

فى ظل هذا الهدوء ، أخذت المسيحية تنتشر بين قبائل البربر ، ولكن انتشارها لم يكن بفضل الكنيسة البيزنطية ، و إنما كان سببه نهضة الكنيسة الغربية أيام جريجورى الأكبر ونشاطها فى إرسال البعوث التبشيرية إلى أفريقية،[1] فتغلغل القسس فى داخل البلاد ، واستطاعوا أن يمدوا لواء المسيحية على كثير من القبائل البربرية ، و إذا كانت الحكومة البيزنطية قد أخذت تنسحب رويداً من

(١) Diehl, op. cit. pp. 319 - 321

المواقع الداخلية ، فقد أخــذ القسس يحلون محل الحــكام ، حتى أصبحوا — على مر الأيام — حماة الضعفاء والمظلومين ، فلم يعد هؤلاء يتوجهون إلى القسطنطينيــة لبث ظلاماتهم ، و إنما إلى بابا روما ، فهو أقرب إليهم . ور بما كان أقوى سلطاناً ، فكان يسارع إلى رد الظلم عن الشاكين ، فإما اتصل بالحاكم المذنب رأساً وأمره بالانصاف ، وإما اتصل برئيسه ، متكلما كل مرة باسم القانون والدين ، يوزع المديح أو التأنيب حسب الحاجة : فيعد دوق سردينيه مثلا بأن يؤدى فى القسطنطينيــة شهادة طيبة بحسن مسلكه ، أو يرفع للامبراطور الشكوى بما يفعله البطريق جِنّاديوس وهكذا ، وليس بين هذه الحال و بين التدخل الصريح فى الإدارة إلا خطوة قصيرة ، ولقد ساعدت ظروف هذا العصر الملىء بالاضطرابات جريجور يوس على أن يخطوها ، وكانوا — أى الموظفون — لا يجدون بداً من طاعة هذه الأوامر التى يتلقونها من البابا والقساوسة ، لأنهم كانوا يحملون فى أنفسهم تقديراً عميقاً للدين ورجاله[1] .

كان من نتائج هذا ، أن اتجه الناس بآمالهم نحو الكنيسة الغربية ، واتخذوا من أحبارها حماة يدفعون عنهم أذى الحــكام وعنتهم ، « ومن ثم أصبحت روما سـلطة جديدة فى أفريقية البيزنطية يُحسب حسابها ، ويركن السكان إليهـا فى كثير من أمور حكومتهم ، « فاعتمد الحكام على رجال الدين الذين لم يلبثوا أن سادوهم . . . . ففى أوائل القرن السادس كان القساوسة يديرون أفريقية »[2] ؛ وكان هذا التدخل عاملا قوياً جديداً مر عوامل التنافر ، وأى تنافر أغرب من ذلك : بلاد تابعة للدولة الشرقية ، يسيطر عليها بابا روما ، ويكون له من الإشراف على أمورها والتدخل فى شئونها مثل ما للإمبراطورية ! .

وفى الواقع ، لم يكن يربط أفريقية بالدولة البيزنطية إلا علاقة واهية جداً فى أواخر القرن السادس المسيحى ، فقد كان الموظفون البيزنطيون — فى جميع نواحى الإدارة —

---

(١) Diehl, op. cit. p. 514 (٢) Caudel, l'Afr. du Nord. I p. 27.

يميلون إلى التحرر من سيطرة الأمبراطور البعيد عنهم جداً ، وانصرف الناس ، الذين ثقلت عليهم وطأة الإدارة البيزنطية وما كان يسودها من خلل ، عن الأمبراطورية التى كادت تنزل بهم الخراب ، وبدأوا يتصلون بالكنيسة التى تحميهم بعض الشيء ، وأخذت هذه الكنيسة تحل سلطتها الإدارية على مهل محل السلطة الإدارية المركزية ، وتعمل على إفساد الإدارة الحكومية ، التى لم يكن ينقصها الاضطراب[1] » .

انتشرت المسيحية بين بعض القبائل ، وكان المنتظر أن يكون هذا الانتشار سبباً جديداً من أسباب الاتصال بين بيزنطة وممتلكاتها فى افريقية ، ولكنه كان كما رأينا فاصلا لا رابطا ، لأنه زادها بعداً عن بيزنطة ، وقربها إلى رومة . ولا نزاع فى أن البابوية نفسها كانت ترمى إلى بعض هذا حين كانت تبذل الجهود لتقطع افريقية عن الكنيسة الشرقية ، إذ كان الخلاف بين الكنيسة الشرقية والبابوية فى هذا الحين شديداً جدا .

— ٤ —

جريجوريوس الأول

مات هرقل الكبير فى افريقية سنة ٦١٠ ، فأقام هرقل الأبن على حكومة افريقية عمه البطريق جريجوريوس ، الذى كان يساعد أخاه منذ زمن طويل فى إدارة البلاد ، ولكنه لم يلبث على حكومتها إلا زمناً قصيرا ، إذ خلفه عليها بطريق اسمه قيصريوس Caesarius ، ثم أعقبه نقيتاس ابن جريجوريوس وابن عم الأمبراطور الذى كان ساعده الأيمن فى الهجوم على القسطنطينية ، وكان قد قضى فترة طويلة متنقلا فى ميادين الحرب مع فارس ، وولى شئون مصر ، ولعل الأمبراطور قد اختار هذا الرجل القوى ، لأن فارس كانت تغزو بلاد الدولة للمرة الثانية ، واستولت

نقيتاس بن جريجوريوس الأول

(١) Diehl, op. cit. pp. 515 — 16

على مصر سـنة ٦١٩[١] ، وأوشكت أن تغزو افريقية ، فكان لا بد من إيقاف تقدمها[٢] .

جريجوريوس الثانى : (جرجير)

خلف نقيتاس فى ولاية افريقية ابنه جريجوريوس ، وفى أثناء سنتى ٦٢٨-٦٢٩م احتفل بخطبة جريجوريا أخته إلى هرقل قسطنطين Heraclius Constantin ابن الأمبراطور هرقل ، فزاد مركز جريجوريوس قوة ، وعلت هيبته فى أعين أهل البلاد .

طبيعى أن تنشأ بين آل جريجوريوس وأهل افريقية — من روم وبربر — علاقات طيبة ، فقد طال بهم العهد فى حكومة هذه البلاد ، يتوارثونها ويزيدون نفوذهم فيهـا ، وساعد على ذلك أن ثلاثة الحكام الذين تولوا هـذا الأمر من هذه الأسرة كانوا ذوى خبرة وكفاية وكياسة ، وكان لهم من الحظوة عنـد الأباطرة والقربى منهم ما زاد شأنهم نباهة وأشخاصهم هيبـة ، وكان معقولا أن تستمر الأسباب موصـولة بين القسطنطينية وقرطاجنة ، ما دامت الدولة على حال من القوة تمكنها من الإشراف على ولاياتها وعمالها كبارا كانوا أو صغاراً ، أما وقد بدأ الأمر يضطرب بالدولة ، فيهـددها الفرس ويجتاحون بلادها ، ويبلغ الخوف من الأمبراطور مبلغاً يجعله يفكر فى الفرار من القسطنطينية إلى صقلية أو إلى افريقية ، أما وقد كثرت الشبهات وحامت الدسائس وداخل الخوف قلوب العمال ، وأما وقد أدرك جريجوريوس هذا كله ، وأحس أن شرره يكاد يتصل به ويكاد يصيبه منه

(١) Diehl, op. cit. p. 524

(٢) Bury, Hist. of the later Roman Empire II, p. 287

وقد ذهب بيورى (جـ ٢ ص ٢٨٧) إلى أنه كان لهرقل أخ اسمه جريجوريوس ، وأيد ذلك توكسييه فى مقاله عن جريجوريوس فى المجـلة الافريقية سنة ١٨٨٥ . ويحدثنا تيوفانيز أنه كان لهرقل ابن أخ يسمى جريجوريوس ، مات بين سنتى ٦٥١ ، ٦٥٢ فى عين شمس بعـد أن وقع أسيراً فى يد العرب (ص ٣٤٥) ، وقد حاول توكسييه أن يقرر أن جريجوريوس أفريقية الذى نحن بصدده هو نفس جريجوريوس هذا . وذلك خطـأ ظاهر ، لأن جريجوريوس أخا هرقل كان قد مات قبل موقعة سبيطلة بزمن طويل Diehl op. cit. p. 525 — 26
cf.: Tauxier, Gregoire d'Afrique, Rev. Afr. 1885.

شر عظيم ، فإنه لمن الطبيعى أن يتجه تفكيره إلى سبيل ينقذ به نفسه ويخلص به بلاده من هذا الشر المحيق .

أخذ جريجوريوس يرقب أعمال الدولة فى حذر منذ فكر هرقل فى نقل عاصمته إلى قرطاجنة ، ولكن روعه ما لبث أن أفرخ حين ترك الإمبراطور هذه الفكرة ، بسبب ما أصاب أهل القسطنطينية من الرعب حين اتصل بهم عزم الإمبراطور(١) ، على أن جريجوريوس بات على الحذر من ذلك الحين ، لأن فكرة الانتقال ما برحت تتردد فى أذهان الأباطرة كلما أحاطت بهم الأخطار فى القسطنطينية ، حتى أن قسطنط الثانى نقل عاصمة الدولة إلى صقلية ست سنوات عاد بعدها إلى القسطنطينية(٢) ، وربما كان مبعث حرص جريجوريوس على ولايته أنها انتعشت بعض الانتعاش فى أيامه بسبب الهدوء القصير الذى تمتعت به فى ظل أبيه وجده ، ودليل ذلك أن الغالبية من مؤرخى شمال أفريقية متفقون على أن العرب وجدوا البلاد — ساعة دخولهم — كثيرة الزروع وافرة الثمرات ، بل يفهم من رواية لابن عبد الحكم أن زراعة الزيتون كانت مزدهرة فى البلاد يتجر الناس فيها ويصيبون من ورائها ربحاً عظيماً(٣) ، ويؤكد ديل أن « الإنسان يجد فى أرض السهوب فيما يلى القيروان جنوباً — وهى التى نجدها اليوم قفراً خالياً — وفى السهول الواسعة المهجورة التى تمتد جنوبى هضبة الأوراس ، وفى الإقليم الجبلى الذى يتوسط سهل تونس ، فى كل هذه النواحى يجد الإنسان فى كل خطوة آثار مدن كبيرة أو صغيرة .

---

(١) Diehl, op. cit. p. 523

(٢) Bury, op. cit. II. 203, 212, 292 — Diehl, op. cit. p. 523

(٣) جاء فى ابن عبد الحكم . « حدثنا عبد الملك بن مسلمة ، حدثنا ابن لهيعة أن عبد الله ابن سعد هو الذى فتح أفريقية ... وأنه كان يوضع بين يديه الكوم من الورق فيقال للأفارقة من أين لكم هذا ؟ قال : فجعل إنسان منهم يدور كالذى يلتمس الشىء ، حتى وجد زيتونة فجاء بها إليه ، فقال : من هذا نصيب الورق » قال وكيف ؟ قال : إن الروم ليس عندهم زيتون ، فكانوا يأتونا فيشترون منا الزيت فنأخذ هذا الورق منهم — ابن عبد الحكم ، فتوح ص ١٨٤ — ١٨٥ .

وقرى آهلة وأراض مزروعة على امتــداد عظيم ، ولا يعوزنا البرهان على أن هذه البلاد كانت عامرة بالساكنين حوالى منتصف القرن السابع الميلادى على رغم ما شقيت به من حروب ، إذ يرجع إلى هذه الفترة تاريخ ذلك العدد العظيم من القلاع التى تتوسطها وتقوم على جانبيها»[1].

بيــد أن كودل يرى فى الأمر رأياً آخر : فيذهب إلى أن ديل بالغ كثيراً فى الاستنتاج من الرواية العربية ومن الآثار التى كُشفت فى هذه النواحى . و يقول : « يصف لنا العرب البلاد وصفاً بديعاً ، فيقول الباجى : «وكانت أفريقية على عهده — أى على عهد حسان بن النعمان — من أعمر المعمور تتصل بهــا المدن المظيمة والقرى الحسنة ، ساطعةَ البيــاض فى مدهام الأشجار ومنســاب المياه ومتدفق الأنهــار وخصيب المراعى والمزارع ولطيف الهواء من طنجة إلى طرابلس ، فأهلكت ذلك كله الـكاهنة البربرية » ؛ وينبغى أن لا ننسى أن العرب أقبلوا من الصحراء، وأن رمال بلادهم وصخورها ظلت ذكراها عالقة بأذهانهم بعد هجرتهم جزيرتهم بزمان طويل ، فليس بغريب أن تأخذ عيونَهم أبسطُ الزروع وتدهشهم أقل خضرة ، ولهذا رأوا فى مجرى المـاء الرفيع نهراً فياضاً ، وجعلوا من أشجار الزيتون الباهتة الـكثيبة ومن أفرع شجر التربنتينا ومن أشجار الفستق والمثنان والقطاف ، ومن السهول المنخفضة ونباتات الرمال التى على الشاطىء ، جعلوا من ذلك كله مزارع زاهرة ، ورأوا فى مَجرد نهراً عظيماً»[2] ويؤيد كودل فى هذا الرأى مؤلفُ كتاب تونس الذى يقول « لم يكن الإصلاح البيزنطى أكثر من باب فخم لأفريقيــة ، إذ لم يجرؤ إلا عدد يسير من الزراع على المخاطرة بمرافقة عمال الحكومة وجنودها، ويمكن أن نقول إجمالا إن العرب وجدوا أنفسهم — وجهاً لوجه — أمام الشعب

---

(1) Diehl, op. cit. p. 525 (٢) Caudel, op. cit. I, p. 31 ونص الباجى فى الخلاصة النقية ، ص : ٤

البربرى ، الذى انتهى إلى السكون فى ناحية من البلاد بعد أن أفقرته المنازعات العديدة التى شملت العصر البيزنطى ، وإلى الاستقلال فى ناحية أخرى ، والخضوع فى ناحية ثالثة بسبب إرهاق الموظفين البيزنطيين [١] » .

ربما كان كودل مصيباً فيما ذهب إليه من الشك فى آراء ديل ، ومن القول بأن الإصلاح البيزنطى لم يكن إلا ظاهراً كاذباً ينطوى على أسوأ الحال لإفريقية ، ولكنه لم يوفق فى قالته إن العرب رأوا أفريقية رأى البدوى الجلف الذى تروعه أبسط الزروع ، وتأسر لبه أقل مظاهر العمران ، لأن غزو أفريقية لم يكن أول عهد العرب بالمزارع والرياض ، وربما ضؤلت فى عيونهم زروع أفريقية اذا قارنوها بزروع مصر ونباتها ، وأين مجرد من النيل ؟ وأين الشجرة الخضراء من واحات الصحراء ؟ ، وأغلب الظن أن العرب وجدوا سلسلة طويلة من الواحات المتصلة تمتد من مصر إلى أفريقية ، فذكروا أن البلاد كانت ظلا واحداً من برقة إلى طنجة ، لأنهم سلكوا طريق السهل الداخلى الذى يغلب أنه كان مزروعا زاهراً فى أواخر العصر البيزنطى .

ازدهرت البلاد — إذن — إزدهاراً طارئاً قصير الأجل فى أواخر أيام الحكم البيزنطى ، لأن الهدوء الذى سادها فى ظل آل جرجوريوس وركون البربر إلى السلام — بحسن سياسة هذه الأسرة — كانا قمينين بأن ينهضا بالبلاد بعض النهوض (لا إلى الدرجة التى يصورها ديل فى كتابه) ، وربما اقتصر الإنتعاش على الولاية القنصلية وقرطاجنة وأرباضها ، وبعض المدائن الكبرى فى سهل تونس وهضبة الأوراس .

* * *

الانقسامات الدينية

فى هذا الحين كانت الإنقسامات الدينية قد اشتدت فى بيزنطه وأخذ سعيرها

---

(١) La Tunisie, I, p. 397

يمتد فيحرق ولاياتها بلظاه ، وكان الروم قد توزعتهم المذاهب المختلفة شيعاً وفرقا ، تتصارع وتحترب وتهبط بالدولة إلى درك عميق ، وكان مذهب خلقيدونية مازال يعصف بالدولة منذ سنة ٤٥١ م . إذ نفر منه الملكانيون لأنه مال إلى التوحيد ، وكرهه اليعاقبة لأنه لم يكن توحيداً صريحاً ، فأحب هرقل أن يخلص بلاده من تلك الفوضى ، فأنشأ يتصل بكبار رجال الدين فى دولته يستطلع رأيهم ، حتى استقر رأيه آخر الأمر على إصدار مذهب وسط ترضى عنه الطوائف كلها ، فلم يكد المجلس الدينى الذى عقده فى سنة ٦٣١ يصدر المذهب الجديد ، حتى ثار الناس كلهم عليه وأنكروه جميعاً ، فلم يجد هرقل بداً من أن يصطنع الشدة فى إرغام الناس على اتباعه ، فاضطهد الكثيرين من رعاياه اضطهاداً شديداً ، وشقى به قبط مصر خاصة لما أصابهم على يد قيرُس الذى كان هرقل ندبه لتطبيق هذا المذهب فى مصر .

وكان أهل أفريقية لا يطيقون المونوثيلية ولا يرون إلا أنها الزيغ بعينه ، فلما وصلت أوامر هرقل بنشر مذهبه الجديد منذرة المعارضين بالعقاب الشديد[١] ، تلقاها الأفريقيون بالسخط ، إذ كان هذا المذهب شديد الشبه بالمونوثيلية ، ولم يلبث أساقفتهم ورهبانهم أن اجتمعوا وقرروا : « أن كل البدع صادرة عن غرام شديد بالتظاهر ، وأن أصحابها يريدون بابتداعها أن يظهروا أنهم أمهر وأنفذ بصيرة وأعقل من سائر إخوانهم ...[٢] » وأصروا على أن لا يعدلوا بمذهبهم القديم مذهباً آخر ، وأبوا أن ينحرفوا عن كرسى البابوية »[٣] ، واستعدوا للقاء أى شر يراد بهم فى سبيل العقيدة ، وكانوا قد طال بهم العهد وهم يتوجهون بالولاء لروما لا إلى بيزنطة (فى مسائل الدين) ، فأحسوا حين اطلعوا على المذهب الجديد والأوامر المتصلة به ، أنهم يبتعدون عن الدولة مرة أخرى ، لأنها تؤذى مشاعرهم الدينية التى هى أعز مالديهم ، فشملهم حماس الرغبة

---

(١) Diehl, op. cit. p. 542 (٢) P. G. XCI; Diehl, op. cit. p. 542

(٣) Labbe, VI, 126 — P. G. XCI 141,— Diehl, op. cit. p. 542

فى المقاومة الإجماعية دون أن يكترثوا أقل اكتراث لما قد ينجم عن ذلك من إضعاف الأسباب التى تربطهم بالإمبراطورية فى سبيل الدفاع عن عقيدتهم الأرثوذكسية ، وكانوا موطنين أنفسهم على قبول كل شىء ، حتى الانفصال التام عن الدولة(١) .

وزاد هذه الحال سوءاً ، أن الاضطهاد الدينى فى الشام ومصر ، كان قد روّع نفراً غفيراً من رهبانهما ، فأخذوا يفدون على إفريقية من الشام والأسكندرية وديور ليبية ، حاملين معهم مذهبهم المونوفيسى اليعقوبى (وهو أقرب المذاهب إلى التوحيد) ، وأخذوا ينشرون دعايتهم بنشاط أثار قساوسة أفريقية « حتى تسامع الناس بأخبار الفتيات اللائى كن يُفتنّ عن عقائدهن على رغم أسرهن ، وبحفلات التعميد المقدسة التى كثرت لذلك الغرض ، فلم يسع عامل إفريقية إلا التدخل بدون جدوى»(٢) فلما يئس من صلاح الحال ، اتفق مع أسقف قرطاجنة على الكتابة للأمبراطور ولبابا روما ، يبسطان لهما سوء المصير .

وكان من غريب الإتفاق أن دخول اليعقوبية إفريقية وافق موت هرقل وتولّى قسطنطين الثالث عرش الإمبراطورية ، وكان عدواً للمذهب الذى ابتدعه هرقل ، فلم تكد شكوى أساقفة إفريقة تصل إلى علمه حتى أمر بأن يُخرج الرهبان الذين يرفضون العود إلى أحضان الكنيسة من الأديرة وأن تُصادَر أملاكُ الأديرة الخارجة(٣) ، وبهذا انقلب الحال، ونزل الاضطهاد بأشياع الإمبراطور القديم وعامة اتباع المونوثيلية (بما فيهم القبط وهم المونوفيسيون) ، وكان جريجريوس نفسه أرثوذكسياً ، فرضيت نفسه عن حكومة القسطنطينية ، خصوصاً وقد كان الإمبراطور زوج أخته جريجوريا ، فخيل للناس أن ما وَهىَ من العلائق لا بد معقود مرة أخرى بين بيزنطة وإفريقية .

---

(١) Diehl, op. cit. p. 543

(٢) Diehl, op. cit. p. 544

(٣) Diehl, op.c t. p. 546

توتر العلاقات بين جرجير والدولة

ولكن الأيام لم تمهل المتفائلين إلا قليلا ، إذ يلبث قسطنطين أن قتل فى مايو سنة ٦٤١ ، وحامت الشبهة حول الأمبراطورة «مارتينه» التى قيل أنها دبرت موت قسطنطين ليتولى ابنها هرقل الصغير (هرقلوناس) مكانه ، وكان من سوء الطالع أن الأمبراطورة كانت على مذهب هرقل ، فرفعت المونوثيلية رأسها ، وبدأت ترد إلى الأرثوذكسية ما أسلفت لها من أذى فى عهد قسطنطين ، فساد البلاد ذهول شديد، وبلغ من اختلاط الأمر على أهل إفريقية وحيرتهم بين المذاهب وأهواء الحكام أن حاكم قرطاجنة — چورچ ، وكان رجلا متديناً وأرثوذكسياً مخلصاً — أنكر ما وصل إليه من الأخبار ، وقام فى الناس يؤكد لهم أن الأوامر بمطاردة الأرثوكسية إنْ هى إلا وسيلة يراد بها النيل من الأمبراطورة المؤمنة الطاهرة الذيل ، وأراد أن يؤكد للناس مقالته ، فحضهم على النشاط فى تتبع المونوثيليين واضطهادهم ،[1] غيرَ عالمٍ أن اليومَ يومهم ، فلم تكد الأخبار بأفاعيله تصل القسطنطينية ، حتى دُعى إلى هنالك ليحاسبَ أعسر الحساب على ما اقترف من جرم ، فرحل الرجل وهو — من حيرته — لا يكاد يعرف لنفسه مصيراً .

الأب مكسيم يدعو إلى انفصال أفريقية عن الدولة

وحوالى سنة ٦٤٠ م أقبل على أفريقية رجل من أشهر رجال الدين فى القرن السابع ، إذ كان له فيما بعد أثر بعيد فى مصير أفريقية السياسى والدينى ، وهو الراهب مَكْسِيم . كان مكسيم قد زار الأسكندرية قبل مجيئه أفريقية فى صحبة صُفرونيوس ، ورأى بعينيه الاضطهاد الأكبر الذى كان قيرس ينزله بقبط مصر ، فعقد النيــة على تخليص النــاس من هذه الدولة التى ترهق أرواح الناس بمذاهبها وأهوائها ، وكان صيته قد سبقه إلى أفريقية قبل مجيئه إليها ، فلم يكد يصل حتى اجتمع الناس على الترحيب به ، فأنشأ يبث فى رهبان أفريقية تعاليمه ، ليعد هؤلاء القساوسة السذج البسطاء — الذين أضعفهم الانقسام — لكى يكافحوا ويثبتوا

---

(١) Diehl, op. cit. p. 546

لمهارة البيزنطيين واقتدارهم على السفسطة فى أمور الدين ، وبهذا أصبح ذلك الرجل معقد آمال أهل أفريقية للنجاة مما يراد بهم من مساءات ، فاشتد ساعده بولائهم ، وصارح الدولة بأن الله لن يرضى عن الامبراطورية الرومانية ما دام هرقل وآله على عرشها[١] .

لقيت هذه الآراء هوى من نفس جريجوريوس ، فأخذ يبذل العون لمكسيم ، ويشجعه على الاستمرار فيما هو آخذ فيه من مناهضة الدولة وصرف الناس عنها ، فلم يكد رهبان أفريقية يرون أنهم فى أمن من غدر الدولة بحماية جرجوريوس حتى اجتمعوا ووجهوا للامبراطور خطاباً يسألونه أن يترك ماهو سائر فيه من ابتداع وإفساد فى الدين[٢] .

البابوية تحرض أهل أفريقية على الانفصال

كذلك صادفت حركة مكسيم قبولا لدى البابوية ، فلم تتردد فى بذل العون له حتى يستطيع أن يثبت للكنيسة الشرقية ، وكان مكسيم يميل للبابوية ويحببها إلى أتباعه ، حتى صار لهذه فى أفريقية مكان لا تكاد تطمع فيه الكنيسة الشرقية ، ولما تولى أسقف قرطاجنة الجديد منصبه بعث بولائه للبابا « حتى يستطيع أن ينافح عن العقيدة الصحيحة والمذهب الكاثوليكى بشجاعة فى كل الظروف »[٣] .

هكذا جنت الدولة على نفسها بتدخلها فى شئون الدين وعبثها برعاياها ، الذين أسلمتهم إلى البابوية من الناحية الدينية كما ستسلمهم للعرب من الناحية السياسية .

وبذلك كانت الظروف كلها موانية لجرجريوس ليخرج على الدولة ، ويبدو أنه كان قد عقد العزم على ذلك منذ مات قسطنطين الثالث[٤] ، وأصبح الأمر بيد

(١) Diehl, op. cit. 549 وقد ولد مكسيم فى القسطنطينية سنة ٥٨٠ م ، وربى فيها تربية دينية صرفة ، ثم دخل الدير وترهب فى سنة ٦٢٨ ، وطار له صيت فى مسائل الدين والفقه ، حتى أنه استقبل فى مصر استقبالا حافلا حين زارها فى صحبة الراهبين فالاسيوس وصفرونيوس ، وكان أولهما أعلم أهل زمانه بمسائل الدين ، ثم ذهب إلى أفريقية وقد وطن العزم على تخليص أهلها من الأذى الذى تنزله الدولة بهم

(٢) Diehl, op. cit. p. 552

(٣) Loc. cit.

(٤) حنا النقيوسى ، ص ٥٧٣ ، Diehl, op. cit. p. 545

قسس أفريقية يشجعون جرجير على الوثوب بالدولة

مرتينه وابنها هرقلوناس ، فلم يكد البابا تيودور يلمح منه هذا الميل « حتى صارحه بأن الله يرضى عن ثورته ويقدر له التوفيق فيها [1] » ، وأهاب بالقسس فأحاطوا بجرجوريوس يستحثونه على المبادرة بإنفاذ ذلك الأمر، «فزعم له الأب مكسيم أنه رأى حلما ذا مغزى بعيد : رأى طائفتين من الملائكة فى السماء إحداهما مقبلة من الشرق والأخرى من الغرب ، وأن المقبلين من الشرق ينادون : النصر لقسطنطين العظيم ! والمقبلين من الغرب يهتفون : النصر لجرجوريوس العظيم ! وأن أصوات الشرق أخذت تخفت رويداً رويدا حتى غابت عن الأسماع ، وبقيت أصوات الغرب وحدها تردد اسم البطريق »[2] ، وسواء أصدق مكسيم فيما زعم أم لم يصدُق ، ففى هذه الرواية ما يدل على أن نفراً من رجال الدين عاون البطريق على الإنفصال ، وأن البابوية كانت تشد أزر ذلك النفر ، لأن انسلاخ أفريقية عن الكنيسة الشرقية ودخولها فى طاعة البابوية يعد نصراً عظيما للثانية فى عصر اشتد النزاع فيه بين الإثنتين .

بيد أن طائفة أخرى من قساوسة أفريقية لم يكن يرضيهم هذا الإنفصال ، فنجدهم يشيرون إلى هذه الحركة إشارة غامضة تنم عن التحرج والأسى فى الخطاب الذى كتبوه للبابا سنة ٦٤٦ م [3] يصفون هذا الإنفصال بقولهم إنه « ضرورة لم تكن متوقعة » وكذلك نجد أسقف قرطاجنة يشكو من « أن هناك أشخاصاً أشراراً يتهمون الافريقيين بالباطل بأنهم يبطنون نوايا سيئة لا وجود لها فى الحقيقة »[4] ، ويغلب على الظن أن مخاوف هذا الفريق ، لم يكن مرجعها الميل إلى الكنيسة الشرقية ، وإنما كان سببها الخوف من الغزو العربى، الذى كان قد أتى منذ سنوات ثلاث على برقة وطرابلس ، وأخذ ينذر أفريقية نفسها بمثل هذا المصير .

(١) Diehl, op. cit. p. 556 (٢) Loc. cit.

(٣) Labbe IV, 129 — Diehl, op. cit. p. 556

(٤) Labbe IV, 156 — Diehl, op. cit. p. 557.

الباب الثانى

مقدمات الفتح

مراكز برقة وطرابلس من الناحية السياسية

قضى النظام الذى وضعه موريق (٥٨٢ — ٦٠٢) للدولة البيزنطية بأن تكون برقة وطرابلس ولاية واحدة داخلة فى زمام مصر، فانقطعت الصلات السياسية الرسمية بين هاتين الولايتين وبقية شمال افريقية، وأصبحتا تابعتين لحاكم مصر من ذلك الحين. ولكننا لانجد لهاتين الولايتين ذكراً فيما نقرأ من أخبار مصر قبل الفتح العربى، بل على العكس من ذلك نجد لهما ذكراً فى أحداث إفريقية فى ذلك العصر، فقد روى ديل أن أهل برقة وطرابلس هم الذين بدأوا ثورة إفريقية على فوكاس، وكانوا فى مقدمة من آزر جريجوريوس على الانفصال، وهذا يدل على أن حكام مصر لم يجدوا فسحة من الوقت أوهدنة من المشاغل تسمح لهم بالالتفات لشئون هذه النواحى، فظلت الولايتان من عهد موريق إلى زمن الفتح العربى معلقتين بين مصر وإفريقية على حال قريبة جداً من الاستقلال. بيد أن الغالب أن آل جرجوريوس حرصوا — من يوم صارت إليهم أمور افريقية وأخذوا يتوارثون أمارتها — على أن يبسطوا سلطانهم على هاتين الولايتين ويستعيدوهما ويغلب أنهم وفقوا إلى شىء من ذلك، ومصداق ذلك أن ديل يذكر أن جرْيجوريا أخت جريجوريوس الأخير (جُرْجير) كانت تقيم ببرقة حين خطبها الأمبراطور هرقل لإبنه قسطنطين، ففى مقامها بهذه الناحية واطمئنانها إلى سكناها مايدل على أنها كانت فى زمام أخيها وتحت سلطانه، وإلا فما معنى أن تفضّل الإقامة فى بلاد تابعة لمصر وأمامها من بلادها متسع رحب.

وقد كانت هاتان الولايتان من أكثر ولايات إفريقية نشاطاً فى أوائل العصر البيزنطى، وكان أهلها وبربرها أكثر أهل افريقية ثورة ووثوباً بالبيزنطيين، فكانت لواته — أعظم قبائل برقة وطرابلس — قائدة الثورة الكبرى بين سنتى ٥٤٥ و ٥٤٦ م، فأظهرت من القوة وشدة البأس ما مكنها من الانتصار على سليمان حاكم افريقية كلها وقتله؛ وعلى الرغم من أن البيزنطيين

تمكنوا بعد جهد شديد من إخماد هذه الثورة واستعادة البلاد ، إلا أن بربر برقة وطرابلس ظلوا على حال من القوة مكنتهم من إقامة شيء يشبه أن يكون دولة بربرية ، ويؤيد مرسييه ذلك بقوله : « وظهرت في الولاية دويلات وطنية لها قوانينها وأديانها وحكامها ، الذين كادوا أن يكونوا مستقلين : فكانت لِوَاتَه — التي تحتل الساحل من برقة إلى قابس (ومعها هوّارة ونفوسه) — على جانب عظيم من القوة ، وكان في استطاعتها بعد ذلك بسنوات قلائل أن تجمع نحواً من ستة عشر ألف مقاتل [1] ».

بيد أن الغالب أن قبائل برقة وطرابلس لم تظل على هذه الحالة من القوة حتى نهاية العصر البيزنطي ، لأن الفاتح العربي لن يجد لِواَته أو نفوسَه أو هوّارة على شيء من القوة يتفق مع ما يفهم من هذه الروايات ؛ ولن يجد لها أثر ظاهراً في الدفاع عن برقة وطرابلس ، ولو قد كانت هذه القبائل على ماعهدناها عليه أيام سليمان لكان لها مع عمرو بن العاص وعقبة بن نافع شأن غير هذا ، أما وقد وجد العرب هذه النواحي في سكون شامل وهدوء كامل ، فلا بد أن تكون تلك القبائل قد أدركها الضعف آخر الأمر فاستكانت إلى الهدوء .

وربما جاز أن نلاحظ أن هذا الاستسلام كان صفة عامة اشترك فيها بربر إفريقية كلهم طوال سنوات الفتح الأولى التي انقضت بين أول ورود العرب إفريقية وفراغهم من إنشاء القيروان ؛ فسنلاحظ أن هذه القبائل كلها لم تبد مقاومة ولم تتحرك للدفاع عن النواحي التي تسكنها على الرغم من أن المسلمين جاسوا خلالها ولم يتركوا ناحية فيها إلا وطئوها وغزوها ، وذلك السكون إن هو إلا نتيجة طبيعية للحكم البيزنطي ، فلم يكن ينتظر من هذه القبائل التي لبثت طوال هذا العصر تناهض الروم وتدافعهم إلا أن يدركها الخمود والسكون في أواخر ذلك العصر ،

(1) Mercier, op. cit. I, pp. 187—189; Fournet, Les Berbères, I, pp. 217—218

ومصداق ذلك أن هـذه القبائل بدأت تتحرك للدفاع والمقاومة مرة أخرى بعد انقضاء بضع وثلاثين سـنة من بدء الفتوح العربية ، أى بعد أن نالت قسطاً من الراحة عوضت فيه بعض ما أصابها فى حكم الروم، سواء فى ذلك قبائل الساحل التى كانت خاضعة لهم تماماً ، وقبائل الداخل التى خرجت عن سلطانهم ، إذ كانت الأولى هدفاً لمطالبهم وضحية لمساءاتهم ، وكانت الأخرى موقع أذاهم وعدوانهم .

لهذا لا غرابة فى أن يجد المسلمون لواتة وهوارة ونفوسة على حال من الهدوء والسكون تمكنهم من إتمام فتح برقة وطرابلس والعود إلى مصر سالمين موفورين ، بل لا غرابة فى أن يسارع بعض أهل هذه النواحى فيعرضوا طاعتهم على المسلمين راضين ، مما يدل على أنهم وجدوا فى العرب حليفاً قوياً يعتزون به على الروم الذين لا يؤمن جانبهم وأن ركنوا فى أواخر أيامهم إلى الهدوء وتركوا البربر وشأنهم .

— ٢ —

كان من الطبيعى أن يفكر عمرو بن العاص فى الاستيلاء على برقة بعد فراغه من الاستيلاء على الأسكندرية وتمام جلاء الروم عن مصر ، لأنه كان ميالا بطبعه إلى مواصلة الفتح والغزو ، لا يكاد يفرغ من إقليم حتى يشرع فى إعداد العدة لفتح ما يليه : لم يكد يفرغ من فتح فلسطين حتى شرع يمهد لفتح مصر ، ولم يكد يفرغ من مصر حتى شرع فى السير إلى برقة ، وسنراه بعد الفراغ من برقة يسير إلى طرابلس ثم يستأذن فى فتح إفريقية كما فعل قبل دخوله مصر .

وكان جند عمرو يميلون هذا الميل ، إذ كان الفراغ من فتح مصر معناه وقوف حركة الغزو وانقطاع الغنم بعد معاهدة الأسكندرية ، فلم يجد هؤلاء الجنود منفرجاً لنشاطهم — الذى اتصل من جزيرة العرب حتى الأسكندرية — إلا فى القيام بغارات قصيرة يصيبون فيها من أهل الواحات وسكان الصحراء ما يقدرون عليه ، ثم يعودون إلى مصر ، ولا شك فى أن أخبار برقة وأفريقية قد اتصلت بعمرو بن العاص

وهو على فتح مصر فعرف أنهما من بلاد الروم وأن لهم فيهما منعة وعزة، وكان أهل برقة وطرابلس إذ ذاك على علاقات قوية موصولة مع أهل مصر، حتى إن بعض قبائلها كان يُحسب من قبطها، وكانت الطرق بينهما مطروقة مأمونة، فلما فرغ عمرو من فتح الأسكندرية ووجد الطريق إلى برقة سهلا ميسوراً، خشى أن يهاجم الروم مصر من برقة فعجل بالمسير إليها.

كانت الصحراء الممتدة من مصر إلى برقة تسكنها قبيلة لواته، وهى قبيلة بُترية كبيرة، يتحدث عنها ابن خلدون بقوله: « وهو بطن عظيم متسع من بطون البربر البُتر ينتسبون إلى لوا الأصغر بن لوا الأكبر بن زُحيك، ولوا الأصغر هو نفزاو كما قلناه، ولوا اسم أبيهم ... وذكر ابن حزم أن نسابة البربر يزعمون أن سدراتة ولواتة ومزاتة من القبط وليس ذلك بصحيح . . . . وكان لواته هؤلاء ظواعن فى موطنهم بنواحى برقة كما ذكر المسعودى(1) ». وهى قبيلة ذات ماض مجيد فى العصر البيزنطى، وسيكون لها تاريخ حافل أثناء العصر الإسلامى، وكانت لها شبه رياسة على ما جاورها من القبائل البربرية التى تسكن برقة وطرابلس وما حولها، ولابد كذلك أن عمراً عرف — وهو فى مصر — أن برقة جزء من مصر، وأن فتحها إتمام لفتح مصر وتأمين لها من وثبة تكون من الروم أوتدبير يحكمه روم بيزنطة بها، ومصداق ذلك أن ابن عذارى يذكر أن عمراً بدأ يمهد لفتح برقة وهو بعدُ على فتح مصر، فبعث إليها نفراً من جنده بقيادة عقبة بن نافع ليستطلعوا أحوالها ويوافوه بأخبارها، فيقول ابن عذارى: «وجه عقبة بن نافع الفهرى إلى زَويلة وبرقة فافتتحها، ثم توجه عمرو بنفسه إلى برقة فصالح أهلها(2) » ولا يؤيد ابن عذارى فى روايته هذه غير ابن أبى دينار، إذ يشير إلى ذلك البعث الاستطلاعى إشارة ضمنية فى قوله: « ولما فتح عمرو بن العاص مدينة مصر والأسكندرية بعث عقبة بن نافع

(1) ابن خلدون، تاريخ، جـ ٦ ص١١٧ — ١١٨ (2) ابن عذارى، البيان المغرب، جـ ١ ص٢

إلى برقة وزويلة وما جاورها من البلاد ، فصارت تحت ذمة الاسلام ، وسار عمرو ابن العاص فغزا طرابلس»[(١)] ، إذ يفهم من هذه الرواية أن عمراً لم يكد يفرغ من فتح مصر حتى عجل بإرسال عقبة ففتح برقة ، ثم سار هو بنفسه ففتح طرابلس ، وهذا تفسير لاتؤيده المراجع ولاتستقيم به الحوادث ، والأصح الذى تستقيم به الرواية أن يقال إنه بعث عقبة فى سرية صغيرة يستطلع له البلاد ريثما يفرغ هو من فتح مصر ، فلما فرغ سار بنفسه فغزا برقة وطرابلس .

لاتؤيد المراجع الأخرى ابن عذارى والقيروانى فيما ذهبا إليه ، ولم يذكر لنا أحدهما إسناده الذى يعزز روايته ، ومع ذلك فليس هناك ما يمنع من قبول رأيهما ، والقول بأن عمراً بعث عقبة بن نافع يستطلع أخبار طرابلس وهو بعد على فتح الأسكندرية لكى يتجه إليها بنفسه رأساً حين يخلص من هذا البلد ، ولنا فى إرساله بعثاً آخر إلى النوبة — يستطلع أخبارها فى ذلك الحين — شاهد على ذلك .

اطمأن عمرو إلى الأخبار التى حملها إليه عقبة بن نافع من برقة ، فلم يكد يفرغ من معاهدة الأسكندرية حتى سار فى جنده يريد أولى بلاد المغرب ، « وهى مدينة أنطابلس ، فصالح أهلها على الجزية وهى ثلاثة عشر ألف دينار يبيعون فيها من أبنائهم ما أحبوا بيعه »[(٢)] .

بل إن الشطيبى يروى فى «كتاب الجمان فى أخبار الزمان» رواية تدل على أن بربر برقة لم يكتفوا بهذا الخضوع السريع للعرب ، وانما أرسلوا رُسُلا منهم إلى الفاتح العربى قبل أن يخلص من فتح مصر يعرضون عليه الدخول فى الإسلام على يديه ، فاستطاع عمرو بن العاص أن يفهم ما يريدون بواسطة مترجم نقل إليه

---

(١) المونس ، ج ١ ص ٢٢ — ٢٣

(٢) البلاذرى ، فتوح ، ص ٢٢٤ — ابن عبدالحكم ، فتوح ، ص ١٧٠ — ١٧١ . ابن الأثير ، ج ٣ ص ١٠ — البكرى ، وصف أفريقية ص ١ — ٢ ؛ ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٧٥

كلامهم فأرسلهم إلى عمر بن الخطاب ، الذى رحب بهم أحسن ترحيب لأن أحد الحاضرين أخبره أنهم البربر أولاد بر بن قيس .

فلما سألهم عمر عن عاداتهم وعلاماتهم أخبروه بها ، فبكى ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم ، كان قد تنبأ بفتح بلاد لأهلها هذه الصفات ، ثم حمد الله على ذلك ، و بعث إلى عمرو أن يقدمهم على الجند وحملهم بالهدايا [1]. فهؤلاء البربر الذى يسارعون إلى الفاتح العربى وهو بعدُ على فتح مصر ليعلنوا إليه إسلامهم ، لابد أنهم رحبوا به حين وفد عليهم ، وتلقوه بالطاعة وقبلوا مافرض عليهم من الجزية طائعين مختارين .

وتذهب بعض الروايات إلى أكثر من ذلك ، فتؤكد أن بربر برقة كانوا يؤدون ماقدر عليهم من الخراج طائعين مختارين لا يرسل إليهم الجابى ، وإنما هم يحملونه بأنفسهم : « ولم يكن يدخل برقة يومئذ جابى خراج ، إنما كانوا يبعثون بالجزية إذا جاء وقتها [2] » و يزيد البلاذرى ذلك وضوحاً بقوله : «حدث محمد بن سعد عن الواقدى ، عن مسلمة بن سعيد ، عن اسحق بن عبد الله بن أبي فروة : إن أهل برقة كانوا يبعثون بخراجهم إلى والى مصر ، من غير أن يأتيهم حاث أو مستحث ، فكانوا أخصب قوم فى المغرب ، ولم تدخلها فتنة [3] » .

ربما كان إسراف البربر فى الخضوع للعرب دون حرب ، ومبادرتهم إلى أداء الجزية بأنفسهم دون أن يدخل بلادهم جابٍ ، وتعهدهم بأن يبيعوا فيها من أبنائهم من أحبوا بيعه [4] ، أدلة على أن البربر كانوا قد عرفوا قوة العرب من غاراتهم

(١) كتاب الجمان فى أخبار الزمان ، لمحمد الشطبي المغربى ورقة ١٢٣ — ١٣٢ (نسخة خطية بدار الكتب المصرية) ، ولم نذكر الرواية بنصها لطولها ، ولأنها أسطورة لايراد منها غير معناها.
(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٧٠ — ١٧١ (٣) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢٢٤
(٤) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٧٠ — ١٧١ ، البلاذرى ، فتوح ، ٢٢٤ — ابن الأثير ج ٣ ص — ١٠ البكرى وصف أفريقية ، ص ١ — ٢

الصغيرة التى كثرت أثناء حصار الأسكندرية وبعد الفراغ من فتحها ، ومن الطليعة التى أرسلها عمرو إلى بلادهم بقيادة عقبة بن نافع قبل الفتح ، فعجلوا ببذل الطاعة وأداء ما طلب إليهم ؛ ويظهر كذلك أن عمراً تخير أحسن فرسانه وأمهر مقاتليه للقيام بهذا البعث حتى يفرغ منه على عجل ، إذ يذكر السيوطى أنه لم يذهب فى بعث برقة إلا الخيل[1] . أمّا بيع الأولاد الذى ورد ذكره فى عهد الصلح مع أهل أفريقية فيغلب أنه كان أمراً عادياً متبعاً فى ذلك الزمان ، فيروى ديل مثلا أن أهل قرصقة كانوا يبيعون أبناءهم ليستطيعوا دفع الضرائب للحكومة البيزنطية ، ويقول : « وكان الموظفون يجمعون الضرائب بدقة فيها كثير من القسوة لكى يقوموا بالمطالب المالية الثقيلة التى كانت تنهال عليهم ، حتى أن دافع الضرائب فى قرصقة كان يضطر إلى بيع أبنائه كعبيد ، وكان الملاك البائسون يبيعون أراضيهم ويلتمسون الهرب عند البربر[2] » ، ويغلب أن عمراً لم يفرضه عليهم من تلقاء نفسه ، لأنه لم يسبق أن شرط هذا الشرط فى فتوحه السابقة ، وإنما الأغلب أن البربر هم الذين اقترحوا ذلك فوافقهم عمرو عليه[3] ، ويظهر أن بيع الأبناء لدفع الجزى أو إعطاء جزء من الضريبة عبيداً كان أمراً شائعاً عند أهل المغرب والنوبة، فسنجد أن عقبة كان فى مسيره فى بلاد البربر يفرض جزية من مال وجزية أخرى من العبيد .

بعد أن تم لعمرو الاستيلاء على برقة، بدأ يستعد لغزو ما يليها من بلاد المغرب، وكان أمامه أحد سبيلين : إما أن يسير بحذاء الساحل فيستولى على طرابلس وما يجاورها من المدائن الساحلية مثل صرت وصبره ، أو يتجه إلى الداخل ليستولى

---

(١) السيوطى ، حسن المحاضرة ، ص ٨٦

(٢) Diehl, op, cit. p. 565

(٣) ولا يناقض ذلك قول البكرى : « كتب عمرو بن العاص على لواتة فى شرطه عليهم أن تبيعوا أبناءكم فيما عليكم من الجزية » لأن كتابة الشروط المشار إليها إنما كانت بعد التراضى والتفاهم على طريقة الأداء : البكرى ، وصف أفريقية : ص ١١

على كثير من مراكز العمران الصحراوية الداخليـة ، وهى مجموعات متجاورة من الواحات والآبار تحتلها بطون من لواتة ونفوسة وهَوّارة، واشتهرت منها قبيلة جَرَمَه Garamantes أيام الرومان ، إذ كانت لهم معها حروب طويلة انتصر الرومان فيها أخيراً بقيادة كورنليوس قبل الميلاد بتسع عشرة سنة[١] .

رأى عمرو أن يقوم بالأمرين معاً ، فيسير هو بنفسه للاستيلاء على طرابلس وفتح مدائنها ، ويبعث فرقة من جنده تخضع هذه الواحات الداخلية وتضمن له ولاءها ، وربما كان دافعه إلى هذا الاحتياط أنه ألمّ بشيء من تاريخ العلائق بين هذه القبائل وبين الروم ، وما وقع بينها وبينهم من صراع ونزاع ، وما أبدته القبائل من قوة مقاومة؛ ولاشك أنه عرف أن انتزاع الساحل من أيدى الروم لا يعنى خضوع هذه النواحى أو دخولها فى حوزة العرب تماماً ، إذ أن ذلك لا يمنع البربر الضاربين فى الواحات الداخليـة من الإغارة عليها وإخراجها من أيديهم ، فرأى أن أضمن الوسائل لتوكيد الفتح وتثبيته هو الاهتمام بإخضاع البربر فى الداخل فى نفس الوقت الذى يقوم فيه بفتح طرابلس أو قبله بقليل .

يُؤَمِّن الأستاذ رُوت على ذلك، ويرى فى فتح فزان وودان عملا حربياً مُهمّاً ودليلا على حَنكة عمرو الذى اهتم بأن يخضع الداخل قبل أن يفتح الساحل فقال : « وكان عمرو قائداً خبيراً ، فاهتم بأن يبعث إلى فزان بجنود تُراقبها بينما اتجه هو غرباً ، فأرسل عقبـة بن نافع بن عبد القيس الفهرى ، فأخضع البـلاد فى عهد قصـير ، واحتلها حتى زَويلة — زويلة السودان — ويظهر أنه لم يلق مقاومة شديدة »[٢] ، وهَذا تعليـل تلك الحملة الداخلية التى دبرهـا عمرو بن العـاص وهو بعدُ فى برقة ، وتعليل الحملة الأخرى التى سيرسلها إلى وَدّان بعد أن يتم له فتح طرابلس .

---

(١) جورج إيفيه ، فى دائرة المعارف الإسلامية : مادة فزان

(٢) Roth, Okba ibn Nafi, p. 7

يختلف المؤرخون فيما بينهم على ما يوردونه من أخبار بعث عقبة فى الصحراء ، ولا يكاد اثنان منهم يتفقان على تاريخ واحد للبدء فيه أو الفراغ منه ، ثم إن ما بين أيدينا من هذه الروايات مقتضب لا يكاد يعطى فكرة صحيحة عما حدث له أو انتهى إليه .

بل إن اثنين من رواة هـذه الأحداث — وهما البلاذرى وابن الأثير — يخلطان بين أحداث هذا البعث وأحداث حملة عقبه الثانية — التى بدأت سنة ٤١ ولم تنته إلا سنة ٥٠ — على هذه النواحى، أى حين أُمرَ عقبة بالمسير إلى أفريقية ، فتوجه إليها من فزان ، فيوردان روايتين تكمل إحداهما الأخرى ، إذ تبين رواية ابن الأثير النواحى التى تم فتحهـا وهى زويلة وفزّان ووَدّان وغَدامِس . وتؤكد رواية البلاذرى أن عقبـة بعد أن فرغ من إخضـاع هذه النواحى عنى بأن يقيم الحكام على نواحيها ويقرر الجزية والخراج على من بقى على دينه من أهلها والصدقة على من دخل فى الإسلام منهم، وهذه أمور لن تتم إلا بعد ذلك بزمن طويل، فلا مناص من ترك روايتيهما جانباً ليوضعا فى موضعهما من ترتيب أحداث الفتح ، على الرغم من أن البلاذرى وابن الأثير يوردان هاتين الروايتين فى أخبار حملة عقبة الأولى على فزان وودان .

فإذا اكتفينا بما بقى بين أيدينا من الروايات بعد هاتين لم نجد إلا أخبـاراً مقتضبة متشابهة ، تكاد من إيجازها أن تلقى شكا على حقيقة هـذا البعث جملة ، فإن ابن عبدالحكم لايزيد على قوله : « ووجه عمرو بن العاص عقبة بن نافع، حتى بلغ زويلة ، وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين[1] » ، وربما نقل البكرى عنه ذلك لأنه يقول : « ولما فتح عمرو برقة بعث عقبة بن نافع حتى بلغ زويلة ، وصار مابين برقة وزويلة للمسلمين[2] » ، وتختلف رواية ابن عـذارى اختلافاً يسيراً عن رواية

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٧٠ — ١٧١ (٢) البكرى، وصف أفريقية، ص ١٠

ابن عبد الحكم ، إذ يفهم منها أن عقبة خرج لفتح فزان من مصر لا من برقة ، إذ يقول « كان عمرو استفتح مصر فى سنة ٢٠ من الهجرة الكريمة ، ووجه عقبة ابن نافع الفهرى إلى زويلة وبرقة (بَراَقة) ، فافتتحها ثم توجه عمرو بنفسه إلى برقة فصالح أهلها »[١].

وأما أبو المحاسن فقد اكتفى بنقل رواية ابن عبد الحكم مع تغيير طفيف فى التاريخ الذى يحدده لهذا البعث ،[٢] فى حين أن مؤرخى المغرب أنفسهم كابن خلدون والمالكى والسلاوى لا يوردون من أخبار هذا البعث شيئاً يركن إليه، إذ نقل ابن خلدون والمالكى[٣] رواية ابن عبد الحكم ، وأعاد السلاوى رواية ابن الأثير حرفاً بحرف[٤] .

هكذا وصلتنا أخبار هذا البعث الذى وجهه عمرو بن العاص إلى فزان وزويلة موجزة إيجازاً لايكاد ينم عن حقيقة أمرها ، مختلطة بأخبار غيرها من الحملات ، بحيث يخشى أن يكون ماجعله الرواة فيها قد وقع فى الحقيقة أثناء غزوة أخرى من غزوات عقبة المقبلة .

وربما كان أصح الآراء فى هذا البعث إن يقال إن قلة أخباره عند الغالبية من المؤرخين ليست راجعة إلى جهل هؤلاء المؤرخين بما وقع فيه ، وإنما إلى أنه كان فى حقيقته بعثاً قصير الأجل والمدى، لم يُرِد عمرو منه إلى أكثر من مراقبة الداخل ، كما يقول روت ، حتى لا يفاجأ بهجوم من البربر يقطعون به عليه خط العودة،ومصداق ذلك أن عَمرا عجل ببعث فرقة أخرى لإخضاع ودان حين هم بالمسير

---

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج١ ص٢ (٢) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج١ ص١٢٤ — ١٢٥

(٣) ابن خلدون ، ص ٢ (طبعة دى فرچير) ورياض النفوس للمالكى ، ص ١

(٤) ولا يذكر هذا البعث فى الطبرى أو النويرى ، ولا يشير إليه فورنل ، ويمر به كودل مراً سريعاً ، وقد ذكره مهسيه، إلا أنه أخطأ فجعل عمرو بن العاص يعود إلى مصر بعد غزو برقة ، فى حين تقدم أحد رجاله وهو عقبة بن نافع وسار بحذاء الساحل حتى أدرك فزان وزويلة.

إلى طرابلس ، وودان من طرابلس كفزان من برقة سواء بسواء ويؤيد ذلك أن عقبة لم يفعل فيه أكثر من الوصول إلى فزان وزويلة والاستيثاق من طاعة أهلها أو حيادهم ، ثم العودة على عجل مطمئناً إلى أن ما بين برقة وزويلة صار للمسلمين . وكان عمرو على الحق فيما فعل لأن ما بين برقة وزويلة إن هو إلا صحراء قاحلة قليلة السكان والعمران ، والاستيلاء عليها ليس بأمر ذى بال ولا يستحق من عناية الرواة أكثر مما ذكروا .

— ٢ —

تتفق الروايات العربية على أن طرابلس كانت داخلة فى طاعة جريجوريوس ، إذ يقول ابن عبد الحكم « وكان عليها — أى على إفريقية — ملك يقال له جرجير ، كان هرقل قد استخلفه ، فخلع هرقل وضرب الدنانير على وجهه ، وكان سلطانه ما بين طرابلس إلى طنجه»[1] ؛ ويقول النويرى « وكان ملكهم يدعى جرجير وسلطانه من طرابلس إلى طنجة »، ويقول البلاذرى «وكان بها — أى بإفريقية — بطريق سلطانه من طرابلس إلى طنجة[1]» . بيد أن الوقائع لا تدل على ذلك، فلو قد كانت طرابلس داخلة فى حكم جريجوريوس لأسرع للدفاع عنها أو لبعث على الأقل جنوداً من لدنه لرد العرب عن غزوها ، ولكنه لم يفعل ، وكل ماحدث هو أن أهل المدينة تحصنوا خلف أسوارها ، فحاصرهم العرب فترة طويلة حتى استطاعوا أن ينفذوا إلى داخلها ، ففر بعض أهلها إلى السفن التى كانت راسية فى الميناء . ومن الواضح أن هذه السفن كانت سفناً تجارية .

وربما جاز القول بأن مركز طرابلس كان شبيهاً — من الناحية السياسية — بمركز برقة، أى أن سلطان جريجوريوس عليها كان قليلا أو منعدماً، وأن العلاقات كانت متصلة بينها وبين غيرها من بلاد الدولة ، فانصرف أهلها إلى المتاجرة

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ١٨٣ — ١٨٤ . النويرى ، نهاية الأرب ، ورقة ٦٣ أ . البلاذرى ، فتوح ، ص ٢٢٦

بسفنهم مع بلاد البحر الأبيض ، ومصداق ذلك أننا سنجد العرب يصيبون منهم كثيراً من المال والغنائم دون أن نسمع عن أية مقاومة ، مما يدل على أن أهلها كانوا تجاراً ، وأنه لم تكن فيها حامية من لدن جريجوريوس أو الدولة البيزنطية .

تتوارد أخبار فتح طرابلس فى جميع المراجع على نسق واحد ، لا تكاد رواية منها تخرج عما ذكره ابن عبد الحكم من أن عمرو بن العاص سار حتى نزل طرابلس سنة اثنتين وعشرين ، « فنزل على القبة التى على الشرف من شرقيها ، فحاصرها شهراً لا يقدر منهم على شىء ، فخرج رجل من بنى مُدْلِجْ ذات يوم من عسكر عمرو متصيداً فى سبعة نفر ، فمضوا غربى المدينة حتى أمعنوا عن المعسكر ، ثم رجعوا فأصابهم الحر فأخذوا على ضفة البحر ، وكان البحر لاصقاً بسور المدينة ، ولم يكن فيما بين المدينة والبحر سور ، وكانت سفن الروم شارعة فى مرساها إلى بيوتهم ، فنظر المُدلجى وأصحابه فإذا البحر قد غاض من ناحية المدينة ، ووجدوا مسلكا إليها من الموضع الذى غاض من البحر ، فدخلوا منه حتى أتوا من ناحية الكنيسة وكبّروا ، فلم يكن للروم مفزع إلا سفنهم ، وأبصر عمرو أصحابَه الستة فى جوف المدينة ، فأقبل بجيشه حتى دخل عليهم ، فلم تفلت الروم إلا بما خف لهم فى مراكبهم ، وغنم عمرو ما كان فى المدينة[1] » ، بل أننا لا نجد هذا التفصيل عند غيره من المؤرخين ، فيقول البلاذرى : « سار عمرو بن العاص حتى نزل طرابلس سنة ٢٢ ، فقوتل حتى افتتحها عنوة ، ثم افتتحها وأصاب بها أحمال زيتون كثيرة مع تجار من تجارها فباعه وقسم ثمنه بين المسلمين[2] » ، ولا يخرج ابن خلدون عن ذلك الإيجاز ، ولم يزد أبو المحاسن على قوله : « غزا عمرو بن العاص فى السنة الثالثة من ولايته الأولى طرابلس الغرب ، وقيل فى التى بعدها[3] » ويزيد التيجانى : أن عمراً أقام عليها

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٧١ — ١٧٢ (٢) البلاذرى ، فتوح ، ص ٢٢٥

(٣) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة : ج ١ ص ٧٦

أشهراً لا يقدر منهم على شيء . . . وقد كانوا استعانوا بقبيل من البربر يعرفون بنفوسة ، دخلوا معهم فى دين النصرانية ، واحتوى عمرو على المدينة ، فهدم سورها وارتحل عنها[1] » ، ويضيف ابن الأثير : « ونظر عمرو ومن معه ، فرأى السيوف فى المدينة ، وسمعوا الصياح ، فأقبل بجيشه حتى دخل عليهم البلد[2] » ويعيد المؤرخان الفرنسيان فورنل وكودل نفس هذه الحوادث فى شيء من الإيجاز[3] ، ويورد المؤرخ المغربى ابن أبى دينار نفس هذه الحوادث بدون تغيير[4] ، ولا ذكر لها فى معالم الإيمان للدباغ أو الخلاصة النقية للباجى ، ولا يشير إليها الطبرى ونفر آخر من المؤرخين .

هذه الروايات تشبه إلى حد كبير ما يروى عن تفاصيل فتح العرب لحصن بابليون (٢٠ هـ مارس سنة ٦٤١م) ، إذ صعد الزبير على السلم الذى وضعه إلى جانب الحصن وأمرهم (أى المسلمين) إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعاً ، فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف ... وكبر الزبير تكبيرة ، فأجابه المسلمون من الخارج ، فلم يشك أهل الحصن أن العرب اقتحموا جميعاً فهربوا ، وعمد الزبير بأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه ، واقتحم المسلمون الحصن[5] . ففى كلا الحالين استطاع نفر من العرب — الزبير أو المدلجى وأصحابه — أن يلج إلى داخل المدينة ويكبر فيفر الروم ، ويقتحم المسلمون الأسوار ، وكلتا الروايتين عن الليث بن سعد ، وتاريخاهما متقاربان ، إحداهما فى سنة ٢٠ والثانية فى سنة ٢٢ ، ولم يكتب ابن عبد الحكم هذا التاريخ إلا بعد انقضاء قرنين ونيف على هذه الحوادث ، أفلا يكون الأمر قد اختلط على بعض الرواة بين الفتحين فوضعوا فى ثانيهما ما وقع فى الأول؟ يغلب على الظن أن تلك هى الحقيقة : ومصداق ذلك أن كثيراً من المصادر

(١) التيجانى ، رحلة ص ٤ ا ، ب (٢) ابن الأثير ، ج ٣ ص ١٠
(٣) Fournel, les Berbères, I, p.187. Caudel, op. cit. I, pp. 47, 48
(٤) المونس : ص ٢٢ (٥) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٩٦

لاتكاد تشير إلى تكبير المدلجى وأصحابه وهم بداخل المدينة، و إنما تذكرأن الفتح كان بسيطاً : أى أن عمراً قوتل حتى افتتحها عنوة[1]. والمعقول جداً أن تكون قصة التكبير قد حدثت فى فتح حصن بابليون لاحصن طرابلس ، لأن المراجع كلها تجمع على تكبير الزبير واحتياله للصعود إلى أعلا الحصن وما إلى ذلك من التفاصيل .

على أن التيجانى يروى تفاصيل هامة لا يرددها معه إلا ابن عذارى ، فهو يذهب الى أن أهل المدينة قد كانوا استعانوا بقبيل من البربر يعرفون بنفوسة دخلوا معهم فى دين النصرانية[2] ؛ أما قوله إن نفوسه دخلت فى النصرانية لا تعززه الأدلة من ابن خلدون أو من تاريخ انتشار المسيحية فى أفريقية كما يرويه الأستاذ ديل ؛ وأما قوله إن أهل طرابلس استنجدوا بنفوسة فأغاثتهم فغير مفهوم لأن كل المقاومة التى لقيها الجيش العربى عند طرابلس لم تتعد تحصن أهل البلد خلف أسوار المدينة ومحاصرة العرب لهم ، ثم اهتداؤهم (أى العرب) إلى خلو المدينة من الأسوار من ناحية البحر ، واقتحامهم إياها ، ثم فرار من استطاع من الروم إلى سفنهم . فأين كانت معاونة نفوسة ؟ وكيف كانت ؟ وهل أقبل من أقبل منها واحتمى خلف الأسوار مع من احتمى من روم طرابلس ؟ أو أن أهل طرابلس استنجدوا بنفوسة أثناء الحصار ولكن النجدة لم تصل ؟

لايبعد أن يكون أهل طرابلس قد استنجدوا بالبربر أثناء الحصار الذى دام شهراً على قول البعض وأشهراً على قول البعض الآخر، وربما كان هذا هو السبب الذى دفع بعمرو إلى الإسراع بفتح صبرة ولمايستقر به المقام فى طرابلس، و إلى إرسال بعث آخر صغير إلى ودان ، لأن صبرة وودان مركزان من مراكز نفوسة كما يقول ابن أبى دينار والسلاوى .

---

(١) البلاذرى ، فتوح ، ٢٢٥

(٢) التيجانى ، رحلة ، ص ١٠٤ — ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٢

عجل عمرو بإرسال بعث إلى صبرة قبل أن تنقضي أيام على استيلائه على طرابلس، ويبدو أن أهل صبرة كانوا على علم بما نزل بأهل طرابلس، فتحصنوا متوقعين مسير العرب إليهم ، إذ يقول ابن عبد الحكم : « وكان من بسَبْرت متحصنين ، فلما بلغهم محاصرة عمرو مدينة طرابلس، وأنه لم يصنع فيهم شيئاً ولا طاقة له بهم أمنوا ، فلما ظفر عمرو بن العاص بمدينة طرابلس جرد خيلا كثيفة من ليلته، وأمرهم بسرعة السير ، فصبّحت خيله مدينة سبرت ، وقد غفلوا وفتحوا أبوابهم لتسرح ماشيتهم ، فدخلوها فلم ينج منهم أحد واحتوى عمرو على مافيها »[1] ، وهذا يتفق كثيراً مع مايذكره التيجاني في رحلته ، إذ يقول :« واستفتحها عمرو بن العاص رحمه الله تعالى أول دخوله أفريقية بعد افتتاحه لطرابلس : جرد إليها خيلا وهم آمنون قبل أن يصل إليهم الخبر بفتح طرابلس ، فصبحتها خيله وقد فتحوا أبوابها لتسرح ماشيتهم ، وكان على الخيل عبد الله بن الزبير ، فدخلوها ، فلم ينج من أهلها أحد إلا أناس قلائل توجهوا في مراكب لهم إلى صقلية ، واحتوى أصحاب عمرو على مافيها ورجعوا إلى عمرو فأمرهم بهدمها وإحراقها »[2] . أما ابن الأثير فيذهب إلى أن عمراً بعث إلى صبرة جنداً كثيفاً لا بعثاً صغيراً: «وكان أهل حصن صبرة قد تحصنوا لما نزل عمرو على طرابلس ، فلما امتنعوا عليه بطرابلس أمنوا واطمأنوا ، فلماافتتحت طرابلس جند عمرو عسكراً كثيفاً وسيره إلى صبره فصبحوها وقد فتح أهلها الباب وأخرجوا مواشيهم لتسرح ، لأنهم لم يكن بلغهم خبر طرابلس ، فوقع المسلمون عليهم ودخلوا البلد مكابرة ، وغنموا مافيه وعادوا إلى عمرو[3] ، وليس في هذه

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ١٧٢، وقد رسمها ابن عبد الحكم سبرت وهى أقرب الصيغ للرسم اللاتيني لاسم هذا البلد وهو Sabrata ، ولكن البكرى والأدريسى وغالبية الجغرافيين والمؤرخين يرسمونها صبرة ، فكان من الأوفق رسمها على هذا النحو.

(٢) التيجاني ، رحلة ، ٩٢ ا ، أما قوله إن عبد الله ابن الزبير كان على الخيل فغير صحيح .

(٣) ابن الأثير ، ح ٣ ص ١٠

الرواية من جديد غير هذا العسكر الكثيف الذى لايذكره سواه من المؤرخين .

يذهب غالب المؤرخين إلى أن عمراً بعث فى نفس هذا الوقت بعثاً آخر إلى ودان جنوبى طرابلس وأنه أقام عليه بُسر بن أبى أرطأة[1] .

ولكن فورنل يشك فى صحة هذه الأخبار ، معتمداً على ما ذهب إليه البلاذرى من أن بسْرا ولد سنة ٩ هـ ، فكانت سنه حينما أُرسل فى بعث ودان (سنة ٢٢ أو سنة ٢٣) تتراوح بين ثلاث عشرة وأربع عشرة سنة ، وهذا يتنافى مع القول بقيادته لهذا البعث ، إذ لا يعقل أن يقوده وهو بعد صبى فى هذه السن المبكرة . إذن كيف اتفقت أخبار هذا البعث لابن عبد الحكم والبلاذرى والبكرى وابن الأثير وابن خلدون وأبى المحاسن ؟ وقد ذكروه كلهم ، بل إن من أغفل ذكره منهم فى حينه ، ذكره فى بدء حملة عقبة الأولى وسيره من فزان إلى إفريقية وغزوه ودان مرة أخرى ، إذ كان أهلها قد نقضوا العهد الذى عقدوه مع بسر[2] . أحد أمرين : إما أن يكون البلاذرى قد أخطأ فى تعيين السنة التى ولد فيها بسر[3] ، أو أن يكون بسر قد رافق الحملة فى هذه السنة الباكرة ولم يكن على رأسها ، ولعل الرأى الأول أرجح ، فإن إجماع المؤرخين على قيادة بسر لهذا البعث ، يميل بنا إلى الشك

---

(١) رسمه البلاذرى بسر بن أبى أرطأة ، وابن عبد الحكم بشر بن أبى أرطأة وكذلك البكرى ، ورسمه أبو المحاسن على ثلاث صور : بشر وبشر وبسر ؛ وقد أصبح بسر هذا فيما بعد من أكبر أنصار معاوية ، إذ سيره على رأس جيشه إلى مكة والمدينة واليمن ، فاستطاع أن يسلخها من يد على ، وقد جن فى أواخر أيامه كما يقول ابن الأثير . انظر : البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٢٢٨ . وابن عبد الحكم ، فتوح ص ١٧٢ — البكرى ، وصف إفريقية ، ص ١٢ — أبو المحاسن ، النجوم ، ج ١ ص ٢٣ — ابن الأثير ج ٣ ص ١٥٣ — ١٥٤

(٢) البكرى ، وصف إفريقية ، ص ١٤٥ . أبو المحاسن ، ج ٣ ص ٤٥ — ابن الأثير ج ١ ص ابن خلدون ص ٣ طبعة دى ﭬرچير — ابن عبد الحكم فتوح ، ص ١٧٢ — البلاذرى ، فتوح ، ص ٢٢٨

(٣) لم يرد ذكر بسر فى ثبت الصحابة الذين نزلوا إفريقية الذى أورده الباجى فى الخلاصة النقية (ص ٧ — ٨) ، كذلك لم نجده فى الثبت الذى أورده السلاوى (ص ٣٩ — ٤١) .

فيما ذهب إليه البلاذرى ، لأن اشتراك بُسر فى فتح مصر وإفريقية يرجع إلى أقدم من بعث ودان ، إذ ذكر أبو المحاسن أن عمر بن الخطاب « بعث عمرو بن العاص إلى مصر ، وزعم سيف أنه بعثه بعد فتح بيت المقدس وأردفه بالزبير بن العوام ، وفى صحبته بسر بن أبى أرطأة وخارجه ابن حذافة وعُمير ابن وهب الجمحى[1] » ورواية أبى المحاسن ممكنة التصديق ، لأن كلا من خارجة وعمير أقبل مع الزبير فى المدد الذى بعثه عمر لعمرو وهو على فتح مصر ، وكان لكل منهما دوره المعروف فى فتحها ، وما دام أبو المحاسن قد أصاب فى ذكر خارجة وعمير ،[2] فالمعقول أنه لم يخطىء فى ذكر بسر أيضاً ، ويؤيد روايته كودل ، إذ يقول إن بسراً كان من رجال حملة مصر ، فلا يبعد إذن أن يكون البلاذرى قد أخطأ فى تعيين السنة التى ولد فيها بسر ، ومن المعقول جداً أن يكون عمرو قد أقامه على بعث ودان .

يظهر أن المهمة التى نيطت ببعث ودان لم تكن كبيرة الخطر، لأن عمراً صرف همه إلى البعث الآخر الذى وجهه إلى صبرة ، على مرحلة من طرابلس ، إذ وجه إليها جيشاً كثيفاً ، وربما دفعه إلى ذلك خوفه من مسير سكان صبرة من نفوسة إلى طرابلس لعون أهلها ، وعلى أى حال فإن بعث ودان لم يفعل أكثر من أن عقد معاهدة مع نفوسة فى ودان ، ولم ترد لنا أخبار خاصة عن هذه المعاهدة ، وربما يكون بسر قد صالحهم على أن لايعاونوا الروم واكتفى بذلك .

لم يتم فتح إقليم طرابلس بسقوط صبرة ، إذ بقى من مدنها الكبرى جِربة فى جزيرة جربة (Meninx) وقابس (Tacapes) على حدود أفريقية، وبقى كذلك عدد من المسالح والحصون مثل جرجس (Girgis) [3]. ولكن الروايات العربية

(١) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٢٣ (٢) كان عمير أمير البعث الذى أرسله عمرو لفتح دمياط ، وخارجة أمير البعث الذى أرسل إلى الصعيد : بطلر : فتح العرب لمصر ، الترجمة العربية ص ٣٠٣ (٣) Diehl, op. cit. p. 229

تذهب إلى أن عمراً — بعد أن تم فتح صبرة — أرسل إلى عمر بن الخطاب يستأذنه فى فتح إفريقية ، ولو قد وجد عمرو التقدم ميسوراً لتقدم فى غير عناء دون أن يستأذن عمر ، ولكن الغالب أن مايلى صبرة من البلاد والمسالح ، كان محصناً بالجند بحيث وجد عمرو ضرورة الاستعانة بأمداد جديدة ، حتى يمكنه التقدم ؛ ويمكننا أن نفهم من هذا أن مايلى صبرة من البلاد كان محل عناية جريجوريوس: حصّنه وأقام فيه الجند ، وإذا عرفنا أن العرب كانت ترى فى جريجوريوس حاكم المغرب جميعه ، فهمنا السبب الذى حدى بعمرو إلى الوقوف للاستئذان فى فتح أفريقية .

فإذا كنا نعرف أن جريجوريوس لم يكن يهتم قبل ذلك بتأمين حدود بلاده فى الشرق أو الجنوب ، وأنه اكتفى بالتحرز فى سبيطلة منذ أعلن العصيان على الدولة وادعى الإمبراطورية ، فما الذى حدا به إلى تحصين المدن مما يلى صبرة والاستعداد فيها ؟ لاشك أن أخبار التقدم العربى فى مصر وصلته فسارع بتأمين الحدود الشرقية ليكون له منها جبهة قوية يتلقى عندها هجمة العرب الأولى، ويردهم عن بلاده الحقيقية فى ولاية أفريقية وما يليها ، بل يظهر أن جريجوريوس استعد استعداداً كبيراً فى قابس ، لأن العرب سيتحاشونها عندما يشرعون فى غزو أفريقية فى حملة عبد الله بن سعد ، بل سيقصدون إلى سبيطلة رأساً ، ولو قد وجدوا الاستيلاء عليها هيناً لأخذوها فى طريقهم .

كان طبيعياً أن لا يأذن عمر بالاستمرار فى الفتح ، فإنه كان يخشى أن تتسع الفتوح المتتالية بالمسلمين إلى حد غير مأمون ، وقد كان رأيه الأول أن تقف الفتوح عند حدود فلسطين ، فكيف وقد تم فتح مصر وبرقة ووصل جند المسلمين إلى طرابلس ؟ المعقول أن يرفض التقدم رفضاً باتاً ، ولا غرابة فى أن يقول ابن عبد الحكم : « أراد عمرو أن يوجه إلى المغرب ، فكتب إلى عمر بن الخطاب

ـــ كما حدثنا عبد الملك بن مسلمة عن ابن لهيعه عن ابن هريرة عن أبي تميم الجيشاني ـــ أن الله قد فتح علينا ؟ طرابلس ، وليس بينها و بين إفريقية إلا تسعة أيام ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها و يفتحها الله على يديه ، فعل ، فكتب إليه عمر : لا ، انها ليست بإفريقية ، ولكنها المفرّقة ، غادرة (الغادره) مغْدورٌ بها ، لا يغزوها أحد مابقيت »[1] وهي رواية نقلها عنه أكثر المؤرخين بالنص ، ثم عاد فأكد ذلك برواية أخرى عن ابن لَهيعة أيضاً : حدثنا أبو الأسود بن النضر بن عبد الجبار حدثنا ابن لهيعة عن أبي قبيل ، عن مرة بن ليشرَح (ليسرح وهو اسم معَافرى) المعافرى قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : « إفريقية المفرّقة ثلاث مرات ، لاأوجّه إليها أحداً مامقلت عيني الماء »[2] ، وفي رواية البلاذري زيادة طفيفة تدل على أن بعض الأخبار عن أحوال افريقية السياسية وعن تاريخها كانت قد اتصلت بعمر إذ ذاك ، فعرف أنها ليست مأمونة الجوانب ولا ميسورة الفتح ولا قريبة الطاعة، فعجل بإيقاف عمرو ، وذلك إذ يقول : «وكتب إلى عمر بن الخطاب أن بينها و بين إفريقية تسعة أيام ، واستأذنه في غزوها ، فكتب إليه ينهاه عنهـا ، وكتب إليه أنها ليست إفريقيـة بل مفرقة غادرة مغدور بها ، وذلك أن أهلهـا كانوا يؤدون إلى ملك الروم شيئاً فكانوا يغدرون به كثيراً ، وكان ملك الأندلس صالحهم ثم غدر بهم[3] » .

ويبدو أن جهد المسلمين لم يقف عند هـذا الحد ، إذ يذهب المـالكي في « رياض النفوس » إلى جند أن المسلمين وخيلهم لم يقف نشاطهم عند صبرة ، بل أنشأوا يغيرون على حدود إفريقية في جرائد الخيل ، كما كانوا يصنعون بعد تسليم الاسكندرية ، وأنهم كانوا يعودون منها بالغنـائم الوافرة ، وأنهم أقاموا على ذلك

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٧٢ (٢) نفس المصدر ، ص ١٧٣
(٣) البلاذري ، فتوح ، ص ٢٢٥

حتى ولاية عبد الله بن أبي سرح وقيامه بحملته على إفريقية سنة ٢٧ هـ [1] .

* * *

إلى هنا ينتهي دور عمرو بن العاص في فتح إفريقية ، وهو دور ليس بالكبير كما رأينا ، ليس فيه مواقع عظيمة ولا سياسات بعيدة الأثر ، إنما هو تقدُّم سهل في بلاد قليلة المقاومة ، ولنلاحظ أنه حرص دائما على أن يكون بمقربة من الساحل لا موغلا في الداخل كما سيفعل كثيرون ممن سيأتون بعده ، وأنه اهتم كذلك بأن يؤمن الداخل في نفس الوقت بهذه البعوث التي كان يبعثها قبل أن يتقدم أو بعد أن يستقر له أمر الشاطىء : لم يكد يتُم فتح برقة حتى بعث عقبة بن نافع في بعث فزّان ، ولم يكد يَتِم له فتح طرابلس حتى أرسل بسرا في بعث ودان ، هذه السياسة الحكيمة سيهملها أكبر القواد الذين أتوا بعده وهو عقبة بن نافع ، فكان إهمالها سببا في ضياع جهوده كلها هباء بل في موته هو ، وانتقاض إفريقية كلها انتقاضا تاما .

* * *

بقي تحديد تواريخ هذه الأحداث ، وليس بين المؤرخين اختلاف كبير في ذلك .

يذهب البلاذري إلى أن فتح برقة كان في سنة ٢١ هـ [2] .

أما ابن عبد الحكم فيجعل فتح برقة سنة ٢٢ هـ ، ونقل عنه ذلك ابن الأثير ونقل عنهما كودل [3] .

أما اليعقوبي فيجعل هذا الفتح سنة ٢٣ [4] ، ويؤيده في ذلك ابن خلدون

(١) المالكي ، رياض النفوس ، ورقة ٤ ، ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٧٣

(٢) البلاذري ، فتوح ، ص ٢٣٣ (٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٧١ — ابن الأثير ، جـ ٣ ص ١٩ ، Caudel, op. cit. I, p. 81

(٤) اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ١ ص ٢٣٣

ونقل عن الأخير دى سلين[1] ، ويتفق أبو المحاسن والبكرى مع البلاذرى[2] .

كان الفراغ من فتح الاسكندرية فى النصف الثانى من شهر سبتمبر سنة ٦٤٢ م ، إذ فى السابع عشر من هذا الشهر «كان أسطول تيودور يحل قلاعه ويرفع مراسيه ويسير إلى قبرص بمن كان عليه من فلول جيش الروم يرفرف عليه الأسى[3]» ، والمعروف أن عمراً شرع فى غزو برقة بعد ذلك مباشرة ، وأن سبتمبر من سنة ٦٤٢ م يوافق ذى القعدة من سنة ٢١ من الهجرة ، فهل انتظر عمرو ابن العاص ، حتى أهلت سنة ٢٢ أو شرع فى المسير إلى برقة فى الشهر الأخير من سنة ٢١ ؟ أغلب الظن أن عمراً لم يشرع فى المسير إلى برقة بعد الفراغ من الأسكندرية بأيام ، بل المعقول أن تنظيم أمور الفتح و إعداد العدة بناء على المعلومات التى جملها عقبة بن نافع إليه ، كل ذلك شغل عمراً الشهرين الأخيرين من سنة ٢١ ، فلم يبدأ فتح برقة إلا فى أوائل سنة ٢٢ هـ ، ويستبعد أن يكون قد قضى سنة ٢٢ بأسرها فى مصر ثم شرع فى المسير إلى برقة سنة ٢٣ ، وإذن فرأىُ ابن عبد الحكم وابن الأثير هو الأرجح ، ولم يخطىء كودل فى متابعتهما فى ذلك ، ولم يخطىء البلاذرى وابن خلدون وياقوت ودى سلين كثيراً ، إذ لا يبعد أن عمراً بدأ يستعد ويرسل الطلائع إلى المغرب من أواخر سنة ٢١ هـ .

فإذا كان فتح برقة قد تم فى الشهور الأولى من سنة ٢٢ ، فلا يستبعد أن يكون عمرو قد وصل إلى طرابلس فى خلال سنة ٢٢ ، أو فى أواخرها ، وإذا عرفنا أنه بقى على حصارها شهراً على قول البعض وبضعة أشهر على قول البعض الآخر ، كان معقولا أن يكون تسليم طرابلس قد تم فى الأشهر الأولى من

---

(١) ابن خلدون، ص٣، طبعة دى فرجير De Slane : J. A. Tome XII, p. 422, Ve série

(٢) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٢٣ — البكرى ، وصف إفريقية ، ص ١٤٥ — البلاذرى ، فتوح ، ص ٢٣٣

(٣) بطلر ، فتح العرب لمصر ، (الترجمة العربية) ص ٣١٧

سنة ٢٣ هـ[١] ، ثم أعقب ذلك فتح صبرة قبل نهاية هذا العام ، لأن المعروف أن عمراً عاد إلى مصر قبل أن يقتل عمر بن الخطاب (وكان مقتل عمر فى ٢٣ ذى الحجة سنة ٢٣ هـ) .

فإذا صح هذا ، يكون فتح فزان قد بدأ خلال سنة ٢٢ هـ وانتهى فى الشهور الأولى من سنة ٢٣ هـ ، وعاد عقبه قبل منتصف سنة ٢٣ هـ ، لأن عمراً عاد إلى مصر حوالى ذلك الوقت تاركا إياه فى برقة .

وبديهى كذلك أن يكون فتحُ وَدان ، الذى كان مع حملة صبره فى فترة واحدة ، قد تم فى الأشهر الأولى من سنة ٢٣ هجرية .

(١) فى أواخر سنة ٢٢ هـ إذا صدقت رواية الدلجى وأصحابه ، وفى أوائل سنة ٢٣ إذا كانت بمجرد أسطورة .

الباب الثالث

المحاولات الأولى (أ)

حملة عبد الله بن سعد بن أبى سرح

اضطر عمرو إلى الانصراف عن إفريقية مرغماً ، ولعل السبب فى ذلك لم يكن مجرد رفض عمر ، إذ لم تكن ولاية طرابلس كلها قد سقطت بسقوط « صبرة » ، فما زال أمام المسلمين عدد من مدائنها مثل « قابس » من غير فتح ، ولو قد أنس عمرو فى نفسه وجيشه القدرة على التقدم ، لما أعوزه الإذن من عمر ، إذ المسافة بين طرابلس وصبرة أكبر من المسافة من صبرة إلى قابس ، ولما كان قد خطا الخطوة الأولى بغير استئذان ، فلم يكن عليه بأس فى أن يخطو الخطوة الثانية لو كان ذلك ميسوراً له ، ولكن الغالب أنه أحس أن الخطوة التالية تحتاج إلى عُدة جديدة وعدد كبير ، فأحب أن يستأذن عمر فى الفتح ، تمهيداً لطلب المدد إذا أذن عمر فى ذلك ، وقد تكون عيونه وطلائعه[1] قد نقلت إليه أخبار ما يليه من البلاد إلى الغرب ، وأعلمته أن لا محيص له عن عدة وافية وقوة جديدة ، ليقهر ما عساه يلقاه من المقاومة عند قابس وما يليها .

جرجير يستعد لقاء المسلمين

طبيعى أن يكون جريجوريوس قد أحس بالخطر حين بلغته أنباء وقوع صبرة فى يد العرب ، وانسياب طلائع جندهم بين محارس الحدود وثغورها ، وكان سلطانه على هذه النواحى خاصة ضعيفاً ما يزال ، إذ لم يمض وقت طويل على انفصاله[2] عن

---

(١) تجمع المصادر على أن عمراً كان يبعث المسلمين فى جرائد الخيل ، فيصيبون من أطراف إفريقية ويغنمون ، فى ظاهر الأمر ، ويستطلعون الأحوال ويعرفون قوة أهل إفريقية فى الحقيقة . أنظر : ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٨٣ والبلاذرى ، فتوح ، ص٢٢٦ — النويرى ، نهاية الأرب ، ورقة ١٦٢

(٢) كان خروجه سنة ٦٤٦ م أى فى الوقت الذى كان العرب فيه فى طريقهم إلى بلاده ، فلا بد أنه قضى بقية هذه السنة والتى تليها فى ترتيب شئونه ، ويغلب أن يكون انتقاله إلى سبيطلة لم يتم إلا خلال سنة ٧٤٧ م ، أى قبل موقعة سبيطلة ببضعة شهور .

الدولة وإعلان نفسه إمبراطوراً . فكان محتاجاً إلى فسحة من الوقت حتى يعزز دولته الجديدة ويقوى جانبها ، وكان لزاماً عليه أن يبذل جهده حتى يضمن ولاء أهل أفريقية ويطمئن إلى عونهم أمام الدولة البيزنطية وغيرها .

يذهب ديل إلى أن جريجوريوس لم يُلق إلى العرب بالا فى أول الأمر ، وأنه لم يأخذ الأهبة لردهم إلا حين أشرف جنود عبد الله بن سعد على تخوم بلاده[1] ، ويبدو أن هذا الرأى ليس صحيحاً على إطلاقه ، لأن اختياره سُبيطلة كعاصمة مؤقتة ينبىء بأنه كان يتوقع شيئا من ناحية الشرق ، ولو كان أراد من التراجع إلى الداخل مجردَ الاحتماء بالبربر والتحرز بينهم، لكان أمامه من الحصون ماهو أعز وأقوى[2] ، ثم كيف يقال إن رجلا مثل جريجوريوس اشتهر بالقدرة والخبرة ، كان يجهل ما حدث فى برقة وطرابلس ، أو يغفل عن نيات العرب وهو يراهم ينساحون من بلد إلى بلد ، وها هى ذى خيلهم تطرق أبواب بلاده وتروع أهلها ؟ كيف يقال إنه غفل عن ذلك وله العيون فى برقة وطرابلس ، والأرصاد فى القسطنطينية ينهون إليه أخبار الامبراطورية كبيرها وصغيرها ؟

لابد أن جريجوريوس أحس بالخطر المقبل من الشرق ، فأنشأ يتحرز منه ، ولما كانت قرطاجنة فى أقصى البلاد شمالا ، فقد خاف إن هو بقى فيها أن ينحصر بين هجوم العرب من الشرق وهجوم البيزنطيين من الشمال ؛ ثم إنه كان يعول على نصر البربر وعونهم ، فأحب أن يتحرز فيهم ، واستقر الرأى به آخر الأمر

---

(١) نفس المصدر والصفحة .

(٢) تقع سبيطلة على الطريق الذى يؤدى من السهل الساحلى إلى جبال الأوراس ، فهى أول حصون الهضبة ، وتقع على الطريق الحربى الذى يؤدى من سوسة إلى تفست Theveste فاختيارها يدل على أنه كان يتوقع الخطر من ناحية الشرق ، فتربص للمقبلين من السهل والهضبة، ولو لم يكن ينتظر خطراً من الشرق لاختار تفست وهى العاصمة الحربية لهذا الإقليم وموقعها لا يدانى وحصونها لا ترام .

على التقهقر إلى الداخل والتحصن فى أحد حصون الهضبة(١). فاختار سبيطلة التى تشرف على السهل الساحلى لذلك الغرض ، وربما بعث جنداً إلى الحدود فعسكرت عندها ، فلم يجسر عمرو على تخطى هذه الحدود ، وأدرك أنه لابد له من مدد جديد ، فبعث يستأذن عمر ، وربما حصن بعض ثغوره الشرقية كقابس ، لأن المسلمين وجدوها على الأهبة للقائهم حين أدركوها ، وقد تحصن أهلها خلف أسوارها ، فلم يمكنهم الاستيلاء عليها .

لم يجد عمرو إذاً بداً من الانسحاب والتراجع ، فطوى كعبه وانصرف عائداً إلى مصر ولبث بها حتى عزله عثمان عنها بعبد الله بن سعد بن أبى سرح سنة ٢٥هـ(٢).

برقة وطرابلس فى غيبة المسلمين

كيف كان حال برقة وطرابلس خلال السنوات الأربع التى انقضت بين انصراف عمرو وإقبال عبد الله بن سعد؟ (٢٣ هـ — ٢٧ هـ) .

لم تنبئنا المراجع العربية أو الأجنبية بشىء ثابت عن ذلك ، ولكننا نستطيع أن نلاحظ بضع ملاحظات توضح هذه الناحية : من الثابت أن عمراً خلف عقبة ابن نافع على إفريقية ، ويغلب أنه لبث هذه الفترة فى برقة ، لأن عبد الله بن سعد سيجده فى هذه المدينة بعد ذلك بقليل عندما يقبل سنة ٢٧ هـ ، وربما أنفق عقبة وقته فى التردد بين القبائل الضاربة حواليها والواحات القريبة منها ، مما يدل على أن برقة وما حواليها ظلت على طاعة المسلمين طوال هذه الفترة .

أما طرابلس وما يليها فالراجح أنها ارتدت عن طاعة العرب بُعَيْد انصرافهم

---

(١) يذكر ابن عذارى أن عمرو بن العاص تقدم حتى أدرك تخوم إفريقية، فوقف عندها ، ولم يجسر على التقدم فيها ، «لأن ملوكها كثيرة وأهلها فى (بياض فى الأصل) وأكثر ركوبهم الخيل» : ابن عذارى ، البيان ، جـ ١ ص ٣٣

والغالب أن ابن عذارى لا يعنى بذلك أن عمراً خاف من أهل البلاد الآمنين ، وإنما لا بد أنه وجد هناك جنداً كثيرة تخافها .

(٢) الكندى ، القضاة والولاة ، ص ١١

عنها ، و يغلب أن يكون عقبة قد أهمل شأنها ولم يعن بأن يحفظها للمسلمين ، بل يظهر أن أمداداً جديدة وصلت إليها فاستطاع أهلهـا أن يعوضوا ما خسروه حين استولى العرب على مدينتهم سنة٢٣هـ، فقد جاء فى نهاية الأرب : «حكى الزهرى .. فوالله إنا لبطرابلس ، وقد أصبنا من بهـا من الروم ، وقد تحصنوا منا فحاصرناهم ؛ ثم كره عبـد الله أن يشتغل بذلك عما قصـد إليه ، فأمر الناس بالرحيل[١] » ، و يؤيد المالكى ذلك بقوله : «وتحصن أهل طرابلس ولم يعرضوا لنا ولم نهجهم»[٢]، مما يفهم منه أن المدينة كانت إذ ذاك أحصن مما كانت عليه قبل ذلك بسنوات أربع حين حاصرها عمرو بن العاص واستولى عليها ، ولا يعلل هذا التغير إلا بأن الأمداد كانت تصل المدينـة وتعين أهلهـا على إعادة تحصينها ، وقد ذهب كودل إلى أن امتناع طرابلس على العرب فى حملة عبـد الله بن سعد كان سببه أن الطرابلسيين اتعظوا بغزوة العرب الأولى ، فزادوا بأسوار مدينتهم عناية ، وأقاموها من جديد ، فامتنعت على عبد الله بن سعد فى غزوته على إفريقيـة[٣] ، وكل ذلك يدل على أن طرابلس عادت سيرتها الأولى بعد انصراف عمرو عنها ، وأن الأمور عادت فاتصلت بينها و بين بلاد الروم ، وأخـذت السفن تصل ميناءها بالمتـاجر والجند وتقلع عنها ، وليس ببعيد أن أمداداً كانت تصلها مما يجاورها من البلاد .

وعلى أى الأحوال ، نستطيع أن نستنتج من امتناع طرابلس على عبـد الله ابن سعد أنهـا خرجت عن طاعة المسلمين وعادت إلى ما كانت عليـه قبل غزوة عمرو بن العاص لها .

أصبح عبد الله بن سعد بن أبى سرح عاملا على مصر منذ سـنة ٢٥ هـ ،[٤]

---

(١) النويرى ، نهاية الأرب ، ورقة ٦٣ | (٢) المالكى ، رياض النفوس ، ورقة ٢

(٣) Caudel. op. cit. II, 60 (٤) الكندى ، القضاة والولاة ، ص١١ — ابن حجر الإصابة ، ج ٣ ص ٧٦

مطلق اليد فى شئونها المالية والإدارية بعد عزل عمرو عنها ، وأصبح — تبعاً لذلك — حاكما على ما بقي للمسلمين من فتوحهم فى إفريقية ، قائداً على من يخرج من الجند لإكمال الفتح فيها ، وهذا هو الوضع السياسى الأول لإفريقية : إذ اعتبرت جزءاً ملحقاً بولاية مصر يحكمها عامل مصر ، يجبى خراجها ويقود جندها .

ينبغى أن نجعل حداً فاصلا بين عبد الله بن سعد فى إسلامه الأول وعبد الله ابن سعد فى إسلامه الثانى ، لأن الوقائع تبين أن الرجل يختلف كثيراً فى الدور الأول عنه فى الدور الثانى ؛ فعبد الله بن سعد الأول فتى يافع لايكاد يحسن فهم الأشياء ، فيستهين بثقة الرسول ، وتؤثر فيه دعايات قريش ، ويحجب عنه صغرُ السن عظمة النبى الكريم ، فلا يلبث أن يرتد إلى الشرك ويلقى بنفسه فى أحضان قريش ويقول فى نزق « كان يملى على عزيز حكيم ، فأقول : أو عليم أو حكيم فيقول : كلٌّ صواب [1] ، فلا يبالى أن يفترى على الرسول كذبا مجاراة لقريش فيما كانت تتخذ من الأساليب للقضاء على الإسلام ، أما عبد الله بن سعد الثانى فجندى باسل وثيق الإيمان كامل الشعور بجلال الإسلام وتبعاته ، شهد فتح مصر واختط بها ، وكان صاحب ميمنة عمرو فى فتحها ، « وكانت له مواقف محمودة فى الفتوح [2] » ، ويؤكد النويرى أنه : « حسُن إسلامه ولم يظهر بعده ماينكر ، هو أحد العقلاء والكرماء من قريش [3] ... » وقد أخطأ المؤرخون فى الحكم عليه ، لأنهم أخذوه بجريرة فعلته الأولى ، فأنكروا عليه كثيراً من فضله فى فتح إفريقية ، ونسب أكثرهم هذا الفضل إلى عبد الله بن الزبير ، ويظهر أنهم تأثروا كثيراً بالدعاية الواسعة التى بذلها عبد الله بن الزبير لنفسه حين أصبح خليفة ، فضاع

---

(١) تهذيب الأسماء للنووى ج ١ ص ٢٦٩ (٢) الإصابة لابن حجر ، ج ٣ ص ٧٦

(٣) نهاية الأرب ، للنويرى ، ص ١٦٢

حظ ابن أبى سرح بين جريرة الارتداد ودعاية ابن الزبير ، بل يبدو أن قرابة عبد الله من عثمان قد قللت من شأنه فى حساب التاريخ ، إذ نسب ما كسب من توفيق إلى أخوّته للخليفة (بالرضاع) لا إلى مواهبه الشخصية ، وأصابه من سوء ظن الناس ما أصاب كل ولاة عثمان وأشياعه ، فكان قليل الحظ عند المؤرخين .

التمهيد لفتح إفريقية

لم تكد ولاية مصر تستتب لعبد الله بن سعد حتى بدأ يمهد لغزو المغرب، فأخذ « يبعث المسلمين فى جرائد الخيل كما كانوا يفعلون فى أيام عمرو ، فيصيبون من أطراف إفريقية ويغنمون [1] » ، ويضيف النويرى أنه « كان يكتب بذلك إلى عثمان» ، مما يدل على أنه كان يرجو أن يمنحه عثمان الإذن بفتح افريقية ويمده بما يمكنه من القيام بهذا العمل العظيم ، ويبدو أن عثمان نفسه كان يميل بعض الميل إلى إجابة عبد الله بن سعد إلى ما يريد : إما نكاية منه فى عمرو الذى كان مقيماً إذ ذاك بالمدينة منددا عليه وعلى واليه الجديد على مصر ، وإما رغبة منه فى تعزيز مركز أخيه فى الرضاعة بفتح عظيم كفتح إفريقية ، ولكنه كان متردداً متخوفاً ، لأن رفض عمر بن الخطاب لهذا الفتح كان له معناه ، وما كان عثمان ليلقى بجند المسلمين إلى هذه البلاد « المفرقة الغادرة » [2] ، إلا إذا استوثق من أمره ، وأمن على جنده وعلى أخيه شر هزيمة قد يكون وراءها بلاء عظيم .

عبد الله بن سعد يستأذن عثمان

وكان ابن أبى سرح قد « كتب فى ذلك إلى عثمان ، وأخبره بقربهم (أى قرب الروم) من حوز المسلمين ، ويستأذن فى غزوها » [3] ، فأنشأ عثمان يستشير الصحابة وأصحاب الرأى ، وإذا أخذنا بما رواه المالكى والنويرى ، لثبت أن عثمان اهتم اهتماماً عظيماً بأمر إفريقيـــة ، وأنه أطال التفكير فى شأنها ، ويتضح ذلك

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٨٣ والنويرى ، ورقة ٦٢ ا

(٢) البلاذرى ، فتوح ، ص ٢٢٦ (٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص١٨٣ — البلاذرى ، فتوح ، ص ٢٢٦ ، المالكى ، رياض النفوس ، ورقة ١

من رواية للمالكي عليها طابع القصص ولكنها لا تخلو من دلالة لها معناها ، قال : «نحدث عن المسور بن مخرمة عن طريق الزهري ، قال المسور : خرجت من منزلي بليل طويل أريد المسجد ، فإذا عثمان رضي الله عنه في مصلى النبي صلى الله عليه وسلم يصلي فصليت خلفه ، ثم جلس فدعا ليلا طويلا حتى أذن المؤذن ، ثم قام منصرفا إلى بيته ، فقمت في وجهه فسلمت عليه فقال : يا ابن مخرمة ! واتكأ على يدي — إني استخرت الله تعالى في ليلتي هذه في بعث الجيوش إلى إفريقية ، وقد كتب إليّ عبد الله بن سعد يخبر بخبره مع المشركين وغلبهم وقرب حوزهم من المسلمين ، فقلت : خار الله لأمير المسلمين ، فقال فما رأيك يا ابن مخرمة ؟ فقلت اغزوهم ، فقال أجْمَعُ اليوم الأكابر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (وأستشيرهم) فما أجمعوا عليه فعلته ، أو ما أجمع عليه أكثرهم فعلته[1]» . ينسب المالكي هذه الرواية الطويلة إلى الواقدي مما يجعل للشك سبيلا إليها ، لكثرة ما ينسب للواقدي ويُدخَل عليه ، ولا ندري كيف خفيت هذه الرواية القصصية عن الليث بن سعد أو ابن لهيعة أو عبد الملك بن مسلمة ، وهم ثلاثة المحدثين الثقات الذين لا يفتأ ابن عبد الحكم يأخذ عنهم . وعلى أي الأحوال فليس هناك ما يدعو إلى رفض تلك الرواية جملة ، ولا أقل من أن نأخذ بمعناها إجمالا ، لأن الثابت بشهادة البلاذري وابن عبد الحكم[2] أن عثمان استشار الصحابة في غزو أفريقية ،

---

(١) البلاذري ، فتوح ، ص ٢٣٦ وابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٨٧

(٢) بل يزيد المالكي فيذكر أن عثمان عقد شبه مجلس لبحث هذه المسألة ، فيقول رواية عن ابن مخرمة . فقال (أي عثمان) إيت عليا وطلحة والزبير والعباس ، وذكر رجالا ، فخلا بكل واحد منهم في المسجد ، ثم دعا بالأعور بن سعيد بن زيد فقال له عثمان : ما كرهت يا أبا الأعور من بعثة الجيوش الى إفريقيــة ؟ فقال له سمعت عمر يقول : لا أغزيها أحداً من المسلمين ماحملت عيناي الماء ، فلا أرى لك خلاف عمر ، (فقال له عثمان) ، والله ما نخافهم وإنهم لراضون أن يغزوا في مواضعهم ! فلم يختلف أحد ممن شاوره غيره . وفي هذا ما يدل دلالة واضحة على أن عثمان كان شديد الميل إلى إتمام هذا الأمر ، وسواء أصدق المالكي أو كذب فيما زعم =

وأن الرأى قد ثاب له على الغزو فعزم عليه ، « فكتب إلى عبد الله فى سنة ٢٧ ويقال سنة ٢٨ و يقال ٢٩ يأمره بغزوها[1] » .

و يظهر أنه كان لاهتمام الخليفة بهذه الغزاة أثره ، فتقاطر الناس من مختلف القبائل للاشتراك فيها ، وقد يكون دافعهم إلى هذا التهافت الأملُ فى الغنم ، لوفرة ماغنم المسلمون فى بعوثهم الأولى إلى برقة وطرابلس وقلة ما لقوا من المقاومة ؛ وكان على رأس كل قوم نفر من كبرائهم ، واندمج فى سلك الحملة نفر غفير من مشاهير الصحابة وأولادهم[2] .

= من انفراد عثمان بكل من ذكر من الصحابة ليقنعه بالموافقة على الغزو ، فإن قرائن الحال تدل على أن عثمان بذل جهداً كبيراً لإنفاذ هذا البعث ، وأنه أخذ يندب الناس للاشتراك فى هذه الحملة. أنظر : المالكى ، رياض النفوس ، ورقة ٢

(١) البلاذرى ، فتوح ، ص ٢٢٦

(٢) كان هـذا الجيش يسمى جيش العبادلة لاشتراك عبد الله بن سعد وعبد الله بن الزبير وعبدالله بن أبى بكر وعبدالله بن عمر وعبد الله بن زيد بن الخطاب ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب فيه وقد خرج فيه من بنى هاشم عبد الله بن عباس وعبيد الله بن عباس . ومن بنى تميم : عبدالله ابن أبى بكر وعبد الله بن طلحة فى عدة من قومه ومن بنى عدى : عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن زيد بن الخطاب وعبد الله وعاصم ابنا عمر فى عدة منهم ؛ ومن بنى أسد بن عبد العزى عبد الله بن الزبير فى عدة من قومه . ومن بنى سهم : عبد الله بن عمرو بن العاص وعبد المطلب ابن السايب بن وداعة فى عدة منهم . ومن بنى أميـة : مروان بن الحكم وأخوه الحارث . ومن بنى زهرة : المسور بن مخرمة بن نوفل وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث ، ومن بنى عامر ابن لؤى : السايب بن عامر بن هشام وبشر بن أرطأة ، وعدة من بنى هزيل : منهم أبو ذؤيب خويلد بن خالد الهـذلى ، وعبد الله بن أنس وأبو ذر الغفارى ومعاوية بن خديج ورويفع ابن ثابت وأبو زمعه البلوى وعقبة بن نافع الفهرى . ومن جهينة : ستمائة رجل . ومن أسلم : ثلاثمائة رجل ومن مزينة : ثمانمائة رجل ومن بنى سليم : أربعمائة رجل ، ومن بنى الديل وضمرة وغفار خمسمائة ، ومن كعب ابن عمرو أربعمائة ، وكانوا آخر من قدم على عثمان والناس معرسون بالجرف ، والجرف على ثلاثة أميال من المدينة ، وهذا يدل على إقبال الناس على الاندماج فى هذه الحملة ، إذ اشتركت فيها معظم القبائل الكبيرة ووفد إلى إفريقية نفر من مشاهير العرب وكبار الصحابة ، وربما كان بعض هذه الأسماء مدخولا اخترعه مؤرخو المغرب للتعظيم من شأن إفريقية ، ودليلنا على ذلك أنه لم يرد مفصلا إلا فى كتبهم كرياض النفوس ومعالم الإيمان والخلاصة النقية ، ولم يورده من مؤرخى المشرق إلا من أخذ عنهم كالنويرى . أنظر : المالكى ، رياض النفوس ورقة ٢ — النويرى ، نهاية الأرب ، ورقة ٦٢ أ و ٦٢ ب و ٦٣ أ

ويبدو أن عثمان استمر يدعو الناس لغزو إفريقية بضعة أيام ، وأن المتطوعين كانوا يتوافدون إلى الجرف على ثلاثة أيام من المدينة ، وكان لا ينى يشجع الناس على التطوع ، فأعان الجيش بألف بعير من ماله : يُحمل عليها ضعفاء الناس ، وحمل على خيل ، وفرّق السلاحَ وأمر للناس بأعطياتهم وذلك فى المحرم سنة ٢٧ هـ[١] .

فلما اكتمل الجيش « خطب عثمان الناس ورغبهم فى الجهاد ، وقال لهم : لقد استعملت عليكم الحارث بن الحكم إلى أن تقدموا على عبد الله بن سعد فيكون الأمر إليه ، واستودعتكم الله[٢] » . وهذا يدل على أن عثمان لم يبرح معنياً بأمر الحملة باذلا جهده فى إنفاذها و إعدادها ، حتى فصلت عن المدينة .

— ٣ —

وصول القوات إلى مصر

وصلت تلك القوات إلى عبد الله بن سعد فى مصر ، فجمع إليها ما كان لديه من الجند ، فصار له جيش عدته نحو عشرين ألفاً باتفاق الرواة ، فاستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهنى ، ومضى هو إلى إفريقية[٣] .

تختلف الروايات فى شأن هذه الغزوة اختلافاً بيِّناً ، وليس الاختلاف مقصوراً على سير الحوادث أو توقيتها ، و إنما يتناول الحوادث نفسها ، فنجد فى بعض الروايات أشياء لا نجدها فى روايات أخرى ، بل إن بعض مؤرخى هذه الفترة كالمالكى ، يعرض ثلاث أو أربع روايات للحادثة الواحدة تتباين تبايناً شديداً ، فيحسن أن نوجز ذكر ما ثبت صدقه من أحداث هذه الحملة ، ثم نعرض بعد ذلك لما يكون من أقوال المؤرخين فنناقشها :

تتفق الروايات كلها على أن عبد الله حاصر طرابلس فى طريقه ، ثم استصوب

---

(١) النويرى ، نهاية الأرب ، ورقة ٦٣ ا (٢) نفس المصدر والصفحة

(٣) الكندى : القضاة والولاة ، ص ١٣ — ١٤

وقد أخطأ النويرى فذكر أن عبد الله بن سعد خلف على مصر عقبة بن نافع ، لأن عقبة كان لا يزال بإفريقية ، وسيلتى قوات بن أبى سرح فى برقة : النويرى ، ورقة ٦٣ ا .

أن ينصرف عنها كسباً للوقت ، وكذلك فعل عند قابس ، وأنه التقى بجريجوريوس ومن معه من الجند بمكان قريب من سُبَيْطِلَة يسميه البلاذرى عَقُوبة ، فدارت الدائرة على الروم ، وقتل جريجوريوس وتقهقرت جموع الروم المنهزمة إلى حصن فى الشمال يسمى الجَمْ (الأجام) Thysdrus ، فحاصرهم فيه مدة طويلة أسرعوا بعدها إلى طلب الصلح ، وكانت خيله قد أخذت تجتاح نواحى ولاية إفريقية فى هذه الأثناء ، فاجتاحت الولاية الداخلية ووصلت إلى قفصة ، وأخيراً تمت المفاوضات على أن ينسحب من البلاد لقاء مبلغ كبير من المال اختلف فى تقديره المؤرخون ، ثم عاد من إفريقية دون أن يترك بها عاملا أو حامية .

تلك هى الأحداث التى ينعقد عليها إجماع المؤرخين فيما يتصل بهذه الحملة ، وما عدا ذلك فتفصيلات لا يشملها الإجماع ويشوبها الشك فى كثير من الأحيان ، كتفاصيل واقعة سُبَيْطِلة التى يورد كل من المالكى وابن الأثير وابن عذارى والنويرى طرفاً منها ، والتى يتكون منها وصف طويل ممتع فيه الكثير من الخيال والاختلاق ، وكالدور العظيم الذى ينسب إلى عبد الله بن الزبير وقتله جرجير ، وكقصة ابنة جرجير ، وما إلى هذه من القصص التى يورد المالكى وحده أربعاً منها كما ذكرنا ، ولا بأس من أن نمر بهذه الروايات لعل فيها شيئاً يزيد قصة الفتح الحقيقية وضوحاً .

مسير عبدالله ابن سعد إلى إفريقية

لا شك فى أن ابن أبى سرح كان قد استعد لهذه الغزاة استعداداً طيباً ، فأتته عيونه بالأنباء وأوقفته على الخطة المثلى التى ينبغى عليه اتباعها حتى يصل إلى ما يريد ، كانت لديه المعلومات الدقيقة عن مركز جريجوريوس وحكومته من الناحية السياسية : بهذا تتحدث أقدم الروايات ، وعليه تدل خطة الفتح نفسها ، فقد حدث ابن لهيعة أن هرقل « كان استخلف جرجير ، فخلعه » ، ثم يضيف ابن عبد الحكم : « وكان مستقر سلطان أفريقية يومئذ بمدينة يقال لها قرطاجنة ، وكان عليها ملك يقال

له جرجير ، كان هرقل استخلفه فخلع هرقل وضرب الدنانير على وجهه ، وكان سلطانه مابين طرابلس إلى طنجة »[1]. وهذا حديث قريب جداً من الصحة ، ولا يتطرق إليه الشك إلا من ناحية القول بأن جرجير ضرب الدينار برسمه ، إذ لم توجد إلى الآن آثار تشهد بذلك ، ولو وجدت لذكرها توكسيبه فى مقاله الذى استقصى فيه كل ماخلفه جرجير من الآثار وأورد ما عليها من النصوص ليؤكد أن اسمه — أى اسم جرجير — كان جريجوريوس فلاقيوس الأرمنى .

حينما فصل ابن أبى سرح عن مصر كان معه عشرون ألف جندى مابين عرب من الجزيرة وجند وقبط من مصر وبربر من أهل أفريقية ، وكانت خطته ترمى إلى المسير إلى جرجير فى عاصمته رأساً والقضاء عليه فى موقعة حاسمة ، فلا تلبث النواحى والحصون الأخرى أن تسقط من نفسها، ويبدو أنه كان يقدم أمام جيشه الطلائع الكثيرة التى تكشف له الطريق ، على هذا يدل قول الزّهرى عن ربيعة ابن عباد الديلى ، قال : « لما وصلنا قدم عبد الله الطلائع والمقدمات أمامه »[2] .

وصل عبد الله إلى برقة ، فلقيه عندها عقبة بن نافع « فيمن معه من المسلمين ، وكانوا بها ، وسار نحو أفريقية ، وبث السرايا فى كل ناحية»[3]. ثم وصل طرابلس

---

(١) ابن عبد الحكم، فتوح، ص ١٨٣ . ورواية ابن الأثير أقل دقة ، فلا ذكر فيها لثورة جرجير : « وكان ملكهم اسمه جرجير ، وملكه من طرابلس إلى طنجة ، كان هرقل ملك الروم ولاه إفريقية ، فهو يحمل إليه الخراج كل سنة » : ابن الأثير ، ج ٣ ص ٣٤

ويظهر أن جريجوريوس لم يتراجع من قرطاجنة إلى سبيطلة إلا قبيل حملة عبد الله بقليل من الزمان، فإجماع مؤرخى العرب على أن العاصمة كانت قرطاجنة يدل على أن أهل إفريقية — ومنهم أخذ عيون عبد الله هذه المعلومات — كانوا لا يعلمون عن انتقال جريجوريوس الى سبيطلة ، ويؤكد ذلك أن ما غنمه العرب من هذه الأخيرة لا يكاد يعدل ما غنموه من كثير من المدن الأخرى ، مما يدل على أن جريجوريوس لم يكن له من الوقت ما يمكنه من نقل كنوزه من قرطاجنة .

(٢) النويرى ، نهاية الأرب ورقة ٦٣ (١)، وقد أورد هذه الرواية بالنص الدباغ فى معالم الإيمان، ج ١ ص ٣٥ (٣) ابن الأثير ، ج ٢ ص ٣٤ ، وقد علق كودل على ذلك بقوله عن هذا المدد الذى ضمه عقبة — بجنده — إلى حملة عبد الله : « كان رجال عقبة إفريقيين قدماء =

فوجد أهلها قد امتنعوا خلف أسوارها ، فلبث على حصارها أياماً ، فخاف أن يطول به الوقوف بطرابلس وهو يريد الإسراع إلى جرجير فى عاصمتـه ، فأمر رجاله بالانصراف : « وكره عبد الله أن يشتغل بذلك عما قصد إليه ، فأمر النـاس بالرحيل»[1] . وكذلك فعل حين أدرك قابس : وجد أهلها متحصنين ، فانصرف عنها ، إذ أشار عليه الصحابة أن لا يشتغل بها عن أفريقية ، « فسار وبث السرايا فى كل وجه ، وكان يؤتى بالبقر والشاة والعلف[2] » .

— ٤ —

واقعـــة سبيطلة

واقعـــة سـبيطلة

أفضى عبد الله بذلك إلى سهل تونس ، وكان جريجوريوس يستطيع أن يقف للمسلمين عند قابس ويسد عليهم الطريق الضيق الذى يؤدى من طرابلس إلى أفريقية — بين قابس وشط الجريد — ، ولـكنه فضل الانتظار فى مكان تسميه الرواية العربيـة « عقوبة »[3] على أميـال من سبيطلة ، ويغلب أنه كان أحد

= من أيام عمرو بن العاص ، وقد عرفوا البـلاد معرفة طيبة ، وعرفوا كذلك الأسلوب الذى ينهج فى الحرب فيها ، وكانوا قد سبق لهم حصار طرابلس فى سنة ٢٣ هـ ، وهاهم يجدون أنفسهم يحاصرونها مرة أخرى حصاراً أقل توفيقاً من المرة السابقة » Caudel op. cit II, 64—65 .

(١) النويرى ، نهاية الأرب ، ورقة ٦٣ (ب) وقد روى النويرى ونقل عنه المالكى ، أن سفناً أرست بالمدينة والعرب على حصارها ، فقاتلوهم حتى اسـتولوا على السفينة بما فيها ، ولستطيع أن نستنتج من هـذه الرواية (إذا صدقت) أحد أمرين : إما أن العلاقات عادت فاتصلت بين طرابلس وبلاد الروم بعد استيلاء عمرو عليها سنة ٢٣ ، وإما أن هـذه السفينة كانت تحمل مدداً إلى أهل طرابلس (النويرى نفس الصفحة ، المالكى ورقة ٢) ، وفى انصراف عبد الله عن طرابلس دون أن يستولى عليها ، يقول كودل : « اعتبر أهل طرابلس بما حدث لهم سنة ٢٣ ، فتحصنوا جيداً ، وتبين العرب ذلك فاكتفوا بنهب ما حول المدينة » ، ولا ذكر لهذا النهب الذى يذكره كودل فى المراجع التى ينقل عنها عادة ، وهى رياض النفوس والمونس ومعالم الأعان .Caudel op. cit. II, 64 s

(٢) النويرى ، ورقة ٦٣ (ب) — المونس ، ص٢٣ ، معالم ج ١ ص٣١

(٣) البلاذرى ، فتوح ص٢٣٦ ، ويصفه النويرى بقوله : لحص منيع يسمى بعقوبة بينه وبين دار ملك الروم مسيرة يوم وليلة ، وهى المدينة المسماة سبيطلة (النويرى ، ورقة ١٦٣)

الحصون الكثيرة أو المحارس المتعددة التى كانت تحيط بسبيطلة[1] .

وصول المسلمين إلى أفريقية

تذهب الروايات العربية إلى أن عبد الله تقدم إلى الشمال حتى بلغ مكاناً يقال له قمونية[2] ، أو قمودة ، وهنـاك وقف ، وبدأت المفاوضات بينه وبين جريجوريوس ، ويظهر أن المناوشات كانت مستمرة بين الفريقين طوال فترة المفاوضة ، إذ يقول ابن الأثير : « فأقاموا هنالك يقتتلون كل يوم ، وراسله عبد الله ابن سعد يدعوه إلى الإسلام أو الجزية فامتنع منهما ، وتكبر عن قبول أحدهما ، وانقطع خبر المسلمين عن عثمان ، فسير عبد الله بن الزبير فى جماعة إليهم ليأتيه بأخبارهم »[3] .

نستطيع أن نستنتج من روايات ابن عبد الحكم والمالكى وابن الأثير والنويرى وابن عذارى أن أمد هذه المفاوضات قد طال ، وأن جريجوريوس نشط للقاء العرب بجيش عظيم[4] ، وأن العرب داخلهم بعض الخوف من تحفزه وجمعه جموعاً

(١) الأقرب للصواب أن عقوبة لم يكن مجرد خص أى سهل ، وإنما كان فيه حصن قوى دارت الموقعة حوله ، وقد ورد ذكره كثيراً فى الروايات ، فيقول المالكى : « فانهزم جرجير ، ولزمه عبد الله بن الزبير فى عجاج الحرب . . . وقتله إلى جانب السور وابنته تنظر من السور إلى قاتله ، وسبقت خيول المسلمين الروم إلى باب الحصن فحالوا بينهم وبين الدخول إلى حصنهم » : رياض النفوس ، ورقة ٣

(٢) يغلب أنها كابوت فادا Caput Vada الميناء البيزنطى المعروف ، وربما كانت هى قمودة المشار إليها فى الإدريسى (ص ١٠٣) ، والاثنتان قريبتان من مكان القيروان ، وهـذا هو التحديد الوحيد الذى ورد عن هـذه البقعة فى رياض النفوس (ورقة ٣)

(٣) ابن الأثير ، ج ٣ ص٣٤ — نجد تفصيل هذه المفاوضة بصورة أوفى فى النويرى (ورقة ٦٣ ب) والمونس (ص ٢٣) والمالكى (ورقة ٢) ، ولا يبعد أن تكون هذه المفاوضات قد جرت بين الفريقين قبل الموقعة ، فقد كانت هذه خطة العرب قبل كل حرب .

(٤) يقول ابن الأثير فى وصف استعداد جرجير : « فلما بلغه خبر المسلمين ، تجهز وجمع العساكر وأهل البلاد ، فبلغ عسكره مائة ألف وعشرين ألف فارس (ج ٣ ص ٣٤) وقد بالغ رواة العرب فى تقدير قوة جرجير مبالغة ظاهرة فذهبوا إلى أنهم كانوا ١٢٠ ألفاً (النويرى ورقة ٦٣ ب والمونس ص ٢٣) ، ويستبعد أن يكون لدى جرجير هذا القدر من الجنود لأنه : أولا ، ثائر على الدولة لا تأتيه إمدادات ، ولا يعقل أن يكون فى أفريقية كل هؤلاء الجنود ، وثانياً لا يدل سياق الحوادث إلى الآن على أنه كان يقود قوة كبيرة ، وربما التفت حوله جموع كثيرة =

كثيرة من الروم والبربر ، فلم يبدأ القتال الجدى بعد انقطاع المفاوضات وإباء جرجير للجزية أو الإسلام مباشرة ، بل يبدو من رواية ابن عذارى — على وجه الخصوص — أن المسلمين أدركهم بعض التراخى ومالوا إلى طلب الإمداد ، وربما بعثوا فى طلبها[1] .

تتفق الروايات على أن أخبار حملة أفريقية انقطعت عن عثمان ، فبعث عبد الله ابن الزبير فى فئة قليلة ليتعرف له ما تم فى أمر عبد الله بن سعد وأصحابه[2] ، ويظهر أن ابن الزبير أدرك جيش المسلمين وقد بلغ اليأس من الجند مبلغاً عظيما ، لأنهم هللوا وكبروا وفرحوا فرحاً عظيما ، وبلغ من شدة فرحهم أن الروم حسبوا أن الأمداد وصلت للمسلمين فتخوفوا من ذلك[3] .

المناوشات الأولى

كانت المناوشات مستمرة بين الفريقين طوال هذه المدة ، وكان الجانبان يتقاتلان بفتور ، وكان المسلمون يقاتلون الروم كل يوم إلى الظهر ثم ترجع كل طائفة إلى معسكرها وتضع الحرب أوزارها[4] ، ويبدو من تخوف الروم من وصول

= من الروم وأهل البلاد من غير المحاربين خوفاً من العرب ، فظن هؤلاء أن كل من معه جنود فيقول الباجى مثلا : « وكان العدو — أى جرجير — فى مائتى ألف مقاتل » ، راجع : الخلاصة النقية للباجى ص ٤١ — النجوم الزاهرة لأبى المحاسن : ج ١ ، ص ٨٥

(١) ورد فى ابن عبد الحكم « وقد قيل إن عبد الله ابن سعد قد كان وجه مروان ابن الحكم إلى عثمان من إفريقية ، فلا أدرى أفى الفتح أم بعده (ص ١٨٦ — ١٨٧) » ويغلب أن ذلك كان قبل الفتح ، لأن الذى وُجه بعد الفتح هو عبد الله بن الزبير ، والأغلب أنه أرسل لطلب الإمداد أو لإبلاغ الخليفة أن مركز المسلمين ليس على ما يرام (٢) ليس فى روايتى ابن عبد الحكم والبلاذرى ما يدل صراحة على أن عبد الله أرسل من المدينة ليتعرف الأخبار ، ولكن بقية الرواة يجمعون على أنه أرسل ، مما يميل بنا إلى تصديق ذلك ، ويذهب النويرى إلى أن عبدالله كان على رأس اثنى عشر رجلا فقط (ورقة ٦٤ ا) . (٣) ولما « وصل كثر الصياح والتكبير فى المسلمين ، فسأل جرجير عن الخبر فقيل : قد أتاهم عسكر ، ففت ذلك فى عضده » (ابن الأثير ج ٣ ص ٣٤) . « فسار — أى عبد الله بن الزبير — يجد السير حتى قدم على المسلمين فوصل ليلا فسروا به ، ووقع فى العسكر صيحة خافت الروم منها » نهاية الأرب (ورقة ٦٤ ا)

(٤) ابن الأثير ج ٣ ص ٦٤ والنويرى ، نهاية الأرب ، ورقة ١٦٢ ، ولا نجد فى غير هذين من المؤرخين ما يدل على أن عبد الله بن سعد كان يتبع هذه الطريقة بالذات ، وإنما تتفق الروايات كلها على أن المناوشات كانت تدور بفتور .

الأمداد للمسلمين ، أنهم كانوا يتوقعون هجوم العرب عليهم بين لحظة وأخرى ، وهناك مايدل على أن العرب أنفسهم كانوا على خوف طوال هذه الفترة ، إذ روى ابن عبد الحكم : « صلى عبد الله بن سعد بالناس بافريقية المغرب، فلما صلى ركعتين سمع جلبة فى المسجد ، فراعهم ذلك وظنوا أنهم العدو ، فقطع الصلاة، فلما لم ير شيئاً ، خطب الناس ثم قال : إن هذه الصلاة احتضرت ، ثم أمر مؤذنه فأقام الصلاة ثم أعادها »[1] ، مما يدل على أن المسلمين كانوا على الحذر وتوقع الشرّ فى كل لحظة ، بل إن رواية النويرى تدل على أن ابن أبى سرح نفسه كان لا يثق كثيراً بمن معه من الجند ، فقد رُوِىَ أنه قال لعبد الله بن الزبيرَ معللا اختفاءه فى فسطاطه : « وغير خاف عنك من معى ، وأكثرهم حديثو عهد بالإسلام ، ولا آمن أن يرغبهم ما بذل لهم جرجير فيقتلونى ، فهذا سبب تأخرى »[2]، بل إن ابن عذارى يقرر أن المسلمين بلغ بهم الخوف واليأس حدّ الاختلاف على ابن سعد ، مما أوقعه فى الحيرة ودفعه إلى الانزواء فى فسطاطه ، حتى أنقذ المسلمين من ذلك قدوم عبد الله بن الزبير[3] ومن معه .

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٨٥ (٢) النويرى ورقة ٦٤ ا و ب — وقد وردت فى ابن الأثير عبارة تشير الى ذلك، إذ يقول : « فلم ير — أى عبد الله بن الزبير — ابن أبى سرح معهم ، فسأل عنه ، فقيل إنه سمع منادى جرجير يقول : من قتل عبد الله بن سعد فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتى ، وهو يخاف » ابن الأثير ج ٣ ص ٣٤ . وظاهر أن حكاية مناداة جرجير فى جيشه ووعده بإعطاء مبلغ كبير من المال لقاتل عبد الله وتزويجه ابنته — أى ابنة جرجير — مخترعة ، ولكنا نستطيع أن نحكم على وجه العموم بأن عبد الله كان متخوفاً من الروم . (٣) « وكان جرجير صاحب إفريقية والمغرب فى مائة وعشرين ألفاً ، فضاق المسلمون فى أمرهم ، واختلفوا على ابن أبى سرح فى الرأى ، فدخل فسطاطه مفكراً فى الأمر، وهذا أمر معقول جداً ، ولكن ابن عذارى يبالغ بعد ذلك بقليل فى تفصيل ذلك ، فيقول رواية عن لسان عبد الله بن الزبير: فأتيت فسطاط عبدالله بن سعد فطلبت الإذن عليه ، فقال لى حاجبه : دعه فإنه يفكر فى شأنكم ، ولواتجه له رأى لظهر أو دعا بالناس ، فقلت إنى أحتاج إلى مذاكرته ، فقال إنه أمرنى أن أحبس الناس عنه حتى يدعونى » ابن عذارى ، ص ٥ — ٦ وتلك مبالغة من ابن الزبير كما سيتضح .

الدور الذى قام به عبدالله ابن الزبير

يبالغ بعض المصادر مثل ابن الأثير فى تقدير الدور الذى لعبه عبد الله بن الزبير فى فتح إفريقية ، فيذهب المالكى وابن الأثير وابن عذارى والنويرى والدباغ والباجى إلى أنه وصل إفريقية ، فوجد المسلمين يقاتلون كل يوم حتى الظهر ، ووجد قائدهم عبد الله ابن أبى سرح متخوفاً من أن يقتل فى المعركة ، فحاول أن يتصل به ، فوجد أنه قد أوصد أبوابه ، وأمر أن لا يراه أحد ، فاحتال حتى رآه[1] ، فقال له : « إن أمرنا يطول مع هؤلاء ، وهم فى أمداد متصلة وبلاد هى لهم ، ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم ، وقد رأيت أن نترك غداً جماعة صالحة من أبطال المسلمين ، لم يشهدوا القتال وهم مستريحون ، ونقصدهم على غرة فلعل الله ينصرنا »[2] ؛ وليس ببعيد أن يكون ابن الزبير قد لاحظ فتور الفريقين فى القتال ، وتخوفهما الاشتباك فى معركة حاسمة[3] ، فأشار على المسلمين باتباع هذه الخطة ، ولكن ما يقال عن فتور ابن أبى سرح واختبائه لا يتفق مع ما نعرفه عنه ، ولم يرد له ذكر عند أساطين الرواية الأول من أمثال الليث بن سعد وابن لهيعة ومسلمة بن عبد الملك ، ثم أن خطة عبد الله ابن سعد كانت واضحة بينة ، تنحصر فى السير رأساً إلى إفريقية وملاقاة الروم والقضاء على قوتهم فى موقعة فاصلة ، فكيف يتفق هذا مع ما يروى

---

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ١ ص ٥ — ٦

(٢) ابن الأثير ، جـ ٣ ص ٣٤ — وقد نقل النويرى كلام ابن الأثير مع تحريف قليل : « إنى فكرت فيما نحن فيه ، والقوم فى بلادهم والزيادة فيهم والنقصان فينا ، وقد اتصل بى أنه أنفذ إلى جميع نواحيه بالحشد والجمع » ورقة ٦٤ ب .

(٣) « وقد رأيت أصحابه — أى الروم — إذا سمعوا الأذان أغمدوا سيوفهم ورجعوا إلى مضاربهم ، وكذلك المسلمون جرياً على العادة ، والرأى عندى أن يترك غداً إن شاء الله أبطال المسلمين فى خيامهم بخيلهم وعددهم ، وتقاتل بقايا الناس على العادة ، ونطول فى القتال حتى يثبت القوم ، فإذا انصرفوا ورجع كل إلى مضربه ، وأزال لامة حربه ، يركب المسلمون ويحملون عليهم والقوم على غرة ، فعسى الله تعالى أن يظفرنا بهم وينصرنا عليهم » النويرى ، نهاية الأرب ، ورقة ٦٤ ب . ولا وجود لهذا الحديث فى رياض النفوس أو معالم الأيمان أو ابن عذارى أو الباجى ، ولكنهم يتفقون جميعاً على أنه هو الذى قتل جرجير فى الوقعة الكبرى .

من خوفه واختبائه ولوم ابن الزُبير إياه؟ معقول جداً أن يكون الرجل قد آثر التريث قليلا حين وقف وجهاً لوجه أمام الروم ، وربما كان سبب ذلك أن جرجير ظهر بمظهر القوى العزيز الذى لا يأبه للعرب أو يحفل لهم ، وقد يكون لما رواه ابن عذارى من اختلافه مع الجند ودخوله فسطاطه مفكراً [١] ظل من الحقيقة ، أما الخوف والاضطجاع فى الفسطاط والحرب دائرة بين المسلمين والروم ، فأمر غير محتمل الوقوع ، ولا نزاع فى أنه مكذوب ومخترع .

إلى جانب هذه الروايات التى تصف جبن ابن أبى سرح وتؤكد عجزه ، نجد رواية أخرى تؤكد أن ابن الزبير كان بطل هذا الميدان وفارسه ، وأنه هو الذى أنقذ المسلمين واختط لهم فى الحرب خطة جديدة ، وقادهم فى الموقعة ، وقتل جرجير ، وأبدى من صنوف الشجاعة وسداد الرأى و إنكار الذات ما يرفعه إلى مصاف أكبر الفاتحين المسلمين من أمثال خالد وعمرو بن العاص ؛ و يغلب أن نجد الروايتين جنباً إلى جنب فى معظم المراجع التى تقدم ذكرها : نجدها أولا فى رياض النفوس وابن الأثير ثم فى [٢] والنويرى والمونس [٣] .

أما ابن عبد الحكم فيذكر هذا الخبر فى كثير من الحذر فيقول : « حدثنا

---

(١) أنظر : البيان المغرب ، جـ ١ ص ٥ (٢) لا يذكر القيروانى شيئاً عن جبن ابن أبى سرح وخوفه ، وإنما يذكر قتل ابن الزبير لجرجير وأخذه ابنته .

(٣) لا يشير المالكى إلى خوف ابن أبى سرح ، ولا ينسب خطة تقسيم الجيش نصفين — نصف يحارب إلى الظهر ونصف يحارب من الظهر — إلى ابن الزبير ، بل يذكرها عرضاً ، ولكنه يشيد بشجاعة ابن الزبير : « فلما التقوا بالمسلمين نادى جرجير بالبراز ، فبرز إليه عبد الله ابن الزبير ومروان بن الحكم فقتله » (رياض، ورقة ٣) ؛ ونلاحظ أن فى روايته مشابهة كبيرة لما نجده فى فتح أفريقية المنسوب للواقدى ، الذي نجد فيه عبد الله بن جعفر مكان عبد الله ابن الزبير ، وكلتا الروايتين فى الغالب من اختراع الرواة ، فالأولى اخترعها دعاة العلويين والثانية ابتكرها دعاة ابن الزبير أثناء خلافته أو بعدها ، وليس من المستبعد أن تكون خلافة ابن الزبير وأعماله قد أصبحت أسطورة بعد مقتله الروائى ، ولا ننسى أن ابن الزبير كان شديد الافتتان بنفسه واسع الدعاية لها .

عبد الملك بن مسلمة ، حدثنا ابن لهيعة قال : كان هرقل استخلف جرجير لخلعه ، ثم رجع إلى حديث عثمان بن صلح وغيره، قال : فلقيه — ابن أبى سرح — فقاتله فقتله الله ، وكان الذى ولى قتله — فيما يزعمون — عبد الله بن الزبير »[1]، وكذلك البلاذرى يسندها إلى ابن الزبير نفسه ويقول : « حدث محمد بن سعد ، عن الواقدى ، عن أسامة بن زيد بن سلم ، عن نافع مولى آل الزبير ، عن عبد الله ابن الزبير قال : « أغزانا عثمان، فسار عبد الله بن سعد بن أبى سرح حتى حل بعقوبة ، فقاتله أياماً نقتله وكنت أنا الذى قتلته »[2] . فإذا أخذنا بروايتى ابن عبد الحكم والبلاذرى — وهما أحق بالثقة من غيرهما — كان فى إمكاننا أن نشك كثيراً فى المبالغات الشديدة التى ينسبها مَن بعدهما من المؤرخين إلى ابن الزبير ، وإذا أضفنا إلى ذلك أن ابن عبد الحكم نفسه ، يروى بعد ذلك خبراً صغيراً يهدم كل ماينسب لابن الزبير ، ازددنا تأكداً من ذلك الرأى ؛ ذلك أن الرواية التى تنسب إلى ابن الزبير فخر موقعة سبيطلة وقتل جرجير ، تؤكد أنه أخذ ابنته جزاء له على مافعل[3] ؛ ولكن ابن عبد الحكم يروى رواية أخرى فيقول : « وكانت ابنة جرجير كما حدثنا أبو عبد الله بن عبد الحكم وسعيد بن عفير قد صارت

---

(١) ابن عبد الحكم فتوح ، ص ١٨٤ — ورواية ابن عبد الحكم عن الموقعة ناقصة ، إذ هو لا يذكر مكانها ولا شيئاً مما وقع بعدها مباشرة (٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٢٦

(٣) يقول ابن الأثير : « وقتل جرجير ، قتله ابن الزبير وأخذت ابنة الملك سبية ، ونفل عبد الله بن الزبير ابنة الملك » ابن الأثير ج ٣ ص ٣٥ ؛ أما النويرى فيقص هذه الحادثة فى شىء من التطويل الذى يسمو بابن الزبير إلى درجات الأبطال : « وأسرت ابنة الملك وأتى بها إلى عبد الله بن سعد ، فسألها عن أبيها قالت قتل ، قال أتعرفين قاتله ؟ قالت نعم إذا رأيته ، عرفته ، فلما أقبل — أى ابن الزبير — قالت هذا قاتل أبى ، فقال له بن سعد ما منعك أن تعلمنا بذلك لنفى لك بما شرطناه ، فقال أصلحك الله ما قتلته لما شرطت ، والذى قتلته له يعلم ويجازى عليه أفضل من جزائك ولا حاجة لى فى غير ذلك ، فنفله ابن سعد ابنة الملك ، فيقال إن ابن الزبير اتخذها ابنة ولد — النويرى نهاية الأرب ، ورقة ٦٥ (ا) وقد نقل المالكى ذلك فيما أورده من الروايات : رياض النفوس ورقة ٣

لرجل من الأنصار فى سهمه ، فأقبل بها منصرفاً قد حملها على بعير له فجعل يرتجز :

يا ابنة جرجير تمشى عُقبَتِك   إن عليك بالحجاز ربتك

لتحمِــلِن عن قبــاء قربتك

قالت مايقول هذا الكلب ؟ فأخبرت بذلك ، فألقت بنفسها عن البعير الذى كانت عليه فدقت عنقها فماتت »[1]. فكيف يتفق أن تصير ابنة جرجير لابن الزبير ولرجل من الأنصار فى وقت واحد ؟

ذلك مانستطيع أن نستنتجه من رواية ابن عبد الحكم ، فإذا أضفنا إلى ذلك مانلاحظه من الشك فى رواية البلاذرى ، إذ يسوق الرواية عن ابن الزبير نفسه ، استطعنا أن نؤكد أن قصة قتل ابن الزبير لجرجير ، وأخذه إبنته ، وإبدائه مايروى من التعفف والورع والزهد . . . كل ذلك لا أصل له فى الحقيقة ، ولم يكن يثق به أئمة الرواية الأول ، وإنما دسه الدعاة أو اخترعه الرواة[2] ؛ هذا فضلا عن أن هناك

---

(1) ابن عبد الحكم، فتوح ، ص ١٨٥؛ ويبدو على هذه الرواية رونق الصدق، وتحوى إلى ذلك معنى لطيفاً .

(2) أول من أورد ذلك من المؤرخين هو ابن الأثير (+ ٦٣٠ هـ) ، ولكنها لاتوجد فى المراجع التى ثبت أن ابن الأثير أخذ عنها كالبلاذرى (وقد عرفنا موقفه) والطبرى (وليس فيه إشارة إلى ذلك أصلا) والمسعودى (ولا وجود لها عنده) .

ويسوق النويرى روايته عن الزهرى ، عن ربيعة بن عباد الديلى ، والزهرى هـذا هو — فى الأغلب — المسور بن مخرمة الزهرى الذى قص القصة الطويلة التى سبق ذكرها ، وزعم فيها أنه لقى عثمان فى المسجد ليلا مهموماً بأمر غزاة إفريقية...الخ (راجع ص٧٩ — ٨٠ من هذه الرسالة) ، وقد شككنا فى روايته الأولى ، لأن ماينسب إليه عليه مسحة الأحاديث المكذوبة ، ولا نستطيع أن نثق فيما حكاه عن عبد الله ابن الزبير ، أما ربيعة بن عباد الديلى الذى أخذ عنه الزهرى ، فلا وجود له فى الثبت الذى أورده النويرى عن كبار رجال الحملة ، ولا وجود له كذلك فى معالم الإيمان .

أما ابن عذارى فيغلب أنه نقلها عن ابن الأثير وأضاف إليها ماسمعه من رواة عصره، ولابد أن الأسطورة كانت قد كبرت وشاعت حتى أيامه كما يبدو من روايته ، ويبعد أن يكون أخذها عن ابراهيم بن الرقيق لأنها لاتوجد عند غيره ممن أخذوا عن ابن الرقيق كابن خلدون والتيجانى والحسن الوزان (ليون الأفريقى) .

نفراً من المؤرخين — الذين يعتمدون على الرواية اليونانية — كالمسيو توكسييه . يشك فيما إذا كان جريجوريوس قد قتل فى معركة سبيطلة أصلا[1] .

يخلص لنا من ذلك إن ما يقال عن بطولة ابن الزبير فى أفريقية مشكوك فيه جداً ، سواء من ناحية إسناده أو اتفاقه مع الواقع ، وهو أقرب إلى القصص التى لا يمكن التعويل عليها فى كتابة التاريخ .

نستطيع أن نوجز وصف الموقعة مما يصح لنا ويثبت من أقوال المالكى وابن الأثير والنويرى وابن عذارى :

---

(١) كتب الأستاذ Tauxier فى المجلة الأفريقية La Revue Africaine (سنة ١٨٨٥ ص ٢٨٤ — ٣٠٣) مقالا ذهب فيه إلى أن جريجوريوس لم يقتل فى موقعة سبيطلة ، اعتماداً على قول تيوفانيس فى (Chronographia ص ٢٨٥) : « هزم جريجوريوس وقتل من معه » ، ويقول توكسييه فى تعليل ذلك : « وعلى الرغم من ذلك فإنه — أى جريجوريوس — لم يرد له ذكر فى التاريخ بعد ذلك ، فلم يكن هو الذى أكمل الكفاح ولم يكن هو الذى فاوض ابن سعد فى رجوع الغزاة العرب ، إذ أقام الأفارقة مكانه جناحه Ghenaha ، واستغنوا عن الرجوع إلى أحضان القسطنطينية ، « أما جريجوريوس فإنه بعد أن طرده رعاياه الأول من الحكم لم يعد يمكنه البقاء فى البلاد ، إذ لم يكن جناحه يسمح بذلك ، ولم يكن يفكر كذلك فى القسطنطينية خوفاً مما كان ينتظره فيها من العقاب الصارم جزاء ثورته ، ولم يبق له بعد ذلك إلا أن يسلم نفسه — بشروط — إلى الفاتحين ، ومن ذلك أستطيع أن أستنتج أن الذى حدث هو أن عبد الله بن سعد اصطحبه معه فى رجوعه إلى مصر ، وأدخله هليوبوليس حيث مات ، وهذا هو التفسير الوحيد المقبول لما يقال عن موت أخ لهرقل فى هذه المدة » . وهذا رأى خاطىء لا يعززه أى برهان ، ولو كان جرجير مع عبد الله لما أغفل العرب ذكر ذلك لأن ذلك أمر له أهميته وخطره . ثم إن موت جرجير فى هليوبوليس ، بعد رجوع العرب بست سنوات — أى سنة ٣٣ — لا ذكر له فى الروايات ، وإذا كان تيوفانيس قد قال إن أخاً لهرقل مات فى هليوبوليس فى هذه السنة ، فقد بطلت حجة توكسييه ، لأن جويجوريوس لم يكن أخا هرقل .

ثم يقول الأستاذ توكسييه بعد ذلك : ثم إن لنظريتى هذه نتيجة مباشرة ، وهى رفض الأسطورة التى يرويها مؤرخو العرب من أن ابنة لجويجوريوس أسرت أثناء موقعة سبيطلة ، وقد سبق أن أثبت المسيو دى سلان (فى تاريخ البربر ج ١) أن هذه الروايات — يقصد الروايات العربية — أخذت إحداها عن الأخرى ، وانتهى من ذلك إلى أنه لا يثق من هذه الروايات إلا برواية ابن عبد الحكم الذى يصور لنا جريجوريوس مقتولا على يد عبد الله ابن الزبير .

دارت المعركة على مقربة من حصن عقوبة[1]، إذ تقدم العرب من قمونية بعد أن فشلت مفاوضتهم [2] ، وكان جرجيريوس مجتمعاً بأعيان قومه على مقربة من باب الحصن[3]، يدير دفة القتال ، وربما كان قد اصطحب معه ذويه وجعلهم داخل الحصن (انظر هامش ٣) ، ومن هنا نشأت أسطورة ابنة جرجير ، وكان جيش الروم على مبعدة من الحصن ، وهناك دارت الموقعة [4] ، وظلت المناوشات أياماً حتى أجهد الفريقان ، ولجأ العرب إلى الحيلة المعروفة التى تؤكدها أغلب الروايات وتنسبها إلى ابن الزبير إذ قال : « والرأى عندى أن نترك غداً إن شاء الله أبطال المسلمين فى خيامهم بخيلهم وعددهم ، ونقاتل ببقايا الناس على العادة ، ونطول فى القتال حتى يتعب القوم ، فإذا انصرفوا ورحل كل إلى مضربه وأزال لامة حربه يركب المسلمون ويحملون عليهم والقوم على غرة »[5]،

---

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ؛ ص ٢٣٦

(٢) جاء فى الادريسى : «قموده» ولم يرد ذكر قمونية بهذا الرسم عنده ولا عند البكرى، ولم يحدد موقعها أحد من الجغرافيين ، وربما كانت هى الأخرى حصنا كبيراً .

(٣) عن المالكى : فانهزم جرجير ولزمه عبد الله بن الزبير فى عجاج الموت، فعرفه بمن معه من أشراف قومه، ففرت عنه أصحابه وقتله إلى جانب السور ، وابنته تنظر من السور (ورقة ٣)

(٤) يذكر ابن عذارى رواية عن عبد الله بن الزبير . « واتبعونى حتى خرقت صفوفهم (أى صفوف الروم) إلى أرض خالية فضاء بينى وبينهم ، فما حسب إلا أنى رسول إليه » . وبقية كلام ابن الزبير مشكوك فى صحته ، لأنه يفهم منه أن ابن الزبير قتل جرجير أمام جمع كبير من المسلمين ، ولم يقل بذلك حتى النويرى نفسه ، إذ المقول أنه قتله فى وسط المعمعة ، ولم يره إلا ابنة جرجير التى كانت تنظر من السور .

(٥) النويرى ، نهاية الأرب ، ورقة ٦٥ (ا)

وسياق حديث النويرى يدل على أن الصفاء لم يكن متبادلا بين ابن سعد وابن الزبير ، إذ أنه لبث أياما بعد وصوله من المدينة لايرى ابن سعد ولايحفل له (ورقة ٦٤ ا) ، وماذا نفهم من قول ابن الزبير: « أصلحك الله ماقتلته لما شرطت ، والذى قتلته له يعلم ويجازى عليه أفضل من جزائك ولاحاجة لى فى غير ذلك » ؟ (ورقة ٦٥ ب) ، وقد روى ابن عذارى مايدل على ذلك، إذ جرى ذكر خمس خراج إفريقية — الذى أعطاه عثمان لمروان بن الحكم — فى مجلس معاوية ، فقال ابن الزبير : « خرجنا مع عبد الله بن أبى سرح إلى إفريقية (ولم يكن) =

وظاهر أن ذلك لم يحدث إلا بعد قدوم عبد الله ابن الزبير[1] وأصحابه من المدينة ، إذ تحمس المسلمون وبدأوا الموقعة ، ومن المعقول أن يكون ابن الزبير قد أبلى فيها بلاء حسناً ، « فقاتل الروم مع المسلمين إلى الظهر قتالا شديداً ، فلما أذن الظهر همّ الروم بالانصرف على العادة ، فلم يمكنهم ابن الزبير وألح عليهم بالقتال حتى أتعبهم ، ثم عاد عنهم هو والمسلمون ، فألقى كل من الطائفتين سلاحه ووقع تعباً ، فعند ذلك أخذ عبد الله بن الزبير من كان مستريحاً من شجعان المسلمين ، وقصد الروم ، فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم وحملوا حملة رجل واحد ، وكبروا فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم حتى غشيهم المسلمون ، وقتل جرجير — قتله ابن الزبير ، وانهزم الروم — وقتل منهم مقتلة عظيمة »[2] .

= أحسننا وجهاً ولا أكثرنا نفقة ولا أعظمنا .. » (البيان المغرب ص ٨) والنص غير كامل ، وهـذا الرأى يتعارض بالطبع مع ماورد فى الخطبة التى تنسب إلى ابن الزبير عن فتح إفريقية ، التى يثنى فيها ابن الزبير على عبد الله ابن سعد ثناء طيباً ، وهى ظاهرة الإنتحال — أنظر نص الخطبة فى العقد الفريد لابن عبد ربه ، ح ٢ ص ١٨١ — ١٨٢ .

(١) أخطأ جبون فذكر أن الزبير بن العوام هو الذى اشـترك فى فتح إفريقية والصواب ابنه ، وأخطأ كذلك فحرف عبد الله بن سعد إلى عبد الله ابن سعيد ، وقد سلم جبون بقصة ابنة جرجير ، بل أضفى عليها من بيانه حلة روائية فقال : « وقيل إن إبنة جرجير ، وهى غادة نادرة الجمال ، كانت تقاتل إلى جانبه ، وكانت منذ نعومة أظفارها مدربة على ركوب الخيـل ، وعلى الرمى بالسهام ، والطعن بالسيف القصـير ، وكانت الحلى فى ذراعيها ... ظاهرة بارزة فى معمعة القتال ، وقد ذهب جبون إلى أن عبد الله غادر ميدان القتال بعد أن ألح أصحابه عليه فى ذلك (كذا) ، وأن العرب وهنت عزيمتهم بعـد انسحاب قائدهم وبعد هـذه المناوشات المتشابهة الفاشلة » ، وكل هذا غير صحيح كما نعلم ، وبقية روايته مليئة بالأخطاء ، وقد أضاف هو من عنـده شيئاً كثيراً Gibbon : Decline..., II pp. 760 - 373 . ومن الثابت أن جبون أخذ تاريخ فتح إفريقيـة عن كتاب Cardonne, Histoire de l'Afrique et de l'Espagne sous la domination des Arabes . ومن الترجمة الناقصة التى قام بها أوتر Otter لتاريخ النويرى ، والكتاب الأول كثير الأخطاء ، ويشك الأستاذ فورنل فى أنه اطلع على المصادر التى يقول إنه اطلع عليها ، وقد ظل موضع الثقة نحواً من ثلاثين سـنة حتى اتضح خطؤه ، فانصرف عنه أكثر المؤرخين . راجع رأى فورنل فى كاردون وجبون وأوتر فى Les Berbères I, pp. VI, VI

(٢) ابن الأثير ، ح ٣ ص ٣٤

فلما أن تأكد الروم أن الدائرة عليهم استداروا وعادوا نحو الحصن مسرعين يبغون الاعتصام خلف أسواره من العرب الذين كانوا يتتبعونهم بالسيوف ، ويظهر أن خيل العرب سبقت مقاتلة الروم إلى باب الحصن ، « فحالوا بينهم و بين الدخول إلى حصنهم ، فركبهم المسلمون يميناً وشمالا ، فى السهل والوعر ، فقتلوا فرسانهم وأنجادهم »[1] . فسقط الحصن بمن فيه (وفيهم آل جرجير وابنته — لو كانت له ابنة) .

تقدم العرب بعد ذلك إلى سُبَيْطِلَةَ[2] نفسها ، وهى على مقربة من عقوبة ،

---

(١) رياض النفوس ، ورقة ٣ ، ولا يبعد أن تكون خيل العرب قد أدركت جرجير ومن معه وهم على مقربة من الحصن فقتلوه .

(٢) تقع سبيطلة فى وسط سهل تونس على وجه التقريب ، على أحد فروع نهر مجرد ، وكانت الطرق الحربية الرومانية ثم البيزنطية تصلها بكل المدائن الكبرى والمسالح والمحارس التى كانت تملأ ذلك السهل ، وكانت تقع على الرباط الثانى — الذى يبدأ عند الساحل عند مغمداس الصغرى ، ثم يمر بها فسبيبة فالأربس فالكف ثم إلى البحر شمالا . وكانت لها قلعة حصينة بنيت فى القرن الرابع (راجع رسمها فى ديل ص ٢٩٣)، وقد بدأت أهميتها تظهر منذ ذلك القرن حين استولى البربر على الرباط الأول (قفصه — ثلبت — ثفست — أمايدرا) وأصبحت الدولة تعول على الرباط الثانى الذى تعد سبيطلة من أمنع حصونه Georgii Chiprii, 35 Diehl. op. cit. p. 279 . ولما انتشرت المسيحية فى أفريقية، لم تلبث سبيطلة أن أصبحت أسقفية يقيم فيها أسقف ، وبنيت فيها كنيسة كبيرة (ديل ص ٤١٥ و٤٢٨) ، وقد بقيت حصونها على منعتها وحالها حتى الفتح العربى . ولما كان جريجوريوس قد ثار بالدولة واستقل عنها، لم يكن له بد من التعويل على عون البربر وحلفهم، وكان يخشى الروم، فرغب عن المقام بقرطاجنة لقربها من البحر وسهولة إدراكها بالأساطيل ، فانحاز إلى الداخل ، وتخير سبيطلة إذ كانت قد أصبحت أعظم مدن السهل الداخلية بعد تهدم أسوار ثفست — أمنع مدن الأقليم — من كثرة مادار بها من الحرب ، وهناك لبث حتى وافاه العرب ؛ وكانت المدينة فى ذلك الوقت — كما يقول ديل — غنية وكبيرة; Diehl, op. cit. p. 557 ؛ وقد ذكرها « شو » فى « رحلاته » ورأى أطلالها ، وحدد موضعها جنوبى قرطاجنة بمائة وخمسين ميلا ، وذكر أنها تشرب من مجرى وفير المياه ، وأنها تختفى خلف غابة من الأشجار السامقة ، وذكر كذلك أنه رأى فيها أطلال قوس نصر وثلاثة معابد ذات أعمدة كورنثية الطراز : أنظر Shaw : Travels in Morocco p.p 118—119 جاء ذكرها فى جغرافية أبى الفداء ، إذ قال عنها « سبيطلة كانت كرسى مملكة أفريقية فى القديم ولها آثار عظيمة تدل على ذلك : (طبعة Reinaud ص ١٤١) وذكر =

فحصروها حصراً شديداً حتى سقطت فى أيديهم ، فأصابوا فيها خلقاً كثيراً ، وأكثر أموالهم الذهب والفضة »[1] .

أصبحت ولاية إفريقية كلها تحت رحمة العرب بعد هذه الموقعة ، فأخذوا ينهبون مايجدونه حتى جمعوا غنيمة طائلة ؛ ويظهر أنهم لم يغادروا ناحية إلا وصلوها ، وبلغوا سفوح الجبال حيث ترعى قطعان البربر ، فاستاقوا كثيراً من الماشية[2] ، واجتمع للعرب من ذلك كله ثروة طائلة قسمت على المقاتلين بعد أن خُمِّسَت ، فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار ، وسهم الراجل ألف دينار[3] .

انتصار المسلمين

تفرقت قوة الروم بعد واقعة سبيطلة ، وانحاز أغلب المنهزمين إلى الشرق فى حصن « الجَمْ »[4] جنوبى الموقع الذى بنيت فيه القيروان بعد ، وهناك تزاحمت

= دى فرجيه أن السير جرانفل تمبل زار أطلالها حوالى سنة ٨٤١ م ورأى فيها قوس نصر وثلاثة معابد وحمامات وحوض ماء من زمن Auralius Verus وأعمدة رءوسها مصنوعة بعناية وأرضية بالفسيفاء مما يشهد بعظمتها الحالية Des Vergiers. p. 3 وقد جاء فى الأدريسى عنها « كانت مدينة جرجيس ملك الروم الأطارقة ، وكانت من أحسن البلاد منظراً وأكبرها قطراً ، وأكثرها مياهاً وأعدلها هواء ، وأطيبها ثرى ، وكانت فيها بساتين وجنان ، وافتتحها المسلمون فى صدر الإسلام ، وقتلوا فيها ملكها العظيم المسمى جرجيس ، ومنها إلى مدينة نقصه مرحلة وبعض ، ومنها أيضاً إلى القيروان ٧٠ ميلا : الادريسى ، ص ١١٥

(١) النويرى ، ورقة ١٦٦ (٢) البلاذرى ، فتوح ، ص ٢٢٧

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٨٤ — ابن الأثير ، ج ٢ ص ٣٥ — والنويرى ، نهاية الأرب ، ورقة ٦٥ (ب)

(٤) الجم (الأجم — العجم — الأجام) كانت معروفة أيام البيزنطيين باسم Thysderas وكانت مركزاً حربياً هاماً طوال العصر البيزنطى إذ كان يجتمع عند حصنها عدد عظيم من الطرق الحربية ، ويذهب ديل إلى أنها كانت لا تزال على جانب كبير من المنعة فى القرن السابع Diehl, op. cit. pp. 415, 535 وقد وصفها التيجانى فى رحلته بقوله : « هوأعظم حصون أفريقية وأشهرها على القوم ، وليس بعد الحنايا التى بالقرطاجنة بناء أضخم منه وأعجب ، وشكله مستدير ، وارتفاعه فى الهواء مائة ذراع ، وذكر البكرى أن تكسير دائرته فى الأرض ميل : رحلة التيجانى ، ورقة ٢٣ (١) . وقال كودل إن قصر العجم (الذى تجمع فيه الروم) إن هو إلا الملعب الرومانى الذى كانت ساحته العظيمة تشغل المساحة التى تشغلها قرية الجم الحالية Caudel op. cit. II, pp. 72-79

جموعهم داخل بنـاء كبير حصين — يظن أنه حصن بيزنطى ، ويذهب كودل إلى أنه الملعب الرومانى — فأسرع ابن أبى سرح وحاصر الحصن بمن فيه .

فى ذلك الحين كان جند العرب يجتاحون البلاد بهمة عظيمة ، ويستاقون كل من يجدونه أسيراً ، ويصيبون كل ما يظفرون به فى المدن غنيمة ، « فلما رأى ذلك رؤساء أهل إفريقيـة ، طلبوا إلى عبـد الله بن سعد أن يأخذ منهم مالا على أن يخرج من بلادهم ، فقبل منهم ذلك ، ورجع إلى مصر ولم يول عليهم أحداً ، ولم يتخذ بها قيرواناً »[1] .

تعجيـل المسـلمين بالعـودة ، وأسـباب ذلك

لمـاذا عجل عبد الله بن سعد بالعودة ؟ ولمـاذا قبل أن يتخلى عن كل ما كسبه بعد هذا القتال العنيف لقاء مبلغ من المـال ؟ أ كانت هذه الفدية العظيمة هى كل ما قصد إليه من وراء هذه الحملة الخطيرة ؟ أم كان يرجو أمراً بعد ذلك ولكن أحداثاً اضطرته إلى التعجيل بالعودة ؟ هنا نجد فى رياض النفوس بضعة أسطر تلقى بعض الضوء على هـذه المسألة الغامضة ؛ يقول المـالكى : « وأقام ابن أبى سرح وهو أمير سبيطلة على عسكره ، فلما رأى الروم الذين بالساحل ما حل بجرجير وأهل سبيطلة ، غارت أنفسهم ، وتجمعوا ، وكاتب بعضهم بعضاً فى حرب ابن أبى سرح ، فخاف منهم لمـا معـه من الغنائم ، فكتب إلى خليفته بمصر يأمره أن ينفذ إليـه مراكب فى البحر ، يجعل فيها غنائم المسلمين ، فأخذ خليفته فيما أمره به ، فاتصل بالروم قصدُ ابن أبى سرح إياهم . . . لحربهم ، فخافوا وراسلوه ، وجعلوا له جُعـلا على أن يرتحل بجيشه ولا يعترضوا بشىء ، ووجهوا إليه مائة قنطار ذهباً ، فأجابهم إلى ذلك وانصرف عنهم راجعاً إلى مصر ، بعـد أن أقام بإفريقية سنة وشهرين ، فلما وصل إلى طرابلس وافته المراكب ، فحمل فيها أثقال جيشه ، ونفذ هو وأصحابه إلى مصر سالمين»[2] .

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٨٤ ، ولا اختلاف بين المؤرخين فى ذلك .
(٢) رياض النفوس ، ورقة ٤ — ونقلها عنه ابن الناجى فى معالم الأيمان ، جـ ١ ص ٣٨ — ٣٩

قبل تحليل هذه العبارة ينبغى أن تلاحظ بضعة أشياء :

أولها — أن موقعة سبيطلة لم تفتح أمام العرب كل سهل تونس بل جزءاً محدوداً منه يحدده الخط الممتد من سبيطلة نفسها إلى سوسة من الشمال ، ثم من سبيطلة إلى قفصة جهة الشرق ، وشريط ساحلى ضيق محصور بين قابس وشط الجريد من الجنوب ، ويلى ذلك فى الشمال بلاد واسعة ملأى بالحصون والمسالح والمحارس ، على اتصال دائم بالبحر ، تستطيع أن تقاوم مقاومة عنيفة ، وربما خاف المسلمون — إن هم تقدموا شمالا — أن ينحدر البربر بجموعهم من الغرب فيحصروهم من الجنوب فيقعوا بين نارين ، وربما انتهى الأمر بهزيمتهم[1] ، فانتصار عبد الله ابن أبى سرح فى سبيطلة لا يمكن أن يسمى فتحاً لإفريقية ، وكان لا بد لإكمال هذا الفتح من السير إلى الشمال والاستيلاء على قرطاجنة[2] .

وثانيها — أن جيش المسلمين قد قضى حتى هذه الواقعة خمسة عشر شهراً فى إفريقية ، وأنه جمع خلال تلك المدة من الغنائم شيئاً كثيراً جداً[3] ، كان موضع

(١) وسيحدث هذا مراراً فيما يلى ذلك من فتوح أفريقية .

(٢) تشبه هذه الواقعة واقعة عين شمس فى فتح العرب لمصر ، ولا يمكن أن يقال إن مصر فتحت عقب الموقعة المذكورة ، ولو أن عمراً انصرف عقب انتصاره فى عين شمس لكانت حملته كأن لم تكن .

(٣) فى ذلك يقول كودل : « ويدهش الإنسان من كثرة ما أصاب الجندى الواحد من الغنيمة ، ولكن ينبغى أن تذكر جيداً أن هؤلاء الرجال (أى جند المسلمين) ظلوا طوال بضعة أشهر ينتقلون من قرية لقرية ، ومن مدينة لمدينة ، يجمعون — بما عرف عنهم من العناية الفارغة بهذا العمل — كل ما استطاعوا حمله ، ولا بد أن المحصول كان كبيراً ، بحيث فكر عبد الله فى التراجع مباشرة حين لاحت له مخايل المقاومة التى أبداها أهل الساحل »
Caudel, op. cit. II p. 77

ولم يزد كودل فى تعليقه على الحملة كلها على أن اعتبرها غارة للسلب والنهب ، لا مقصد وراءها ولا غاية ترمى إليها ، « ... ولم تعد للجندى العربى — وقد أغناه ما غنم — رغبة فى الحرب ، ولم يعد يفكر إلا فى الرجوع ، وكان القادة يميلون هذا الميل كذلك ، فتم الاتفاق مع الأهلين =

الدهشة عند كل الرواة ، ولا نزاع فى أن الجنـــد كانوا يحرصون أشد الحرص على مايصيبون من غنيمة ، فلا يبعد أن تكون كثرة الغنائم قد مالت بهم إلى العودة إلى بلادهم ، وأنهم خافوا أن يفاجئهم الروم أو البربر فيسلبوا منهم ما غنموا .

وثالثها — أن الوئام لم يكن سائداً بين قادة هذا الجيش ، وقد لاحظنا شيئاً من التوتر بين عبد الله بن الزبير وعبـد الله بن سعد ، كلاهما يحاول السيطرة على الآخر وقيادة الجند[1] ، وستجد أن ابن أبى سرح لم يكد يتم له النصر حتى بعث عبدالله بن الزبير ليبشر عثمان بالفتح ، وربما أراد بذلك أن يتخلص منه ، فإذا أضفنا إلى ذلك ما سبقت الإشارة إليـه من عدم ثقة ابن أبى سرح بمن معـه ، وتخوفه منهم ، استطعنا أن نفهم سبباً من أسباب هذه العودة المفاجئة .

ورابعها — أن جيش العرب كان صغيراً ، كان عشرين ألفاً فى بادىء الأمر ، ولا بد أنه تناقص كثيراً بعـد هذه الوقائع والمناوشات ، ولم تصله أمداد إلا النفر القليل الذى أقبل مع عبد الله بن الزبير . وإذا كان المسلمون قد طال تخوفهم قبل موقعة سُبيطلة ، « ودخل ابن أبى سرح فسطاطه مفكراً » ، فلا بد أن قوة الجيش الإسلامى كانت قد ضعفت جداً بعد هذا الكفاح الشديد .

وخامسها — أنه لا يبعـد أن تكون حاميـات المدائن والمسالح قد تواصلت وتفاهمت على أن تنهض لمقاومة ابن أبى سرح ، وربمـا جرأهم على ذلك ما رأوا من قلة عدد المسلمين .

= الذين فضلوا دفع ضريبة على أن يدخلوا مع العرب فى قتال ، فإذا ما دفع المبلغ ، شرع الجيش فى العودة ، وبهذا انتهت حملة العرب الأولى على أفريقية. Caudel, op. cit. II, p. 78 . وراجع كذلك Fournel, op. cit. I, pp. 127, 128 والغالبية ممن تناولوا الكلام على هذه الغزوة من الأفرنج على هذا الرأى .

(١) خصوصاً إذا صدقت رواية الطبرى التى يذهب فيها إلى أن عامة الجند كانوا ساخطين على عبد الله بن سعد ، وأنهم طلبوا إلى عثمان أن يعزله عنهم (بعد موقعة سبيطلة) فأجابهم إلى ذلك : « قالوا : فاعزله عنا فإنا لانريد أن يتأمر علينا وقد وقع ما وقع » : الطبرى، جـ ٥ ص ٤٨

سادساً — أن ابن أبى سرح كان قد طالت غيبته عن عاصمة ولايته مصر ، ولا شك فى أنه كان يميل بعد ذلك إلى الرجوع للنظر فى أمورها .

إذا ذكرنا ذلك كله لم نستبعد أن يكون فيما قاله المالكى بعض الحق ، نعم أن قوله إن ابن أبى سرح بعث إلى خليفته بمصر يطلب منه سفناً يحمل فيها غنائم المسلمين لا يؤيده مصدر آخر ، ولكنه معقول ، وقد يكون ابن أبى سرح قد أراد أن يطمئن الجند على مصير غنائمهم ، فأرسل يطلب سفناً يحمل عليها الغنائم ، حتى لا يخاف الجند أن يفاجئهم الأعداء فيغصبوهم إياها ، بل لا نستبعد كذلك أن يكون ما ذكره المالكى هو التعليل الوحيد المعقول لهذه العودة السريعة التى لا تبررها مقدمات الحملة ، وما كان يرجى من ورائها من عظيم الأمر .

على أى الأحوال تتفق الروايات على أن عبد الله بن سعد صالح الروم وأهل البلاد على أن ينصرف عن بلادهم لقاء مبلغ من المال ، يقدره البعض بألفى ألف وخمسمائة ألف دينار[1] ، ويقدره البعض الآخر بثلاثمائة قنطار من الذهب[2] .

وأضاف النويرى إلى شروط الصلح بين الجانبين قوله : « وكان فى شرط صلحهم أن ما أصاب المسلمون قبل الصلح فهو لهم ، وما أصابوه بعد التراداد ردوه عليهم[3] ، وهى ملاحظة على جانب عظيم من الأهمية ، إذ تدل على أن ابن أبي سرح

---

(١) ابن الأثير ، جـ ٣ ص ٣٥ ، والسلاوى ٣٥ — ٣٦ قدّر دى سلين الدينار فى ذلك الحين بعشرة فرنكات والدرهم بعشرة سنتيمات Journ. Asiat. 1858

(٢) النويرى ، نهاية الأرب . ورقة ٦٦ (ا) ، وكذلك فعل ابن الناجى فى معالم الإيمان إذ ذكر الثلاثمائة قنطار من الذهب وقال إنها تساوى ١٥٠٠٠٠٠ دينار ، ثم عاد فناقض نفسه فقال إن الخمس بلغ ٤٠٠٠٠٠ دينار ، مما يجعل المبلغ نحو ٢٠٠٠٠٠٠ دينار — معالم الإيمان، جـ ١ ص ٣٣ ؛ وذكر ديل أن الروم صالحوا العرب على ثلاثمائة تالان Talent من الذهب ، مما يفهم منه أن القنطار المذكور هنا يساوى تالان Diehl op. cit. p. 560 وقد حاول ياقوت أن يقدر القنطار بأن قسم قيمة الغنيمة بالدنانير على قيمتها بالقناطير ، فوفق فى ذلك ، وقدر القنطار بثمانية آلاف وأربعمائة دينار، وهو رقم قريب من الصحة (الصحيح ٨٣٣٣) ياقوت جـ ١ ص ٣٢٥

(٣) النويرى ، نهاية الأرب ٦٦ (ا)

حرص على أن يستبقى ما فتحه من البلاد ، ولعل النويرى ينفرد بذلك عن غيره من المؤرخين ، وربما كان عبد الله بن أبى سرح قد صالح أهل البلاد على ذلك ولكنه لم يتخذ الإجراء الذى يكفل له تنفيذ هذا الشرط ، فلم يترك خلفه حاكما ولا حامية ولا قيروانا ، فأصبح أهل البلاد فى حل من أن يستردوا ما أخذه منهم ، وهكذا فعلوا .

وكان عبد الله بن سعد قد سارع بإرسال عبد الله بن الزبير إلى المدينة ليحمل البشارة بالفتح إلى عثمان ، فيقول بعض الناس : « دخل المدينة من سبيطلة فى عشرين ليلة ، وبعضهم يقول وافى المدينة فى أربعة وعشرين يوماً ، ولا يستغرب ذلك من مثله[1] » .

بقيت مسألة لا بد من الوقوف عندها لحظة قبل الفراغ من أمر هذه الحملة ، وهى بحث الرواية التى تذهب إلى أن عثمان أعطى خمس فىء إفريقية إلى مروان ابن الحكم ، وإلى أن هذا كان من الأمور التى أخذت على عثمان .

نجد تفصيل هذه المسألة فيما رواه الطبرى[2] عن تاريخ فتح إفريقية ، وإليك روايته : « كتب إلى السَّرى عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة . . . . وقال — أى عثمان — لعبد الله بن سعد : إن فتح الله عز وجل عليك غداً إفريقية ،

(١) النويرى ، نهاية ، ورقة ١٦٦ ا ويذكر المونس (ص ٢٤) أنه بلغها فى خمسة وعشرين يوماً ، وذكر ابن الناجى (معالم الأيمان ، ص٣٤) أنه بلغ المدينة فى ثمانية عشر يوماً ، وهو مبالغ فيه . وقد ذكر ابن الأثير أن أبا ذؤيب الهذلى الشاعر كان فى صحبته ، فمات الشاعر فى طريقه إلى المدينة — ابن الأثير ، ج ٣ ص ٣٥

وقد أورد ابن عبد ربه نص الخطبة التى ألقاها عبد الله بن الزبير فى المدينة ، يصف فيها فتح أفريقية ، ونلاحظ أنه ليس فيها إشارة إلى قتله جرجير أو إلى إشارته على عبد الله بن سعد بالخطة التى اتبعت فى موقعة سبيطلة ، ويشير فيها إلى استيلاء مروان بن الحكم على الغنيمة كلها ، وأول الخطبة وآخرها يدل على أنه قد دخلها تحريف وزيادات كثيرة ، وعليها كلها مسحة الأحاديث الموضوعة . العقد الفريد لابن عبد ربه ، ج ٢ ص ١٨١

(٢) وفى رواية الطبرى لحوادث هذه الغزوة خطأ كبير ، ولسنا بسبيل مناقشة روايته ، ولكن المسألة التى نعرض لها الآن تعد من ذيول فتح أفريقية التى تتصل بتاريخ الدولة كلها ، فيحسن الاعتماد عليه فيما يتصل بها .

فلك بما أفاء الله على المسلمين خمس الخمس من الغنيمة نفلا . (ثم يقص قصة الفتح بإيجاز لا يخلو من خطأ) . . . وقسم عبد الله ما أفاء الله عليهم (على الجند) ، وأخذ خمس الخمس ، وبعث بأربعة أخماسه إلى عثمان ، مع ابن دشيمة النضرى . . . ووفد وفد، فشكوا عبد الله فيما أخذ ، فقال لهم أنا نفلتــه ! ، وكذلك كان يصنع — أى عثمان — وقد أمرت له بذلك ، وذلك إليكم الآن فإن رضيتم فقــد جاز وإن سخطتم فهو رد ، قالوا فإنا نسخطه ، قال فهو رد ، وكتب إلى عبــد الله برد ذلك واستصلاحهم . قالوا : فأعزله عنا فإنا لا نريد أن يتأمّر علينا وقد وقع ما وقع ، فكتب إليه أن استخلف على إفريقيــة رجلاً ممن ترضى ويرضون ، واقسم الخمس الذى كنت نفلتك فى سبيل الله ، فإنهم قد سخطوا النفل ، ففعل ، ورجع عبد الله بن سعد إلى مصر وقد فتح إفريقية وقتل الأجلّ (أى البطريق[1])

يفهم من هذه الرواية أن هذه الشكوى رفعت إلى عثمان وعبــد الله ما زال فى إفريقية ، فممّن يكون الخبر قد بلغ أهلَ المدينــة وأسخطهم إلا من عبــد الله ابن الزبير ومن وفد معه بأخبــار الفتح ؟ لقد رأينا أن الود لم يكن معقوداً بين ابن الزبير وابن أبى سرح فى إفريقيــة ، ورأينا الأول يُقبل على معسكر المسلمين فلا يسلم على القائد ، ثم يخاطبه فى لهجة لا تخلو من شدة ، ورأينا ابن أبى سرح لا تكاد تسنح له الفرصة للخلاص من ابن الزبير حتى يسارع فيرسله إلى المدينة[2] ولاحظنا كذلك أن ابن الزبير لم ينس فى آخر خطبتــه أن يقول إن مروان بن عبد الحكم صفق على غنائم الجملة كلها[3] .

(١) الطبرى ، ج ٥ ص ٤٨ فى حوادث سنة ٢٧ هـ

(٢) لو أن الصــفاء كان معقوداً بين الرجلين لكان ابن أبى سرح أحرص على أن يستبقى ابن الزبير لأنه كان ممن لا يستغنى عنهم .

(٣) ولا عبرة بالثناء العريض الذى تخلعه الخطبــة على ابن أبى سرح ، إذ يغلب أن ذلك من تكلف الوضاع ، ولا يتفق مع ما سبقت الإشارة إليه من حديث ابن الزبير عن ابن أبى سرح فى مجلس معاوية — راجع ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٨

فإذا أضفنا إلى ذلك أن المراجع تتفق على أن عبد الله بن عباس[1] هو الذي قسم غنائم الحملة بين الجند، — وعبد الله بن عباس رجل له مقامه ولا شبهة في دينه ونزاهته — تبين أنه من المستبعد أن يستطيع ابن أبي سرح أن يؤثر فيه وأن يجعله ينحرف هذا الانحراف؛ وكيف يتفق لمروان بن الحكم أن يصفق على الغنائم كلها في حين يقوم بتقسيمها عبد الله بن عباس ؟ وأين شكوى هذا الأخير وهو أحق الناس بالشكوى والاعتراض ؟ ثم إن لدينا رواية أخرى لابن عبد الحكم ساقها عن راوية لا يرقى إلى صدقه شك وهو ابن لهيعة،[2] تدل على أن توزيع الفيء كان يجري بغاية الدقة والنزاهة، فكيف يتفق هذا مع ما حدث وشاع ذكره من إساءة التصرف في غنائم الحملة وأخذ عبد الله بن سعد خمس الخمس لنفسه ؟

بيد أن وعد عثمان لعبد الله بن سعد بأن يعطيه خمس الخمس نفلاً يحتاج إلى شيء من الإثبات، لقد رواه مع الطبري ابنُ الأثير وأبو المحاسن والسلاوي،[3] ويغلب أن يكون هؤلاء قد أخذوه عنه، ولكنه لم يرد عند البلاذري وابن عبد الحكم، ولا وجود له كذلك عند من لم يأخذ عن الطبري كالنويري وابن عذاري والمالكي والدباغ والباجي، فكيف غاب أمره عن كل هؤلاء على ما له من الأهمية وبعيد الخطر ؟

قد تكون أموال إفريقية قد نالها العبث حين انتهت إلى المدينة ودخلت بيت المال — وكان يقوم عليه مروان بن الحكم — وقد يكون هذا من الأمور

---

(١) النويري، نهاية الأرب، ورقة ٦٢ (١) — الباجي: الخلاصة النقية، ص ٧

(٢) فكانت غنائم المسلمين يومئذ — كما حدثنا عبد الملك ابن مسلمة عن ابن لهيعة عن أبي الأسود عن أبي أويس — كان أبو الأسود مولى لنا قال: فقسم لرجل من الجيش توفي بذات الحمام فدفع إلى أهله بعد موته ألف دينار » ابن عبد الحكم فتوح، ص ١٨٤

(٣) ابن الأثير، ج ٣ ص٣٤ — أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ١ ص٦٩ — السلاوي، ص٣٦

التى أُخذت على عثمان وكانت سبباً من أسباب سخط الناس عليه ؟ وتعليل هذا أن عثمان كان رجلا مسناً لا يكاد يفطن إلى عبث مروان ، وقد يكون قد تهاون فى الرقابة على بيت المال حتى أصاب منه آل الحكم نصيباً وافراً ، ولكن يستبعد أن يكون عثمان قد وعد — بلسانه — أن ينفل ابن أبى سرح مالا هو أعلم الناس أنه مال المسلمين كافة .

وإذا ذكرنا عِظَمَ الغنيمة التى أصابها المسلمون من إفريقية . لم نستبعد أن يشك الناس فى أن قسم هذا الفىء قد سار بالقسطاس ، بل لا نستبعد أن يختلق ابن الزبير على ابن أبى سرح ذلك وينشره بين الناس ليثير سخطهم عليه ، وكان كل مايقال عن عثمان وولاته يصدق فى هذه السنوات .

ولا شك أن الناس افتروا على عثمان بالباطل أضعاف ما أتى ، ولا نزاع فى أن جو المدينة كان يرحب فى هذه الأيام (أواخر سنة ٢٧ هـ) بكل ما يقال عن عثمان ، ومن هنا لا نستبعد أن يكون ابن الزبير الساخط قد لقى فى المدينة نفراً من الساخطين على عثمان ، فاجتمع سخطه إلى سخطهم ، فنشأت هذه الفرية ونمت ، وانتشرت على عثمان وعامله فى مصر وإفريقية[١] .

***

دامت هـــذه الغزوة خمسة عشر شهراً . إذ بدأت — باتفاق الرواة — سنة ٢٧ هـ[٢] ، ولا بد أنها انتهت فى سنة ٢٨ هـ (٦٤٧ — ٦٤٨ م) ، فإذا صدق

---

(١) ثم إن من أوردوا هذه الرواية يختلفون فيما بينهم : فيقول أبو المحاسن : « وصالحه بطريقها على ألفى ألف دينار ، فأطلقها عثمان كلها فى يوم واحد فى آل الحكم ، ويقال فى آل مروان » ويفهم من هذا أن العبث بأموال أفريقية إنما حدث بعد أن وردت الأموال إلى بيت المال فى المدينة — أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٦٩

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٨٧ — الطبرى ، ج ٥ ص ٤٨ — ابن الأثير ج ٣ ص ٣٤ — النويرى ، ص ٢٢ (١) — معالم الإيمان ، ج ١ ص ٣٠ — النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٦٩

ما ذكره النويرى من أن ارتحال الجيش عن المدينة كان فى المحرم من سنة ٢٧ هـ ، كان وصول الجيش إلى إفريقية فى ربيع الأول فى هـذه السنة ، وتكون موقعة سبيطلة قد دارت فى أوائل سنة ٢٨ هـ ، لأن المسلمين طال انتظارهم قبـل الموقعة .

لم يوفق عبد الله بن سعد فيما قصد إليه من فتح إفريقية ، ولم تزد حملته على غارة طال أمدها وكثرت أحداثها ، ولـكنها انتهت دون أن تخلف وراءها أثراً كبيراً ، ولعل الرجل أحس بعد سبيطلة أنه غير مستطيع فعلَ شىء بعد ذلك إلا إذا وصلته إمدادات جديدة يستطيع تثبيت الفتح بها ، فلما تأكد أن عثمان لم يستطع أن يمده بما يريد بعد أن سكت عنه هذا الزمن الطويل ، أحب أن يتراجع بانتظام ، وكان يخشى الخشية كلها أن يقوم انسحابه حجة عليه وعلى عثمان فى نظر العرب ، فاشتط فى طلب المبلغ الذى يدفع إليه لـكى يحمل إلى المدينة مبلغاً طائلا من المـال يدل به على أن الحملة وفقت أعظم توفيق ، فلما أجابه الأفارقة إلى ما طلب عجل بالعودة وهو آمن نقد الناس ، واثق من أن جنده سيرضون عنه ويلقون فى روع العرب — بعد عودتهم — أن حملة إفريقية كانت من أعظم الحملات وأوفرها غلة .

عاد عبد الله إلى المدينة محملا بالغنائم ، فحسب الناس أن إفريقية قد تم فتحها ، وتناقلوا هـذا الخبر ودونه الرواة ، فاتفقت كلمة المؤرخين على أن فتح إفريقية كان على يد عبـد الله بن سعد بن أبى سرح ، وهـذا خلاف الواقع كما سبق بيانه ، إذ لم تكن حملة عبد الله إلا غارةً طويلة كثيرة الأحداث وافرة الغنيمة . عاد العرب

= ويذكر السلاوى أن عثمان أمر عبد الله بالمسير إلى أفريقية سنة ٢٦ هـ فيكون المعقول أنه بدأ هذه الغزوة فى سنة ٢٧ هـ وعاد إلى مصر فى أوائل سنة ٢٨ هـ . أنظر الاستقصاء للسلاوى ص ٣٥

وقد تردد البلاذرى بين سـنوات ٢٧ و٢٨ و٢٩ فقال « ثم عزم — عثمان — بعد أن استشار ، وكتب إلى عبد الله فى سنة ٢٧ هـ ، ويقال سنة ٢٨ ويقال سنة ٢٩ يأمره بغزوها ، فتوح البلدان ، ص ٢٢٦ . وقد فعل ذلك ياقوت ، وربما أخذه عن البلاذرى — معجم البلدان ج ١ ص ٣٠١

منها فعادت البلاد إلى ما كانت عليه : مات جرجير فأقام الروم على أنفسهم والياً مكانه ، ثم كانت الأحداث التي عصفت بالبلاد العربية عقب موت عثمان ، فتأخر إتمام الفتح إلى أيام معاوية بن أبي سفيان ، فإذا كانت حملة ابن أبي سرح لم تخلف في إفريقية إلا أثراً باقياً في أذهان أهل البلاد ،لعفت عليه السنوات الثلاث عشرة التي ستنقضي قبل أن تطأ خيل المسلمين بلاد إفريقية مرة أخرى .

المحاولات الأولى (ب)

حملة معاوية بن حديج سنة ٤٥ هـ – ٦٦٦ م

وقوف حركة الفتح عامة

كان لا بد أن تؤثر فتنــة عثمان وما تلاها من الأحداث فى نشاط الفتــوح الإسلامية ، إذ لم يكن من الميسور للقادة والجنــد أن يستمروا فيما كانوا آخذين فيه من فتوح بعد أن شبت نيران هــذه الفتنة ، ولا شك أن الأمداد قد انقطعت عنهم وتوقعوا أن تحول حروب الداخل دون إرسال الجند إلى الأطراف ، فتركوا ما بأيديهم ، ولبث بعضهم حيث هو ينتظر نتيجة الصراع المحتــدم ، وعاد البعض الآخر إلى الحجاز والشام ليَسْهم بنصيب فى هذه المعركة العنيفة .

وإذا كنا لم نتنسم فى انصراف عبد الله بن سعد عن أفريقية ريح هذه الفتنة، فلا بد أنا واجدون فى عواصفها الهوج علة وقوف الفتوح تماماً — فى إفريقيــة وغيرها — مدى السنوات الخمس التى ظلت مشتعلة فيها (بين سنتى ٣٥ و ٤١ هـ) وإذا ذكرنا أن عبــد الله بن سعد وجلة من كان معه من القــادة كانوا من رجال عثمان وأنصاره وآل بيته ، توقعنا أن يكون اهتمامهم شــديداً بما ترامى إلى أسماعهم —وهم على الثغور— من تعريض الناس بعثمان وتكلمهم فى الثورة عليه وسعيهم للخلاص منه وتنديدهم برجاله وعماله ، وإذا ذكرنا كذلك أن مصر كانت مركزاً من مراكز السخط على عثمان والائتمار به ، وأن نفراً من الناقمين عليه خف إليها ليدبر الوثوب به بمبعــدة عن الحجاز ، إذا ذكرنا ذلك كله فقد بانت أمام أعيننـا أسباب هذه العودة المفاجئــة والركود الذى أعقبها . ولنضف إلى ذلك أن هوى جند إفريقية كان مع معاوية لأنه رأس شيعة عثمان ، فكان لعودهم السريع ونصرهم إياه أثر حاسم فى نتيجة الصراع بين على ومعاوية .

عودة الفتوح

وكان طبيعياً أن تعود الفتوح سيرتها الأولى بعد استقرار الأمور لمعــاوية ، لأن أنصاره ورجاله كانوا هم قادة الجنود ورجال الفتوح الذين كانوا يترقبون الفرصة للعود إليها ، وأعان على ذلك أن جلة هؤلاء أصبحوا أعلام الدولة الجديدة ، فوجد الأمويون فى ردهم إلى الولاية والقيادة شيئاً من حسن الجزاء الذى استحقوه

بما نصروا قضيتهم وأعزوا جانبهم ، وإلى هذا تعزى بعض أسباب النشاط الواسع المدى الذى أبدته الدولة الإسلامية فى دور الفتوح الثانى .

عمرو بن العاص يستأنف الفتح فى إفريقية

وكان عمرو بن العاص قد أصبح عاملا لمعاوية على مصر من سنة ٣٨ هـ ، فأصبح بذلك — قياساً على عبد الله بن سعد — صاحب الرأى فيما يتصل بأمور إفريقية ، وأصبح فى مقدوره أن يخرج لغزوها إن أراد ، وكانت الغنائم الوفيرة التى عاد بها عبد الله بن سعد والنجاح السريع الذى أحرزه دافعين لعمرو إلى التفكير فى أمر إفريقية ، ولكن همته لم تكن إذ ذاك على ما كانت عليه فى ولايته الأولى ، إذ علت به السن ، وشغلته شئون المشرق عن أن يوجه اهتمامه كله لغزوة يقودها إلى المغرب ، فاكتفى بأن يبعث إلى هذه البلاد جنداً يفتحون منها ما يقدرون عليه ويغنمون من نواحيها ما تصل إليه أيديهم .

بيد أن معاوية لم يرض عن عمل كهذا ، ففكر فى أن يسارع فى رد عمرو عنه ، إذ رأى فيه ازدياداً لسلطان عمرو — وكان حريصاً على أن يحُد من ذلك السلطان — ورأى فيه كذلك طمعاً من عمرو فى خير إفريقية وغنائمها ، وكان هو فى حاجة إلى هذه المغانم والأموال ، وربما تحدث فى هذا إلى بعض خاصته ، ولكنه آثر السكوت وترك عمراً يفعل ما يشاء ما دامت بعوثه التى وجهها إلى إفريقية لم تخرج عن أن تكون سرايا قصيرة المدى لا تكاد تصل إلى أكثر من الواحات مثل فزان .

فلما أن توفى عمرو بن العاص سنة ٤٤ هـ ، سارع معاوية إلى استرداد الحق الذى كسبه عمرو فى ولاية إفريقية ، واعتبرها ولاية قائمة بنفسها يولى عليها من عنده والياً ، تكون صلته به مباشرة ، دون أن يكون لصاحب مصر دخل فى شئون هذه البلاد ، فأقام على مصر عقبة بن عامر الجهنى (بعد عزل عبد الله بن عمرو) ، ثم أعقب ذلك بتولية معاوية بن حديج قيادة الفتوح فى إفريقية والإمارة

على ما يفتحه من بلادها ، وذلك على الرغم من أن عقبـــة بن نافع كان لا يزال إذ ذاك مغازياً فى نواحى فزان والواحات القريبة منها .

معاوية بن حديج يولى قيادة الفتوح فى إفريقية

ولا يفسر هـذا الإغفال الظاهر لشأن عقبة بن نافع إلا بأن معاوية فضل أن يكافىء بهذه الولاية واحداً من أنصاره المقربين إليه الذين أعانوه على الانتصار ، وكان معاوية بن حديج رأس العثمانية فى مصر ، استطاع أن يحول بين أتباع على و بين الاستيلاء عليها ، فأقامه معاوية على هذه الولاية مكافأة له على ثباته و إخلاصه .

— ١ —

كانت عودة عبد الله بن سعد من إفريقية قضاء على ما بذل المسلمون فى فتحها من جهود استمرت ست سنوات من ٢٢ إلى ٢٨ هـ ، إذ أنه غادر البلاد دون أن يترك عليها والياً ، وربما كانت علة ذلك أنه لم يكن لديه من الجند ما يستطيع أن يخلفه على هذه البلاد ليحفظها للمسلمين ، ثم كانت سنوات الفتنة التى تلت ذلك قضاء على ما عسى أن يكون المسلمون قد تركوه من آثار فى نفوس الأهلين ، فكان على الفاتح الجديد أن يبـدأ العمل من جديد كأن أحداً من المسلمين لم تمس قدمه أرض المغرب قبل ذلك .

ولو أن أحوال الدولة البيزنطيـة بين سنتى ٣٥ و ٤٥ هـ كانت على شىء من الانتظام والقوة ، لاستطاعت أن تستعيد إفريقية على أهون سبيل ، ولكنها كانت هى الأخرى تعـانى من الضعف واضطراب الحال أكثر ممـا كانت تعانيه الدولة الإسلامية .

الدولة البيزنطيـة فى مستهل النصف الثانى من القرن السابع

لم يكن ما حاق بالدولة من المصائب بكاف لإقناع إمبراطورها قسطنطين الثانى بالانصراف عن التدخل فى شئون الدين و إعنات رعيته بالمذاهب التى يفرضها عليهم، فابتدع مذهباً جديداً سماه النموذج[١] ، وأخذ يفرض على أهل الولايات ، فأثار

(١) Diehl, op. cit. p. 556

ذلك اضطراباً شاملا ، وكان أهل إفريقية — من روم و بربر — قد حمدوا الله على انقطاع صلتهم بالامبراطورية ، وشجعهم على ذلك البابا الذى لاحظنا عظيم أثره فى ثورة جريجوريوس وفى فصل إفريقية عن الدولة دينيا ، فأثار ذلك قسطنطين، وصمم على أن ينهض بنفسه لعقاب البابوية ، فبعث جنداً قبضوا على البابا مارتن وأنزلوا به من العقاب شيئاً كثيراً ، ثم أمر به فنفى فى شمال البحر الأسود حتى مات ،[1] وكان ذلك عقب غزو العرب لصقلية على يد معاوية بن حديج من الشام[2] ، فثار به الناس واشتد الصراع بينه و بينهم ، وفيما هو فى ذلك ، إذ بلغه نبأ نزول اللومبارد بشمال إيطاليا (٦٦٧ م) ، فخف إليهم ليلقاهم ، فكان ذلك من جملة ما نزل بالدولة من أحداث عاقتها عن الالتفات لاسترجاع إفريقية ، ثم عاد بعد ذلك فأقام ببلاطه فى سرقوسة[3] ، وظلت هذه البلدة عاصمة الدولة مدى ست سنوات ، استطاع فيها أن يسترجع كلبرية وسردينيه ، وجزءاً صغيراً من إفريقية ، وفرض الضرائب على كل شىء ، واشتط فى ذلك « إلى حد أن فصل الأب عن ابنه »[4] فأثار ذلك ثائرة الجند ، فقتله أحدهم فى ١٢ يوليه سنة ٦٦٨ م ، بأن ألقى عليه ماء غالياً فى الحمام ، وأعقب ذلك اضطراب شديد انتهى بالمناداة بقسطنطين الثالث امبراطوراً[5] .

فى هذه الظروف لا يستبعد أمارى أن يكون أهل أفريقية قد استنجدوا

---

(١) Amari, Hist. Arab. Sic., I, pp. 89, 90

(٢) وتلك هى الغزوة التى أخطأ بعض مؤرخى العرب كابن عذارى فجعلوها سنة ٤٦ هـ فى خلافة معاوية ، وذهبوا إلى أن معاوية بن حديج قام بها من أفريقية ، والحقيقة أنه أقلع بها من الشام ، وعادت إلى الشام — البيان المغرب ، ج ١ ص ١١

(٣) Amari, op. cit. I. p. 95 (٤) Diehl, op. cit. p. 567 وأورد ديل ذلك بشىء من الشك ، فقال : نجح قسطنطين الثانى فى استعادة إفريقية ، ولا نعرف كيف ولا متى ، ولم يسترجع منها على كل حال إلا ما كان تابعاً للحاكم الأفريقى .

(٥) Ibid. pp. 97-99

بالعرب ليخلصوهم من مظالم الروم ، إذ يتفق كثير من المراجع على أن أهل صقلية استنجدوا بهم فأقبلوا لعونهم[1] .

يذهب ابن الأثير إلى أن « هرقل أرسل إلى أهلها — أى أهل إفريقية — بطريقاً ، وأمره أن يأخذ منهم مثل ما أخذ المسلمون ، فنزل البطريق قرطاجنة وجمع أهل إفريقية ، وأخبرهم بما أمره الملك ، فأبوا عليه وقالوا : نحن نؤدى ما كان يؤخذ منا ، وقد كان ينبغي له أن يسامحنا لما ناله المسلمون منا ، وكان قد قام بأمر إفريقية بعد قتل جرجير رجل آخر من الروم ، فطرده البطريق بعد فتن كثيرة ، فسار إلى الشام وبه معاوية ، وقد استقر له الأمر بعد قتل على ، فوصف له إفريقية، وطلب أن يرسل معه جيشاً ، فسير معه معاوية بن أبي سفيان معاوية ، بن حديج السكوني ، فلما وصلوا إلى الإسكندرية هلك الرومى ، ومضى ابن حديج فوصل إلى إفريقية وهى نار تضطرم »[2] وقد رأينا أن أحوال إفريقية العامة وأخبارها التى أوردها تيوفانيس وغيره تؤيد رأى ابن الأثير والنويرى ، وقد رأينا أمارى يؤيد استنجاد أهل صقلية بالمسلمين الذين خفوا إليهم ، فلمَ نستبعد أن يكون أهل إفريقية قد فعلوا ذلك ؟ ولم نستبعد أن يكون المؤرخان العربيان على الحق فيما ذهبا إليه ؟ ومع ذلك فليس من الضرورى أن نقبل هذه الرواية بحذافيرها ، بل يكفى أن نأخذ بمعناها إجمالا ، فنقرر أن نزاعاً شديداً بين البيزنطيين وأهل

---

(١) فلما وصل الأمبراطور الجديد من القسطنطينية ، انقلب الصقليون على قائدهم الذى كان استنجد بالعرب ، والتفوا حول قسطنطين ، الذى استطاع أن يطرد العرب من الجزيرة — أمارى ج ١ ، ص ٩٥

(٢) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٣٥ وقد روى النويرى هذه القصة ، وزاد عليها بأن جعل اسم البطريق الذى أرسله هرقل ليجمع المال أوليمه ، واسم الرومى الذى قام بأمر أفريقية بعد مقتل جرجير جناحه : « وولوا على أنفسهم وال يقال له الأطليون » ، ثم قال إن معاوية بن حديج وصل أفريقية ، وهى حرب ، وقد صارت ناراً — نهاية الأرب ٦٦ (ب) وقد أقر توكسيه ما جاء برواية النويرى وذهب إلى أن جناحه ربما كانت محرفة Gennadius وأوليمه Olympus - Ablavius - Ablimus cf. Revue Afr. 1885, p. 204

إفريقية كان يثير البلاد ويقسم أهلها شيعاً وأحزاباً ، وأن قسطنطين أراد أن يرغمهم على أن يؤدوا إليه مثل ما أخــذ العرب منهم ، فزاد ذلك فى سخطهم ونفورهم ، وودوا لو أقبل العرب لخلصوهم من نير الروم . ثم إن انتقال قسطنطين إلى صقلية فى ذلك الحين يؤيد ذلك[1] ؛ وتتفق المراجع اليونانية على أن الدولة كانت تقاسى إذ ذاك عَوَزاً مالياً شديداً ، وأنها أرهقت صقلية وسردينية وكلبرية بالضرائب ، فطبيعى جداً أن تكون قد أرادت بإفريقية مثل ذلك .

ويذهب فورنيل إلى أن قسطنطين لم يكتف بإرسال الرسل يجمعون له المال ، بل حاول أن يسترجع إفريقية بقوة الجنــد ، وقد أشار أمارى إلى ذلك إشارة يسيرة ، ولكن فورنل أكد أن النصوص تتحدث عن وجود جيش يسمى بالجيش الإفريقى Exercitus africal بين جيوش الدولة إذ ذاك ، وأكد بيورى أن قسطنطين حاول أن يستعيدها ، ولكن ديل تساءل عن النصوص التى أخرج بيورى منها رأيه هذا[2] .

— ٢ —

تحديد تاريخ غزوة معاوية ابن حديج

يذكر ابن عبد الحكم[3] أن معاوية بن حديج غزا إفريقية ثلاث غزوات . « أما الأولى فسنة ٣٤ هـ قبل مقتل عثمان ، وأعطى مروان الخمس فى تلك الغزوة ، وهى غزوة لا يعرفها كثير ، والثانية سنة ٤٠ والثالثة سنة ٥٠[4] » وجاراه فى ذلك أكثر المؤرخين المغربيين ، ويغلب أنهم نقلوها عنه ، لورود عبارته بالنص فى رواياتهم[5] .

(١) Bury, op. cit. II, pp. 297, 299. Diehl, op. cit. p. 568

(٢) Bury, op. cit. II, p. 302. Diehl, op. cit. p. 568

(٣) رواية عن عبد الملك بن مسلمة عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب

(٤) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٣ — ١٩٤

(٥) معالم الأيمان ، ج ١ ص ٤١ وطبقات علماء أفريقية ج ١ ص ١٥ ، وقد ذكر أبو العرب =

ولكنه — أى ابن عبد الحكم — يجمع كل أعمــال معاوية بن حديج فى إفريقية فى غزوة سنة ٣٤ ، ويجاريه فى ذلك ابن خلدون ، الذى يضيف أن هذه الغزوة (سنة ٣٤ هـ) كانت فى خلافة معاوية ابن أبى سفيان [1] ، وسياق روايته يدل على أن أعمال ابن حديج كانت متصلة يلى بعضها بعضاً، دون أن تفرق بينها فترات طويلة كالتى بين سنوات ٣٤ و ٤٠ و ٥٠ ، مما يميل بنا إلى الاعتقاد بأن الرجل قام بغزوة واحدة ، أتم فيها كل ما ينسب له من أعمال ، أما الغزوتان الأخريان فربما شرع فيهما ولم يفعل ، أو لم يقم بهما أصلا .

ومما يقوى الشك فى تلك الرواية أن غالبية المؤرخــين الآخرين لا يذكرون إلا غزوة واحدة يجملون فيهــا كل فتوح معاوية بن حديج ، ويختلفون فى تحــديد السنة التى تمت فيها هذه الغزوة الواحدة ، فيجعلها بعضهم سنة ٤٥ هـ [2] وبعضهم الآخر سنة ٤١ هـ [3] ، وندر منهم من ذكر شيئاً فى سنة ٣٤ أو فى سنة ٥٠ هـ [4] ؛ مما يؤكد لنا أن ابن حديج خرج فى غزوة واحدة أتم فيها كل ماينسب إليه من أعمال . ففى أى سنة كانت ؟

لاجدال فى أن معاوية بن حديج كان فى مصر سنة ٣٤ هـ ، إذ كان من كبار

= أنه أخذها « عن فرات عن عيسى بن عيسى بن محمد عن ابن وهب عن ابن لهيعة عن ابن أبى حبيب » ولكن الغالب أنه نقلها عن ابن عبد الحكم ونزهة الأنظار (ص ٧٠ ، وهذا المرجع ذكر أن الغزوة الثانية كانت سنة ٤١)، والمونس (ص ٣٤) ورياض النفوس (ورقة ٤ ويقتصر على ذكر اثنتين ولا يذكر سنة ٤٣ هـ)

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٨٥

(٢) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٣٥ ، والنويرى ورقة ٦٧ (ا) ، والباجى ، ص ٤ — ٥ ، والبيان المغرب لابن عذارى، ص ١٠ — ١١ والمونس ص ٢٣ — ٢٤

(٣) البكرى ، وصف أفريقية ، ص ٣٤ ، ٣٥ ، ٥٨ ، والمالكى ، رياض النفوس ، ص ٤ (ا)

(٤) يذكر ابن عبد الحكم وابن خلدون سنة ٣٤ هـ . أنظر : فتوح ، ص ١٩٣ — ١٩٤ ، العبر ، ج ٤ ص ١٨٥ . ويكتفى ابن مقدشو مؤلف نزهة الأنظار بالقول بأن ابن حديج حفر الآبار المسماة باسمه فقط سنة ٣٤ ، (أنظر ص ٧٠) . ويتردد أبو المحاسن بين سنتى ٤٥ ، ٥٠ : أنظر النجوم الزاهرة ، جـ ١ ص ١٣٠ ، ١٣٩

القواد فى جيش عبد الله بن أبى سرح ، ولكن فتنة عثمان كانت فى هذه السنة على أشدها ، وكان سخط الناس قد بدأ يستفيض على الألسن ، وبدأ الشعب ، وكانت مصر على الخصوص مركزاً من مراكز السخط على عثمان ، خف إليها نفر كبير من أعدائه ، وجعلوا يدبرون أمرهم للخلاص منه ، وكان عثمان وأنصاره فى هذه السنة فى شغل عن الغزو الخارجى بما أصاب الخلافة من اضطراب ، فاقتصرت جهودهم على الدفاع عن عثمان ، فكيف يتفق أن ينهض معاوية بن حديج بغزوة عظيمة كهذه ، وهو من شيعة عثمان وأنصاره ، والحال فى مركز الدولة لا يسمح له بأن ينفق قواته فى بلاد نائية بعيدة؟ و إذا كنا عللنا عودة ابن أبى سرح السريعة باحساسه بالخطر على عثمان ، فكيف يطمئن إلى إرسال جنده إلى إفريقية فى هذا الظرف الحرج الذى « سارت فيه ركائب المنحرفين عن عثمان » [1] كما يقول أبو المحاسن ؟ ثم إننا نجد معاوية بن حديج فى مصر فى العام التالى ، أى سنة ٣٥ هـ ، منافحاً عن قضية عثمان مطالباً بدمه ، [2] فكيف اتفق له أن يذهب إلى إفريقية ويفتح جلولاء وسوسة ومثروت ويحاصر هذه المدائن زماناً طويلا ، ويقيم بناحية القرن مساكن يسميها قيروانا [3] ، ويتم ذلك كله فى أقل من سنة ، ثم يعود إلى مصر؟ أليس المعقول أن تكون هذه الغزوة قد تمت فى وقت آخر ساد فيه الهدوء واستقرت الأحوال ، وأمنت فيه شيعة عثمان على أنفسها ؟ وأليس المعقول أن يكون فورنل قد أصاب حينما استبعد أن يخطىء ابن خلدون ، فيذكر أن معاوية كان خليفة سنة ٣٤ وأن ابن حديج كان والياً على مصر إذ ذاك ، وعلل ورود سنة ٣٤ فى روايته بخطأ الناسخ الذى ذكر سنة ٣٤ بدلا من سنة ٤٣ [4] ؟.

ثم إن رواية ابن عبد الحكم نفسها يشوبها شىء كثير من الاضطراب ،

---

(١) النجوم الزاهرة ، جـ ١ ص ٩١ (٢) نفس المصدر ، جـ ١ ص ٩٤ ، ٩٧

(٣) ابن الناجى ، معالم الإيمان ، جـ ١ ص ٤٢ (٤) Fournel, op. cit. I. p. 141

فهو يجعل كل أعمال معاوية ابن حديج التى أوردها جميع المؤرخين ، فى سنة ٣٤ ، ثم يعود فيقول أن هذه الغزوة لايعرفها كثير ، ألا يكون الأقرب للصواب أنه أراد أن يقول إن معاوية بن حديج ربما يكون قد غزا غزوة صغيرة سنة ٣٤ لم يقم فيها بشىء ذى بال ، ولذلك لم يعرفها كثير [١] ، ثم عاد فغزا غزوة كبيرة أخرى فى سنة لم يذكرها سهواً ؟ ذلك أقرب الآراء إلى الصحة ، وأكثرها اتفاقاً مع منطق الحوادث . أما سنة ٥٠ فقلَّ بين المؤرخين من يذكرها ، وربما ذكر بعضهم فيها حوادث قليلة ، أو تردد بينها وبين سنة أخرى ، مما يميل بنا إلى نفيها ، خصوصاً وأننا نعلم أن عامل مصر فى هذه السنة (٥٠هـ) كان مسلمة بن مخلد الأنصارى [٢] ، وأنه عزل عقبة عن إفريقية ، وولى عليها بدله مولاه أبا المهاجر ، ولم يقل أحد من المؤرخين أنه بعث معاوية بن حديج ثم عزله بعقبة ثم عزل هذا بأبى المهاجر .

بقيت سنتا ٤١ و ٤٥ هـ ، فأما الأولى فكانت عقب مقتل على ، ولم يكن أمر معاوية قد استتب بعد ، ولم تكن الظروف تسمح له بالتفكير فى الغزو ، فالمعقول أن الغزوة كانت فى الأخرى ، أى فى سنة ٤٥ هجرية ، بعد أن ثبتت قدم معاوية واستطاع أن يفكر فى التوسع والغزو الخارجى ، ثم إن والى مصر فى سنة ٤١ هـ كان عمرو بن العاص (منذ ٣٨ هـ) ، ولم يَرِد أنه أرسل معاوية بن حديج ، فى حين كان هذا الأخير قائدَ جندِ مصر فى ولاية عتبة بن أبى سفيان عامل مصر لمعاوية سنة ٤٣ ، وبقى فى هذا المنصب إلى سنة ٤٧ حين عزله مسلمة بن مخلد وأقام

---

(١) حاول كودل أن يؤيد ابن عبد الحكم فيما ذهب إليه ، ولكنه لم يوفق ، إذ لم يأت بينة من النصوص تعلل هذا التأييد ، ثم قال معلقاً على هذه الغزوة : « ولكنها كانت على جانب قليل من الأهمية ، وربما تكون قد توقفت فى بدايتها ، حينما ترامت أخبار الأحداث التى كانت تغشى المشرق فى ذلك الحين ؛ وكانت قلة أهميتها تلك داعية البعض إلى إهمالها ، والبعض الآخر إلى خلطها بما تلاها من غزوات » ، ثم عقب على هذا الرأى بقوله : « إن جمع الحوادث كلها فى سنة واحدة يفسد التاريخ : cf. : Caudel, op. cit. II. pp. 86, 87

(٢) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ١ ص ٧٥

على جنـد مصر بدله السائب بن هشام ؛ فالمعقول أن معـاوية بن حديج استطاع فى هـذه السنوات الأربع — أو فى بعضها — أن يقوم بحملته على إفريقيـة ، وما دام أغلب المؤرخين يذكر سنة ٤٥ هـ (٦٦٦ ميلادية) ، فلا يبعد أن يكون ذلك هو التاريخ الصحيح لتلك الغزوة .

أما مداها فغير معروف ، فقـد تكون استمرت إلى نهاية سـنة ٤٦ هـ ، لأن معاوية عزل عن جنـد مصر فى سنة ٤٧ هـ ، وربما امتدت إلى أوائل سنة ٤٧ ، لأننا نجد عاملا لمعاوية بن حديج على طرابلس، وهو رُويفع بن ثابت الأنصارى يغزو جزيرة جِربة فى سنة ٤٧ هـ[1] .

وتذهب طائفـة من المؤرخين[2] إلى أن معاوية بن حديج خرج بحملته من دمشق ، وهذا غير صحيح ، لأن الثابت المعروف أن معاوية كان على جند مصر إذ ذاك ، وأنه خرج إلى إفريقية من مصر بالطريق العادى ، وليس هناك ما يؤيد القول بأن حملته كانت بحرية ، وإنما الثابت المحقق أنها كانت برية ، وأنها سارت فى نفس الطريق الذى سلكه عبد الله بن سعد ، وربما يكون معاوية قد أذن له فى فتح المغرب وهو على جند مصر جزاء له على ما أبدى من الإخلاص فى الدفاع عن قضية عثمان .

* * *

الروم يرسلون جيشاً إلى إفريقية

يبدو أن الأخبار بمسير معاوية بن حديج إلى إفريقية كانت قد اتصلت بالروم قبل وصوله ، لأننا نجد جيشاً بيزنطيا يقوده قائد اسمه نقفور ينزل إفريقية ويتقدم ليلقى العرب ، وربمـا كان هذا الجيش قد أقبل لأمر آخر غير قتال العرب ، لأن الحرب بين الفريقين كانت قصيرة المدى ، ولعل ابن الأثير لم يصـدق حين قدر

(١) المونس ، ص ٢٦

(٢) هم ابن عذارى ، وابن خلدون ، والنويرى ، ويظهر أن السبب فى وقوعهم فى ذلك الخطأ هو أنهم ظنوا أن معاوية بن حديج كان أميراً على مصر ، وقد أشار إلى ذلك روث فى كتابه عن عقبة بن نافع (ص ٢٩ — ٣٠) cf. : Roth, Okba ibn Nafi, pp. 29, 30

هذا الجيش بثلاثين ألف مقاتل ، لأنه يخبرنا بعد ذلك أن معاوية بن حديج سير إلى الروم جيشاً ، فلو كان الروم بهذا العدد الكبير لسار هو إليهم بكل جيشه ، وعدته عشرة آلاف فقط[1] .

من الثابت أن أمور إفريقية كانت على حال من الاضطراب تؤيد قول ابن الأثير أن معاوية بن حديج وصل إلى إفريقية وهى نار تضطرم[2] ، لأن الدولة أرادت أن ترهق الأهلين بدفع مبلغ عظيم يوازى ما دفعوه للعرب ، فاشتد النزاع بين الفريقين كما سبق بيانه ، حتى اضطر الأفارقة إلى طرد عامل الامبراطور فعاد إلى بلاده ، وربما كان ذلك هو السبب فى إرسال الجيش الذى لقيه معاوية بن حديج ، وكانت سلطة الإمبراطور قد تقلصت من البلاد حتى لم يبق منها إلا ظل خفيف ، وذلك على الرغم من وجود الامبراطور فى صقلية فى ذلك الحين ،على مقربة من إفريقية ، وقد سبق القول بأنه فشل فى أن يعيد سلطانه عليها إلى ما كان عليه .

مسير معاوية ابن حديج

سار معاوية بن حديج على رأس عشرة آلاف جندى[3] يريد إفريقية ، وكان مسيره على مقربة الساحل ، فتقدم حتى أفضى إلى سهل تونس وحط رحاله فى ناحية قمونية ،[4] وكان معه فى جيشه نفر كبير من الصحابة والتابعين ، من أمثال عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير بن العوام وعبد الملك بن

---

(١) روى ياقوت أن جيش معاوية بن حديج كان عشرة آلاف ، وأيد ذلك ليفى بروفنسال فى دائرة المعارف الإسلامية (معجم البلدان مادة قيروان ودائرة المعارف نفس المادة) . وقد قدّر ابن الأثير جيش الروم بثلاثين ألف مقاتل . وقال : « فلما سمع بهم معاوية سير إليهم جيشاً من المسلمين فانهزمت الروم ، ابن الأثير جـ ٣ ص ٣٥ ، وزاد النويرى أن نقفور أقلع بمن معه بعد هذه الهزيمة — نهاية الأرب ص ٦٧ |

(٢) ابن الأثير ، جـ ٣ ص ٣٥ (٣) القيروانى ، ص ٣٤

(٤) لم يرد لقمونية ذكر فى معجم البلدان ولا البكرى ولا الإدريسى، وحدد ابن عبد الحكم موضعها بأنها « موضع مدينة قيروان ، ويغلب أنها هى Caput Varda البيزنطية ، وربما كانت إلى شمالها قليلا ، وقد وصفها المالكى بأنها قيروان أفريقية — ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٣ ، ورياض النفوس ورقة ٤ |

مروان[1]، ويحيى بن الحكم بن أبي العاص، وعدة من أشراف قريش[2]، ونفر كبير من جند مصر[3].

لم يكد معاوية يستقر في قمونية حتى تسامع بنزول جيش بيزنطي في إفريقية، فتقدم للقائه، ولم يدر بين الفريقين شديد قتال، إذ عجل الروم بالانسحاب والعودة، وبذلك انتهت المقاومة البيزنطية.

تقدم معاوية إلى الشمال، ويبدو أنه اقترب من البحر، لأن المراجع تحدثنا أنه استقر في مكان يسمى القرن،[4] اتخذه مركزاً لأعماله، ويبدو أنه أقام بذلك المكان زمناً طويلا، لأنه احتفر فيه آباراً تسمى آبار حديج، وابتنى دوراً،[5] ومن هناك أرسل عبد الله بن الزبير يتتبع الروم، ويغلب أن هؤلاء تقهقروا بعد المناوشة الأولى حتى أدركوا سوسة، وهناك لبثوا فترة قبل أن يقلعوا، فبعث معاوية في أثرهم عبد الله بن الزبير، فأدركهم وناوشهم مناوشة خفيفة أقلعوا بعدها في البحر،[6] فاستولى عبد الله بن الزبير على سوسة، وغنم منها بعض الغنائم، ثم عاد إلى معاوية بن حديج في القرن.

كان أمام معاوية بن حديج بعد ذلك أحد أمرين: إما أن يسير غرباً فيتوقل

(١) ولد عبد الملك سنة ٢٦ هـ، فكانت سنه أثناء هذه الغزوة ١٩ سنة، وهي سن مبكرة، ولكنها لا تمنع من قيامه بالدور الذي سينسب إليه.

(٢) المونس، ص ٢٤ — ٢٥ (٣) رياض النفوس، ورقة ٣ (ب)

(٤) تتفق المراجع كلها على ذكر قونية وجبل ممطور والقرن، وكلها أماكن لا وجود لها في المعاجم، ولا تتفق النصوص كذلك على ترتيب الحوادث وربما كان أقرب ترتيب للمنطق هو أن معاوية استقر أولا بقمونية ثم خف للقاء الروم حتى إذا فرغ من أمرهم استقر بناحية القرن، وأرسل عبد الملك بن مروان إلى جلولاء، وابن الزبير إلى سوسه وقد ورد القرن باسم جبل القرن في معالم الإيمان ورجح كودل أنه جبل Ousselet. cf. : Caudel, op. cit. II, p. 96 جـ ٢ ص ٩٦ (٥) الباجي، الخلاصة النقية، ص ٣

(٦) ينسب البكري إلى ابن الزبير أموراً لا نزاع في أنها مختلقة كقوله إن العدو هاجمه وهو يصلي العصر، فلم يكترث له وأكمل صلاته ثم هجم عليهم فهزمهم — البكري، ص ٣٥

الهضبة ليهاجم القوى البربرية فى معاقلها ، أو يتجه إلى الشمال ليفتح مدائن الساحل ومحارسه ، ليتم له القضاء على ما بقى من آثار الروم فى البلاد ، ويحول دون أية محاولة يدبرونها لفتحها من جديد ، فانتهى إلى أن يحقق الغرضين معاً ، وقر رأيه على أن يندب للتوغل فى الداخل أحد قواده ويهم بنفسه بالمسير إلى الشمال (١) .

ووقع اختيار معاوية بن حديج على عبد الملك بن مروان ، ويبدو أنه لم يكن موفقاً فى هذا الاختيار إذ كان عبد الملك حدثاً فى التاسعة عشرة من عمره لا عهد له بقيادة الجند أو القيام بفتوح ذات خطر ، وسنراه يفشل فى فتح جلولاء ، على رغم تداعى أسوارها وتهدمها ، ثم يختلف مع معاوية بن حديج فى تقسيم غنائم حملته ، وتشتد الخصومة بينهما إلى حد يدعو معاوية بن حديج إلى استشارة معاوية ابن أبى سفيان فى دمشق ، ويظل عبد الملك منابذاً قائده إلى أن تعود الحملة أدراجها ، وربما كان السبب الذى حدا بمعاوية إلى اختيار عبد الملك هو قرابة هذا الأخير من الخليفة ، وميل ابن حديج إلى إرضاء آل أمية باختيار فتى منهم لقيادة هذا البعث ، إذ لا مراء فى أن أمراً كهذا يرفع من قدر ابن حديج لدى البيت الحاكم .

---

(١) ويذهب نفر من المؤرخين كأبى العرب إلى أن معاوية بن حديج قاد بنفسه حملة جلولاء ، وقد أيده في ذلك النويرى حيث يقول : « وقاتل معاوية أهل جلولاء » ، على باب المدينة مما يفهم منه أن معاوية سار بنفسه ، ولكنه يعود فيقول : « وانصرف عبد الملك إلى معاوية وهو معسكر بالقرن ينتظره ، مما يفهم منه أن معاوية أرسل عبد الملك إلى جلولاء ، ولبث ينتظره بالقرن ؛ وتردد ابن عبد الحكم بين الرأيين فقال : « ويقال بل غزاها معاوية بن حديج بنفسه ، فحاصرهم فلم يقدر عليهم فانصرف آيساً منها وقد جرح عامة أصحابه وقتل منهم ، وبقية المؤرخين على أن عبد الملك هو الذى قام بها ، بيد أن ابن « عبد الحكم » يعود فيشير إلى خلاف بين معاوية بن حديج وعبد الملك على غنائم جلولاء : وانصرف عبد الملك إلى معاوية بن أبى سفيان ، فكتب إن العسكر رده للسرية ، فقسم ذلك بينهم » مما يرجح أن عبد الملك قاد هذه الحملة . ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٤ ، رياض النفوس ، ورقة ٤ (ا) ، نهاية الأرب ، ورقة ٧

فصل عبد الملك بمن معه واتجه إلى الغرب ، وكان أقرب حصون الهضبة إليه حصن جلولاء[١] ، ولم تكن من كبار الحصون أو المحارس ، ولكنها كانت أقربها إليه ، « فحاصرها أياماً فلم يصنع شيئاً ، فانصرف راجعاً فلم يسر يسيراً حتى رأى فى ساقة الناس غباراً شديداً ، فظن أن العدوّ قد طلبهم ، فكرّ جماعة من الناس لذلك ، وبقى من بقى على مصافهم ، وتسرع سرعان الناس، فإذا مدينة جلولاء قد وقع حائطها ، فدخلها المسلمون وغنموا ما فيها ، وانصرف عبد الملك إلى معاوية ابن حديج[٢] » . وظاهر من هذه الرواية أن أسوار المدينة كانت متداعية آيلة للانقضاض ، ولا يعلل عجز عبد الملك عن الاستيلاء عليها إلا بقلة خبرته أو إسراعه بالعودة بعد حصار قصير ، وظاهر من الرواية كذلك أن المدينة لم تكن بها حامية ، وإنما كان أهلها هم الذين يدافعون عنها ، وربما استطعنا أن نأخذ فكرة عن ثروة المدينة فى هذه الأيام إذا عرفنا أن نصيب الفارس من غنائمها كان مائتى دينار ، ويغلب أن العرب لم يجدوا بالحصن ناساً كثيرين ، ولم يصيبوا منه سبياً كثيراً ، لأن عبد الملك بن مروان اشترى بنصيبه من الغنيمة جارية ، مما يدل على أن الحصن لم يكن مأهولا .

---

(١) جلولا أو جلولاء على مقربة من القيروان الحالية ، تبعد عنها أربعة وعشرين ميلا ، وهى مدينة كبيرة وحصن بيزنطى قديم ، ذهب ديل إلى أن أصله البيزنطى Couloulis أحد محارس الهضبة ، فى حين ذهب دى فرجير إلى أنها Usilla القديمة ، وأثبت دى سلين خطأ دى فرجير ، مما يؤكد صحة رأى ديل ، وقد أخذ عنه شو وحقق موضع المدينة بنفسه . واتفق جغرافيو العرب على ذكرها والقول بقدمها ووجود الآثار بها ، وزاد البكرى أنها كانت غنية كثيرة الأشجار والثمار وبها قصب السكر ، أما الإدريسى فيسميها جلولة ، ويقول : « إنها مدينة صغيرة عليها سور وبها عين ماء جارية » البكرى ، وصف أفريقية ، ص ٣١ ، ٣٣ ، ٥٨ والإدريسى ، ص ١٢٠

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٣ — ابن الأثير ، ج ٣ ص ٣٥ (مختصرة جداً) — البكرى ، وصف أفريقية ، ص ٣٢ — ٣٣ ؛ ويظهر أنه نقلها عن ابن عبد الحكم . ابن خلدون، (طبعة دى ﻓرچير) ص ٨ . النويرى ، نهاية الأرب ، ورقة ٦٧ (ب) — ٦٨ (ا)

يتفق المؤرخون على أن خلافاً وقع على قسـمة غنائم جلولاء بين معاوية بن حديج وعبـد الملك بن مروان ، إذ أراد هذا الأخير أن يختص بها من رافقه من الجند ، فى حين رأى معاوية أنها من حق الجيش كله : من اشترك منهم فى فتح جلولاء ومن لم يشترك ، واشـتدت اللجاجة بينهما إلى حد اضطر معه معاوية بن حديج إلى استشارة معاوية بن أبى سفيان ، فحسم النزاع بأن قرر أن غنائم جلولاء من حق الجيش كله ، فقسمت بين الجنـد جميعاً [1] ، ويبدو أن الرجلين ظلا متغاضبين بعد ذلك إلى انتهاء الحملة ، إذ يقول البكرى : « قالوا : ولما كان من عبد الملك بن مروان ما كان ، ومنازعته لمعاوية بن حديج على فيئها ، ثقل على معاوية بن حديج ، فكان يتجهمه ولا يقبل عليـه ، فرأى حنش الصنعانى عبد الملك بن مروان وهو متفـكر متغير اللون ، فقال له ما شأنك ؟ فقال إنى أبعد آل قريش مجلساً من الأمير ، فقال له حنش لا تهتم . . . . الخ » [2] .

يذهب نفر من المؤرخين إلى أن معاوية طال مكثه بناحية القرن ، فحفر بها آباراً لا تزال تسمى آبار حديج ، وأنه ابتنى بها دوراً سماها قيروانا [3] فى موضع القيروان قبل أن يأتى عقبة ، ولكن ذلك كله مشكوك فيه ، ويجوز أنه ابتنى بعض المساكن للجند واحتفر آباراً لسقيامهم ، أما أن يكون قد فكر فى ابتناء المدينة فغير صحيح ، ولا وجود له فى المراجع الأصلية الأولى كابن عبد الحكم والبكرى والبلاذرى وابن الأثير .

مسير معاوية إلى بنزرت

ثم هم معاوية فتوجه إلى الشمال ، وكانت وجهته بنزرت ، ومن الغريب أنه لم يقصد قرطاجنة عاصمة إفريقية البيزنطية ، وكانت معروفة للعرب إذ ذاك فلا يقال إنه جهلها ، وربما كان السبب فى ذلك أنه تهيب حصارها لما كان معروفاً عنها

---

(١) أنظر المراجع المشار إليها فى الهامش الأخير من الصفحة السابقة (٢) البكرى ص ٣٣
(٣) الباجى ، الخلاصة النقية ، ص ٥ ؛ ابن الناجى ، معالم الأيمان ، ج ١ ص ٤٢ ؛ المالكى ، رياض النفوس ، ٤ (١)

من المنعة والقوة ، ولا نزاع فى أن معاوية أخطأ بذلك خطأ كبيراً ، فلو أنه وجه جهوده نحو قرطاجنة لخطا بفتح إفريقية خطوة كبرى ، لا شك فى أهميتها ، ولكنه انصرف إلى ميناء لا أهمية له ، ولم يكن لسقوطه أى أثر فى تقدم الفتح العربى لهذه البلاد .

والتفاصيل عن فتح بنزرت قليلة ، ويظهر أن أكثرها أضافه مؤرخو المغرب، فيحسن أن نكتفى بذكر رواية البكرى الذى يقول : « وافتتحها معاوية بن حديج سنة إحدى وأربعين،وكان معه عبد الملك بن مروان ، فشذ عن الجيش ، فمر بامرأة من العجم من عمل بنزرت ، فقرته وأكرمت مثواه ، فشكر لها ذلك ، فلما ولى الخلافة كتب إلى عامله بافريقية فى المرأة وأهل بيتها فأحسن إليهم[1] » ، مما يفهم منه أن بعض أهل البلاد كانوا يرحبون بالعرب ويتلقونهم كمخلصين من مساءات الروم ، وأن العرب لم يكونوا ينهبون البلاد النهب الذريع الذى يصوره كودل وديل وفورنل[2] وأضرابهم .

ويذكر بعض المؤرخين غزوة بعثها معاوية بن حديج فى ذلك الحين إلى صقلية[3] ، ويجعلون ذلك قبل فتح بنزرت ، وواضح أنهم أخطأوا فوضعوا هنا حملة معاوية بن حديج ، التى بعثه فيها معاوية بن أبى سفيان حوالى سنة ٢٧ هـ ، أو ٢٨ فى خلافة عثمان ، إذ كان معاوية قد غزا بنفسه قبرص ، وأرسل معاوية ابن حديج فغزا رودس ثم صقلية[4] ، وربما أخطأ ابن عذارى فى النقل عن البلاذرى

---

(١) البكرى ، وصف أفريقية ، ص ٥٨

(٢) راجع Fournel, I, pp. 145, 146. Diehl, op. cit. p. 570. Caudel, op. cit. II. pp. 87-96

(٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ص ١١ ، وابن الناجى ، معالم الأيمان ، ج ١ ص ٤١ ، والسلاوى ، الاستقصا ، ص ٣٦

(٤) وراجع أمارى ، الصفحات ٨٨ — ٩٠ من الجزء الأول حيث يذكر طرفاً من سيرة معاوية بن حديج ومناصرته لمعاوية واشتراكه فى فتح مصر وفتح دنقلة وفقأ عينه فى تلك الحملة ، ثم تولية معاوية إياه على رأس الأسطول الذى غزا رودس وصقلية وجمعه منها غنائم كثيرة ، =

فكتب : « وفى سنة ٤٦ من الهجرة — قال البلاذرى — أول من غزا صقلية معاوية بن حديج بعثه إليها عبد الله بن قيس ، وأصاب فيها أصناماً من ذهب وفضة مكللة بالجوهر ، فحملت إلى معاوية بن أبى سفيان » ، وصحتها فى سنة ٢٦ وعن ابن عذارى أخذها الباجى ، وابن الناجى خطأ[١] ، وكان معاوية قد خلف على طرابلس صحابياً اسمه رويفع بن ثابت الأنصارى ، فقام بحملة قصيرة عبر بها البحر إلى جربة وهى جزيرة مجاورة للساحل ففتحها ، وعاد سريعاً ، ويبدو أنها كانت مأهولة بالسكان لأن المسلمين أصابوا فيها سبياً ، إذ يقول البكرى : « قال حنش بن عبد الله الصنعانى[٢] : غزونا مع رويفع بن ثابت الأنصارى المغرب ففتح قرية من قرى المغرب يقال لها جربة ، فقام فينا خطيباً فقال : « أيها الناس : لا أقول فيكم إلا ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فينا يوم خيبر : قام فينا رسول الله فقال : لا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقى مازرع غيره ، يعنى إتيان الحبالى من السبى » [٣] .

فتح جزيرة جربة

ويبدو أن معاوية بن حديج لم يحسن التصرف فيما وقع له من غنائم حملته ، فأساء قسمها ، إذ يقول ابن عبد الحكم ، رواية عبد الملك بن مسلمة عن ابن لهيعة عن بكير بن عبد الله عن سليمان بن يسار ، قال : « غزونا إفريقية مع ابن حديج ، ومعنا من المهاجرين والأنصار بشر كثير ، فنفلنا ابن حديج النصف بعد الخمس ،

= ثم ذكر أمارى بعد ذلك أن النزاع بين البابا مارتن والأمبراطور قسطنطين الثانى كان على أشده ، فساق ذلك العرب إلى فتح الجزيرة ، ولم يكد معاوية يقلع من سرقوسه عائداً إلى الشام ، حتى نزل قسطنطين الثانى الجزيرة .

(١) أنظر cf. Mercier op. cit. I, p. 203 جـ ١ ص ٢٠٣

(٢) سبق أن ذكر البكرى لحنش حديثاً مع عبد الملك بن مروان بعد فتح جلولاء ، وهذا يدل على أن حنشاً اشترك فى فتح جربة بعد فراغه من جلولاء ، ولما كان فتح جربة سنة ٤٦ هـ ، فلا بد أن الفراغ من فتح جلولاء كان فى أواخر ٤٥ أو فى أوائل ٤٦ ، وفى هذه السنة تم فتح بنزرت الذى يغلب أن يكون قد تم قبل انتهائها — البكرى ، وصف أفريقية ، ص ١٩

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٢

فلم أر أحـد أنكر ذلك إلا جبلة بن عمرو الأنصارى »[1]. ولم يكن لتصرفه هذا أثر سيء كما حدث فى حملة عبد الله بن سـعد ، ولم يعترض عليه إلا جبلة هذا ، الذى أبى أن يأخذ شيئاً ، وكان تصرف معاوية مثار مناقشة الفقهاء ، ويدل على ذلك أن ابن عبد الحكم نفسه عاد فروى الحادث عن يوسف بن عدى عن آخرين بالنص ، إذ كان فى تصرف ابن حديج خلاف لحكم الشرع فى تقسيم النفل .

* * *

قيمة حملة معاوية ابن حديج

تلك كانت حملة معاوية ابن حديج على إفريقية ، وذلك هو الموثوق به من أخبارها ، ولم يكن لها نتائج تذكر ، ولم تكن خطوة لإتمام الفتح الإسلامى للبلاد ، وإنما كانت غارة طالت بعض الطول ، استولى العرب فيها على مدينتين قليلتى الأهمية ثم تخلوا عنهما وعادوا ، ويبدو أن معاوية لم يعد من إفريقية مرغماً ، لأن مسلمة بن مخلد لم يعزله عن جند مصر إلا بعد ولايته بقليل ، ولم يذكر أحـد من المؤرخين أنه استدعاه من ميـدان إفريقية . وقد رأينا معـاوية يؤثر السهل من الفتوح ، فيتجنب كبار المسالح والمعاقل ليهاجم صغارها ، ولهذا لا يبعد أن يكون اكتفى بذلك ثم عاد ، دون سبب معقول من غير أن يخلف فى البلاد أثراً يذكر .

لا نخطىء إذن إذا عددناها إحـدى المقدمات الطويلة التى سبقت الفتح الحقيقى ، إذ كانت آخر الغارات السريعة التى لم تنتج شيئاً ، وستبدأ بعد ذلك أولى حلقات الفتح الحقيقى على يد رجل طالت خبرته بإفريقية وأهلها ، فعرف السبيل الموفق لتثبيت قدم المسلمين ، فبـدأ فتحه بإقامة معقل للمسلمين وقيروان لأسـلحته حتى تتركز الفتوح ويبدأ العمل المنتج .

---

(1) نفس المصدر والصفحة

الباب الرابع

فتح إفريقيـــة

حملة عقبـــة بن نافع الأولى
و بناء القيروان

تطور الفتوح بقدوم عقبة

بقدوم عقبة ينتهى دور المحاولات الأولى ، ويبدأ الفتح الثابت المستقر ، وتعد أعماله الحجر الأول فى بناء إفريقية الإسلامية ، نعم أنه بدأ عمله والمسلمون فى سهل تونس ، وانتهى منه والمسلمون فى برقة ، وأن حملته الكبرى لم تكن أكثر من مغامرة طويلة قليلة الجدوى ، ولكنه كان أول من قام بحملة قوية ، استطاعت أن تشق طريقها وسط البلاد وأهلها ، وتمهد كل شىء فى سبيلها حتى تنتهى إلى المحيط .

كان عقبة بن نافع (بن عبد القيس بن لقيط) قرشيا من فهر ، ولد قبل الهجرة بسنة واحدة[1] ، يتصل نسبه بعمرو بن العاص من ناحية أمه ، وإلى هذه القرابة يرجع كثير من الفضل فى ظهوره على مسرح التاريخ ، إذ كان عمرو يعرف قدره ويثق فيه ، فعهد إليه ببعث فزان — كاس — فوفق فيه توفيقاً كبيراً ، ثم خلفه فى برقة أميراً على ما فتح من إفريقية حينما عاد سنة ٢٣ هـ ، فلبث فيها حتى قدم عبد الله بن سعد سنة ٢٧ هـ ، والغالب أن عبد الله خلفه على برقة ، وتوجه هو لأفريقية لأننا لا نجد لعقبة ذكراً فى أحداث حملة عبد الله ، ولو أنه اشترك فيها لكان له دور لا يغفل ذكره ، ولا بد أن عقبة عاد إلى مصر مع عبد الله بن سعد سنة ٢٨ هـ ، لأن هذا الأخير لم يترك فى إفريقية أحداً من المسلمين ، ويظهر أن بقاء عقبة فى إفريقية هذه السنوات الست ترك أثراً كبيراً فى نفسه ، فتعلقت آماله بالفتوح والغزوات ، وكان هذا الميل وراثياً فى نفسه ، إذ كان أبوه نافع بن القيس فاتحاً ذا شأن ملحوظ ، فكانت السنوات التى قضاها عقبة فى إفريقية مغازيا البربر ، متنقلا بين قبائلهم وواحاتهم ، فرصة طيبة لتنمية مواهبه الحربية ، وكان بطبيعته رجلا صالحا شديد الإيمان فأخذ — وهو فى هذا المعتزل — يتحول على مدى الأيام إلى شخصية حربية دينية لا تكاد تميل إلى شىء غير الجهاد فى سبيل الله ،

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ٤٢٠ — ٤٢١ . الخلاصة النقية ، للباجى ، ص ٥

ولا ترى غاية أعظم من الاستشهاد على قتال المشركين ، وانصرفت نفسه عن منازعات السياسة وأساليبها . لهذا لا نجد لعقبة ذكراً فى الملحمة السياسية الكبرى التى شغلت المسلمين عشر سنوات تباعا بين سنتى ثلاثين وأربعين هجرية . والغالب أنه قضى هذه السنوات بمصر مع معاوية بن حديج و بُسر بن أبى أرطأة وشَرِيك ابن سُمَىّ ومسلمة بن مخلد وغيرهم من العثمانيـة ، وأنه اشترك مع هذا النفر فى كفاح أنصار على ولا نزاع فى أن عقبة كان يستطيع أن يصيب من بعد الصيت فى هذه الأيام مثل ما أصابه معاوية بن حديج ، ولكن الميـدان لم يكن ميدانه ، فانزوى ساكنا حتى سكنت الريح واستتب الأمر لمعـاوية وعادت مصر إلى عمرو ابن العاص ، فوجد الفرصة سانحة لتحقيق ما تعلقت به نفسه من الفتح والجهاد ، فلم يلبث أن بدأ النشـاط من جديد ، فتابع ما حالت الفتنـة بينه و بين إتمامه . ولما كان عمرو يعرف تمام المعرفة مواهبه وما انطوت عليه نفسه ، ولما كان عمرو يفكر إذ ذاك فى إرسال بعث إلى إفريقيـة لأسباب مرّ بيانها ، فقد أذن له فى الخروج إلى إفريقية ، فلم يكذب أن أسرع فى تنفيذ ذلك من سنة ٤١ هـ .

عقبة يخرج إلى إفريقيـة فى بعث صغير سنة ٤١ هـ

يقول ابن الأثير : « وفى هـذه السنة — أى سنة ٤١ هـ — استعمل عمرو ابن العاص عقبة بن نافع بن عبد قيس ، وهو ابن خالة عمرو ، على إفريقية ، فانتهى إلى لُواتة ومزاتة فأطاعوا ، ثم كفروا فغزاهم من سنته فقتل وسبى . ثم افتتح سنة اثنين وأربعين غَدَامس ، فقتل وسبى ، وفتح فى سنة ٤٣هـ كورا من كور السودان[١] ، ويؤيده أبو المحاسن بقوله : « وفيها — أى فى سنة ٤٣هـ — افتتح عقبة بن نافع الفهرى كورا من بلاد السودان وودان[٢] » ثم يقول ابن الأثير بعد ذلك أن عقبة ظل مقيما ببرقة وزويلة حتى استعمله معاوية بن أبى سفيان على إفريقية سنة ٥٥هـ[٣] ،

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، جـ ٣ ص ١٨٤ . (٢) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ١ ص ١٢٥

(٣) ابن الأثير ، أسد الغابة ، جـ ٣ ص ١٨٤

ويؤيد ذلك مؤرخ مصرى آخر هو الكندى إذ يقول : « وعقد عمرو بن العاص لشريك بن سُمَىّ الغَطيفى على غزو لواتة من البربر ، فغزاهم شريك فى سنة ٤٠ هـ فصالحهم ثم انتقضوا بعد ذلك على عمرو بن العاص ، فبعث إليهم عقبة بن نافع ابن عبد القيس الفهرى سنة ٤١ هـ فغزاهم[1] » ، ثم يعود فيقول : « وعقد عمرو لعقبة ابن نافع على غزو هوارة ولشريك بن سمى على غزو لَبْدَة ، فغزوا هما فى سنة ٤٣ هـ ، وعادا وعمرو شديد الدَّنف فى مرض موته[2] » .

بهذا تجتمع لدينا طائفة من الأخبار تدل على أن العرب عادوا بعد سنوات الفتنة يتمون ما كانوا قد بدءوا به قبل أن يثور بركانها ، وليس هناك ما يحول دون قبول هذه الأخبار التى يوردها هؤلاء المؤرخون الثلاثة ، وأن لم تؤيدها بقيتهم . لأن البكرى وأبا المحاسن مؤرخان يوثق فيما يرويانه من أخبار مصر وما يتصل بها ، وأما ابن الأثير فيذكر صراحة أنه اعتمد فى كتابة هذا الجزء من تاريخه على رواة مَغْرِبيين إذ يقول : « والذى ذكره أهل التاريخ من المغاربة أن ولاية عقبة ابن نافع . وهم أخبر ببلادهم ، وأنا أذكر ما أثبتوه فى كتبهم ، قالوا . . »[3] .

لم يكد أمر مصر يستتب لعمرو — إذن — حتى اتجه بأنظاره ناحية المغرب ، فجعل يتخير البارزين من جنده ويرمى بهم هذه البلاد ، ولا يبعد أن يكون هؤلاء الجند هم الذين سعوا إلى الخروج فى هذه البعوث ، لأن امتداد الفتنة قد حال بينهم وبين ما كانت نفوسهم تميل إليه من المغازى والفتوح ، ولكن عزم عمرو فى ولايته الثانية لم يكن على ما كان عليه فى ولايته الأولى ، إذ علت به السن عن تدبير

(١) الكندى ، كتاب القضاة والولاة ، ص ٣٢
(٢) نفس المصدر والصفحة
(٣) ابن الأثير ، أسد الغابة ، جـ ٣ ص ١٨٤

فتوح واسعة النطاق ، تستدعى الكثير من الإهتمام والعناية ، فلم تزد جهوده على بعوث وطلائع قليلة الأهمية والأثر .

وكان عقبة قد طال به الزمن وهو يترقب الفرصة ليستأنف ما بدأه فى ولاية عمرو الأولى من الفتح فى فزان وودان وما يجاورها من نواحى الصحراء ، ولا نزاع فى أن طول عهده بإفريقية وكثرة اشتغاله بحروبها قد مكنه من تكوين فكرة واضحة عن هذه البلاد ، إذ اتصل بأهلها وعرف الكثير من أخلاقهم ، وجاس فى ربوعها فألم بطبيعتها وتفطن إلى أمثل السبل لفتوحها وإخضاعها ؛ فعرف أن فتح المغرب لا يثبت إلا بأمرين : أولهما إنشاء مركز للعرب فى قلب إفريقيـة ، تعسكر فيه حاميتهم ، وتوضع فيـه أموالهم وتأمن نساؤهم وأثقالهم ، ويخرجون منه للغزو بدل أن يخرجوا من الفسطاط ، وثانيهما غزو البربر أنفسهم والتوغل فى قلب بلادهم ، وإدراكهم فى مساكنهم فى الهضاب والقفر والصحراء ، وسفوح الجبال بدلا من الاكتفاء بغزو مدائن الساحل ونهبها ثم العودة بالغنيمة ، لأن العرب ما يكادون ينصرفون عن هـذه البلاد ، حتى تعود إلى ما كانت عليه قبلا ، لاتصال الأسباب بينها وبين الدولة البيزنطية عن طريق البحر ، ولقـلة ما يتركه المسلمون من أثر فى غاراتهم السريعة ، ثم لأن غزو روم الساحل لا خير فيـه ، وإخضاعهم لا يعنى خضوع إفريقية .

إلى هاتين الغايتين اتجهت همة عقبة ، والغالب أنه كان قد عقد النية — يوم خرج فى ولايتـه الأولى — على أن يتم الشطر الأول ، ثم يعقبه بالشطر الثانى ، ففاجأه العزل وحال بينه وبين تنفيذ ما أراد .

وكان عقبة على الحق فيما رأى ، وكانت خطته هى أمثل ما يتبع فى إفريقية ، وقد أكمل شطرها الأول بنجاح ، ولكنه أخطأ فى تنفيذ شطرها الثانى ، فكانت حملته الكبرى مغامرة طويلة قليلة الأثر وخيمة العاقبة .

بعث عقبة في الصحراء

بدأ عقبة عمله من سنة ٤١ هـ ، فبدأ بإخضاع لواته من جديد ، ثم تقدم إلى غدامس فاحتلها سنة ٤٢ هـ ، ثم اتجه إلى الجنوب ففتح بعض واحات الصحراء التي أرادها ابن الأثير بقوله « كوراً من كور السودان »[1] ، ولبث مقيما في هذه النواحي حتى ولاه معاوية جند إفريقية وسيره إليها سنة ٥٠ هـ ، ولا يبعد أن يكون قد رجا أن يوافيه عمرو أو معاوية بالجند وهو على سَرِيّته هذه ، ليتم ما بدأ به ، وربما بعث في طلب ذلك ، وهنا — كما يغلب على الظن — موضع الخطاب الذي ذهب البلاذرى إلى أن عقبة ، أرسله إلى عمرو في حملته الأولى سنة ٢٢ هـ ، إذ أن معنى قوله إنه « قد وضع الجزية على أهل زويلة ومَن بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه ، وأمر عماله جميعاً أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء فيردوها إلى الفقراء ، ويأخذوا الجزية من الذمة فتحمل إليه بمصر[2] » ، أن أهل هذه البلاد كان قد طال عهدهم بالإسلام حين أُرسل هذا الكتاب فاعتنقه منهم نفر وبقي منهم نفر آخر على دينه ، فأخذت الصدقة وجمعت الجزية ، بل يفهم كذلك أن بعضهم كان قد أطاع ثم عاد فارتد ، فغزاهم عقبة مرة أخرى وأقام عليهم العمال والجباة ، وبعث إلى عمرو بخبر ذلك كله . ومعقول جداً أن يكون عقبة قد أراد بهذا الكتاب أن يدل على عظيم توفيقه ونجاحه ، ويستحث القائمين بالأمر على موافاته بالجنود والمدد حتى يُتم هذا الأمر الذي بدأ به ، ولبث ينتظر الإذن والمدد ليستأنف المسير . أما أن يكون قد بعث ذلك الخطاب إلى عمرو سنة ٢٢ أو بعدها بقليل ، فأمر بعيد الاحتمال ، إذ يبعد أن يكون البربر قد أقبلوا على الإسلام من يوم دخل العرب إفريقية إقبالا يستدعى تنظيم أمورهم وإقامة العمال وجباية الصدقات .

توفى عمرو بن العاص في أول شوال سنة ٤٣ هـ ، وأصبحت يد معاوية ابن أبي سفيان مطلقة في شئون مصر وإفريقية يولى عليهما من يشاء ، وكان

---

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، جـ ٣ ص ١٨٤ (٢) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٢٢٤

معاوية بن حديج من أكبر أنصاره فى مصر . جاهد فى سبيل عثمان ومعاوية جهاداً طويلا وأدرك للعثمانيــة ثأرها بقتل محمــد بن أبى بكر ، وأصلح بين عمرو ومعاوية حين اشتدت الملاحاة بينهما وكادت تؤدى إلى ما لا تحمد عقباه ، وزُيِّنتْ له دمشق يوم وفد عليها بعد استقرار الأمور ، فلما مات عمرو تطلعت نفس ابن حديج إلى شيء من حسن الجزاء الذى استحق ، وعرف له معاوية أياديه ، فأقامه على جند مصر فى ولاية عتبة بن أبى سفيان ، وأمره بالمسير إلى إفريقيــة ، و بعث إليــه الإمداد من جند الشام ، فسار فى حملته سنة ٤٥ هـ التى مر ذكرها .

ولا نزاع فى أن عقبة كان يرجو أن يكون مكان معاوية بن حديج ، ولكنه لم يجد بداً من الرضا بذلك ، لأن معــاوية أعلى منه منزلة وأرجح كفة فى حساب بنى أمية ، فانتظر حتى عاد معاوية من حملته فى أوائل سنة ٤٧ هـ بغنيمة قليلة ، وما هو إلا قليل حتى بعث إليــه معاوية يأمره بالمسير إلى إفريقية ويمده بالجنــد فخف مسرعاً [1] .

— ٢ —

ينفرد ابن عبد الحكم والبكرى بذكر تفاصيل وافية عن أعمال عقبة وفتوحه فى حملته الأولى ، فيصفان مسيره من برقة إلى موضع القيروان وصفاً يخالطه قصص كثير ، و يذهبان إلى أن عقبة خرج إلى المغرب سنة ٤٦ هـ «ومعه بُسر بن أبى أرطأة وشريك بن سُمى المراضى ، فأقبل حتى نزل بمغَداش [2] من صرت ، وكان توجه بسر إليها كما حدثنا يحيى بن عبدالله بن بكير ، عن الليث بن سعد ســنة ٢٦ هـ ، فأدركه الشتاء وكان (مضعفا) ، و بلغه أن أهل ودّان نقضوا عهدهم ومنعوا ما كان

---

(١) ذكر ياقوت أن عقبة جمع « من أسلم من البربر وضمهم إلى الجيش الوارد عليــه من معاوية » — معجم البلدان ، جـ ٧ ص ١٢٤

(٢) يغلب أن صحتها مغمداش ، على مرحلة من صرت إلى الغرب — البكرى ، وصف إفريقية ، ص ٧

بسر بن أبي أرطأه قد فرض عليهم ، فخلف عقبة بن نافع جيشه هناك ، واستخلف عليهم عمر بن على القرشى وزهير بن قيس ، ثم سار بنفسه و بمن خف معه أربعمائة فارس و .... حتى قدم ودان » ثم ذكر المؤلفان كيف أخذ عقبة مَلِك ودان فصلم أذنه أدباً له.وفرض عليه جزية قدرها ثلاثمائة وستون عبداً ، ثم سأل أهل ودان عمن وراءهم ، فدلوه على جَرَمَه[1] «مدينة فزان العظمى» ، فأخضعها بعد أن أدب ملكها ، وفرض على أهلها جزية قدرها ثلاثمائة وستون عبداً ، ووجه ملكها بعد ذلك إلى المشرق ، ثم افتتح قصور فزان ، وانتقل إلى بلد يسميانه خاوار فعجز عن فتحه بعد حصار شهر ، فمضى إلى كوار فافتتحها وأدب ملكها ، ثم عاد خفية ففاجأ أهل خاوار وفتحها ، ثم عاد إلى جيشه على مقربة من صرت ؛ و يضيف هذان المؤرخان إلى ذلك كرامةً لعقبة ، إذ : « أقام عقبة بمكان اسمه اليوم « ماء فرس » — ولم يكن به ماء — فأصابهم عطش شديد أشفى عقبة وأصحابه على الموت ، فصلى عقبة ركعتين ، ودعا الله وجعل فرس عقبة يبحث بيديه فى الأرض ، فكشف عن صفاة فانفجر منها الماء ، فجعل فرس عقبة يمص ذلك الماء ، فأبصره عقبة فنادى فى الناس أن احتفروا فحفروا سبعين حِسِياً ، فشربوا واستقوا فسمى لذلك ماء فرس[2] » .

يحدد المؤرخان سنة ٤٦ هـ لهذه الغزاة ، أى أنها كانت فى نفس الوقت الذى كان فيه معاوية بن حديج على غزو إفريقية ، ويرويان بعد الفراغ منها أن عقبة اتجه رأساً إلى غَدامس ، فأقلم قَسْطِليه فكان القيروان ، فإذا قدرنا شهرين لسير عقبة من صرت إلى غدامس — بعد رجوعه من هذه الجولة الصحراوية —

---

(١) ذكر الرواة أن عقبة خلف هذين على القيروان حين سار إلى إفريقية

(٢) يغلب أن الـ Garamantes الذين يذكرهم ديل هم أهل جرمه هذه .

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٤ — ١٩٦ ، والبكرى ، وصف إفريقية ، ص ١٣ و ١٤ باختلاف بسيط

لكانت المدة التى انقضت بين شروعه فى السير الأول من برقة وشروعه فى بناء القيروان عشرة شهور أو سنة واحدة على الأكثر . وإذا كان عقبة قد بدأ بناء القيروان سنة ٥٠ هـ فلا بد أن يكون قد قام بغزوته تلك خلال سنة ٤٩ هـ ، وإلا فكيف يتفق ذلك مع قولها إن عقبة شرع فى هذه الغزوة سنة ٤٦ هـ ، وإذا كان عقبة قد أتم جولته الصحراوية الطويلة فى شهور خمسة ، فكيف قطع المسافة من فزان إلى القيروان عن طريق قسطيلية فى ثلاثة السنوات الباقية ؟ أغلب الظن أن المؤرخين أخطآ فى تحديد ذلك التاريخ ، فذكرا سنة ٤٦ هـ بدلا من سنة ٤٩ هـ .

بذلك تستقيم سلسلة الحوادث : رجع معاوية بن حديج فى أوائل سنة ٤٨ هـ ، وشرع عقبة فى المسير سنة ٤٩ هـ إذ لا يتفق القول بأن معاوية بن أبى سفيان سير عقبة فى نفس الوقت الذى كان فيه معاوية بن حديج على غزو إفريقية .

وإذا جاز أن نستنتج شيئاً من قول ابن عبد الحكم والبكرى إن الوقت كان شتاء ، لصح القول بأن مسير عقبة كان فى أوائل سنة ٤٩ هـ لأن أول المحرم من هذه السنة يوافق ٩ فبراير سنة ٦٦٩ م[١] أى منتصف الشتاء .

عاد عقبة إلى جيشه الذى كان معسكراً على مقربة من صرت بعد غيبة خمسة أشهر استراح الجند خلالها ، وجمّت خيولهم وظهورهم ، فسار متوجهاً إلى المغرب ، وجانَبَ الطريق الأعظم ، وأخذ إلى أرض فزان ، ففتح كل قصر منها ، ثم مضى إلى (بياض) فافتتح قلاعها وقصورها ، ثم بعث خيلا إلى غدامِس فافتتحت غدامس ، فلمّا انصرفت إليه خيله سار إلى قفصة فافتتحها وافتتح قسطيلية ثم انصرف إلى القيروان[٢] .

---

(١) روث ، ص ٣٥ Roth, op. cit. p. 35 وفورنل ، جـ ١ ص ١٥٠ Fournel, op. cit. I. p. 150 وقد أورد أحداث هذه الرحلة الصحراوية بدون تعليق

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٦ — البكرى ، وصف إفريقية ، ص ١٤

يتفق ابن الأثير وابن عذارى والنويرى[١] على القول بأن معاوية ولى عقبة أمر إفريقية فى سنة ٥٠ هـ ، ويؤيد المؤرخون البيزنطيون ذلك ، فيتفقون على ذكر حملة كبرى على إفريقية فى أول حكم قسطنطين الرابع[٢] ، ومن هنا كان الراجح أن عقبة قام بحملته فى الصحراء عقب عودة معاوية بن حديج من إفريقيــة وقبل تولية معاوية إياه وإرساله الإمداد إليــه ، ولهذا عاد إلى مركزه الأول على مقربة من صرت ، ولو كان معاوية أمّره على إفريقية آنئذ لسار إلى إفريقية رأساً دون الحاجة إلى العودة إلى صرت ، فلما وصله الأمر والمدد شرع فى المسير إلى الغرب ، واحتل غدامس ، وربما كان هذا هو السبب فى إغفال أكثر المؤرخين ذكر هذه الغزوة الداخلية ، إذ أن معظمهم بدأ تاريخ غزوة عقبــة من ساعة وصول العشرة آلاف جندى إليه فى أوائل سنة ٥٠ هـ ، ويبدو أن تتابع حملاته على هذه النواحى من سنة ٢٢ هـ إلى ٤٩ هـ أدى إلى دخول بعض أهلها فى الإسلام ، لأن ابن الأثير والنويرى يذكران أن عقبة أخذ معه من أسلم من البربر عنـد مسيره إلى إفريقية سنة ٥٠ هـ[٣] .

مسير عقبــة إلى إفريقيــة

اتخذ عقبــة طريقه فى داخل البلاد مباعداً الساحل ، وقد لزم هــذه الخطة فى كل أعماله — سواء فى هذه الغزوة أو فيما بعدها — وربما كان دافعه إلى ذلك إيثاره الابتعاد عن الإقليم الساحلى الملىء بالحصون والمحارس وتفضيله الطريق الداخلى المقفر الذى لا تكون فيــه إلا مقاومة ضئيلة من القبائل البربرية وسكان الواحات ؛ ولا نزاع فى أن عقبــة لم يكن على الصواب دائماً فى التزام هذه الخطة

---

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، جـ ٣ ص ١٨٤ — النويرى ، نهاية الأرب ، ورقة ٦٨ ا — ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ١ ص ١١ — ١٢

(٢) المسمى Pogonat الذى بدأ حكمه فى ١٥ يوليو سنة ٦٦٨ أى ما يوافق أواخر سنة ٤٨ هـ

(٣) ابن الأثير ، أسد الغابة ، جـ ٣ ص ١٨٤ — النويرى ، نهاية الأرب ، ص ٦٨ ا ، ويؤيد ذلك لبنى بروفنسال إذ يؤكد أن جيش المسلمين أخذ يتزايد بانضمام البربر إليــه أثناء مسيره فى البلاد ، أنظر د . م ا ، مادة عقبة

وتجنب غيرها ، لأنها جعلت من غزواته مغامرات قليـلة الجدوى ، لقلة ما فتح أثناءها من مدائن البلاد الكبرى وحصونها المهمة ، وذلك على الرغم مما كان جنوده يلقون من متاعب المسير فى هذه النواحى الجبلية القاحلة .

سار عقبـة متنقلا بين أقاليم الواحات التى لقيها فى طريقه مثـل غَدَامِسْ وقسطيليـة ومن ثم أفضى إلى إفريقية فاتجه رأساً إلى موضع قَمُّونِيـَة الذى كان معاوية بن حديج قد عسكر فيه قبله ، نوقع اختياره عليه ليقيم فيه المدينة التى كان قد عقد العزم على بنائها . .

لم يكن أهل إفريقيـة يتوقعون مجىء العرب إذ ذاك ، فلم يتخذوا الحـذر ولم يلجأوا إلى حصونهم كما عهدناهم فى الغزوات السابقة ، فدهمهم عقبة ، وأصاب منهم كثيراً ، بهذا يحدثنا النويرى : « فافتتحها ووضع السيف حتى أفنى من بها من النصارى[1] » .

ولسنا نجـد ذكراً لذلك القتل الذريع فى غير النويرى والاستبصار[2] من المراجع العربية ، وإن كان المؤرخون البيزنطيون من أمثال تيوفانيس وقِدْرينوس وانسطاس الكُتبى ، يجمعون على وقوع اضطهاد شديد بالمسيحيين فى إفريقية فى أوائل حكم قسطنطين الرابع (بجونات) ، أى فى نفس الفترة التى قاد عقبة فيهـا حملته على إفريقية[3] .

* * *

(١) النويرى ، نهاية الأرب ، ٦٨ ا

(٢) الاستبصار ، (طبعـة كريمر ، فينا) ص ٣ . وظاهر أنه نقل ذلك عن النويرى ، لأن عبارتيهما تتفقان حرفياً .

(٣) Theophanes, I, p. 549. Cedrenus, Compendium, I, p. 764 Anastase Hist. Eccl. II, p. 177. Fournel, op. cit. I, p. 151

وقد أيد المستشرقون من أمثال فورنل وديل وروت هذه الأخبار ، وبالغوا فى تصويرهذا الاضطهاد مبالغة جعلت منه بحراً من الدماء كما قال روت ، أنظر Roth, op. cit. p. 842— Fournel : op. cit. I, p. 151

عقبة يفكر في اختطاط القيروان

كان عقبة يقدر أهميــة إقامة مدينة للمسلمين فى إفريقية ، لأنه قال : « إن إفريقية (إذا دخلها إمام) تحَوَّموا بالإسلام ، فإذا خرج منها رجع من كان أسلم بها ، وارتد إلى الكفر ، وأرى لكم — يامعشر المسلمين — أن تتخذوا بها مدينة نجعل فيها عسكراً وتكون عز الإسلام إلى أول الدهر[1] » . فشرع فى اختطاط هــذه المدينة دون أن ينتظر طويلا ، ولا شك أن تفطن عقبة إلى ذلك الأمر ، ومبادرته بإنفاذه كان إيذاناً ببدأ العمل المنتج لفتح إفريقية ، فتأسيس هذه المدينة هو الحد الفاصل بين المحاولات الأولى التى تقدمتها والتى لم تنته إلى شىء ، والأعمال التى ستليها والتى ستنتهى بفتح البــلاد فتحاً ثابتاً دائماً يجعل منهــا بلاداً إسلامية صرفة ، إذ أن جند المسلمين كانوا قبل ذلك يخرجون من مصر للاغارة على ما يستطيعون من بلاد إفريقية ثم يعودون إلى مصر أو إلى برقة محملين بالغنائم — أو من غير غنائم — دون أن يخلفوا فى البــلاد أثراً ودون أن يكون فى غاراتهم معنى الفتح .

يذكر ابن عبد الحكم أن عقبة « لم يعجب بالقيروان الذى كان معاوية ابن حديج بناه قبله ، فركب والناس معه حتى أتى موضع القيروان اليوم ، وكان وادياً كثير الشجر والعطف . تأوى إليــه السباع والوحوش والهوام[2] » ؛ ويجمع المؤرخون — عدا المــالكى — على ذكر ما قاله ابن عبد الحكم بالنص أو بالمعنى ، ويزيد المغربيون منهم فيحيطون تخطيط القيروان بعــدد كبير من الأساطير ظاهر الانتحال ، فهل كان موضع القيروان كما قال ابن عبــد الحكم حقاً و « شعارى لا يسلك[3] » و » دجلة مشتبكة بها أنواع الحيوان من السباع والحيات[4] » أم كان « حصنا لطيف الكروم ، وكان فيه كنيسة وفيها الساريتان الحمراوان اللتان

(١) النويرى ، نهاية الأرب ، ص ٦٨ ا
(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٦
(٣) النويرى ، نهاية الأرب ، ص ٦٨ ب
(٤) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ١٨٤

ها اليوم فى المسجد»[1] كما يقول المالكى ؟ لكى نصل إلى الحقيقة لابد من تحقيق قمونية هذه التى اختطت القيروان موضعها أو فيها .

قمونية

يتفق البكرى واليعقوبى والتيجانى[2] على أن قمونية قطر فسيح كثير العمران والزروع ، ويذكره الأدريسى وابن حوقل باسم قمودة[3] ، وأنه يضم عدداً من القرى والمدائن مثل قاصرة ومذكور ونقاوس وجمونس الصابون ، ويجعلون حدها الجنوبي إقليم قسطيلية وحدها الشمالى سوسة ، ويذهب التيجانى إلى أن هذا الأقليم يصل إلى البحر ، لأنه يذكر ساحل قمونية وشاطىء قمونية[4] ، وذكر ياقوت أن قمونية هى المدينة المعروفة بسوسة المغرب[5] . ولما كان المعروف أن سوسة هذه هى هادروميتوم الرومانية ، وإلى جنوبها تقع بلدة Caput-Vada الرومية كذلك (التى يظن أن العرب حرفوا اسمها إلى قمودة أو قمونية) فإنه يغلب على الظن أن ياقوت أراد أن يقول إن قمونية هى المنطقة المحيطة بمدينة سوسة .

قمونية إذن — كما يحددها الجغرافيون — هى قلب إفريقية البيزنطية ، وكانت غاصة بالحصون والمدائن والمزارع والطرق وما إليها من معالم العمران ، فكيف اتفق إذن وجود هذه الغابات الكثيفة الملأى بالحشرات والهوام والسباع والحيات فى وسط هذا الإقليم العامر المطروق ؟ ولو لم يكن التيجانى قد أكد اتصاله بالبحر لكان معقولا أن توجد فيه نواح مقفرة من السكان والعمران ، لأن بعض أجزاء الولاية الداخلية كان قد أدركه الخراب من منتصف العصر البيزنطى ، أما وهى مطلة على البحر فيستبعد جداً وجود هذه الغابات الملتفة والشمارى التى

---

(١) المالكى ، رياض النفوس ، ورقة ٧

(٢) التيجانى ، رحلة ، ١٤ ا و١٤ ب والبكرى ، وصف إفريقية ، س ٧٥

(٣) الإدريسى ، س ١٣٣ وابن حوقل ويتفق وصف هذين الإثنين لقمودة مع وصف البكرى لقمونية ويذكرون فيها مدناً واحدة مما يدل على أن قمونية وقمودة إقليم واحد

(٤) التيجانى ، رحلة ، ١٤ ا وب (٥) معجم البلدان ، جـ ٤ س ١٧٦

لا تسلك فيها ولو أن ذلك قيل عن مكان آخر بداخل البلاد لقبله العقل ، لأن هذه المنطقة كانت قبل أن يسكنها الإنسان منطقة غابات معتدلة ملتفة الأشجار ، أما إقليم قمونية كما يحدده الجغرافيون فليس من المعقول أن تكون هذه الغابات قد تركت فيه على حالها خلال العصور الماضية كلها ، مع أنه على بعد ثلاثة أيام من قرطاجنة نفسها .

لعل قول المالكى إن موضع القيروان كان حصنا لطيف الكروم وإنه كان موضعا لكنيسة حسنة البناء ، فيها السار يتان الحمراوان اللتان نقلهما حسان بن النعمان إلى مسجد عقبة فيما بعد ، لعل هذا القول هو الصواب[1] ومن المعقول أن يكون هذا الحصن اللطيف الكروم قد أدركه الخراب فى أوائل القرن السابع وهجره أهله فسكنت إلى كرومه بعض الذئاب والضباع وما إلى هذه من الوحوش التى تجاور العمران ؛ فلما أقبل عقبة وأصحابه وقع اختيارهم على موقع ذلك الحصن ، فحطوا رحالهم على مقربة منه وأخذوا يستعدون لتخطيط مدينتهم إلى جواره ، ففزعت الضوارى من جلبة الجيش الذى عسكر إلى جوارها ، فأخذت تتسرب هاربة ، فرآها العرب تفعل ذلك فظنوا أنها معجزة من معجزات عقبة ، فكان ذلك موضعا خصبا لخيال الرواة ، فأضافوا خطابة للوحوش وصوروا الكرم هذا التصوير المبالغ فيه حتى تتم المعجزة و يصح للقيروان ما يريدونه لها من القداسة والجلال .

هكذا يمكن تفسير ما اجتمع عليه رأى المؤرخين من وقوف عقبة على الموضع الذى تخيره لاختطاط القيروان ومناداته : « أيتها الحيات والسباع ! نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إرحلوا عنا إنا نازلون ! ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه ؛ فنظر الناس فى ذلك اليوم إلى السباع تحمل أشبالها والذئاب تحمل أجراها

(١) المالكى ، رياض النفوس ، ص ٨ ويؤيد إيفيه ذلك إذ يقول إن قمونية أو قمودة مدينة رومانية قديمة ويذهب إلى أن العرب استعملوا موادها فى بناء القيروان — أنظر دائرة المعارف الإسلامية مادة قيروان

والحيات تحمل أولادها ، فأسلم كثير من البربر[1] » . وقد أفاض المؤرخون المغربيون في تفصيل ما دار بين عقبة وأصحابه في تحديد موضع القيروان ، فذهب الدباغ في معالم الأيمان إلى أن عقبة تحرى أن يكون لأهلها ثواب الرباط وشرف الجهاد ، وابتعد بها عن الساحل حذراً من مفاجأة الروم لها ، وجعلها على مقربة من سبخة لتكون قريبة من المراعى ، فترعى الإبل فيها آمنة من غارة البربر والنصارى[2] ، بل بلغ من إعجاب رواة المغرب باختيار عقبة أن أحد رواة الدباغ — وهو الشيخ الصالح الفقيه أبو مهدى عيسى التُّمَيلى — زعم أنه استبان أن القيروان رابعة الثلاثة مكة والمدينة وبيت المقدس[3] .

موقع القيروان

والواقع أن عقبة أحسن اختيار هذا الموقع ، فقد كان تنظيم الفتح يستدعى إقامة مدينة فى هذا الموضع المتوسط بين الساحل والهضبة ، القريب من السفوح الصالحة للمرعى وقد علق كودل على ذلك بقوله : « وكان اختيار المكان موفقاً بل بلغ من التوفيق فى اختياره أن ولاة المغرب ومن خلفهم من الحكام المستقلين قاموا بها زماناً طويلا ، ولم ينتقلوا عنها إلا حينما اضطرتهم ظروف سياسية جديدة إلى ذلك . كما كان موقعها الحربى معروفا ملحوظ الأهمية ، إذ كان الحاكم الذى يتخذ هذا الموضع مركزاً لأعماله ، يستطيع أن يرى العدو من بعيد ويتحرز من الغارات المفاجئة الكثيرة الحدوث عند البربر . وإذا أراد أن يطاردهم إلى هضابهم وجد الطريق مفتحة أمامه ، إذ كان يستطيع بعد مسير بضع ساعات الوصول إلى أعالى الهضاب،عن طريق وادى زَرُود ووادى مِرْجِلّ ومسالك جبل بارجو، ومن أعالى الهضاب كان يستطيع الإشراف على ما يجاورها ، فيتيسر له حكمها إذا كانت لديه

(١) النويرى ، نهاية الأرب ، ٦٨ ب وقد أوردها بقية المؤرخين بصور مختلفة — ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٦ — ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ١٨٤

(٢) الدباغ ، معالم الأيمان ، ج ١ ص ٨ و ٩

(٣) نفس المصدر ، ج ١ ص ٦

القوة الكافية لذلك . كذلك كان فرسانه الخفاف قديرين على أن يقوموا بهذا النوع من أعمال الاستطلاع و بالغارات السريعة والحراسة الدائمة[1] » .

بدأ عقبة فى تخطيط المدينة « فاختط دار الإمارة والمسجد الأعظم ولم يحدث فيه بناء وكان يصلى فيه وهو كذلك[2] » ثم « بنى الناس مساجدهم ومساكنهم[3] » « وهكذا كانت المدينة فى أول أمرها وعلى ذلك بقيت زماناً طويلا » فلم يكن المسجد كما أقامه عقبة بالبناء الكامل و إنما كان — كما يفهم من رواية النويرى — عقبة قد حدد موضعه فقط وربما أحاطه بسياج وجعل له قبلة كما حدث فى كل المساجد الإسلامية التى بنيت فى ذلك الحين[4] ، ويؤكد النويرى أن خلافاً قام بين عقبة وأصحابه على موضع القبلة فقالوا له : « إن أهل المغرب يضعون قبلتهم على قبلة هذا المسجد فاجهد نفسك فى أمرها[5] » فظل عقبة متحيراً أياما حتى ألهمه الله باتجاهها فأقامها وتلك أسطورة أخرى مما يحيط بعقبة ينفيها مجرد التساؤل عن القبلة التى كان عقبة وأصحابه يتوجهون إليها فى صلاتهم قبل أن يبدءوا فى بناء المسجد ، وتأخذهم الحيرة فى تحديد اتجاه القبلة .

وقد ذهب ابن عذارى إلى أن دور المدينة فى ذلك الحين بلغت « ثلاثة عشر ألف

---

(١) كودل ، ج ٢ ص ١٠٤ — ١٠٥ Caudel, op. cit. II, pp.104,105

(٢) النويرى ، نهاية الأرب ٦٩ ا

(٣) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ١٨٤ وقد أبان البكرى عن ميزات موضعها بقوله إنها « فى بساط من الأرض مديد ، من الجوف منها بحر تونس وفى الشرق بحر سوسة والمهدية ، وفى القبلة أسفاقس وقابس وبينها وبين الجبل مسيرة يوم ، وبينه وبين سواد الزيتون المعروف بالساحل مسيرة يوم ، وشرقيها سبخة ملح عظيم طيب نظيف ، وسائر جوانبها أرضون طيبة كريمة » البكرى ، وصف أفريقية ، ص ٢٤ »

(٤) روى الطبرى فى حوادث سنة ٥٠ هـ عن المفضل بن فضالة ما يلى : « عن يزيد بن أبى حبيب عن رجل من جند مصر قال قدمنا مع عقبة بن نافع ، وهو أول الناس اختطها وقطعها للناس مساكن ودوراً ، وبنى مسجدها فأقمنا معه حتى عزل وهو خير وال وخير أمير ، مما يفهم منه أن عقبة اهتم ببناء الدور والمساكن وأنه وفق إلى شىء من ذلك — الطبرى ، ج ٦ ص ١٢٩ (٥) النويرى ، نهاية الأرب ، ص ٦٩ ا

ذراع وستمائة ذراع[1] » وتلك مبالغة ظاهرة والغالب أنها لم تزد فى ذلك الحين على قول روث : « ومن المحتمل أن لا تكون القيروان فى زمن عقبة أكثر من مخزن للسلاح (قيروان) ثم أخذت المبانى والمنازل تقام حوله بعد ذلك[2] » وربما يكون عقبة قد أقام حولها سوراً لأن الباجى يقول : « إنه — أى عقبة — جعل دور سورها إثنىعشر ميلا[3] » ولم يذكر أحد من المؤرخين ذلك ، ولكن ليس هناك ما يمنع من قبوله مع الإشارة إلى المبالغة الظاهرة فى تحديد طول سور مدينة ناشئة باثنى عشر ميلا .

***

أهمية قيام القيروان

كان عقبة يعرف أهمية إقامة القيروان. وكان قد أراد منها : « أن تتخذ مدينة يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا من ثورة تكون من أهل البلاد[4] » . فأنفق فى بنائها وتخطيطها هذا الوقت الطويل ، دون أن ينصرف إلى عمل آخر من أعمال الفتوح التى كان قد عقد العزم على القيام بها . وقد أبدى فورنل دهشته من أن العرب أنفقوا هذا الوقت الطويل فى بناء القيروان ، مطمئنين تمام الاطمئنان من هجوم الروم عليهم ، مع أن القيروان لم تكن تبعد عن قرطاجنة أكثر من ثلاثة أيام ، وعلل ذلك بأن الروم كانوا إذ ذاك فى شغل عن إفريقية وغيرها من ولاياتهم ، إذ كان العرب يحاصرون القسطنطينية حصارهم الثانى الذى بدأ سنة ٤٩ هـ وانتهى سنة ٥٢ هـ ، فانقطعت الإمداد عن الروم بإفريقية ، طوال هذه المدة وعدة سنوات بعدها ، إذ ظلت الدولة تقاسى آثار هذا الحصار الشديد زماناً طويلا[5] ، وقد وصف ديل عمل عقبة بأنه كان «شجاعة عظيمة» وعلل انصراف روم إفريقية عن العرب بضعفهم وانقسامهم على أنفسهم[6] ، ومهما يكن من الأمر

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ١ ص ١٤ (٢) روث ، ص ٤٩ Roth, op. cit. p. 49
(٣) الباجى ، الخلاصة النقية ، ص ٥ (٤) ابن الأثير ، أسد الغابة ، جـ ٣ ص ١٨٤
(٥) فورنل ، جـ ١ ص ١٥٧ — ١٥٨ Fournel, op. cit. I. pp. 157—158.
(٦) ديل ، ص ٥٧٣ Diehl. op. cit. p. 573

فقيام العرب بإقامة هذه المدينة فى وسط ولاية إفريقية البيزنطية ، يدل تمام الدلالة على أن سلطان الروم كان قد تقلص من الداخل تماما .

ويبدو من قول ابن الأثير : « وكان في أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا فتغير وتنهب، ودخل كثير من البربر فى الإسلام واتسعت خطة المسلمين، وقوى جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها »[1] أن عقبة لم يظل ساكناً ، طوال هذه السنوات الأربعة التى قام فيها بتخطيط المدينة ، وإنما أخذ يبعث السرايا إلى الجهات المجاورة ، فيصيبون ما يصلون إليه ثم يعودون على عادة العرب فى غاراتهم السريعة . وربما كانت تلك الغارات هى بعض ما أراده المؤرخون البيزنطيون — الذين سبقت الإشارة إليهم — من ذكرهم المذبحة الشديدة التى نزلت بمسيحيى إفريقية فى ذلك الحين . ويفهم من تلك الرواية كذلك أن استقرار المسلمين فى ذلك المكان أربع سنوات ، وقيامهم ببناء المدينة قد أثار بين البربر اضطراباً شديداً ، وأنهم جعلوا يفدون على المسلمين إما لمحاربتهم أو للصلح معهم فأخذت دعوة الإسلام تلقى هوى من نفوسهم .

بدأت إفريقية تصبح ولاية ذات أهمية بعد بناء القيروان ، إذ كانت المدينة الجديدة نواة إفريقية الإسلامية ، كما كانت الفسطاط نواة مصر الإسلامية ، فكان طبيعياً أن يطمع فيها ولاة مصر ويسعوا ليجعلوا منها جزءاً من ولايتهم ، كما كانت قبل قيام القيروان ، وكان ميدان إفريقية أوسع من ميدان مصر ففيه المجال مفتوح للغزوات والغنائم والأسلاب . وكان عامل مصر منذ سنة ٤٧ هـ ، هو مسلمة بن مخلد الأنصارى ، وهو أموى ملحوظ الأثر فى نصرة عثمان ، وكان أثيراً على معاوية وأولى الشأن فى هذه الأيام . وكانت إفريقية فى أول ولايته شيئاً آخر يختلف عما صارت إليه بعد سنوات ثمان من حكمه ، كانت فى أول الأمر ميداناً غير محدود

---

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، جـ ٣ ص ١٨٤

ليس للعرب فيه أملاك ولا رعية ولا مدائن . فلم يلق إليها بالا ولم يجد بأساً فى أن يولى عقبة قيادة الحرب فيها من قبل معاوية رأساً دون طلب رأيه ، أما الآن — وبعد قيام القيروان و بناء المسجد والمدينة — فقد بدأت الولاية الجديدة تسترعى التفاته، فمالت نفسه إلى السيطرة عليها وجعلها من بلاده ، وساءه من عقبة انصرافه عنه وعدم حفله به ، وصدوره فى عمله غير ملق إليه بالا ، فأحفظه ذلك منه وزاده رغبة فى السيطرة على إفريقية ، ولبث يتحين الفرصة لذلك .

لماذا عزل عقبة ؟

وكان عقبة قد انصرف عن كل شىء — خلا تخطيط المدينة — خلال هذه السنوات ، فلم يقم بما تعود قواد العرب القيام به ، من غزو المدائن والمزارع والفوز منها بالغنائم الوافرة ، ومن ثم انقطع ما كان العرب تعودوا وروده من إفريقية من وفرة الغنائم والأموال . ولما كانت هذه هى المقياس الذى كان يقاس به جهد الفاتحين ، ولما كانت أهمية القيروان لم تتضح إلا لعقبة وحده ، فقد سهل لمسلمة ومن معه ، أن يهونوا من شأن عقبة لدى الخليفة عن ذلك السبيل ، فأقنعوه آخر الأمر بالتخلى عنه ، واستبدال غيره به على حكومة البلاد .

ذلك أقرب التفاسير لعزل عقبة المفاجىء الذى تنبئنا به المصادر من غير تعليل أو بتعليل طفيف ، وربما كان إغفالهم أسباب هذا العزل راجعاً إلى خطئهم فى ترتيب ولاة مصر ، وفى تحديد علاقة هذه الأخيرة بإفريقية فى هذا الحين .

قال الطبرى فى حوادث سنة ٤٧ هـ : « وفيها عزل عبد الله بن عمرو بن العاص عن مصر ، ووليها معاوية بن حديج ، وسار — فيما ذكر الواقدى — فى المغرب وكان عثمانياً »[١] وقال فى حوادث سنة ٥٠ هـ : « وفيها عزل معاوية بن حديج عن مصر ، وولى مسلمة بن مخلد مصر وإفريقية ، وكان معاوية بن أبى سفيان قد بعث — قبل أن يولى مسلمة مصر وإفريقية — عقبة بن نافع الفهرى، إلى إفريقية

---

(١) الطبرى ، جـ ٦ ص ١٣٩

فافتتحها واختط قيروانها . . . وعزل معاوية هذه السنة أعنى سنة ٥٠ هـ معاوية ابن حديج عن مصر ، وعقبة بن نافع عن إفريقية ، وولى مسلمة بن مخلد مصر والمغرب كله ومصر و برقة و إفريقية وطرابلس . فولى مسلمة بن مخلد مولى يقال له أبو المهاجر على إفريقية من قبل حتى هلك معاوية بن أبى سفيان[1] » ، أى أن الطبرى يجعل ولاية عبد الله بن عمرو تمتد إلى سنة ٤٧ هـ ، ثم يعقبه معاوية بن حديج إلى سنة ٥٠ هـ ، ثم مسلمة بن مخلد إلى وفاة معاوية . وليس الواقع كذلك ، كما نعلم أن عبد الله بن عمرو عزل فى نفس السنة التى ولى فيها وهى سنة ٤٤ هـ وخلفه عتبة ابن أبى سفيان فظلّ إلى سنة ٤٥ هـ ، ثم عقبة بن عامر الجهنى الذى ظلّ إلى سنة ٤٧ هـ ، حين ولى مسلمة بن مخلد . فلا محل لولاية معاوية بن حديج إذن ، و إنما استنتج المؤرخون ولايته استنتاجاً ، إذ قالوا إن عمرو بن العاص كان والى مصر ، فقام يغزو إفريقية ، وكذلك عبد الله بن سعد ، فلما تسامعوا بغزو معاوية ابن حديج ، فقد استنتجوا من ذلك أنه كان والى مصر إذ ذاك ، ولما كانت غزوة عقبة تقع — فى حسابهم — فى ولاية معاوية بن حديج فقد استنتجوا أن هذا الأخير هو الذى سيره إلى إفريقية ، وما دام معاوية بن حديج قد عزل سنة ٥٠ هـ بمسلمة بن مخلد ، فطبيعى أن يعزل معه قائده على إفريقية عقبة بن نافع ، و يولى مسلمة بن مخلد على مصر والمغرب معاً .

ومن هنا كان خطأ ابن الأثير وابن عذارى ومن أخذ عنهم من رواة المغرب ، وسكوتهم عن استقصاء أسباب عزل عقبة ، ومن هنا كذلك كان خطأ أبى العرب تميم وقوله : « إن عقبة بن عامر هو الذى بنى القيروان » وخلط المالكى الشديد فى هذا الجزء وأخطاء أخرى شديدة وقع فيها القيروانى : فى المؤنس وابن مقديش فى نزهة الأنظار[2] .

---

(١) الطبرى ، جـ ٦ ص ١٢٩

(٢) قال ابن الأثير : « وقد ذكر أبو جعفر الطبرى أن فى هذه السنة (٥٠ هـ) ، ولى مسلمة بن مخلد إفريقية ، وأن عقبة تولى قبله وبنى القيروان » ثم عاد فذكر رواية أخرى بعد =

وقد يبدو قول ابن الأثير والنويرى وأبو المحاسن ، إن مسلمة بن مخلد أول من جمع له المغرب ومصر غريباً ، لأن عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد كانا قبله واليين على مصر وعلى ما كان العرب قد فتحوه من إفريقية . فلماذا لقب مسلمة بذلك اللقب ؟ . وهل لقب به من أول ولايته أى سنة ٤٧ هـ ، أم أطلق عليه هذا اللقب بعد ذلك ؟ قبل تفسير ذلك ، ينبغى أن نرجح أنه لم يلقب بذلك اللقب إلا بعد ولايته بنحو ثمان سنين أى سنة ٥٥ هـ ، وهى السنة التى عزل فيها عقبة عن إفريقية لأن ولاية إفريقية لم تكن إليه هذه السنوات الثمانية . إذ كان معاوية ابن حديج قد ولى من قبل معاوية بن أبى سفيان حتى سنة ٥٠ هـ ، ثم عقبة بن نافع من قبل معاوية كذلك . فلا يتفق أن معاوية ولى على إفريقية مسلمة بن مخلد

= ذلك أقرب للصحة ، قال قبل روايتها : « والذى ذكره أهل التاريخ من المغاربة أن ولاية عقبة ابن نافع إفريقية ، كانت هذه السنة وبنى القيروان وبقى الى سنة ٥٥ هـ ووليها مسلمة بن مخلد ، وهم أخبر ببلادهم ، وأنا أذكر ما أثبتوه فى كتبهم قالوا . . . » وقد أخطأ بجعل ولاية مسلمة بن مخلد تبدأ سنة ٥٥ هـ ولكنه ذكر تأسيس القيروان على صحته . وقال ابن عذارى : « وفى سنة ٤٧ هـ عزل معاوية بن أبى سفيان عبد الله بن عمرو بن العاص عن مصر ، وولاها معاوية بن حديج الكندى » وقد روى محمد بن احمد بن تميم (أبو العرب) عن أحمد بن أبى سليمان ، وحبيب صاحب مظالم سحنون وغيرهما ، عن سحنون عن ابن وهب عن الليث بن سعد قال : « بلغنى أن عقبة بن عامر غزا قبل ذلك إفريقية ، يعنى قبل عقبة بن نافع ، ثم روى بناء عقبة للقيروان وقصته مع الحيات منسوبة الى عقبة بن عامر » والخطأ فى هذا ظاهر . وانفرد المالكى فى رياض النفوس بأخطاء لم يشاركه فيها أحد ، فجعل سعيد بن يزيد (يكتبه بن زيد) يبعث عقبة الى إفريقية ، مع أن سعيداً ولى مصر سنة ٦٣ هـ ، أى فى السنة التى سار عقبة فيها الى افريقية فى غزوته الثانية . ثم جعل معاوية بن أبى سفيان (الذى توفى سنة ٦٠ هـ) ، يعزل سعيداً بعد ذلك ، ويولى مسلمة بن مخلد الذى يعيد أبا المهاجر الى افريقية سنة ٥٧ هـ وهذا خلط واضح . أما ابن أبى دينار فقد جعل غزوة عقبة التى بنى فيها القيروان سنة ٤٢ هـ أو ٥١ هـ . وذهب ابن مقديش الى أن معاوية بن أبى سفيان : « أعاد معاوية بن حديج بجيوش الشام سنة ٥٠ هـ » والحقيقة أن الذى أعيد فى هذه السنة هو عقبة . وذكر كذلك أن مسلمة بن مخلد ولى على افريقية خالد ابن ثابت الفهرى سنة ٥٤ هـ ، ولا صحة لذلك وربما أخذه عن المالكى الذى يسميه ثابت الفهمى — ابن الأثير ، أسد الغابة ، جـ ٣ ص ١٨٤ ، ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ١ ص ١١ ، طبقات علماء إفريقية ، ص ٨ المالكى ، رياض النفوس ، ورقة ٧ ، القيروانى ، المؤنس ، ص ٢٦ ، ابن مقديش ، نزهة الأنظار ص ٧٠

فى نفس الوقت الذى كان معاوية بن حديج على حكمها ، وإذا قيل إنه يجوز أن معاوية بن حديج كان خاضعا لمسلمة بن مخلد ، رد على ذلك بالقول بأن معاوية ابن حديج كان خاضعاً لمعاوية رأساً ، بدليل احتكامه وعبد الملك بن مروان إلى معاوية بن أبى سفيان ثم إن هـذا الأخير هو الذى سير عقبة إلى إفريقيـة سنة ٥٠ هـ .

الحقيقة إذن أن مسلمة بن مخلد طمع فى إفريقية ، بعد بناء القيروان وظهورها فى هيأة ولاية جديدة . فسعى لدى معاوية بن أبى سفيان فى ذلك . فلمـا نجح فيه وعزل عقبة عن مصر « جمعت له مصر والمغرب » فلقب بذلك ولزمه هـذا اللقب على ألسن الرواة ، فأثبته أبو المحاسن بدون تحديد لتاريخه .

* * *

عقبـة يعود إلى دمشق

يغلب أن عقبـة كان على نية الفتح بعد الفراغ من بنـاء القيروان ، ففاجأه العزل وحال بينه و بين ما أراد فنزل من نفسه منزلا سيئاً وحنق على مسلمة ومولاه أبى المهاجر دينـار ، وزاد فى سخطه أن أبا المهاجر أساء عزله ولم يحفظ له حرمة ، فقد روى ابن الحكم: « وكانت ولاية مسلمة بن مخلد — كما حدثنا يحيى بن بكير عن الليث بن سـعد — سنة ٤٧ هـ . وولى أبا المهـاجر ديناراً مولى الأنصـار ، وأوصاه حين ولاه أن يعزل عقبة أحسن العزل فخالفه أبو المهـاجر فأساء عزله وسجنه ، وأوقره حديداً حتى أتاه الكتاب من الخليفـة بتخلية سبيله وإشخاصه إليه[(١)] » ، وبهذا تدارك معاوية بن أبى سفيان خطأه ، فأنقذ عقبة من يد أبى المهاجر بعد أن كاد يورده مورد التلف .

لماذا أساء أبو المهاجر لعقبة وأنزل به هـذا العقاب ؟ لم يورد المؤرخون تعليلا معقولا لذلك . فقال السـلاوى إن دينارا : « أساء عزل عقبة واستخف به لشىء

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٧

كان بينهما[1] » ولم يفسر لنا هــذا الشيء الذى كان بين عقبة وأبى المهـاجر .
والراجح أن هذا تعليل غير صحيح ، فماذا يكون بين مولى صغير كدينار وفاتح عظيم كعقبة من الأشياء ؟ إنما تكون الأشياء بين مسـلمة وعقبة وكلاهما وال ظاهر عظيم القدر ، يكون بينهما التحاسد والنزاع على الولاية والشرف والغنيمة ، والحظوة لدى الخليفـة ، ويبدو أن السلاوى استنتج ذلك من قول ابن عبـد الحكم :
« فلما قدم عقبة مصر ركب إليه مسـلمة بن مخلد فأقسم له بالله لقد خالفه فيما صنع أبو المهاجر ولقد أوصيته بك خاصة[2] فأخذ بظاهر هذه الرواية ، ونسب إساءة عقبة إلى أبى المهاجر ، مع أن سعى مسلمة إلى عقبة واعتذاره له ونفيه التهمة عن نفسه ، لا يعلل إلا بأن مسـلمة خشى أن يغضب معاوية عليـه ، حين يقص عليه عقبة ما نزل به من مساءة على يديه ، فأسرع وألقى التهمة على أبى المهـاجر خوفا من معاوية . بيد أن ابن عبد الحكم يروى رواية أخرى يفهم منها بوضوح ، أن مسلمة هو الذى سعى لعزل عقبة ودفع معـاوية إليه ، فإن عقبة لم يكد يبسط له ظلامته من أبى المهاجر حتى أجاب : « قد عرفت مكان مسلمة بن مخلد من الإمام المظلوم ، وتقديمه إياه وقيامه بدمه وبذله مهجته وقد رددتك إلى عملك[3] » ، وفى هذا اعتراف من معاوية بأن المسئول عما نزل بعقبة هو مسلمة ، لا أبو المهاجر . وأن عزل عقبة كان على هوى منه ، وأن عقاب أبى المهاجر كان يسيء مسلمة . ومسلمة رجل أثير على معاوية ، ذو مكانة عظيمة عنده ، لمـا كان له من الحظوة عنـد عثمان الإمام المظلوم ، وإذا جاز أن نستنتج شيئا من قول ابن عبد الحكم إن معاوية قال لعقبة : « قد رددتك إلى عملك » ، لقلنا إن معاوية أراد أن يؤكد لعقبة ، أنه لا يمانع فى رده إلى ولايته ، ولـكن مسلمة كان يعارض فى ذلك .

---

(١) السلاوى ، الاستقصاء ، ص ٣٧ (٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٨٦
(٣) نفس المصدر ، ص ١٩٨

وإذا صدق ما تؤكده الروايات من أن عقبة دعا على أبي المهاجر ، فظل هذا خائفاً من دعاء عقبة لأنه كان مجاب الدعوة [1] ، فإن ذلك يكون برهاناً جديداً على براءة أبي المهاجر من تهمة إيذاء عقبة ولأن يدل على أن أبا المهاجر كان يوقر عقبة ، ويعرف ما له من المقام العظيم ، وأنه مستجاب الدعوة ، فكيف يعاقبه ويسيء إليه بعد ذلك من تلقاء نفسه ؟ وكيف يفعل ذلك إلا مضطراً راغماً ؟

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٩٨

معنى لفظ قيروان

يغلب أن عقبة وأصحابه أرادوا بلفظ قيروان « مدينة » أو معسكر أو مسلحة. هكذا نفهم من قول عقبة « وأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بهـا مدينة نجعل فيها عسكراً وتكون عزاً للإسلام إلى أول الدهر»

ومن قوله حين انتهى إلى اختيار موضعها « هذه قيروانكم » أى أن قيروانهم هذه ، هى مدينتهم التى يجعلون بها عسكرهم ، أى معسكرهم . وبهذا المعنى استعمل لفظ قيروان فى الروايات الخاصة بإفريقية . فقد قال المالكى إن معاوية بن حديج : « بنى بناحيـة القرن مسـاكن سماها قيروانا » أى معسكراً للجند ، وذلك قبـل اختطاط القيروان وابن الأثير يقول إن ديناراً أبا المهـاجر « خرب قيروان عقبة » أى معسكره .

ولفظ قيروان فارسى معرب ، أصله كروان أو كربان ومعناه قافلة أو مراح القوافل ، ويفهم من لسن العرب أنه كان مستعملا حتى فى الجاهلية بهذا المعنى ، إذ روى أن امرىء القيس قال فى وصف غارة له .

« وغارة ذات قيروان كأن أسرابها الرعال »

ونقل ذلك عنه ياقوت .

وقد ذهب ابن الأثير فى تفسير معنى هذا اللفظ ، إلى أن معناه : « معظم العسكر والقافلة من الجماعة » وقال الدباغ فى تفسيره : « واختلف فى لغـة العرب فى لفظ القيروان ، فقيل هى موضع اجتماع الناس والجيش ، وقيل محط أثقال الجيش ، وقيل هى الجيش نفسه والمعنى متقارب »[1]

(١) الدباغ ، معالم الأيمان ، جـ ١ ص ٧

بيد أننا نلاحظ أن ديناراً أبا المهاجر حين أخذ الناس يتركون قيروان عقبة ، تخير لهم قرية تعرف بتكيروان ، وهو لفظ قريب جداً من قيروان . وقد رأينا هذه القرية بأسماء مختلفة عند المؤرخين المغربيين فهى « تيكروان » و « دكرور » و « تكرور » مما يحمل على الظن أن لفظ تكيروان أصله بربرى ، وأنه كان يطلق على قرية قريبة من القيروان . فهل لفظ « قيروان » تحريف لتكيروان ؟ إن قول المالكى عن مدينة أبى المهاجر: « فسماها البربر بتكيروان» يؤيد ذلك. إذ يفهم منه أن هذا اللفظ بربرى . أراد به بربر هذه الأيام نفس المعنى الذى أراده العرب من « قيروان »، ولكن أحداً من المتضلعين فى اللهجات البربرية لم يجد للفظ قيروان أو تكيروان أو تيكروان معنى أو وجوداً فى هذه اللهجات ، مما لا يجعل سبيلا إلى الأخذ بهذا الرأى .

وليس هناك ما يؤيد القول بأن « قيروان » كان علماً على مدينة قديمة بإفريقية ، اختطت القيروان مكانها كلفظ بغداد مثلا ، فلم يبق إلا القول بأن عقبة وأصحابه أرادوا به محطاً لقوافلهم ومراحاً لعسكرهم .

الباب الخامس

فتح المغرب الأوسط

دينار أبو المهاجر ودوره فى فتح إفريقية

٥٥ — ٦٣ هـ = ٦٧٤ — ٦٨٢ م

تطور هام في مسير الفتوح

قال ابن عبد الحكم رواية عن عبد الملك بن مسلمة ، عن ابن لهيعة وأحمد بن عمرو عن ابن وهب عن يزيد بن أبي حبيب : « وكان الناس قبل أبي المهاجر يغزون إفريقية ، ثم يقفلون منها إلى الفسطاط ، وأول من أقام بها حين غزاها أبو المهاجر مولى الأنصار ، أقام بها الشتاء والصيف واتخذها منزلا ، وكان مسلمة بن مخلد الذي عقد له على الجيش أحد الذين خرجوا معه إليها فلم يزالوا بها حتى قتل ابن الزبير فخرجوا منها »[1] . وتلك عبارة يفهم منها أمر على جانب عظيم من الأهمية ، وهو أن إفريقية أصبحت مقراً يقيم به المسلمون ويطمئنون فيه دون أن يعودوا إلى مصر بعد كل غزوة ، أي أنها أصبحت — رغم تبعيتها لمصر — ولاية إسلامية مستقلة الشخصية بعض الشيء ، وهذه هي الخطوة الأولى نحو ظهور ولاية إفريقية إسلامية ، فقد كان الناس قبل أبي المهاجر يغزون إفريقية ، ثم يقفلون منها إلى الفسطاط ، أما في ولاية أبي المهاجر وما بعدها ، فإنهم يقيمون بها العام كله ، ويخرجون للغزو من قيروانها ثم يعودون إليه مرة أخرى ، أي أن إفريقية أصبحت ولاية صغيرة ملحقة بولاية مصر ، لها عاصمتها وواليها الذي يختاره حاكم مصر ، وجيشها الذي يعسكر فيها طول العام .

ولاية أبي المهاجر إذن تعين بدء هذا التطور في مركز إفريقية في الدولة الإسلامية ونهايتها تعين تطوراً آخر هو تحول إفريقية إلى ولاية مستقلة الشخصية قائمة بنفسها ، يولى حاكمها من قبل الخليفة رأساً .

صاحَبَ هذا التغير السياسي الذي جدّ على المركز السياسي للبلاد تحول جوهري في سير الفتوح فيها ، والأساليب التي يتبعها القادة في إتمام فتحها ، إذ كانت الغزوات قبل ذلك لا يرجى منها شيء بعد الغنيمة الوفيرة والسبي الكثير . أما الآن — وقد أصبح للعرب عاصمة فيها — فقد أصبحت غاية الغزوات إخضاع نواحي

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٧

البلاد لهذا المركز ، و بمعنى آخر إتمام فتحها وجعلها بلاداً إسلامية كمصر والشام سواء بسواء ، ولهذا لم نجد العرب يقبلون الانصراف عن البلاد لقاء مبلغ من المال كما فعل عبد الله بن سعد قبل ذلك ببضع عشرة سنة ، ولن يتوجهوا بجهدهم نحو المدائن الغنية أو المزارع الوافرة الزروع ، وإنما إلى العواصم ذات الأهمية السياسية كقرطاجنة ، ولن يؤثروا العافية فيكتفوا بمهاجمة المدائن الضعيفة ، و إنما سيحاولون تذليل الجبال والهضاب باختراقها وفتح ما فيها من مراكز البربر ، وستكون لأكثرهم الخطة المدبرة المرسومة ، طبقاً لحالة البلاد وما يناسبها ، وهذان التغيران متلازمان فى الواقع والمعنى ، ناشئان عن تغير شامل فى نظر المسلمين إلى إفريقية ، فلو كانت إفريقية عندهم إذ ذاك ما كانت فى الغزوات السابقة لما ألزم القائد نفسه المقام بإفريقية على نأى من مصر ودمشق ، ولعاد بما معه من الغنائم ليتقدم بها إلى أولى الأمر ، ولكنه الآن كحاكم مكلف بإتمام فتح البلاد وتمهيد أمورها ، فلا حاجة له بالغنائم .

— ١ —

دينار أبو المهاجر

أصبح دينار أبو المهاجر — مولى مسلمة بن مخلد — أميراً على إفريقية من سنة ٥٥ هجرية ، واستمر على ولايتها مدى سبع سنوات تنتهى سنة ٦٢ هجرية ، أى بعودة عقبة بن نافع إلى إفريقية ، فكانت ولايته بذلك فاصلا بين ولايتى عقبة أو بين شطرى برنامجه ، فكان هذا سبباً فى انصراف المؤرخين عنه و إهمالهم إياه ، إذ شغل الرواة بعقبة وتتبع أعماله ، فعبروا بأبى المهاجر مسرعين . بل ربما تعمد بعضهم إغفال شأنه والتهوين من أمره لما نزل بعقبة على يديه ، ولهذا كان أقل فاتحى إفريقية ذكراً وأيسرهم لفتاً لانتباه المؤرخين ، على الرغم من أن أعماله كانت على جانب كبير من الأهمية والخطورة ، لأنه أول من جعل غايته الأخيرة فتح البلاد وتثبيت قدم العرب والإسلام فيها ،

ولهـذا كانت له خطة مرسومة وسـياسة مقدرة يجرى عليها ويتحرى إنفاذها ، بخلاف من مررنا بهم إلى الآن .

لم تأتنا المراجع الموثوق فيها بشيء ذى بال عن أبى المهاجر ، بل إننـا بجهل كل شيء عن أصله ومولده ونشأته الأولى ، إذ أغفله المؤرخون للأسباب التى مرّ بيانها . وأغفله كتّاب التراجم ، لأنه ليس بصـاحب ولا تابع ولا عربى ، وإنما هو مولى ، وربما كان من أهل مصر ، أعتقه مسلمة بن مخلد أمير مصر وقربه إليه لذكائه وفطنته ، ويبـدو من قول مسلمة : « إن أبا المهاجر صبر علينا فى غير ولاية ، ولا كبير منيل ، فنحن نحب أن نكافيه »[1] . أن أبا المهاجر أخلص فى خدمة مسلمة فرضى عنه وولاه إفريقية مكافأة له .

وكان مسلمة قد نفس على عقبة مركزه فى إفريقية ، وساءه منه انصرافه عنه وعدم حفله به ، فلم يكد يتمكن من عزله عن إفريقيـة ، حتى أنشأ ينتقم منـه ، فأوصى أبا المهاجر بذلك ، وتنصل هو من التهمة ، فلزمت أبا المهاجر فى كتب التاريخ ، فيقول ابن الأثير : « فاستعمل مسلمة على إفريقيـة مولى له يقال له أبو المهاجر ، فقدم إفريقية وأساء عزل عقبـة واستخف به »[2] . ثم عاد فأكد ذلك بقوله : « ولم يزل عقبـة على إفريقية إلى سـنة ٦٢ هـ فعزله يزيد بن معاوية ، واستعمل أبا المهاجر مولى الأنصار ، فحبس عقبة وضيق عليه ، فلما بلغ يزيد بن معاوية مافعل عقبة ، كتب إليه يأمره بإطلاقه وإرساله إليه »[3] . وكذلك النويرى لا يكاد يذكر للرجل إلا هـذه الإساءة التى أنزلها بعقبة : « ولما وصل مسلمة إلى مصر ، استعمل على إفريقية مولى له يقال له دينار ويكنى أبا المهاجر ، وذلك فى سنة ٥٥ هـ وعزل عقبة ، فلما وصل كره أن ينزل فى الموضع الذى اختطه عقبة ، فنزل عنـه

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٧ (٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ١٨٤
(٣) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ١٨٥

بمسافة ميلين ، واختط مدينـــة يكون له ذكرها ويفسد ما عمله ، فسماها البربر بتكيروان ، فأخذ فى عمارتها وأمر الناس أن يخربوا القيروان ويعمروا مدينته ، وتوجه عقبة إلى معاوية بن أبى سفيان »[1] . ثم يلى ذلك شكوى عقبة إلى معاوية ثم رده على يد يزيد ، وبهذا أهمل الرجل إهمالا تاما . ولو لم يذكر ابن خلدون طرفاً من أخبـاره عرضاً ، فى سياق حديثه عن قبيلة أوربة البربرية ، ولو لم يشر أبو المحاسن إشارة موجزة إلى بعض أعماله فى ختام حوادث السنة الثانية عشرة ، من ولاية مسلمة بن مخلد وهى سنة ٥٩ هـ ، لما كان لدينا شىء يوثق فيه من أخبار هــذا الرجل وأعمـاله ، ولظل تاريخه حلقــة مفقودة بين حلقات الفتح العربى لشمال إفريقية .

بيــد أن روايات المؤرخين المغربيين كأبى العرب والمـالكى وابن أبى دينـار وابن مقديش والسلاوى ، تسد بعض هذا النقص بما ورد فيها من الأخبار ، فعلى الرغم من أن روايات هؤلاء مشحونة بالأخطاء والزيادات التى لا يمكن الأخذ بها ، ففى الإمكان الاستعانة ببعض ما ورد فيها ، لإكمال ما أهمل المؤرخون المصريون والشرقيون ذكره .

— ٢ —

نشاط الروم

شغل الروم عن إفريقية خلال حملة عقبة الأولى ، لأن العرب كانوا إذ ذاك ، يحاصرون القسطنطينية حصارهم الثانى الذى بدأ سنة ٤٨ هـ ، واستمر إلى ما بعــد سنة ٥٠ هـ ، ولبثت الدولة بضعة أعوام بعد ذلك تقاسى عقابيل هذه المحنة التى كادت تودى بها ، فلم يعد إليها الهدوء الذى يسمح لها بالاهتمام بولاياتها ، إلا بعد سنة ٥٥ هـ أى بعد عزل عقبة ، وقد ذهب فورنل إلى أن معاوية تعمد أن يهاجم القسطنطينية إذ ذاك ، ليشغل الروم عن إفريقية ، فيتمكن عقبة من بناء مدينته ، وليس لدينا

(١) النويرى ، نهاية الأرب ، ص ٦٩ ب

ما يؤيد هـذا الرأى ، وإن كان الواقع أن حصار القسطنطينية كان عظيم الفائدة لعقبة ، إذ سمح له بفترة هدوء تام ، استطاع فى خلالها أن يخطط القيروان ، دون أن يعوقه هجوم الروم ، أو تهديدهم إياه عن ذلك .

أنشأ إمبراطور الروم إذ ذاك ، وهو قسطنطين الرابع ، يصلح من أمر الدولة ، ليتداركها قبل أن تهوى إلى درك سحيق ، فنشط نشاطاً عظيما لذلك ، وكان يعرف أن السياسة الدينية التى جرى عليها أسلافه ، هى علة العلل فى ضعف الدولة البيزنطية ، فعول على وضع حد لها ، وجمع مجلساً دينياً سنة ٦٨٠ م(١) ، ليضع حداً لخصومات المذاهب التى باعدت بين الدولة ، و بين ما بقى لها من الرعايا فى البلقان و إيطاليا و إفريقية ، فلم يلبث أثر عمله هذا أن ظهر فى الولايات ، فبدأ ما كان أهل إفريقية يضمرونه للدولة من البغض والكراهية يزول ، وبدأ بعضهم يميل إلى محالفتها ، وتلك ظاهرة جديدة أخرى ستلاحظ فى الحملات المقبلة وسيكون لها أثر بعيد .كانت المقاومة التى لقيها العرب فى الحملات الماضية ضئيلة لم تشتد إلا فى موقعة سُبَيْطِلَة ، لأن جريجوريوس كان يدافع عن كيان ملكه ، أما عـدا ذلك فلا مقاومة عنيفة ولا حرب طويلة المدى ، و إنما مناجزات قصيرة أو اعتصـام خلف الأسوار ، ولهذا سقطت جلولاء و بنزرت وسوسة وقفصة على هينة ، أما من الآن فما بعد ، فنجد الروم والبربر إلباً واحداً ، يحاربون العرب حربا عنيفة جداً، حتى يكاد العرب ييأسون من أنفسهم ، بل نجد العرب يفشلون فى الاستيلاء على أغلب الحصون والمدائن التى يحاولون الاستيلاء عليها ، وعلة ذلك أن جهود قسطنطين أثمرت بمرور الأيام ، فعادت الحيـاة تدب فى الولايات ومنها إفريقية ، واتصلت الأسباب بينها و بين بيزنطة لطلب الأمداد والمعونة وما إلى ذلك ، وأخذ البربر

---

(١) ديل ، ص ٥٧٦ ، ويذهب المؤلف إلى أن هذا المجلس ختم نزاع المونوثيلية ، وأعاد الأرثوذوكس إلى حظيرة الدولة ، ويؤكد أن هذا كان بعيد الأثر فى إفريقية .
Diehl, op. cit. p. 576.

يتركون ما فى نفوسهم من ضيق بالروم ، لما بدا لهم من تسامح الروم ، فمدوا لهم يد المعاونة وكان منهم حلف قوى ، يبدى من المقاومة شيئاً كثيراً ، ومما يؤيد تعليل حلف البربر والروم بسبب الإصلاح الدينى الذى أدخله قسطنطين ، أن نصارى البربر وحدهم هم الذين سيحالفون الروم ويقفون معهم لرد العرب .

على أنه لا تنبغى المبالغة فى تقدير أثر هذه السياسة البيزنطية الجديدة ، فلا يقال إنها أعادت الروم فى إفريقية إلى ما كانوا عليه أيام جوستنيان ، أو اجتذبت البربر إليهم كما جذبتهم سياسة آل جريجوريوس ، وإنما يقال إن نصارى البربر اطمأنوا إلى الروم ، وقبلوا حلفهم ومدوا لهم يد العون ، ولا يقال إن الدولة نشطت فأرسلت الجيوش إلى إفريقية ، وإنما يقال إنها بعثت معونة من مال ، أو والت الأهلين بالنصح والإرشاد ، وإن روم إفريقية شعروا بذلك فدب فى نفوسهم نشاط جديد .

ابتداء مقاومة البربر

اضطلع الروم وحدهم بعبء المقاومة حتى الآن ولم يقم أصحاب البلاد — البربر — بشىء يذكر منها ، وهذا غير ما كان منتظراً منهم بعد الذى سبق بيانه ، من تحررهم من سلطان الروم فى أواخر العصر البيزنطى . بيد أن الظاهر أنهم بدأوا يتحركون للمقاومة ، إذ يقول ابن خلدون : « وكانت البطون التى فيها الكثرة والغلب ، من هؤلاء البربر البتر كلهم لعهد الفتح ، أوربة وهوارة وصنهاجة من البرانس ونفوسة وزناتة ومطغرة ونفزاوة من البتر ، وكان التقدم لعهد الفتح لأوربة هؤلاء ، بما كانوا أكثر عدداً وأشد بأساً وقوة ، وكان أميرهم بين يدى الفتح ، سَتَرْدِير ابن رومى بن بارِزْت بن بَرْزِيَات ، ولى عليهم مدة ثلاث وسبعين سنة ، وأدرك الفتح الإسلامى ومات سنة إحدى وسبعين هجرية وولى عليهم كسيلة بن لزم الأوربى ، فكان أميراً على البرانس كلهم [1] » مما يفهم منه أن البربر كانوا فى ذلك الحين ،

=

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٤٦

الذى وجد فيه كسيلة على درجة من القوة والانتظام ، إذ كان فيهم ملك مثل ستردير ، استطاع أن يحكم هذه المدة الطويلة ، ولما مات خلفه ملك آخر ، هو كسيلة الأوربى المعروف ، وكانت أوربة على الخصوص كثيرة العدد شديدة البأس ، فكيف لم تشعر هذه القبائل كلها خطر العرب وتنهض لرده من أول الأمر ؟ لقد فتح العرب قسطيلية ، وفيها مساكن نفزاوة وورفجومة وقمونية ، وفى جنوبها منازل زواغة وقفصة ، وعلى مقربة منها مضارب نفوسة وجلولاء ، وهي باب مواقع هوارة وجراوة ، فأين هذه القبائل كلها حتى الساعة ؟ ولماذا لا يذكر ابن خلدون من ملوكهم إلا كسيلة وسلفه ؟ ألا يمكن أن نستنتج من ذلك أن هذه القبائل ظلت فى سكونها وخمولها من أول الفتح العربى ، ولم تنشط إلا قبيل ظهور كسيلة ، أى حوالى الوقت الذى أقبل فيه دينار على إفريقية ، وأصلح قسطنطين سياسته الدينية ؟

إذا جاز أن نفهم من قول ابن خلدون : « وكان التقدم لعهد الفتح لأوربة هؤلاء ، بما كانوا أكثر عدداً وقوة وأشد بأساً ، وكان أميرهم بين يدى الفتح ستردير بن رومى[1] » أن هذه القبائل اجتمعت إلى أوربة واقتربت منها ، لصح أن يقال إن هذه القبائل كانت قد تركت مواقعها هذه زمان الفتح ، واتجهت نحو الغرب ونزل جمهورها جبال الأوراس موطن أوربة ، ويؤيد هذا الرأى أن المقاومة البربرية ستظهر حينما يحاول العرب اختراق الأوراس فى حملة عقبة بن نافع الثانية ، فإذا لم يصح فهم عبارة ابن خلدون على هذا النحو ، لغلب على الظن

= ويبدو أن طبعة بولاق التى أنقل عنها ، تضم أخطاء كثيرة فى رسم الأعلام ، فالنسخ التى نقل عنها فورنل ودى سلين تكتب سقرديد لا ستردير ولزم لا لزم وهذا هو الأصح لأن المراجع العربية الأخرى تورد كسيلة بهذا الرسم .

(١) أنظر ابن خلدون ، ج ٦ الصفحات ١١٤ و١١٥ و١٢٩ و١٤١ عن مواقع هذه القبائل ، ويلاحظ أن تلك الأماكن كانت مساكن فروع من هذه القبائل لا القبائل جميعها .

أنه بالغ فى تقدير قوة البربر أيام الفتح ، خصوصاً وأن الظروف كلها تؤكد ضعف البربر إلى ذلك الحين وخمود نشاطهم ، فعلى فرض أنهم بدأوا ينشطون ، فيستبعد جداً أن يكونوا قد بلغوا كل ذلك المبلغ من القوة دفعة واحدة ، و إنما المعقول أن يكونوا قد بدءوا يتحركون للمقاومة فقط فى ذلك الحين .

بيد أننا نستطيع أن نفهم من قول النويرى إن عقبة بن نافع أخذ معه « من أسلم من البربر وضمهم إلى الجيش الوارد عليه »[١] حين سار فى حملته الأولى سنة ٥٠ هـ ، أن نفراً من البربر كان قد اتصل بالعرب اتصالا مكنه من معرفة الإسلام واعتناقه ، ويؤيد ذلك قول ابن الأثير يصف ما فعل البربر حينما رأوا عقبة يخطط القيروان : « فرآه قبيل من البربر فأسلموا »[٢] ، إذ فيه دلالة كافية على أن بعض الصلات قامت بين العرب والبربر ، صلات ودٍّ وتفاهم تؤدى ببعضهم إلى الدخول فى الإسلام ، إذا صدق هذا جاز أن نستنتج منه أن العرب لم يجدوا فى طريقهم قبائل قوية تنهض لردهم أو تعاديهم ، و إنما جماعات قليلة ضعيفة تلتف حولهم وتصاحبهم ، فإما أسلمت أو ظلت على ما هى عليه ، وكان العرب بالطبع فى حاجة إلى مثل هذا النفر للاسترشاد به على السير فى البلاد على الأقل ، وذلك كله يؤيد القول بأن بعض قبائل هذه الأقاليم كانت قد فارقتها بعد خرابها إلى نواح أخرى فى الغرب أو فى الجنوب ، ولم يبق فى مساكنها الأصلية إلا طوائف قليلة منهم « تشبثوا بمقامهم فى بقايا خرابهم حناناً للموطن »[٣] ، كما قال الإدريسى عن الذين بقوا فى تَبْرِ نْتَة إحدى قرى فزان بعد خرابها .

يقول السلاوى : « وكان كسيلة بن (أغز) الأوربى ثم البرنسى من أهل المغرب الأقصى من عظماء البربر ، وكان نصرانياً قد جمع الجموع من البربر والفرنج ،

---

(١) النويرى ، نهاية الأرب س ٦٨ ا (٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ س ١٨٤
(٣) الإدريسى ، س ٣٥

وزحف نحو المسلمين فهزمه أبو المهاجر وأسره[1] » ، أى أن البربر بدأوا يحسون خطر العرب فى ولاية أبى المهاجر ، فأخذ زعيمهم كسيلة يجمع القبائل ويؤلبها ، ثم سار على رأسها نحو المسلمين ، فكان ذلك حافزا لأبى المهاجر على التعجيل بغزوته الطويلة التى وصل فيها إلى تلمسان ، والتى لم يفعل فيها أكثر من هزيمة كسيلة والعودة به فى ركابه ، أى أنه لم يقم بهذه الحملة البعيدة المدى ، إلا ليقضى على هذه المقاومة ، فلما تم له ذلك عاد إلى القيروان ، وربما كان قول ابن خلدون : « ولما نزل (ابن) المهاجر تلمسان سنة خمس وخمسين ، كان كسيلة بن لزم مرتاداً بالمغرب الأقصى فى جملة من أوربة وغيرهم ، فظفر به أبو المهاجر وعرض عليه الإسلام فأسلم[2] » دليلا على أن كسيلة كان على جهل تام بما فعل العرب فى إفريقية ، وأنه لم يقصدهم بشر وإنما هم الذين سعوا إليه حتى أدركوه عند تلمسان فظفروا به ، ولكنه يؤيد السلاوى فى الواقع ، فهو يدل على أن العرب أحسوا ريح المقاومة فى هذه الناحية فاتجهوا إليها ، وكيف أحس العرب هذه المقاومة إلا أن يكون أهل هذه النواحى قد تبدل موقفهم من السكون إلى النشاط ومن الهدوء إلى المقاومة ؟ ولو أنهم كانوا على ما عهدناهم عليه من السكون ، لما كلف أبو المهاجر نفسه مؤونة السير إليهم ، لبعد الشقة وعظم الجهد الذى يتطلبه المسير إلى تلمسان ، وماذا يكون سبب هذا التغير فى موقف البربر من المسلمين ، إلا إحساسهم بأن المسلمين يقتربون منهم ، ويهددون منازلهم التى اعتصموا بها فى الجبال والهضاب ؟ بهذا تتساند الروايات فتؤدى إلى نتيجة واحدة معقولة ، وتتعاون الظواهر فتعطى صورة واضحة بعض الوضوح ، وللمؤرخين المغربيين آراء مختلفة فى موضوع كسيلة هذا ، فالباجى يقول فى الخلاصة إن كسيلة كان قد أسلم قبل حملة أبى المهاجر ، « ثم ارتد وخالف وجمع أمماً من البربر والروم ، فصمد لهم

(١) السلاوى ، الاستقصا ، ص ٣٧ (٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٤٦

دينار وهزمهم حول تلمسان ، وأسلم كسيلة فأطلقه وتمكن من البلاد[١] » وفى هذه الرواية أخطاء ينبغى تصحيحها ، وهى و إن كانت فى مجموعها تؤيد السلاوى وابن خلدون فيما ذهبا إليه ، من تحرك البربر للمقاومة فى ذلك الحين ، إلا أن فيها دليلا قويا على نشاط البربر ، يرجع فى بعض أسبابه إلى شعورهم بتقدم العرب نحوهم وتحفزهم للقضاء عليهم ، أما الخطأ فقوله إن كسيلة كان قد أسلم قبل مجىء أبى المهاجر ثم عاد فارتد وهذا غير الواقع كما مر بيانه ، و إنما الحقيقة أن أوربة وأحلافها كانت قد اتخذت نواحى تلمسان والمرتفعات المجاورة لها منزلا منذ أواخر العصر البيزنطى واطمأنت هناك زمانا طويلا ، فلم تحس مقدم العرب إلا حين ساروا نحوها فى حملة أبى المهاجر هذه .

لا يتفق المؤرخون إذن على رأى فيما يتصل بحال البربر ، يوم بدأ دينار ولايته ، وكان لا بد أن نعرف ذلك على وجه التحقيق ، حتى نستطيع ترتيب أعمال دينار ، إذ هى نفسها فى حاجة إلى ترتيب ، فلنأخذ بأبسط ما يفهم من هذه الآراء جميعاً ، وهو أن البربر أحسوا خطر العرب وتنبهوا إلى غزوهم البلاد ، فبدأوا يتحركون لهذه المقاومة ، ولكن مقاومتهم لم تأخذ شكلا ظاهراً ، إلا حين بدأ العرب يهاجمون جبال الأوراس ، وهى موطن أوربة أقوى قبائل البربر إذ ذاك ، فبدأ الصراع بين الجانبين ، وكانت قيادة أوربة لكسيلة بن لمزم أميرها من سنة ٥١ هـ[٢] .

---

(١) الباجى ، الخلاصة النقية ، ص ٥ — ٦ وقد أيد المالكى ذلك بقوله : « إن أبا المهاجر صالح بربر إفريقية وفيهم كسيلة الأوربى وأحسن إليه » . وقد ذكر مرسييه أن جماعة البربر ثارت على العرب ، عند رحيل عقبة إلى الشرق ومقدم دينار ، وكان على رأس الثائرين كسيلة رئيس قبيلة أوربة — وهى رواية لا تؤيدها المراجع الأخرى ، ولكنها تدل على أن مرسييه يؤمن على الرأى القائل ، بأن البربر نشطوا نشاطاً مفاجئاً فى ذلك الحين ، وهبوا للمقاومة .

Mercier : Hist. de l'Afrique op. cit. Sept. I, p. 204.

(٢) يقول ابن خلدون : « وكان أميرهم بين يدى الفتح سنقرديد بن روى بن بارزت =

على أن رأى جوتييه عن كسيلة جدير جداً بالنظر ، فقد استرعى انتباهه اتفاق مؤرخي العرب على أن كسيلة كان نصرانياً ، وتسميتهم سلفه بسقرديد بن رومى ، وذكرهم ما كان من حلف كسيلة مع الروم على عقبة فى آخر الأمر ، فاستنتج من ذلك أن أوربة كانت على علاقات متصلة مع الروم ، وأن هذه العلاقات لم تقتصر على الاشتراك فى الدين ، بل ليس هناك ما يمنع القول بأنه كانت هناك علاقات مصاهرة بين الحيين ، وقد عزز جوتييه رأيه بالقول: « بأن مركز قوة كسيلة أيام الفتح ، كانت المنطقة الجبلية الواقعة بين تاهرت ووهران ، والتى تتوسطها تلمسان ، وهذه المنطقة كانت منذ قديم الزمان ، مركز البربر الذين تأثروا بالحضارة الرومانية ، وأخذوا صبغتها وحملوا لواءها فى إفريقية : مركز ما كسن وسيفا كس ويوجورثا » ، ومن هنا استنتج أن كسيلة وسقرديد وقومهما كانوا هم أكثر البربر تأثراً بالحضارة البيزنطية فى أيام الفتح ، وكانت هذه الناحية نقطة اتصال بين الروم والبربر ، ثم خلص من هذا كله ، إلى القول : « بأن مقاومة كسيلة كانت مقاومة بيزنطية فى الواقع[1] » ، وبهذا ألقى على الموضوع ضوءاً جديداً ، واكتشف للروم إصبعاً فى حركة كسيلة ، فلم يعد سبب ثورته مجرد شعوره بمسير العرب نحوه ،

= ابن برزيات ، ولى عليهم مدة ثلاث وسبعين سنة ، وأدرك الفتح الإسلامى ومات سنة إحدى وسبعين هجرية . وولى عليهم كسيلة بن لزم الأوربى فكان أميراً على البرانس كلهم » ، وبهذا تبدأ إمارة كسيلة من سنة ٧١ هـ أى فى ولاية زهير بن قيس ، وهذا لايتفق مع المعروف من أن كسيلة لقى أبا المهاجر وصحبه . وقد ذهب فورنيل إلى أن ابن خلدون أراد أن يقول سنة ٥١ هـ فأخطأ الناسخ ورسموه ٧١ هـ ، وهذا تعليل معقول لأن الحوادث تستقيم به ، على أن ابن خلدون يقول فى موضع آخر إن سقرديد كان قائد كسيلة ، فصحح فورنيل ذلك بالقول بأن كسيلة كان قائد سقرديد ، وهو أمر قريب الاحتمال ، فمن المعقول أن يكون سقرديد قد عجز عن القيام بأعباء الحكم فى أواخر أيامه ، فعهد به الى كسيلة الذى خلفه فيه بعد موته . وقد ذهب ماسكرى الى أن كسيلة كان واسع الملك وأن ملكه امتد إلى الأوراس والى ما يليها غرباً .

(١) جوتييه ، ص ٢٤٠ — ٢٤٢ وربما كان رأى باسيه أقرب إلى الصحة إذ ذهب الى أن كسيلة ربما كان زميل سقرديد فى قيادة أوربة ، التى كانت تحتل الأراضى الواقعة غربى تلمسان وأنه كان نصرانياً فأسلم Gautier, op. cit. pp. 240—242
أنظر دائرة المعارف الإسلامية مادة كسيلة .

وإنما حرضه الروم على المقاومة ، ووضعوا يدهم فى يده ، وربما كانت الحوادث التالية ، أكبر مؤيد لرأيه .

— ٣ —

لم يتفق المؤرخون على رأى واحد فى ترتيب ما ينسب لأبى المهاجر من أعمال ، بل يفهم من روايات بعضهم طرف واحد دون الباقى ، فابن خلدون يذكر غزوه للبربر ، ووصوله إلى تلمسان ، ويترك حملته على قرطاجنة بدون إشارة ، وأبو المحاسن يذكر حملته على قرطاجنة بتفصيل ، ثم يشير بعد ذلك إلى الحملة على البربر إشارة موجزة بقوله : « ثم افتتح أبو المهاجر المذكور ميلة (مدينة صغيرة بينها وبين بجاية ثلاثة أيام) ، وكانت إقامته فى هذا الغزو نحوا من سنتين[1] » وذلك بعد أن فصّل حصار العرب لقرطاجنة وانصرافهم عنها ، فإذا علمنا أن ميلة فى الطريق إلى تلمسان فهمنا أنه أراد أن يجعل الحملة على قرطاجنة سابقة للحملة على تلمسان ، فروى أحداث الأولى ، ثم أعقبها بطرف من أخبار الثانية ، ولكنه يجعل سنة ٥٩ هـ تاريخا لمحاصرة أبى المهاجر قرطاجنة ، فإذا كان هذا الأخير قد بدأ ولايته سنة ٥٥ هـ ، فأين قضى السنوات الأربع التى انقضت بين هذين التاريخين ؟ وكيف يتفق أن ينفق أربع سنوات من ولايته دون أن يؤدى عملا مع أنه كان مكلفا بتعفية آثار أعمال عقبة ، بأعمال أعظم منها ، ثم ينشط بعد ذلك ليقوم بكل هذه الأعمال فى ثلاث سنوات ؟

كان ترتيب أعمال أبى المهاجر مثار الجدل بين فورنل وكودل ، فذكر الأول أن أبا المهاجر لم يكد ينزل إفريقية حتى أعلن الحرب على البربر ، وتقدم نحوهم حتى أدرك أقوى قبائلهم — أوربة — فى الأوراس ، فهزمها وأسر قائدها كسيلة وكاد يقتله لو لم يعتنق الإسلام . ثم قرر — رواية عن أبى المحاسن كما يقول —

---

(١) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ١٥٧

أن إسلام كسيلة حَسُن بعد ذلك ، فاستصفاه دينار واتصلت بينهما صداقة موصولة الأسباب ، استطاع البربرى عن سبيلها أن يؤثر فى أبى المهاجر الذى أسلم له قياده ، ويدفعه إلى تخريب قيروان عقبة ، فخربها واتجه إلى الشمال بعد ذلك ، وحاصر قرطاجنة مدة طويلة فلم يقدر عليها ، فانصرف عنها بعد أن نزل له أهلها عن جزيرة شريك ، ثم توجه بعد ذلك إلى ميلة رأساً ، حيث بقى هنالك سنتين ، حتى عزله يزيد بن معاوية بعقبة سنة ٦٢ هـ[١] ، وبهذا لم يفعل أكثر من أن روى رواية ابن خلدون ، ثم أعقبها برواية أبى المحاسن ، لأن الأول حدد سنة ٥٥ هجرية لحملة أبى المهاجر على أوربة ، والثانى جعل حملته على قرطاجنة سنة ٥٩ هـ .

أما كودل فيأبى أن يسجل لأبى المهاجر خطأ سياسيا كالذى ارتضاه له فورنل ؛ فهو يستبعد أن يكون دينار قد غامر بجنده فى قلب البلاد ، وترك ظهره مكشوفاً للروم الذين كانوا يتحفزون للوثوب به من قرطاجنة ، وإنما يرجح أن ديناراً بدأ يخالف البربر ليستعين بهم على الروم أو ليضمن حيادهم على الأقل ، فإذا تم له القضاء على الروم ، توجه بهمته بعد ذلك للبربر فغزاهم . وقد اعتمد كودل على روايات المغربيين الذين لم يظهر فورنل على شىء مما كتبوا ، فقد قال المالكى : «ثم إن أبا المهاجر صالح بربر إفريقية ، وفيهم كسيلة (الأوربى) ، وأحسن إليه ، وصالح عجم إفريقية وخرج بجيوشه نحو المغرب ، ففتح كل ما مر عليه ، حتى انتهى إلى العيون المعروفة بأبى المهاجر نحو تلمسان ، ولم يستخلف على القيروان أحداً ،

---

(١) فورنل ، ج ١ ص ١٦٠ — ١٦٥ ويلاحظ أنه جعل كسيلة ، هو المسيطر على دينار وجعله يخدعه ويغرر به ، ولا أصل لذلك فى الواقع ، ولا يفهم ذلك من روايتى أبى المحاسن وابن خلدون ، وإنما فورنل يفسر التاريخ تبعاً لنظريته ، التى ألف من أجلها كتابه ، وهى إثبات أن البربر كانوا دائماً سادة العرب وقادتهم من أول الأمر .

Fournel, op. cit. I, pp. 160—165

ولم يبق بها إلا شيوخ ونساء ، ثم رجع إليها فأقام بها [1] » ، وواضح أن عبارة المالكى لا تؤدى بالضبط إلى التفسير الذى انتهى إليه كودل ، فإنه يجعل الصلح بين كسيلة وأبى المهاجر سابقا على مسيره إلى تلمسان ، وليس هناك ما يؤيد ذلك ، والأصح الذى يمكن الأخذ به ، هو أن الرجلين لم يتصافيا إلا بعد ذلك ، ثم إنه يذهب إلى أن المالكى أوجز بقوله إن أبا المهاجر : « صالح عجم إفريقية » ، حوادث حملة أبى المهاجر على قرطاجنة التى انتهت بالصلح مع الروم ، وهذا تفسير واسع غير دقيق . وحجة كودل فى ذلك أن تحديد أبى المحاسن لغزوة قرطاجنة بسنة ٥٩ هـ أمر غير ذى بال ، فأبو المحاسن — فى اعتباره — لا يفتأ يخطىء فى التواريخ ، وليس هذا الخطأ بأقل من جعله حملة حسان بن النعمان سنة ٥٧ هـ .

إزاء هذا التناقض والغموض ، يحسن الأخذ بظاهر روايتى ابن خلدون وأبى المحاسن ، بعد إضافة إحداهما للأخرى ، فتكون حملة تلمسان سابقة على حملة قرطاجنة ، مع رفض ما ذهب إليه فورنل ، من أن تخريب أبى المهاجر للقيروان إنما كان برأى كسيلة وخداعه ، وإنه — لذلك — كان بعد عودة أبى المهاجر من حملة تلمسان .

ويعرض الباجى والسلاوى رأياً جديداً يختلف عما سلف بيانه ، خلاصته أن أبا المهاجر لم يتوجه بنفسه لمهاجمة الروم بل وجه إليهم أحد رجاله ، وهو حنش بن عبد الله الصنعانى ، ولم يبعثه إلى قرطاجنة ، بل إلى جزيرة شريك فافتتحها ، ثم توجه

---

(١) المالكى ، رياض النفوس ، ورقة ٧

وقد ذكر هذه الرواية بالنص ابن مقديش فى نزهة الأنظار ص ٧٠

أما المؤنس فإشارته مضطربة مفككة ناقصة ، ليس فيها إلا إرسال أبى المهاجر لحنش الصنعانى إلى جزيرة شريك ، ورواية ابن الناجى ناقصة ليس فيها إلا تخريب أبى المهاجر للقيروان ، ومحاولته بناء مدينة اسمها تاكروان ، وقد فاضل كودل بين قول المالكى ، إن حملة قرطاجنة كانت سنة ٥٥ هـ وقول أبى المحاسن إنها كانت سنة ٥٩ هـ ثم رجح رأى المالكى بدون تعليل معقول . الدباغ ، معالم الإيمان ، ج ١ ص ٤٢ و٤٣ ، وكودل ، ج ٢ ص ١١٣

هو بنفسه — أى أبو المهاجر — إلى كسيلة (ابن أغز الأوربي) الذى « كان نصرانياً قد جمع الجموع من البربر والفرنج وزحف نحو المسلمين »[1] فهزمه أبو المهاجر قرب تلمسان وظفر به ، فأظهر الإسلام فاستبقاه أبو المهاجر واستخلصه[2] وهذا رأى معقول جداً لولا أنه غير مؤيد بأسانيد كافية ، ولولا أن أبا المحاسن وابن خلدون أرجح فى حسابنا من مؤرخين حديثين كالباجى والسلاوى[3] .

— ٤ —

وصول أبى المهاجر

وصل أبو المهاجر إفريقية سنة ٥٥ هـ ، فكان أول أعماله تنفيذ ما أوصاه به مسلمة ، من الإساءة إلى عقبة بالانتقام منه ، وتخريب هذه المدينة التى أراد أن يجعل نفسه بها والياً كمسلمة سواء بسواء ، وقد سبق إثبات براءة أبى المهاجر من جريرة ما نزل بعقبة ، فاتضح أنه لم يكن إلا منفذاً لإرادة مسلمة .

هل هدم أبو المهاجر القيروان ؟

يبدو أن المؤرخين بالغوا فى رواية ما فعله أبو المهاجر بالقيروان ، لأنه إذا كان قد خرب دورها وهدم جامعها ، لقضى عقبة فى إعادتها لأصلها زمناً طويلا ، ولا تحدثنا المراجع بأن عقبة أنفق فى ذلك كبير جهد أو طويل وقت ، وإنما الأصح أن يقال إنه نقل الناس منها إلى جهة أخرى ، فأقفرت وأوحشت ربوعها ، وهذا مانفهمه من قول النويرى : « فلما وصل كره أن ينزل بالموضع الذى اختطه عقبة ، فنزل عنه بمسافة ميلين واختط مدينة وأراد أن يكون له ذكرها ، ويفسد ما عمله عقبة فسماها البربر بتكيروان ، فأخذ الناس فى عمارتها وأمر الناس أن يخربوا

---

(١) السلاوى ، الاستقصا ، ص ٣٧

(٢) الباجى ، الخلاصة النقية ، ص ٥ و٦

(٣) ربما كان المؤيد الوحيد الذى نستطيع الاعتماد عليه ، فى تقرير هذا الرأى هو وجود حنش الصنعانى حقاً فى هذه الحملة ، وكونه من القواد البارزين الذين يعتمد عليهم فى مثل هذا العمل ، وقد ذهب كودل ، إلى أنه من الجائز أن يكون أبو المهاجر — بعد أن عجز عن الاستيلاء على قرطاجنة ، والتحالف مع أهلها — عاد إلى القيروان ، وبعث حنشاً إلى جزيرة شريك ليحتلها — كودل ، ج ٢ ص ١١٠ و١١١ Caudel, op. cit. II. pp. 110, 111

القيروان ، ويعمروا مدينته[١] » فأبو المهاجر لم ينزل بالقيروان ، وإنما ابتعد عنها بميلين وأخذ يختط مدينته ثم أمر الناس أن يخربوا القيروان ويعمروا مدينته ؛ أى يتركوا القيروان ويسكنوا مدينته .

ثم ما معنى قوله : « فسماها البربر بتكيروان » ؟ لماذا سماها البربر كذلك ، ولم يسمها (العرب) مع أنهم بناتها كما تقول الرواية ؟ وإذا كان أبو المهاجر قد أراد بعمله هذا أن يخلد اسمه بهذه المدينة الجديدة ، فلم لم يختر لها اسماً عربياً يقترن بذكره ، كما اقترن ذكر عقبة بالقيروان ؟ . أليس المعقول أن يكون هذا الموضع الذى انتقل إليه أبو المهاجر ، قرية بربرية بهذا الاسم أو ما يقربه ؟ إن قول المالكى المغربى : « ثم انصرف فنزل بدكرور مدينة البربر ، بالقرب من موضع القيروان[٢] » يعزز هذا الرأى ، وهذا أقرب للواقع ، فلم يكن لدى أبى المهاجر من الوقت ما يمكنه من بناء مدينة جديدة ، وإنما اكتفى بالنزول فى قرية بربرية على مقربة من القيروان ، وأمر الناس بإخلاء مدينة عقبة فأخلوها ، ولعل قول المالكى إن أبا المهاجر حين سار إلى تلمسان : « لم يستخلف على القيروان أحداً ، ولم يبق فيها إلا شيوخ ونساء » يؤيد هذا الرأى ، فما دامت المدينة الجديدة بربرية أصلا ، فلا محل لحراستها أو ترك حامية عندها ، ولو أنها كانت مدينة حديثة البناء لخلف عليها من يحميها .

***

سواء أكان كسيلة :[٣] «مرتاداً بالمغرب الأقصى فى جموعه من أوربة[٤] »

---

(١) نهاية الأرب ، النويرى ، ٦٩ ب ولا يشير ابن عبد الحكم أو ابن الأثير الى تخريب القيروان ، واتخاذ أبى المهاجر لمدينة أخرى ، وقد رسم المؤنس هذه القرية تيكروان .

(٢) المالكى ، رياض النفوس ، س ٧

(٣) يرسمه أكثر المستشرقين كسيلة Koçeila وهذا خطأ إذ أن ابن الأثير ضبطه فى أسد الغابة هكذا ، كسيلة بفتح الكاف وكسر السين المهملة ولرم بفتح اللام والراء وبينهما ميم ساكنة وآخره ميم — ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ س ٣٢١ (٤) ابن خلدون ، ج ٦ س ١٤٦

كما يقول ابن خلدون ، أم كان : « قد جمع الجموع من البربر والفرنج ، وزحف نحو المسلمين »[1] . كما يقول السلاوى ، فإن أبا المهاجر قد عجل بالمسير نحو البربر ، ليقضى على مابدا له من بوادر مقاومتهم ، وكانت زعامة البربر إذا ذاك لأوربة وزعيمها كسيلة النصرانى ، وكان مقامه فى المنطقة المحيطة بتلمسان وجنوبيها ، فسار إليهم أبو المهاجر حتى أدركهم فى هذه المنطقة ، وعسكر إلى جوارها وقضى زمناً طويلا فى معسكره هذا ، فحفر لجيشه آباراً سميت باسمه وقضى زمناً طويلا هناك وسميت الآبار بعيون أبى المهاجر[2] ، ثم اتجه بعد ذلك إلى مركز المقاومة رأساً ، ولم ينفق وقته فى حصار مدن فى الطريق للاستيلاء عليها والغنم منها ، وهذا يدل على أنه كان يعلم أهمية العمل الذى كان فى سبيل إتمامه ، وهذا أمر جديد يختلف عن كل مارأينا ، فقد كان السابقون لا يكادون يجرون على خطة مرسومة ، أو حتى على علم بحالة البلاد ، وكان همهم منصرفاً دائماً إلى محاصرة بعض المدن ، والغنم منها .

أبو المهاجر وكسيلة

لا تذكر المراجع أن أبا المهاجر حارب كسيلة حرباً عنيفة ، وربما كان سبب ذلك حرصه على أن يتخذ السياسة قبل الحرب ، إذ الثابت أن هذا الرجل كان على شىء كثير من الحكمة وبعد النظر ، وإذا كان قد نصح عقبة بقوله : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستألف جبابرة العرب ، وأنت تعمد إلى رجل جبار فى قوله فى دار عزه ، قريب بالشرك ، (فتفسد قلبه)[3] » حين أخذ عقبة يستبد بكسيلة ، ويسىء إليه ، فأولى بنا أن نستنتج أن تلك السياسة كانت رائده مع كسيلة ، حين توجه لحربه فى تلمسان ، ومصداق ذلك أن المراجع لم تذكر حرباً

---

(١) السلاوى ، الاستقصاء ، ص ٣٧

(٢) المالكى ، رياض النفوس ، ص ٧

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ١٤٦

بين الرجلين ، وربما أيد ذلك أن الرجلين تحابا بعد ذلك ، وأعجب أحدهما بالآخر إعجاباً شديداً ، مما يدل على أنهما تفاهما قبل أن يحتربا[1] .

و إذا كان أبو المهاجر قد بدأ حصار قرطاجنة سنة ٥٩ هـ ، فيكون قد قضى سنوات أربعاً أو ثلاثاً فى رحلته إلى تلمسان وعودته منها ، و إذا كان المفهوم من المراجع أنه سار إليها وعاد منها رأساً دون أن يميل إلى قرية أو حصن ، فيكون قد لبث عند تلمسان عامين أو ثلاثة كسب فيها ودَّ ذلك الرجل ، واطمأن إلى طاعة من معه من البربر .

لسنا نعلم إذا كان أبو المهاجر قد عاد إلى القيروان بعد حملة تلمسان ، أو اتجه إلى قرطاجنّة رأساً ، وعلى أى الأحوال فالغالب أن حملته على قرطاجنة كانت مدبرة حتى قبل المسير إلى تلمسان إذ يغلب أن يكون قد اتجه للبربر ، للخلاص من أمرهم ثم التفرغ للروم بعد ذلك ، فلما تم له الأمر الأول اتجه لإنفاذ الثانى رأساً .

يذكر أبو المحاسن فى حوادث السنة الثانية عشرة من ولاية مسلمة بن مخلد على مصر وهى سنة ٥٩ هـ : « وفيها غزا أبو المهاجر دينار فنزل على قرطاجنة وخرج إليه أهلها ، فالتقوا وكثر القتل بين الفريقين حتى حجز الليل بينهم ، وانحاز المسلمون من ليلتهم ، فنزلوا جبلا فى قبلة بولس (تونس) ، ثم عاودوهم وصالحوهم على أن يخلوا لهم الجزيرة ، ثم افتتح أبو المهاجر المذكور ميلة (ميلة مدينة صغيرة بأقصى إفريقية ، بينها و بين بجاية ثلاثة أيام) وكانت إقامته بها فى هذا الغزو نحواً من سنتين[2] .

---

(١) أبدى فورنل شكه فى قيمة إسلام كسيلة ، وذهب إلى أنه مصطنع ، لجأ إليه الرجل لينجو من القتل ، وليس هناك ما يؤيد ذلك ، والغالب أن فورنل أضافه من عنده على عادته .

(٢) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ١٥٢ .

والمراد بالجزيرة هنا جزيرة شريك ، وهو شبه الجزيرة المحصور بين الحمامات وتونس ، وإنما سماه العرب شبه جزيرة ، جريا على عادتهم فى تسمية شبه الجزيرة بالجزيرة ، كقولهم =

تقدير أعمال أبى المهاجر

نلاحظ فى عمل أبى المهاجر هذا أمرين جديدين ، وكلاهما واضح الدلالة على التطور الذى جد على مسير الفتوح فى إفريقية ، وعلى ما يمتاز به أبو المهاجر نفسه من مهارة سياسية ، فهو لم يعاهد الروم على أن ينصرف عن قرطاجنة لقاء فدية من مال ، و إنما طلب إليهم أن يتنازلوا له عن جزء من البلاد ، لأنه لم يطلب الغنم والعودة ، و إنما كان يرغب فى إتمام فتح البلاد ، فأهمه بالطبع أن يحصل على جزء منها ما دام قد عجز على الاستيلاء على قرطاجنة والقضاء على الروم تماماً ، وهذا يدل على أن نية أبى المهاجر كانت معقودة على الاستيلاء على قرطاجنة ، وضرب الروم ضربة قاضية .

يذهب أبو المحاسن إلى أن أبا المهاجر لم يعد إلى القيروان بعد الفراغ من حملته على قرطاجنة ، و إنما اتجه غربا حتى فتح ميلة[1] على مقربة من بجاية ، ولم يفصل ما حدث فى هذه السرية ، ولا الغرض الذى رمى إليه أبو المهاجر من الاستيلاء على هذه المدينة ، لأنها ليست من المدائن الكبرى ، ولا المحارس التى تستحق عناء المسير إليها هذه المسافة الطويلة ، وكان أمام أبى المهاجر لو أنه رغب فى الفتح، مدائن أخرى أعظم وأهم من الناحية السياسية أو الحربية أو حتى من ناحية الغنى

= جزيرة العرب ، ويفهم من البكرى أنها كانت عامرة كثيرة الزروع فى زمانه ، وأنه كانت بها عدة مدن أعظمها باشو ، وقد أكد الإدريسى أنها تحد بالحمامات وتونس ، وسماها جزيرة باشو ، وقد نقل ياقوت تحديدها عن البكرى ، ونلاحظ أن أحد أبواب تونس كان يسمى باب جزيرة شريك ، وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى شريك العبسى ، الذى غزاها فى حملة عبد الله ابن سعد فلزمها اسمه ، وشريك هذا هو أبو قرة بن شريك ، حاكم مصر المعروف ، وتقع قرطاجنة إلى شمال هذه الناحية ، وأمامها جزائر بنتلرية المعروفة ، فلا بد أن شبه‌جزيرة شريك كان عامراً فى ذلك الحين الذى فتحها فيه أبو المهاجر . البكرى — وصف أفريقية ، ص ٣٩ و ٤٠ والإدريسى ، ١١٨ — ١٢٥ . ياقوت ، مادة شريك : التيجانى ، رحلة ، رحلةص١٠(أ)

(١) لا زالت هذه المدينة موجودة إلى اليوم ، وقد ذكرها البكرى فى المدائن الكبيرة ، التى ينزل بها المسافرون من القيروان إلى مرسى الزيتونة ، وذكر أنها تلى قسطنطينة ، وكذلك ذكرها الإدريسى — البكرى ، وصف إفريقية ، ص ٦٣ — ٧٦ والإدريسى ، ص ٥٧ — ٩٤

ووفرة الغنيمة ، وأنه وإن لم يكن لدينا ما يؤيد هذا العمل ، أو حتى ما يبرره ، فإننا لانستطيع إلا أن نذكره كما هو ، دون تأييد أو نفى لأنه ليس لدينا ما ينفيه .

يذكر الدباغ أن أبا المهاجر عاد بعد ذلك إلى القيروان فأقام بها ويغلب أنه أراد أن يقول إنه عاد إلى تكروان المدينة التى اختارها ، لأنه كان يكره نزول قيروان عقبة ، ولبث بها حتى عزل سنة ٦٢ هـ .

وقد ذكر أبوالمحاسن أن أبا المهاجر قضى فى غزو قرطاجنة وميلة نحواً من سنتين، فإذا كان قد شرع فيه سنة ٥٩ هـ فيكون قد عاد منه سنة ٦١ هـ ، فأقام فى هدوء عاماً واحداً عزل فى نهايته .

* * *

يذكر السلاوى أن أبا المهاجر : « كان أول أمير مسلم ، وطئت خيله المغرب الأوسط »(١) ويريد بذلك أنه كان أول من حمل الإسلام إلى هذه النواحى ، وبشر به فى ربوعها وكسب له أنصاراً من أهلها ، ولا نزاع فى أن إسلام كسيلة

(١) وقف كودل من أبى المهاجر موقفاً لا يخلو من تناقض ، فقد أعجب به فى أول الأمر إعجاباً عظيما فقال — وهو يحاور فورنل — إن أبا المهاجر كان : « قائداً من الدرجة الأولى ، يفوق مجده مجد عقبة نفسه ، وكل الآخرين . . . كان دينار فى الواقع رجلا ماهراً ، لم يغره الانتصار بعد أن غلب كسيلة ، وإنما استفاد من حياد القائد البربرى ورضاه ، لكى يقضى على الروم » ، ثم عاد فهبط به ونقده فى أسلوب شديد قائلا : « إن أبا المهاجر هو المثل الأول فى ذلك التاريخ ، للجندى الطارىء الذى نشأ من لا شىء ، وقفز إلى القيادة برضا سيده ، لا بمواهبه الشخصية » ثم قال عن مهمته وعمله : « أراد دينار قبل كل شىء أن يرضى سيده ، وعرف أنه لا يوفق إلى ذلك إلا بالحصول على مبالغ طائلة من المال وإرسالها إلى مصر ، فذهب يلتمسها حيثما كانت ، واستعمل لإدراكها من كان يستطيع معاونته » وهذا قول خاطىء ، لأن أبا المهاجر لم يسع إلى الغنيمة ، ولم يهتم بالمال ، بل كان يرمى إلى إتمام فتح البلاد فقط ، وكان يستطيع أن يأخذ من أهل قرطاجنة ، مبلغاً طائلا من المال حين فاوضوه ليرجع عنهم ، ولكنه أبى ذلك وعاهدهم على أن ينزلوا له عن شىء من أرضهم ، وفيما خلا ذلك أصاب كودل كل الصواب ، حتى دافع عن دينار وأكد أن كونه مولى ليس عربياً ، قد قلل من قدره فى حساب المؤرخين ، وجعله عند المقارنة أقل من عقبة ، مع أنه ليس أقل منه كفاءة ولا مهارة .
راجع كودل ، ج ٢ ص ١١٤ و١٢٢ Caudel, op. cit. II. pp. 114, 122.

كان حادثاً عظيما له معناه وأثره البعيدان ، فأما معناه فنجاح الفاتح الإسلامى فى تأدية الغرض الأسمى من هذا الفتح ، وهو نشر الإسلام ، وأما تأثيره فلا نزاع فى أن كسيلة لم يسلم بمفرده ، وإنما تبعه نفر كبير من قومه ، من القادة والأقارب والأتباع والأصاغر ، وربما خفيت أهمية هذا الأمر الآن ، لأنه ليس ظاهراً ملموساً ، أو لأن المؤرخين الذين نأخذ عنهم لم يعنوا به ، ولم يجهدوا أنفسهم فى استقصائه ، ولكن أهميته ستتضح لنا بعد ثلاثين سنة فقط ، حين نجد رجالا من البربر وأهل البلاد ، مسلمين على ثقة وتمكن من دينهم يسيرون مع العرب جنباً لجنب لفتح البلاد ونشر راية الإسلام ، وكيف نفسر ظهور رجل كطارق بن زياد عربى الإسم عربى الأب فى سنة ٩١ هـ ، إلا بأن أباه زياداً قد تزوج امرأة من أهل البلاد ، فى مثل هذا الوقت الذى نتحدث فيه ؟ وإنما ضربنا المثل بطارق لكى نؤكد أن حركة الاختلاط بين البربر والعرب — بالزواج والإسلام — كانت تسير جنباً إلى جنب مع الفتوح التى شغل المؤرخون بها .

الباب السادس

محاولة فتح المغرب الأقصى

حملة عقبـــة الثانية

(من سنة ٦٠ هـ — سنة ٦٣ هـ)

كان عقبة على وشك الخروج للغزو حين عزله مسلمة بأبى المهاجر ، فوقع هذا العزل من نفسه موقعاً سيئاً ، لأنه حرمه من الثمر الذى بذل فى غراسه ما بذل ، وطال به الأمد وهو يترقب الفرصة لإنفاذه . ولو اقتصر الأمر على العزل لهان الخطر على نفسه ، ولكن أبا المهاجر كان قد أمر بأن يسىء إليه ، وينال منه ويعفى على آثاره . فأخذ الناس بترك القيروان ، فأصبحت خلاء قواء ، ولا يبعد أن يكون الخراب قد غشيها ، بعد إذ هجرها الناس وهى بعد ناشئة لا قوام لها . ثم أخذ عقبة بالمهانة السيئة والسجن الشديد ، فخفلت نفس عقبة بالسخط عليه . فلما أن وصلت الأخبار بذلك إلى معاوية ساءته ، فأسرع بأمره بتخلية سبيله وإشخاصه إليه[1] ، فمضى وقلبه يفيض بالسخط حتى أتى معاوية ، فشكا إليه ما نزل به ، فكان رد معاوية يشعر بأنه أسف لما أصابه ، وأنه رجا أن يرده ، ولكنه خشى أن يسوء ذلك مسلمة ، فقال لعقبة : « قد عرفت مكان مسلمة بن مخلد من الإمام المظلوم ، وتقديمه إياه وقيامه بدمه وبذل مهجته[2] » . إذ كان مسلمة ممن شهد معه — أى مع معاوية — صفين ، وقيل لم يشهدها وكان فيمن شهد قتل محمد بن أبى بكر[3] ، فآثر معاوية أن يدع الأمر على ما هو عليه ، مرجئاً إنصاف عقبة إلى زمن سيجىء ، وهكذا ظل إنصاف عقبة معلقاً حتى انتهت أيام معاوية .

متى سار عقبة فى حملته الثانية ؟

فلما مات معاوية فى أول رجب سنة ٦٠ هـ وخلفه يزيد توقع عقبة الخير على يديه ، ولا بد أنه بسط له شكاته ، والتمس منه الإنصاف ، لأن الدباغ يحدثنا أن يزيد قال عقب ذلك : « أدركوها قبل أن يخربها ، ورد عقبة إليها[4] » ويغلب أن ذلك لم يكن إلا عقب وفاة مسلمة ، لأن إجماع المراجع منعقد على أن عقبة رد إلى عمله سنة ٦٢ هـ ، وما دام مسلمة قد توفى فى ٢٥ رجب من هذه السنة ،

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٧ (٢) نفس المصدر ، ص ١٦٨
(٣) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ١ ص ٣٦٥ (٤) الدباغ ، معالم الإيمان ، ج ١ ص ٤٥

فالراجح أن عقبة رد عقب ذلك[1] ، ولو كان عقبة رد قبل وفاة مسلمة ، فلماذا تحدد المراجع سنة ٦٢ هـ بالذات أى بعد سنتين من ولاية يزيد ؟ ولِم لَمْ يرده يزيد من أول ولايته ؟ وفيم كان الانتظار ؟ بل لو كان مسلمة حياً حين رد عقبة إلى عمله لتولى حماية أبى المهاجر منه ، أو لاستغاث به هذا الأخير على الأقل ، فأما وقد كان عقبة مطلق اليد ، يفعل بأبى المهاجر ما يشاء ، فإن فى ذلك لدليلا على أن هذا الأخير كان قد فقد وليه ونصيره فهان أمره على الناس[2] .

بدأ عقبة عمله بالاقتصاص من أبى المهاجر ، فأوثقه فى وثاق شديد ، وأساء عزله وغزا به السوس وهو فى حديد[3] ، وأبقى عليه ليتشفى منه على مهل ، ويذهب المالكى والدباغ إلى أن عقبة وجد معه مبلغاً طائلا من المال ، قدراه بمائة ألف دينار فأخذها[4] ، وهى رواية ظاهرة المبالغة ، يؤيد ضعفها ما سبق بيانه من عدم اهتمام أبى المهاجر بالأموال والغنائم ، فلم تذكر النصوص أنه جمع من الأموال ما يمكنه من الحصول على هذا القدر من المال .

إصلاح القيروان

ثم انثنى عقبة إلى قيروانه يصلحها مما نزل بها على يد أبى المهاجر ، وقد ذهب المالكى إلى أنه « جدد البناء وشيدها فعمرت وعظم شأنها[5] » . ولكن الغالب

(١) وقد جاء فى النجوم الزاهرة سنة ٦٣ هـ ، وهى السنة الأولى من ولاية سعيد بن يزيد على مصر ، وفيها غزا عقبة بن نافع القيروان ، وسار حتى دخل السوس الأقصى ، وهذا يؤكد أن عقبة رد فى أواخر سنة ٦٢ هـ ، وبدأ عمله فى إفريقية سنة ٦٣ هـ : — أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٩٠

(٢) من هنا نستطيع أن نقطع بخطأ النويرى فيما زعمه من سعى مسلمة للقاء عقبة فى عودته إلى إفريقية ، واعتذاره إليه عما نزل به ، لأن مسلمة كان قد مات إذ ذاك ، والغالب أن النويرى نقل هذه العبارة بالنص عن ابن عبد الحكم ، ولكنه أخطأ فجعلها فى رجوع عقبة من دمشق سنة ٦٢ هـ ، فى حين حدث هذا فى مسيره إليها حين عزل سنة ٥٥ هـ .

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٨ (٤) المالكى ، رياض النفوس ، ص ٧ الدباغ ، معالم الإيمان ، ج ١ ص ٤٣ ، ابن مقديش ، نزهة الأنظار ، ص ٧٠

(٥) المالكى ، رياض النفوس ، ص ٧

أن قول ابن أبي دينار أنه : « أعاد الناس إلى القيروان وعمرها[1] » هو الأصح ، إذ سبق القول بأن أبا المهاجر لم يخرب القيروان ، وأنه لم يهدم دورها كما يذكر بعض المؤرخين ، وإنما اكتفى بنقل الناس منها فخربت ، فلما عاد عقبة أعاد الناس إليها فعاد إليها العمران .

فإذا انتهى عقبة من ذلك ، فقد عجل بإنفاذ ما حالت الظروف بينه وبين إنفاذه سبع سنوات متواليات ، وربما كان الخوف من أن يفاجأ بعزل جديد هو الذي دفع به إلى التعجيل بالمسير دون أن يرسم لنفسه خطة أو غاية ، ولو قد تفكر في هذا لاستطاع أن يفيد خيراً عميماً من جهود سلفه أبي المهاجر ، الذي استطاع بالسياسة والتدبير أن يضرب الروم ضربة شديدة ، وأن يملك زمام البربر بما وفق إليه من صحبة أميرهم كسيلة وإسلامه . لو أن عقبة تبين هذا على وجهه ، لهانت مهمته ولكان نصيبه من التوفيق أعظم وأبقى أثراً . وربما جعل ذلك لغزوته الكبرى وجهاً آخر ، إذ كان يستطيع بما يضمن من ولاء البربر ، أن يقضي القضاء الأخير على ما بقي للروم في إفريقية ، وأن يضمن طاعة من بقي من أهل البلاد ، وكان يستطيع إلى جانب ذلك ، أن يكسب أمراً هو أجدى عليه من كل فتح ، وهو تحبيب الإسلام إلى أهل البلاد بالحسنى والرفق والمودة كما فعل أبو المهاجر ، وقد حاول هذا الأخير أن يلفت نظر عقبة إلى ذلك ، ولكنه أبى الأخذ به تحقيراً له ، فقد روى المالكي أن أبا المهاجر قال لعقبة حين هم بالمسير لحرب بربر طنجة : « ليس بطنجة عدو لك لأن الناس قد أسلموا ، وهذا رئيس البلاد — يريد كسيلة — فابعث معه والياً ، فأبى عقبة إلا أن خرج بنفسه[2] » . وهكذا أضاع عقبة على نفسه فرصة كبرى ، واستعاض عن ذلك بحرب شعواء هوجاء

---

(١) القيرواني ، المؤنس ، ص ٢٧

(٢) المالكي ، رياض النفوس ، ص ٨

شنها على أهل البلاد ، بلا غرض محدود ولا نتيجة ترجى ولا معنى يفهم ، فضاع جهده هباء .

مسير عقبة

يبدو أن قول الدباغ[١] : « إن جند عقبة كانوا خمسة عشر ألفاً » ، أقرب إلى الصحة من قول ابن عبد الحكم إنهم كانوا خمسة آلاف فقط[٢] ، لأن خمسة آلاف جندى أقل من أن ينهضوا بعمل ضخم كالذى قام به عقبة فى حملته الكبرى . و إذا كان قد سار فى حملته الأولى بعشرة آلاف فقط ، وسار بمثلها دينار فليس بمعقول أن يسير هذه المرة بخمسة آلاف فقط ، وخلف عقبة على القيروان رجل سيكون له شأن عظيم فى فتوح إفريقية هو زهير بن قيس البلوى[٣] ، على رأس حامية صغيرة من الجند ، وفصل عن القيروان ، وقد اصطحب معه أبا المهاجر مقيداً مكبلاً . وتذكر المراجع كذلك أنه أخذ معه كسيلة أيضاً فى حديد ، وكانت تلك أكبر أخطاء عقبة وأوخمها عاقبة ، فقد غيرت عليه البربر ، ودفعتهم إلى مقاومته مقاومة عنيفة ، ويذهب المؤرخون إلى أن عقبة أراد بذلك أن يعاقب كسيلة على ما أخلص لأبى المهاجر ، وما بذله من الود وحسن المعونة ، وهذا تعليل ضعيف لا يبرر هذا الأمر ، والغالب أن عقبة خاف شر كسيلة إن هو أطلقه ، وخشى أن تثير قومه ثأراً لصديقه أبى المهاجر ، بل الغالب أن عقبة خشى أن يدفعه أبو المهاجر إلى ذلك ، وربما أراد عقبة بحبس كسيلة و إهانته ، أن يؤكد لأهل البلاد استخفافه بهم وتحقيره لشأنهم ، فغضبت أوربة ومن والاها من القبائل لما لحق كسيلة من المهانة . و إذا كانت المراجع تتفق على أن كسيلة قد اتصل بآله

(١) الدباغ ، معالم الإيمان ، ج ١ ص ٤٣ — ونقلها عنه ابن مقديش فى نزهة الأنظار ، ص ٧٠

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٦٩

(٣) ذهب ابن عبد الحكم إلى أنه ترك مع زهير شخصاً آخر اسمه عمر بن على القرس ، وقد سبق أن ذكر أن عقبة خلف هذا الشخص أيضاً على غدامس حين سار فى بعثه الصحراوى ، ويغلب أن ذلك راجع إلى اختلاط أخبار حملتى عقبة — ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٦٩

فى أواخر أيام عقبة ، وأحكم معهم تدبير مصرعه ، فإن الدلائل كلها ناطقة بأنه كان على اتصال بهم من أول الأمر ، وأنه أخذ يدبر معهم الأمر لخلاصه والانتقام من عقبة .

عود النشاط إلى الروم

سبق القول بأن روم الساحل كانوا قد نشطوا منذ أوائل أيام أبى المهاجر ، وأن هذا الأخير استطاع أن يكسر شوكتهم بما أنزل بهم فى حصار قرطاجنة ، إذ أجبرهم على التنازل للعرب عن جزيرة شريك ، وأرسل قائده حنش الصنعانى فعسكر فيها ، فكان بمثابة الحارس يهدد قرطاجنة ويرقب أعمال الروم بها ، ويمنعهم من التقدم نحو الجنوب أى نحو القيروان ، فاشتد خوفهم وسعوا للخلاص من ذلك القيد الثقيل . وليس فى المراجع ما يدل صراحة على ذلك ، ولكنه يفهم من مجمل الحوادث التى ستلى .

يذكر ابن الأثير أن عقبة تقدم : « فسار إلى بلاد الزاب ، وهى بلاد واسعة فيها عدة مدن وقرى كثيرة ، فقصد مدينتها العظمى واسمها أربة ، فامتنع بها من هناك من الروم والنصارى[1] » فمن هم النصارى الذين يذكرهم ابن الأثير ؟ يغلب أنه يريد قوماً آخرين غير الروم لأنه يذكر الروم كذلك ، وربما أراد نصارى البربر بذلك القول ، ومَن هم نصارى البربر إلا أوربة ومن والاها ؟ ثم ماذا أقدم الروم بلاد الزاب وقد تركوها منذ زمن بعيد ؟ أى شىء لهم فى هذه الناحية أو عاصمتها أوربة حتى يقاتلوا المسلمين عنها هذا القتال العنيف ؟ ولماذا تخير الروم هذه المنطقة بالذات ؟ أليست تلك دلائل تحمل على الظن بأنه كان هناك شبه حلف بين الروم وأوربة ؟ وأليس المعقول أن تكون أوربة قد غضبت لما نزل برئيسها ، فسعت للاتصال بالروم الذين كانوا فى خوف منذ عسكر العرب فى جزيرة شريك ؟ فلم يلبث هؤلاء أن أسرعوا لعون البربر ، إذ وجدوا إلى ذلك سبيلا

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ص ٤٢

لمقاومة العرب والقضاء عليهم . ربما استطعنا بذلك أن نفسر المقاومة الشديدة التى لقيها عقبة فى مسيره ، وهى مقاومة من البربر والروم معاً لم يسبق لها مثيل فيما سلف من غزوات ، بل ربما استطعنا أن نعلل الكثير مما يلى من أعمال عقبة وما يلقاه من عنت وكيد ، وهى أمور اكتفى غالب المؤرخين بروايتها على علاتها دون تعليق أو تحقيق ، ولا سبيل إلى فهمها إلا عن هذا السبيل .

بيد أن الغالب أن عون الروم للبربر لم يزد عن توجيههم إلى أساليب القتال ، ومعاونتهم على تحصين مدنهم ومقاومة هجوم المسلمين ، فلم يكن روم إفريقية إذ ذاك على قوة تمكنهم من تجييش الجيوش أو المعاونة المادية القوية ، ومصداق ذلك أن البربر يجرون فى مقاومة عقبة على شىء يشبه الخطة المنظمة أو الحيلة المرسومة كاجتذابهم عقبة من طينة إلى تهودة لحصره هناك والقضاء عليه ، ولا يخفى كذلك أصبع كسيلة فى هذا كله ، إذ كان عيناً على المسلمين ، يراسل أهله وذويه ويرشدهم إلى مايجب اتباعه .

— ٢ —

ويخلط نفر من المؤرخين بين أحداث هذه الحملة وأحداث حملة عقبة الأولى ، فيذكرون فيها غزوة لقسطيلية وقفصة[١] ، بل يزيد البعض فيخلطون بينها و بين بعثه الأول ، فيذكرون غزو فزان[٢] وقصة ماء الفرس[٣] ، والراجح الذى يتفق عليه أكثر المؤرخين أنه خرج من القيروان رأساً إلى باغاية ، دون أن يعرج نحو الجنوب ليعيد غزو قسطيلية وقفصة ، ثم يعود إلى الشمال مرة أخرى نحو باغاية .

ينقسم المؤرخون طوائف ثلاثة فى تفصيل ما وقع فى غزوة عقبة هذه : ففريق يوردها موجزة إيجازاً شديداً كالبلاذرى وأبى المحاسن ، وفريق آخر يطيل التفصيل

---

(١) المالكى ، رياض النفوس ، س ٨ — ، رحلة التيجانى ، س ٧٠ أ
(٢) الباجى ، الخلاصة النقية ، س ٦٢٥ (٣) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ س ٤٣

فى أحداثها ، ويجعل منها قصـة حافلة بالوقائع والانتصارات ، والآيات الناطقة بولاية عقبة وقربه من الله ، كابن الأثير والنويرى وابن عذارى وطائفة المؤرخين المغربيين ، وفريق آخر يفصل أمرها بعض التفصيل ، ولكنه يذكر أحداثاً يختلف عما ذكر غيره وهو ابن الحكم .

فأما البلاذرى ، فيكتفى من أمر هذه الحيلة بقوله : «فلما ولى يزيد بن معاوية رد عقبة بن نافع إلى عمله ، فغزا السوس الأدنى وهوخلف طنجة ، وجول فيما هناك لا يعرض له أحد ولا يقاتله ، فانصرف ومات يزيد بن معاوية»[1] ، وهو قول موجز فيـه خطأ كثير فقد أهمل ذكر ما قام به عقبة والبربر والروم من حرب عنيفة عند باغاية وفى الزاب ، ولم يشر إلى استشهاد عقبـة فى تهودة ، وهو أمر متوارد مذكور لا معنى للاستطراد عنه ، وسيتضح من إشارات البلاذرى إلى مايلى ذلك من فتوح إفريقيـة أنه لم يعد يذكر شيئاً من التفاصيل الصحيحة التى تعودنا وجودها فيه ، ممـا يدل على أن مصادره التى كان ينقل عنها قد انقطعت عنه بعد موقعة سبيطلة[2] .

وكذلك أبو المحاسن لا يكاد يذكر شيئاً مما حدث لعقبة فى مسيره الطويل من القيروان إلى طنجة ثم إلى المحيط ، ثم يبـدأ يقص مسير عقبة إلى تهودة ومصرعه هناك بتفصيل دقيق ، فلندع روايته إلى حينها من أعمال عقبة[3] .

ويورد ابن عبد الحكم روايتين مختلفتين : أولاهما شديدة الشبه برواية الواقدى التى ذكرها البلاذرى : « فخرج عقبة بن نافع سريعاً بحنقه على أبى المهاجر ، حتى قدم إفريقية فأوثق أبا المهاجر فى وثاق شديد ، وغزا به معه إلى السوس وهو فى حديد ، وأهل السوس بطن من البربر يقال لهم أنبيـة (أنتنة . أنثنة) ، فجول فى بلادهم

---

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٢٢٨ (٢) البلاذرى ، فتوح ، ص ٢٢٨
(٣) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ١٥٨ — ١٦٠

لا يعرض له أحد ولا يقاتل فانصرف إلى إفريقية ، فلما دنا من ثغرها أمر أصحابه فافترقوا عنه وأذن لهم حتى بقى فى قلة ، فأخذ على مكان يقال له تهوذة (تهودة) فعرض له كسيلة بن لمزم فى جمع كثير من الروم والبربر ، وقد كان بلغه افتراق الناس عن عقبة ، فاقتتلوا قتالا شديداً فقتل عقبة ومن كان معه ، وقتل أبو المهاجر وهو موثق فى الحديد[1] » . وقد أهمل ابن عبد الحكم فيهما كل ما وقع لعقبة حتى بدأ عودته ، وذكر بعض التفصيل عن مصرع عقبة ، ويلاحظ أنه لم يشر إلى وجود كسيلة مع عقبة فى جيشه موثقاً بالحديد ، كأنما أراد أن يقول إن كسيلة كان بعيداً عن عقبة ، وأنه « بلغه » فقط افتراق الناس عن عقبة ، فعاجله عند تهودة وقضى عليه ، ولم يكن الواقع كذلك .

ثم عاد ابن عبد الحكم فروى رواية أخرى ، لا شبه بينها وبين روايته الأولى أو أية رواية أخرى لأى مؤرخ آخر ، ولم يذكر إسنادها بل اكتفى بقوله : «ويقال» بدأها بذكر خروج عقبة إلى السوس ، وتركه عمر بن على القرشى وزهير بن قيس على القيروان[2] ، فلم يكد يفصل عن المدينة حتى هاجم القيروان رجل من العجم فى ثلاثين ألفاً ، ولكن الله نصر المسلمين ورد الأعجام ، ثم يذكر ابن عبد الحكم عبارة أخرى ، إذا صحت كانت عظيمة الأهمية فى تاريخ عقبة وما انتهت إليه حياته ، وهى قوله : « وخرج ابن الكاهنة البربرى على أثر عقبة ، كلما رحل عقبة من منهل (ودمه — منهل) دفنه ابن الكاهنة ، فلم يزل كذلك حتى انتهى عقبة إلى السوس ولا يشعر بما صنع البربرى ، فلما انتهى عقبة إلى البحر أقحم فرسه فيه . . . وانصرف راجعاً ، والمياه قد غورت ، وتعاونت عليه البربر فلم يزل يقاتل

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٨

(٢) ذكر السلاوى أن عقبة جعل زهير بن قيس على مقدمة جيشه ، ولكن الغالب أنه خلفه على القيروان كما يقول ابن الأثير. السلاوى ، الاستقصا ، ص٢٧ — ٢٨ . ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٩٧ — ١٩٩ ، والزيادة التى بين الأقواس من عمل الناشر .

وأبو المهاجر معه فى الحديد ، فلما استحر الأمر أمر عقبة بفتح الحديد عنه فأبى أبو المهاجر وقال : « ألقى الله فى حديدى ، فقتل عقبة وأبو المهاجر ومن معهما[1] »

إذا صح ذلك كان دليلا على أن عقبة كان محاطاً من أول الأمر بشبكة واسعة النطاق وهو جاهل بأمرها ، فهذه الرواية تذكر أن نفراً من البربر كان يتتبعه ، ويردم الآبار التى يمر بها حتى انتهى عقبة إلى المحيط ثم انقلب راجعاً ، فإذا المياه قد تلفت وأصبح المسير عليه صعباً ، فأخذ البربر يتجمعون فى طريقه ، ويأخذون عليه السبيل حتى أوقعوا به عند تهودة ، إذا جاز أن نشك فى هذه الرواية لانعدام مايؤيدها من الروايات الأخرى ، لما جاز أن نستبعدها تماماً لأن فيها إشارات لها أهميتها ، فلا نزاع فى أن ابن عبد الحكم عنى بابن الكاهنة هذا « كسيلة » نفسه مما ينتهى بنا إلى رأى جديد له أهميته ، وهو أن موت عقبة لم يقع بمحض المصادفة وإنما كان نتيجة لتدبير بعيد بدأ من ساعة فصله عن القيروان[2] ، لأن بعض المراجع تجعل بين كسيلة وبين الكاهنة صلة وسبباً ، فكأن ابن عبد الحكم أراد أن يقول إن كسيلة كان يتتبع عقبة ، ويغور الماء فى طريقه ليقطع عليه خط العودة ، بيد أن المعروف أن كسيلة كان أسيراً لدى عقبة طوال حملته ، فكيف يتفق ذلك مع تفسير رواية ابن عبد الحكم على هذا النحو ؟ ربما جاز القول بأن

---

(١) فهم روث تغوير الماء هذا على أنه تسميم الآبار والواضح من الرواية أن البربر لم يكونوا يسممون الآبار ، وإنما يطمرونها فقط كما هو ظاهر من النص .

(٢) ذكر النويرى أن عقبة خطب فى أولاده خطبة نفيسة قبل رحيله ، أعلن فيها أنه مستشهد لا محالة وأوصاهم ببعض وصايا ، وقد تناول المالكى هذا الخطاب فأضاف إليه وزاده حتى أصبح ثلاثة أضعاف ما ذكره النويرى ، وكلامه ظاهر الاختراع بل فيه ما يدل على أن واضعه إفريقى أو من العرب النازلين فى إفريقية ، والغالب أن هذه الخطب وضعت بعد ذلك بقليل ، أى حينما استبد أبناء عقبة بالحكم فى إفريقية فى أواخر العصر الأموى وأوائل العصر العباسى ، فوضعت هذه الخطب لتشد من أزرهم وتثبت من حقهم ، وكفى بهم فخراً أنهم أبناء ولى الله عقبة وأنه تركهم على البلاد ، وأوصاهم بالناس من بعده — النويرى ، نهاية الأرب ، ورقة ٧٠ (أ) المالكى ، رياض النفوس ، ص ٨

سطور ابن عبد الحكم تخفى أمراً آخر له أهميته ، وهو أن ابن الكاهنة « كسيلة » كان يدبر لعقبة من أول الأمر وهو سجين فى جيشه ، يتصل بآله وذويه ويدبر معهم المكيدة لعقبة ، فجعلهم يغورون الماء فى طريقه وأخذ يوافيهم بأخباره وأسراره ، ويرسم لهم المؤامرة الأخيرة التى انتهت بمصرع عقبة فى تهودة .

بقيت الطائفة الثانية وهم : ابن الأثير وابن خلدون والنويرى وابن عذارى وطائفة المؤرخين المغربيين . فأما ابن الأثير فقد سبق بيان اعتماده على مراجع مغربية أصلية فى كتابة هذا الجزء من تاريخه ، فروايته جديرة بالاعتبار ففيها دقة مطابقة للواقع . وأما النويرى وابن عذارى فقد أخذا — كما هو معروف — عن ابن أبى الرقيق فتشابهت روايتهما تشابهاً تاماً ، وعنهما أخذ المغربيون وزادوا على ذلك أساطير كثيرة وخطباً شتى نسبت لعقبة ، تنحصر أهميتها فى أنها تعطينا فكرة عن شخصية عقبة كما يفهمها المغربيون .

ذكر ابن الأثير أن عقبة خرج من القيروان : « ثم سار فى معسكر عظيم حتى دخل مدينة باغاية ؛ وقد اجتمع بها خلق كثير من الروم فقاتلوه قتالا شديداً وانهزموا عنه ، وقتل فيهم قتلا ذريعاً وغنم منهم غنائم كثيرة ودخل المنهزمون المدينة ، وحاصرهم عقبة ثم كره المقام عليهم فسار إلى بلاد الزاب »[1] . والرواية على هذا النحو غير مستقيمة النسق ، إذ كيف يتفق قوله إن عقبة : «دخل مدينة باغاية» ، وقوله بعد ذلك: « إنه فشل فى الاستيلاء عليها فانصرف عنها » ؟ ربما كانت رواية النويرى أصح إذ يقول : « ومضى فى عسكر عظيم حتى أشرف على مدينة باغاية وقاتل أهلها قتالا شديداً ، وغنم منهم خيلا ودخل الروم حصنهم فكره عقبة أن يقيم عليهم فمضى إلى بليش »[2] ، وهذا هو الأقرب للصحة . لم يستول

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ص ٤٢

(٢) النويرى، نهاية الأرب ورقة ٧٠ (أ) و٧٠ (ب) والغالب أن بليش هذه هى لميزة =

عقبة على باغاية و إنما أشرف عليها وقاتل أهلها بظاهرها ، وغنم منهم خيلا ثم كره أن ينفق وقته فى حصارها فانصرف عنها وسار إلى الغرب حتى وصل إلى لمبيزة .

يدل مسير عقبة من القيروان إلى باغاية إلى لمبيزة على أنه اتبع طريق السهل الذى سبقت الإشارة إليه ، وتجنب المسير على الهضبة الوعرة . ولهذا لم يعثر على تبسا ولا الأربس لأنهما على شاهق منها . ولما كانت لمبيزة على باب الهضبة مشرفة على المخرج منها ، فلم يكن له بد من المرور بها والوقوف عندها لأنها على باب سهل متسع ، يتوسطه شط هدنة الذى تنحدر إليه وديان ونهيرات كثيرة ، فيقوم على جانبيه عمران قليل .

وقع لعقبة عند لمبيزة مثلما وقع له عند باغاية ، إذ : « مضى إلى بليش وهى من أعظم مدن الروم فلجأ إليها من كان حولها منهم ، وخرجوا إليه وقاتلوه قتالا شديداً حتى ظن الناس أنه الفناء ، فهزمهم وتبعهم إلى باب حصنهم وأصاب غنائم كثيرة ، وكره المقام عليها فوصل إلى الزاب[1] » كما يقول النويرى . فى حين لا يذكر ابن الأثير مروره بلمبيزة ، بل يذكر أنه اتجه من باغاية إلى الزاب رأساً[2] ، وإنما يغلب أن النويرى هو الأصوب لأنه ما دام قد انحدر من الهضبة إلى وادى الزاب المتسع وما دام مقبلا من باغاية فلا مفر له من المرور بلمبيزة .

كيف استطاع الروم أن يثبتوا هذا الثبات فى هذه النواحى الداخلية ؟ لقد رأيناهم منذ حين لا يكادون يعتصمون من العرب فى بنيزرت وسوسة وجلولاء وما إليها ، بل يسرعون بالتسليم مع أن القوى التى سارت إليهم إذ ذاك كانت فى أحيان كثيرة بعوثاً صغيرة يقودها قواد صغار . فكيف أبدى الروم هذه المقاومة

= الحصن الرومانى المعروف ، وأخطأ النساخ فكتبوها كذلك ، وقد وردت فى ابن خلدون لميس ، ومعقول أن أصل لميس هذه لمبيس ، والتحريف من لميس إلى بليش قريب الوقوع ، وقد كتبها كودل لمبيزة دون حاجة إلى تعليل هذا التصحيح

(١) النويرى ، نهاية الأرب ، ورقة ٧٠ (ب) (٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ س ٤٢

الشديدة التى لم تكن تتوقع فى هذه النواحى التى لم تكن لهم فيها منعة حتى فى أعز أيامهم منذ زمن بعيد ؟ أليس هذا بمصداق لما سبق بيانه من عود النشاط إلى روم إفريقية ؟ وكيف يعلل هذا النشاط الجديد إلا بأن الأسباب عادت فاتصلت بين بيزنطة وقرطاجنة على أثر السياسة الجديدة التى اتبعها قسطنطين الرابع ؟ فأخذوا يفكرون فى سبيل للمقاومة ، ووجدوا فى البربر عوناً صادقاً على مناهضة العرب وردهم ، فتشجعوا وتوغلوا — بمعاونة البربر — إلى باغاية ولمبيزة ، حيث استطاعوا أن يحصنوا هذه المدائن أمام العرب ويمكنوها من مقاومة الحصار الطويل .

عقبة فى الزاب

أفضى عقبة إلى الزاب وبهذا خرج من شدة الهضبة ووعورتها إلى إقليم كثير الوديان والزروع والعمران ، تنتشر فيه القرى التى تذكر المراجع أن عددها كان ثلاثمائة وأن أكبرها كانت تسمى أربة[1] ، ومن عجب أن عقبة لم يوفق فى الاستيلاء على مدينة صغيرة كهذه تدل الدلائل كلها على أنها لم تكن إلا محرساً صغيراً قديماً ، هجره الروم منذ زمن طويل فيقول ابن الأثير : « فسار إلى بلاد الزاب وهى بلاد واسعة فيها عدة مدن وقرى كثيرة ، فقصد مدينتها العظمى واسمها أربة فامتنع بها من هناك من الروم والنصارى ، وهرب بعضهم إلى الجبال فاقتتل المسلمون ومن فى المدينة من النصارى عدة دفعات ، ثم انهزم النصارى وقتل من فرسانهم ورحل إلى تاهرت[2] » ورواية النويرى أكثر تفصيلا إذ يقول : « فلما أصبح أمر بالقتال فكانت بينهم حرب حتى يئس المسلمون من الحياة ،

---

(١) يذكرها ابن خلدون أذَنة والنويرى أَرَبَة ورسمها البكرى أَدَنة ، بلد كثير الأنهار والعيون العذبة ، وهناك عين الكتان عين عذبة فى مغارة عليها أربع نخلات ، بينها وبين المسيلة مرحلة ، ولم يذكرها الإدريسى وقد وردت فى بعض النصوص أزبة وربما كانت هذه الصيغة هى الأصح لأن الإقليم كله اسمه الزاب فمعقول أن تكون عاصمته « أزبة » ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٥ — النويرى ، نهاية الأرب ، ص ٧٠ (ب) — البكرى ، وصف إفريقية ، ص ١٤٤ — ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ص ٤٢

(٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ص ٤٢

فأعطاه الله الظفر فانهزم القوم[1] » ويضيف المغربيون تفاصيل لطيفة لا بأس من إثباتها ، إذ يقولون : « إن المسلمين باتوا ليلتهم تلك على حذر وأنهم خافوا أن يأخذهم الأعداء على غرة ، فتواقف القوم الليل كله لا راحة ولا فترة ولا نوم فسماه الناس اليوم وادى سهر لأنهم سهروا عليه ، فلما أصبح عقبة صلى الصبح . .[2] » ويلى ذلك كلام شديد الشبه بكلام ابن الأثير والنويرى .

ربما كان قول ابن الأثير : « فامتنع من بها من الروم والنصارى . . . فاقتتل المسلمون ومن بالمدينة من النصارى[3] » ، كافياً لتعليل هـذه المقاومة الشديدة . الزاب بلاد بربرية كما يفهم من قول ابن خلدون : « وفتح أذنة قاعدة الزاب بعد أن قاتله ملوكها من البربر فهزمهم[4] » فابن الأثير يريد أن يقول فامتنع من بهـا من الروم والبربر النصارى أى الروم وأوربة ومن حالفها ، ومصداق ذلك أن هـذه الناحية إحدى مراكز أوربة ومركز البربر المتأثرين بالحضارة اللاتينية .

بهذا يتضح تماماً أن هذه المقاومة الشديدة كانت مدبرة محكمة ، دبرتها أوربة بإشارة كسيلة و إرشاده ، و بالاتفاق مع الروم الذين أسرعوا لنجدة البربر فى الزاب بعد أن أفلحوا فى رد العرب عن باغاية ولمبيزة ، وربما كانوا يتتبعون عقبة خطوة خطوة ليطمروا الآبار فى طريقه ويكونوا على أهبة الهجوم حينما تسنح الفرصة .

فرغ عقبة من سهل الزاب الخصيب وأخذ يرقى جزءاً من الهضبة قليل الارتفاع كثير الشعاب والوديان والشطوط ، فعبر نهر شلف واتجه إلى تاهرت حيث سارع الحلف الرومى البربرى للوقوف فى وجهه مرة ثالثة ، وكان فى تاهرت حصن بيزنطى قديم ، فلما بلغ الروم خبره استعانوا بالبربر فأعانوهم ونصروهم ، فقام عقبة وخطب

---

(١) النويرى ، نهاية الأرب ، ص ٧٣ (أ) (٢) المالكى ، رياض النفوس ، ص ٨ — الدباغ ، معالم الإيمان ، ج ١ ص ٤٥ بتغيير طفيف فى الألفاظ .

(٣) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ص ٤٢

(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٨٥

الناس وحرضهم على القتال ، فالتقوا واقتتلوا فلم يكن للروم والبربر طاقة بقتالهم فقتلهم قتلا ذريعاً ، وفرق جموع الروم عن المدينة ثم رحل حتى نزل طنجة [١] ، و يبدو من قول ابن الأثير : « إن الأمر اشتد على المسلمين لكثرة العدد [٢] » أن مقاومة البربر والروم اشتدت إلى درجة كبيرة مما يدل على أن جماعاتهم كانت تتسارع لتقف فى وجه المسلمين ، وكلما خلف عقبة حصناً سارع أهله للوقوف مع من أمامه حتى أصبح القتال شديداً عنيفاً ، لا يكاد المسلمون يظفرون منه إلا بنصر قليل ، وربما كان الروم يتراجعون بعد القتال لكى يغرروا بالعرب و يغروهم بالتقدم والتوغل ، فانخدع المسلمون فى حماس الفتح ومضوا فى وجههم لا يكادون يفطنون إلى شيء مما حولهم .

عقبة فى طنجة

انحدر عقبة من الهضبة إلى السهل الساحلى بعد رحيله عن تاهرت وسار ساحلا حتى انتهى إلى طنجة [٣] ، ولا يفسر انتهاؤه إلى هذه المدينة رأساً دون أن يمر بمدينة أخرى من مدائن الساحل مثل باديس ونكور وتطوان ، إلا بأنه اختار الممر الضيق المحصور بين هضبة الريف وجبال الأطلس الوسطى ، لكى يجنب نفسه مشقة المرور بالساحل الملىء بالمدائن الحصينة التى ربما لقى فيها مثل مالقى فى باغاية ولمبيزة وتاهرت .

وجد عقبة على طنجة رجلا تسميه المراجع العربية بيليان ، و يختلف المؤرخون فى حقيقة أمره اختلافا كبيراً . فيذهب ابن الأثير إلى أنه : « بطريق من الروم اسمه بليان [٤] » . و يذهب النويرى إلى أنه : « رجل من الروم فقط [٥] » فى حين يذكر ابن خلدون أنه بربرى و يسميه : « يليان ملك غمارة وصاحب طنجة [٦] »

---

(١) النويرى ، نهاية الأرب ، ورقة ٧٠ (ب)   (٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ص ٤٢

(٣) ذكر الدباغ فى معالم الإيمان أن عقبة فتح تلمسان قبل طنجة وهذا مشكوك فيه — الدباغ ، معالم الإيمان ، ج ١ ص ٤٤   (٤) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ص ٤٢

(٥) النويرى ، نهاية الأرب ، ورقة ٧٠ (ب)   (٦) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٨٥

ويؤكد مؤرخو الأندلس أنه قوطى تجمعه أسباب كثيرة بلذريق ملك قوطة إسبانية[1] ، فلا بد من تحقيق شخصيته لأن له علاقة وثيقة بتاريخ عقبة .

يذكر ابن الأثير أن هذا الرجل أسرع حين اقترب منه عقبة فأهدى هدية حسنة ونزل على حكمه ، ثم سأله عن الأندلس فعظم عليه الأمر ، فسأله عن البربر فقال : « هم كثيرون لا يعلم عددهم إلا الله ، وهم بالسوس الأدنى وهو مغرب طنجة[2] » وعبارة النويرى أوضح وأشد دلالة إذ يقول : « فسأله عن بحر الأندلس فقال له إنه محفوظ لا يرام ، فقال دلنى على رجال البربر والروم ، قال قد تركت الروم خلفك وليس أمامك إلا البربر وفرسانهم ، فقال عقبة وأين موضعهم ؟ قال فى السوس الأدنى وهم قوم ليس لهم دين يأكلون الميتة ويشربون الدم من أنعامهم ، وهم أمثال البهائم يكفرون بالله ولا يعرفونه[3] » ، وهذه أقوال يفهم منها أن الرجل لم يكن بروى ولا ببربرى ، فقد قال لعقبة : « إن الروم وراءه وإن البربر أمامه » . ثم إن تحذيره لعقبة من العبور إلى الأندلس يدل على أنه كان حريصاً على أن يجنب الأندلس شر المسلمين ، ولا يتفق هذا إلا إذا كان هو نفسه من أهل الأندلس وممن يهمهم أمره ، وهذا يؤيد القول بأنه قوطى معين من قبل ملوك القوط فى أسبانيا ، فكان عليه أن يحرس مدخل البلاد ويرد العرب وغيرهم عنها .

وإذا كان هذا الرجل روميا أو بربريا ، فماذا منعه من الاستعانة بالحلف الرومى البربرى الذى أثبت قدرته على صد المسلمين وحماية البلدان منهم ؟ ما الذى حال دون أن يستدعى أجناد الروم وفرسان البربر لمنازلة العرب دون طنجة والاحتماء منهم خلف أسوارها ؟ لقد كان تصرفه مع عقبة ناطقا بأنه غريب عن البلاد لا صلة له برومها أو ببربرها ، وإنما أهمه أن يعرف العرب عن نزول

---

(١) البيان المغرب ، ابن عذارى ، ج ٢ ص ٧ و ٨ (٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ص ٤٢
(٣) النويرى ، نهاية الأرب ، ورقة ٧١ أ و ب

الأندلس فوفق إلى ذلك ، ولو كان الرجل بطريقاً رومياً لكان معه من الجند ما يكفيه مئونة المصانعة والاحتيال ، ولو كان أمير غمارة لما انتظر فى طنجة وعقبة يجتاز بلاد غمارة منذ انحدر إلى السهل بعد رحيله عن تاهرت ، و إذا كان النويرى صادقا فيما روى من وصف يليان للبربر هذا الوصف السيء ، لجاز أن نقطع بأن هذا الرجل لم يكن بربريا غماريا [كما قال ابن خلدون] .

بيد أن تصرف عقبة مع يليان جدير بالنظر ، فقد سارع هذا الرجل حين تسامع بمقدم العرب فأهدى هدية حسنة إلى عقبة وتلطف فى معاملته ، فكان هذا كافياً لينصرف عنه العرب ولا يمسه عقبة بأذى . فهل كان عقبة طالباً لهذه الهدايا الحسنة فقط ، فمن بذلها جاز أن يعفى من قبول الإسلام أو بذل الجزية أو الحرب ؟ أو أن عقبة اكتفى بما بذل هذا الرجل من طاعة إسمية فأعفاه من كل قيد ، وقبل نصيحته وعمل بها ؟ إن الرواية لا تستقيم على هذا النسق ، خصوصاً إذا كان هذا التصرف منسوباً إلى عقبة ، لما نعرف من عدم حفله بالسياسة و بعده عن أساليبها . ثم إن قول ابن الأثير : « إن يليان نزل على حكم عقبة » غير مفهوم على وجه صحيح لأنه لم يحدث فى غير هذه المناسبة أمر كهذا : جيوش إسلامية غازية تقبل على بلاد لتفتحها ، فيقدم ملك هذه البلاد بالهدايا الحسنة والنصيحة الطيبة ، فينصرف عنه المسلمون لا إسلام ولا جزية ولا قتال .

ثم إن الرأى القائل بأن يليان هذا هو نفس يليان صاحب طارق بن زياد بعد ذلك بثلاثين سنة يحتاج هو الآخر إلى ما يعززه .

ربما جاز أن نشك فى وجود هذا الرجل فى ذلك الحين ، وأن نعلل ذكر العرب له بما هو معروف من طريقة العرب فى تسمية الأعلام الأجنبية : فكل من وجد على القسطنطينية هرقل ، وكل من وجد على مصر مقوقس ، وكل من وجد فى إفريقية جرجير ، وكل من أقام فى طنجة يليان ، ولا يبعد أن يكون وجود

يليان صاحب طارق ذا أثر رجعي على الشخص الوهمي الذي وجد على طنجة إذ ذاك ، وقد أنكر وجوده نفر من المؤرخين مثل ماسديو و رومي .

كان على عقبة أن يعود أدراجه بعد ذلك ، وربما كان في استطاعته — لو أنه سار مساحلا — أن يعود إلى القيروان سالماً ، فطريق الساحل مأمون على ما فيه من المدائن والمحارس ، أما الداخل فكثير الشعاب والهضاب والمفاوز التي يخشى الضلال فيها والمكيدة في شعابها ، ولكنه آثر أن يتوجه إلى البربر بعد أن عرف مكانهم فانحدر نحو الجنوب إلى السوس الأدنى .

وصول عقبة إلى المحيط

بين المؤرخين خلاف على الطريق الذي سلكه عقبة حتى أشرف على المحيط الأطلسي ، فيذكر ابن الأثير أنه سار حتى وصل إلى السوس الأقصى ، فقاتل جمعاً عظيما من البربر وسبى منهم سبياً كثيراً وسار حتى بلغ البحر المحيط ، فقال : « يارب[1] » وبهذا لايكون عقبة قد سار إلى الجنوب في السهل الساحلي الغربي ، وإنما عاد أدراجه في السهل الساحلي الشمالي حتى أدرك ماليان[2] ، ومن ثم اتجه شمالا حتى أشرف على البحر الأبيض . أما ابن خلدون فيذكر أن : « يليان دل عقبة على بلد البربر وراءه بالمغرب مثل وليلي عند زرهون و بلاد المصامدة وبلاد السوس ، وكانوا على دين المجوسية ولم يدينوا بالنصرانية ، فسار عقبة وفتح وغنم وسبى وقتل فيهم وانتهى إلى السوس ، وقاتل مسوفة من أهل اللثام وراء السوس ، ووقف على البحر ثم عاد راجعاً[3] » أي أن عقبة انحدر إلى الجنوب وراء السوس ، ولا يعرف بالضبط ما أراده ابن خلدون من قوله : « وراء السوس » ، أأراد غربه أم جنوبه ؟ الراجح الغرب ، لأن عقبة أشرف منه على المحيط ، وهنا يغلب

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٢ .

(٢) ذكر فانيان في تعقيبه على ترجمة ابن الأثير « ماليان » ولم أجد هذا الاسم في مرجع آخر ، ولا يذكره النويري .

(٣) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٨٦ .

أنه مرّ بوليلى ثم انحرف من عنـدها إلى المحيط . أما النويرى فلا يحدد شيئاً، وإنما يقول عبارة مبهمة يفهم منها أن عقبة اتجه إلى الجنوب ثم انحرف إلى الغرب حيث أشرف على المحيط ، فدخل فيه حتى بلغ الماء صدر فرسه ورفع يده إلى السماء وقال : « يا رب لولا هذا البحر المحيط لمضيت فى البلاد إلى ملك ذى القرنين[1] ، مدافعاً عن دينك ومقاتلا من كفر بك وعبد غيرك[2] » .

ومهما يكن من اختلاف هذه الروايات فقد أشرف عقبـة بجنده على المحيط الأطلسى ، بل أوقف فرسه فى مياهه وأسف لعجزه عن اجتيازه ، ثم انقلب بعد ذلك عائداً أدراجه ليعود إلى القيروان دون أن يترك بأى ناحية من بها أثراً يذكر .

عقبة وكسيلة

يبدو أن عقبة كان يخشى أن يسعى أبو المهاجر للغدر به ، وكان هذا مكبلا بالحديد كالأسير فى جيشه ينتقل به من مكان إلى مكان ، فكان عاجزاً بذلك عن الانتقام وإن فكر فيه ، فخشى عقبـة أن يسعى ليثأر منه مستعيناً بكسيلة وقومه ، فسارع بحبس هـذا الأخير فساء ذلك أبا المهـاجر ، لا لأنه حال بينه وبين الانتقام وإنمـا لأنه رأى عقبة يرتكب بهذا العمـل خطأ سياسيا كبيراً . وقد سبق بيان سياسة أبى المهاجر التى كانت ترمى إلى تقريب البربر إليـه وكسبهم بالمودة وحسن المعاملة ، فلمـا رأى عقبة يفعل هذا فزع وخشى العاقبـة وتقدم ينصحه وقال : « ما هذا الذى صنعت ؟ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستألف جبابرة العرب كالأقرع بن حابس التميمى وعيينة بن حصن ، وأنت تجىء إلى رجل هو خيار قومه فى دار عزه قريب عهد بالكفر فتفسد قلبـه ! توثق من الرجل فإنى أخاف فتكه[3] » فكانت نصيحة أبى المهـاجر توكيداً لشكوك

(١) المالكى ، رياض النفوس ، ورقة ٨ (٢) النويرى ، نهاية الأرب ، ص ٧١ ب —
(٣) المالكى ، رياض النفوس ، ورقة ٩

عقبة فبالغ فى تحقير كسيلة والنيل منه ، ليؤكد لأبى المهاجر أنه لا يخشى البربر ولا غدرهم وليسفه رأيه وسياسته فى تقريب أهل البلاد ومصانعتهم .

ظل كسيلة أسيراً فى جيش عقبة يلقى من المهانة شيئاً كثيراً ، وربما بالغ المؤرخون فى تصوير الأساليب التى كان عقبة يلجأ إليها للنيل من الزعيم البربرى ، فيتفقون على ما رواه ابن الأثير من أن عقبة : « أتى بغنم فأمر كسيلة بذبحها وسلخها مع السالخين ، فقال كسيلة : « هؤلاء فتيانى وغلمانى يكفوننى المئونة » فشتمه وأمره بسلخها ، ففعل[1] » ، لأن مثل هذا الأمر إذا صدر عن عقبة كان دليل فساد فى رأيه وميل شديد للاستبداد الغاشم ، وهى صفات ننزه عنها عقبة ونستبعد اتصافه بها مهما كان من جهله بشئون السياسة وأساليبها . وإنما يغلب على الظن أن عقبة أهمل أمر الرجل وازدراه ، ولم يضعه فى الموضع الذى كان أبو المهاجر يضعه فيه ، فنال هذا من نفس كسيلة وآذاه خصوصاً وأنه رجل شريف فى قومه عظيم المنزلة بين البربر والمسلمين جميعاً . ومصداق هذا الرأى أن كسيلة استطاع أن يفر دون أن يشعر به عقبة ، ولو كان هذا الأخير كبله بالحديد واهتم بالنيل منه وركوبه بالسخر والإساءة فى كل حين لما استطاع أن يفر دون علمه ، فأما وقد أهمله وأبعده عن مجلسه وازدراه فقد كان من السهل عليه الهروب إلى قومه لتدبير المؤامرة معهم ، فظل الرجل فى جيش عقبة حيناً ، ثم غادره دون أن يهتم عقبة لذلك أو يفزع منه[2] ، وآية ذلك أن أبا المهاجر ساءه من عقبة إهماله الرجل وعدم حذره منه وقال لعقبة : « توثق من الرجل فإنى أخاف فتكه[3] » فزاد عقبة تهاونا ،

---

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٣ ، وابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٨٦ ، وأبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ١٨٥ والنويرى ، نهاية الأرب ، ص ٧٢ أ

(٢) ويفهم من قول ابن خلدون : « فانتهز فيه الفرصة وأرسل للبربر فاعترضوا عليه فى تهودة » أن كسيلة كان يتغافل عقبة ليراسل أهله — ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٨٦

(٣) المالكى ، رياض النفوس ، ورقة ٩

فلبث كسيلة فى جيشه زمانا يرقب الأمر ثم فر هاربا ، فكان هربه إيذانا بثورة البربر ، وفى هذا يقول المالكى : « فلما انصرف نكث البربر ما كانوا عليه[1] » .

واستمر عقبة فى طريقه يجتاح بلاد البربر وينزل بها من الأذى شيئاً كثيراً ، فأفزعها ذلك ودفع بأهلها إلى التفكير فى الانتقام ، وشجعهم عليه قلة من مع عقبة من الجند وإهماله ما ينبغى اتخاذه من الحذر والحيطة فى مثل غزوته تلك ، وأقبل الروم فشدوا أزرهم وعقد الحيان الخناصر على القضاء على ما بنى المسلمون فى إفريقية ، وأنشأ كسيلة يتصل بهم ويرشدهم إلى ما يجب اتباعه ، ويؤيد هذا ابن الأثير الذى يذهب إلى أن الروم كانوا يراسلون كسيلة . « فسعى هذا حتى جمع أهله وبنى عمه وقصد عقبة[2] » .

إذا جاز أن نحكم بما يفهم إجمالا من رواية ابن عبد الحكم الثانية التى سبقت الإشارة إليها ، لصح القول بأن كسيلة فر فى وقت مبكر جداً أى قبل وصول عقبة إلى طنجة ، لأن ابن الكاهنة (أى كسيلة) كان يتعقبه ويردم الآبار خلفه ليقطع عليه سبيل العودة . وإذا لم يصح الأخذ بها كان كسيلة قد فر من جيش عقبة بعد ارتداده من السوس وعوده إلى إفريقية .

عود عقبة

يغلب أن عقبة اتخذ فى عوده طريق السهل المتوسط ، فسلك وادى سَبوا ووادى ملوية حتى أدرك الهضبة ، فمضى شمال شط هدنة حتى أدرك مدينة طُبنة ، ويبدو أنه كان مسرعاً فى عودته لأنه لم يقاتل أحداً فى رجوعه ولم يمل إلى حصار بلد مما مر به ، وربما كان سبب هذا الإسراع بدء إحساسه بما كان الروم

---

(١) المالكى ، رياض النفوس ، ورقة ٩ نفس المصدر والصفحة .

(٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٣ ويفهم من نص عبارته : « وراء الروم قلة ممن مع عقبة فأرسلوا إلى كسيلة وأعلموه حاله ، وكان فى عسكر عقبة مضمراً بالغدر وقد أعلم الروم ذلك وأطمعهم ، فلما راسلوه أظهر ما كان يضمره وجمع أهله وبنى عمه وقصد عقبة » .

والبربر يدبرونه له ، وربما أحس من فساد الماء فى طريقه بشىء من المكيدة المدبرة فآثر العودة مسرعاً ، ويؤيد ذلك ماتتفق عليه المراجع من أن عقبة أذن لبعض فرق جنده فى أن تسرع إلى القيروان بعد وصوله طبنة ، مما يدل على أن الجيش كله كان شديد الرغبة فى الإسراع بالعودة ، فأخذوا يتسابقون فى إدراك القيروان ، وأذن لهم عقبة فى ذلك لأنه وجد الطريق خالياً أمامه لأن أهل البلاد — ممن لم يأتمروا مع المؤتمرين — كان قد أفزعهم مانزل بهم على يد عقبة فى مسيره الأول ، فأفسحوا له طريق الرجعى .

أسرع البربر والروم بالعمل بعد إذ أدرك عقبة طبنة ، فقد سنحت الفرصة لذلك بانصراف أكثر جنده وبقائه فى نفر قليل ، وخافوا إن هم تركوه بعد ذلك أن يدرك القيروان أو يكون على مقربة منها فيمكنه الاستعانة بمن فيها ، ويغلب أن يكون من انصرف من جند عقبة قد اتجه إلى الشرق فى طريق تمجاد مثلا ، فحرص البربر والروم على أن ينحرفوا بعقبة عن ذلك الطريق ، فحاولوا أن يجذبوه إلى الجنوب الغربي فى اتجاه تهودة ، حتى لا يستطيع جنده العثور عليه إذا هو استنجد بهم أو يعجز عن اللحاق بهم إذا طلبهم وجد فى أثرهم .

يذكر ابن الأثير أن أبا المهاجر قال لعقبة حين رأى تحفز كسيلة ومسيره نحو المسلمين : «عاجله قبل أن يقوى جمعه»[1] ، ثم يقول : «فزحف عقبة ، فتنحى كسيلة عن طريقه ليكثر جمعه[2] » أى أن كسيلة انحرف عن طريق عقبة ، وتراجع أمامه حتى وصل أمام حصن رومى قديم عند تهودة ، كان الروم قد عسكروا فيه وتحفزوا

---

(١) كان موقف أبى المهاجر طوال حملة عقبة مما يستدعى الإعجاب ، فإن المراجع كلها تؤكد إلحاحه فى نصح عقبة والإخلاص للمسلمين مما يبرئه تمام التبرئة من جريمة إهانة عقبة الأولى ، ومما يؤكد أنه كان مسلماً مخلصاً متفانياً واسع الإدراك صادق الفهم ، ومن هنا لا محل لقول المالكى : « وقيل إن كسيلة إنما أتى ناصراً لأبى المهاجر » مما يفهم منه أن أبا المهاجر كان عضواً فى الحلف البربرى الرومى وشريكا فى المؤامرة على عقبة وهذا غير صحيح — المالكى ، رياض النفوس ، ص ٨

(٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٣

للقاء عقبة عنده واجتهد الروم فى اجتذابه إلى حصنهم ، وطمعوا فيه وأغلقوا أبواب حصونهم دونه وشتموه ورموه بالنبل والحجارة ، وهو يدعوهم إلى الله عز وجل[1] ، وقد أوضح النويرى خطة كسيلة وأحلافه بقوله : « فزحف عقبة إلى كسيلة فتنحى عنه ، فقال البربر له ، لم (تتنحى) من بين يديه ونحن فى خمسة آلاف ؟ فقال إنكم كل يوم فى زيادة وهو فى نقصان ، ومدد الرجل قد افترق عنه فإذا طلب إفريقية زحفت إليه[2] » ، مما يفهم منه أن جموعاً من البربر كانت تهرع إلى صفوف كسيلة كل يوم ، فيزداد جنده بينما جند عقبة فى نقص ، وقد انقطع طريق الإمداد إليه بانحرافه نحو تهودة وأصبح من العسير وصول شىء إليه .

واقعة تهودة

دارت الموقعة الأخيرة على مقربة من تهودة ، وأدرك عقبة وأصحابه أنهم هالكون لا محالة ، واحتاط بهم الأعداء ولم يبق لهم مهرب ، فرحب عقبة وأصحابه بالموت واستقبلوه فى شجاعة جديرة بالذكر والإعجاب ، وجعلوا يتنازعون فخر الاستشهاد ، فلما رأى أبو المهاجر ذلك تمثل بقول أبى محجن الثقفى :

« كفى حزناً أن ترتدى الخيل بالقنا ... وأترك مشدوداً على وثاقيه
إذا قمت عنانى الحديد وأغلقت ... مصارع من دونى تصم المناديه[3] »

فبلغ عقبة ذلك فأطلقه فقال له : « إلحق بالمسلمين وقم بأمرهم . وأنا أغتنم الشهادة » ، فلم يفعل وقال : « وأنا أيضاً أريد الشهادة ! فكسر عقبة والمسلمون أجفان سيوفهم وتقدموا إلى البربر وقاتلوهم ، فقتل المسلمون جميعهم ولم يفلت منهم أحد ، وأسر محمد بن أوس الأنصارى ، فخلصهم صاحب قفصة وبعث بهم إلى القيروان[4] » ، وهكذا كانت خاتمة عقبة وأصحابه استشهاداً جليلا خلد ذكرهم

(١) النويرى ، نهاية الأرب ، ص ٧٢ أ (٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) أخطأ المالكى فى رواية البيت الأول فقال : « أليس عظيما أن تقرع الخيل بالقنا ... الخ » المالكى ، رياض النفوس ، ص ٩
(٤) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٣ — وقد ذكر المالكى أن الأعداء أحاطوا =

فى هذه البلاد ، وزادته الأقاصيص الكثيرة التى نسبت إلى عقبة جلالاً فاجتمع منها فى ذهن الناس « عقبة أسطورى » آخر غير الذى نعرفه فى التاريخ .

ما الذى نفهمه من قول ابن الأثير : « إن صاحب قفصة سعى لخلاص من أسر من المسلمين وردهم إلى القيروان ؟ » لقد أيد كثير من المؤرخين قوله هذا وزاد بعضهم فسمى صاحب قفصة هذا ابن مصاد[1] ، وإذا أضفنا إلى ذلك ما يذكره السلاوى من أن عقبة حين وصل إلى جبل درن : « نهضت زناتة وكانت خالصة للمسلمين منذ إسلام مغراوة » وقوله : « إن عقبة أثخن فى المصامدة حتى حملهم على طاعة الإسلام[2] » تكونت لدينا صورة واضحة بعض الوضوح عن نشوء جماعات بربرية إسلامية ، أو تميل إلى المسلمين على الأقل فى ذلك الحين ، وأن هذه الجماعات لم تكن قليلة وإنما كانت كثيرة نوعا ، فيها بعض زناتة وبعض نفوسة وبعض مصمودة . وإذا لوحظ أن هذه القبائل التى بدأت تدخل الإسلام أو تميل إليه من ذلك الحين كانت تسكن الجنوب فتدخل فيها برغواطة[3] وزناتة[4] ونفوسة[5] ، كان من السهل تكوين فكرة عن بدء إسلام إفريقية الفعلى

= بعقبة من المساء وأن اللقاء والاستشهاد كانا فى صبيحة اليوم التالى — المالكى ، رياض النفوس ، ص ٩ — الدباغ ، معالم الإيمان ، ج ١ ، ص ٤٨

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٨٦ — أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ١٥٩

(٢) السلاوى ، الاستقصاء ، ص ٣٨ — ويفهم من ذلك أن بعض زناتة ومغراوة كانتا قد أسلمتا منذ زمن لأنهما نهضتا للدفاع عن المسلمين .

(٣) ذكر السلاوى أن عقبة : « أثخن فى المصامدة حتى حملهم على طاعة الإسلام » أى أن نفراً منهم اعتنق الإسلام على يديه ، وقد قال ابن خلدون مؤيداً ذلك وموضحاً له : « وكان التقدم فيهم — أى فى المصامدة — قبيل الإسلام وصدره لبرغواطة ، ثم سار التقدم بعد ذلك لمصامدة جبل درن » أى أن هاتين القبيلتين كانتا أول قبائل المصامدة إسلاماً ، ومساكن القبيلتين فى الجنوب : إحداهما بين السوس الأدنى والأقصى (برغواطة) والأخرى جنوب الأطلس المتوسط - السلاوى ، الاستقصاء ، ص ٣٨ — ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٢٠٦

(٤) مساكن زناتة جنوبى المنطقة التى تلى الأوراس ويمتدون حتى الأطلس الأدنى وهم بدو .

(٥) سبقت الإشارة إلى أن نفراً من نفوسة أسلم على يدى عقبة فى بعثه الأول سنة ٤٣ هـ =

واتجاهه : بدأ عند القبائل الجنوبيـــة الكثيرة الشبه بالعرب التي تميل للرحـلة وتحيا حياة مشطورة بين الظعن والإقامة ، ثم أخذ يمتـــد إلى الشمال شيئاً فشيئاً كما سيرى ، وواضح جداً أن سبب انصراف القبائل الشمالية عن الإسلام ونهوضها لمقاومته وقيادتها حركة العـداء راجع إلى أن أغلبهـا كان مسيحياً أو مسيحى الصبغة ، أى أن جواره للاتين والروم جعل بينه و بين النصرانية بعض الأسباب ، ثم إن هذه القبائل — إلى ذلك — كانت متأثرة إلى حد بعيد بالحضارة البيزنطية ، وكان البيزنطيون على جانب من القوة ما يزالون ، فصعب على المسلمين اجتذاب أهل هذه القبائل فى أول الأمر ، وكان لا بد لكسبهم من القضاء التام على كل أثر للروم وللتفكير اللاتينى من شريط السـاحل ، حتى ينقطع هـذا المدد الذى كان يقوى أهل هذه القبائل وحتى يمكن الإسلام أن يجتذبهم إليه .

و إذا جاز اتباع التقسيم الاصطلاحى الذى اتبعه مؤرخو البربر — وفى مقدمتهم ابن خلدون — فى جعل البربر طائفتين : طائفة البتر وطائفة البرانس ، لصح القول بأن البتر كانوا أول إسلاماً لأن نفوسة ولواتة وزناتة كلها بترية ، وأن البرانس ظلوا على المقاومة زماناً طويلا ، لأن الروم كانوا يمدونهم بالعون ، وقد لاحظنا أن حركة المقاومة قادها قائد البرانس إذ ذاك كسيلة بن لمزم الأوربى البرنسى ، وسيظل على قيادتها حتى يقضى عليه زهير فتتولى القيادة بعده الكاهنة ، وهى و إن كانت بترية من جراوة ، إلا أنها هى نفسها كانت شديدة الصلة بالروم إذ كان لهـا زوج رومى (إغريقى) أولدها أحد ابنيها اللذين سيأتى ذكرهما .

لهذا لم يكن موت عقبة وأصحـابه بقاض على كل أثر للمسلمين فيما فتحوه من البلاد ولكنه كان قاضياً على بعض الأثر السياسى ، لأن عمل عقبة لم يكن

= وأنه أخذ معه من أسلم منهم حين أمره معاوية بالمسير سنة ٥٠ هـ ، وكانت طائفة أخرى من نفوسة تسكن شمال شط الجريد ، وهذا إقليم تتوسطه قفصة مما يدل على أن ابن مصاد صاحبها سعى لخلاص المسلمين لأنه كان مسلماً — ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ١١٤

سياسياً و إنما كان دينياً ، وقد لاحظنا إسلام نفر كبير من البربر حين رأوا بناءه القيروان وطرده الحيات ، ولا بد أن نفراً كبيراً منهم كذلك كان يتبعه فى مسيره فى البلاد و يسلم و ينقل أخباره إلى طوائف البربر فيسلمون أو يميلون إلى الإسلام ، حتى إذا كان استشهاده اهتزت له البلاد كلها وأصبحت « ناراً » كما يقول المالكى ، وترامت أنباء هذه الفاجعة وما أظهره عقبة والمسلمون فيها من الشجاعة والتضحية فى سبيل الله ، فبدأت نفوس أهل البلاد تهوى إلى الإسلام شيئاً فشيئاً ، ومن هنا لا نخطىء إذا قلنا إن عمل عقبة كان نجاحاً من الناحية الدينية و إن كان فشلا من الناحية السياسية .

نترك ذكر حياة عقبة ومغامراته وأعماله واستشهاده تنتقل على ألسن أهل البلاد ، ويضيفون إليها ما تبتكره أخيلتهم ويتذكرونها بين الدهش والإعجاب ، لنتركها تختمر فى نفوسهم ولنخلف ذكراها راقدة فى أذهانهم لنعود إليها بعد حين .

* * *

ماذا أراد عقبة من حملته الكبرى ؟ وما هى الخطة التى رسمها لنفسه لإدراك ما أراد ؟ سؤالان لا جواب عليهما ، لأن الواضح أن الرجل لم يكن يرمى إلى غاية معينة ، وربما كان هذا موضع نقد شديد لو أن الذى فعل ذلك امرءاً آخر غير عقبة . فقد مضى دور المحاولات والمقدمات وكان لا بد لكل من يتولى قيادة الفتح فى إفريقية أن تكون له الخطة المرسومة . أما عقبة فالأمر معه على خلاف ذلك ، فلم يكن الرجل من أصحاب السياسات المرسومة المدبرة ولا الغايات البعيدة ، و إنما كان ولياً من أولياء الله كما تصفه المراجع وكما كان أصحابه يسمونه . وماذا يرجى من ولى الله إلا أن يمضى فى طريقه متوكلا على خالقه لا غرض له إلا محاربة المشركين والتماس الشهادة فى سبيل الدين ؟ بل لم يكن نشر الإسلام غاية واضحة فى ذهن عقبة ، إذ لو كان يطلب هذا فليست تلك هى السبيل التى تؤدى إلى إدراك

هذه الغاية ، إنما تدرك بالوقوف بكل قوم و بلد وعرض الإسلام ، وتخيير الناس بينه و بين الحرب والجزية ، فإن أبوا كانت الحرب . هكذا كان الفاتحون فى الشام ومصر يفعلون ، بل هكذا فعل عبد الله بن سعد مع جرجير . أما عقبة فكان ينقض على المدائن محارباً مقاتلا و يلبث على ذلك فترة ثم ينصرف دون أن ينتهى مع أهل البلد إلى شيء معلوم . بل لو كان يرجو نشر الإسلام لخلف فيما مرّ به من البلاد نفراً يعلم أهله الإسلام . أما هذه التحايا الحربية التى دأب على توزيعها طوال مسيره ، وهذا التمادى فى المسير والمجازفة فى التوغل والوقوف بالمحيط ، والأسف على العجز عن الاسترسال فى الفتح فأمور لا معنى لها ولا غناء فيها ، ولو لم تكن قد انتهت بمأساة تهودة لكانت عاقبتها أوخم على عقبة . إذ ماذا يكون جوابه لو سأله الخليفة ماذا فعلت ؟ وماذا جنيت من تضحيتك هذه الآلاف من الجند التى سارت معك ؟ إنما كان عقبة شديد الشبه بفرسان الصليبيين الذين كانوا يخرجون من دورهم و يعبرون البحر إلى غير غاية معلومة ، فما يدرى أحدهم أخلاص بيت المقدس أراد أم مجرد قتال المسلمين أم كسب الثروة والعودة بالمال !

بل لم يكن عقبة بالقائد الماهر أو المحارب ذى الشأن ، فليس هناك قائد واحد يسترسل هذا الاسترسال دون أن يؤمن ظهره وخط رجعته تاركاً أعداءه متحصنين خلف ظهره . وليس بالقائد الماهر من يستمع نصيحة رجل من أعدائه دون تبصر أو حذر كما فعل عقبة ، فسهل على أعدائه اجتذابه إلى خانق ضيق بين طبنة وتهودة والايقاع به والقضاء عليه فى سهولة و يسر .

وكم كان المؤرخون موفقين فى صياغة الخطب التى نسبوها لعقبة قبل نزوله الميدان ، إذ ليست فيها إشارة واحدة إلى خطة القتال أو مكيدة الحرب ، و إنما هى مواعظ حسنة فيها حث على أخذ العلم عن آله وتحذير من الاستماع إلى المنافقين الذين يدعون العلم ليغرروا بالناس ، والنصح بمجانبة الدَّين حفظاً للكرامة وغير ذلك

مما هو أليق بالأولياء والوعاظ منه بالقادة أو الساسة ، لأن عقبة كان فى نظرهم ولياً واعظاً متديناً لا قائداً سياسياً ، وتلك هى الصورة الصحيحة التى ينبغى أخذها عن عقبة بن نافع ، ولا بد من مراعاتها فى تتبع أعماله ودراستها ولا يمكن فهمها بغير ذلك .

ويبدو أن الرجل كان يخشى أن يفاجأ بعزل جديد فعجل بإنفاذ ما أراد دون تريث أو إبطاء ، ولهذا كان لا يكاد يحاصر بلداً حتى ينصرف عنه إلى غيره حتى انتهى إلى أقصى البلاد . ولا يخطىء كذلك من يقول إن الحقد على أبى المهاجر والرغبة فى التقليل من شأنه كانا بعض ما أضل سبيله ، فقد وصل أبو المهاجر إلى تلمسان فكان لابد لعقبة من الوصول إلى أبعد من تلمسان . ولا يبعد أن يكون قد عيب عليه ما أنفق من الوقت فى حملته الأولى دون فتح كبير ، فعول هذه المرة على أن يفتتح الفتح الذى لن يأتي بمثله أحد من بعده ، فيصل إلى المحيط ويقحم فرسه فى مائه ويشهد الله على أن الاسترسال إلى أبعد من ذلك محال .

وقد كان كسيلة بيد عقبة ما كان قيرس بيد عمرو ، كلاهما سيد فى قومه عظيم المهابة فيهم شديد الإجلال للعرب وثيق الصلة بالروم . وقد أفاد عمرو من قيرس ما نعرف وجنى من صداقته ومصانعته أعظم الغنم . وكان عقبة يستطيع أن يفوز من كسيلة بأعظم من هذا لو كانت له سياسة عمرو ، ولكن الحقد أضله فى هذا الأمر ونأى به عن الصواب ، فأخذ كسيلة بجريرة أبى المهاجر فتغير قلب الرجل على العرب والإسلام ، وكان الرجل على صلة بآله فتغيروا هم الآخرون على العرب والإسلام ، وانقلبوا فأصبحوا أنصار الروم . وبهذا فسد ما كان قد أثمر من جهود الفاتحين قبله ، وأصبح المسلمون فى نظر أهل هذه البلاد طلاب غنم ودماء ، يحبون الحرب للغنيمة والظفر ، فكان ذلك وخيم العاقبة

على مسير الفتوح راح عقبة ضحيته واستنفذ جهود فاتحين عظيمين هما زهير وحسان .

كان عقبة قد خلف على القيروان حامية صغيرة ذكر ابن عبد الحكم أن عدتها كانت خمسة آلاف رجل على رأسهم زهير بن قيس البلوى[1] ، فلما وصلته أخبار مذبحة تهودة عزم على القتال وأخذ يتأهب له ، ولكن الظاهر أن أخبار تهودة أفزعت نفراً كبيراً من الجند فمالوا إلى العودة ، والغالب كذلك أن إجهاد عقبة لهم بهذا الغزو الطويل كان قد أسأمهم ، وجعلهم عاجزين عن القيام بأى عمل آخر فترة من الزمان . وجاءت فاجعة تهودة فأضافت الفزع إلى الإجهاد وجعلتهم يميلون إلى العودة ميلا شديداً ، وكان على رأس هؤلاء الراغبين فى العودة حنش الصنعانى الذى كان دينار قد أرسله إلى جزيرة شريك[2] ، فخالف زهيراً وعاد إلى مصر فتبعه أكثر الناس ، فاضطر زهير إلى العودة معهم فسار إلى برقة وأقام بها . وأما كسيلة : «فاجتمع إليه جمع أهل إفريقية وقصد إفريقية (يريد القيروان) ، وبها أصحاب الأثقال والذرارى من المسلمين فطلبوا الأمان من كسيلة فآمنهم ، ودخل القيروانى واستولى على إفريقية وأقام بها إلى أن قوى أمر عبد الملك ابن مروان ، فاستعمل على إفريقية زهير بن قيس البلوى وكان مقيما ببرقة مرابطا[3] » .

---

(١) يذهب ليفى بروفنسال إلى أن زهيراً لم يبق على القيروان وإنما سار على رأس طليعة فتقدم عقبة فى حملته الكبرى وليس هناك مايؤيد ذلك . مقال عقبة — أنظر د . م . إ

(٢) المالكى ، رياض النفوس ، ص ٩

(٣) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص٤٣ — وقد روى الباجى لزهيرخطبة فى استنهاض الناس فى تلك المناسبة وربما كانت موضوعة — الخلاصة النقية ، ص ٦ — وقد جاء فى النجوم الزاهرة : « جيش الصفانى » وهذا خطأ طبعاً ، ثم قال بعد ذلك إن حنشاً حين هم بالقفول إلى مصر : « تبعه أكثر الناس من العساكر المصرية من جند سعيد حاكم مصر » مما يؤيد القول بأن عقبة إنما سار إلى إفريقية بعد موت مسلمة وولاية سعيد فبعث هذا معه بنفر من الجند ، والمراد بالمصريين هنا هم العرب النازلون بمصر — أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ١٥٩

كسيلة
في القيروان

آمن كسيلة من بقي بإفريقية من المسلمين ، وهـذا يدل على أنهم لم يكونوا كلهم من العرب. وإنما كان فيهم نفر كبير من أهل البلاد لم يرحلوا مع العرب ، فكان كسيلة مضطراً إلى منحهم الأمان. لأن لهم قبائلهم القوية التي ربما ثارت عليـه إذا هو مسهم بأذى ، وهذا هو السبب في بقاء مسلمي إفريقيـة — العرب منهم وغير العرب— بخير حتى عود جنود المسلمين لفتح البلاد مرة أخرى. ولو كان هؤلاء المسلمون الذين بقوا في البلاد— بعد رحيل زهير— كلهم من العرب لما توانى كسيلة عن قتلهم والقضاء عليهم كما قضى على إخوانهم في تهودة لأنه كان مسيراً برأي أحلافه من الروم. أما وفيهم نفر كبير من أهل البلاد : بعضهم من نفوسـة وبعضهم من أهل درن وبعضهم من زناتة ، فلم يكن له بد من أن يؤامنهم ليكسب ودهم وطاعتهم في هذا الظرف العصيب[1] .

كان ارتداد زهير إلى برقة « هزيمة إلى مصر » كما قال ابن حيان الحضرمي أحد أصحاب زهير ، فقد خرجت إفريقية عن أيدي العرب مرة أخرى وحكمها كسيلة البربري النصراني ، فكان لا بد من فتحها من جديد ، ولكن فرق بين ارتداد زهير اليوم وارتداد عبد الله بن سعد بالأمس ، فعلى الرغم من أن ابن أبي سرح ارتد منتصراً وأن زهيراً ارتد منهزما ، وعلى الرغم من هـذا الفرق الجوهري بين الحالين ، فإن ابن أبي سرح ارتد عن بلاد كان هو معتدياً عليها ولا شيء له فيها ، أما زهير فارتد عن بلاد للمسلمين فيهـا قيروان ومساجد وحقوق كسب بعضها بمعاهدات ثابتة ، ولهم فيها طوائف كبيرة من المسلمين أو ممن يميل كل الميل

---

(١) ويبدو أن م كسيلة كان منصرفاً — بعـد دخوله القيروان — إلى تأمين إفريقيـة من العرب ، فذكر ابن عبد الحكم أنه أرسل جنداً وصلوا باب قابس وأنه جعل يرسل أجناده في كل وجه ليقضوا على كل أثر لجند العرب . « ثم سار كسيلة ومن معه حتى نزلوا الموضع الذي كان عقبة اختطه فأقام به ، وقهر من قرب من باب قابس وما يليه ، وجعل يبعث أصحابه في كل وجه »

إلى عودة المسلمين ، أى أن المسلمين ارتدوا عن بلاد هى لهم . و بينما كان عبد الله ابن سعد حراً فى أن يعود أو لا يعود إلى إفريقية ، فإن زهيراً كان لا بد أن يعود ليستعيد ما فقد من أرض إسلامية وليستنقذ القيروان وليخلص الشعب الإفريقى الإسلامى الناشىء من يد مستبد ككسيلة .

و يفهم من قول المالكى عن كسيلة : « وزحف على القيروان فانقلبت إفريقية ناراً [1] » ، أن ثورة عظيمة شملت البلاد بأسرها بعد انصراف المسلمين وسقوط القيروان فى يد كسيلة ، فكيف نعلل هذه الثورة إلا بأنه كان فى إفريقية فى ذلك الحين نفر عظيم لم يرضهم سقوط القيروان فى يد كسيلة فأثارهم ذلك وثارت المنازعات بينهم و بين أنصاره ؟ ومن يكون هؤلاء الذين ثاروا تلك الثورة إلا بر براً مسلمين أو أنصاراً للمسلمين ؟ ذلك أن كل جند العرب قد عادوا إلى برقة مع زهير ، فكان أولى بإفريقية أن يهدأ حالها بعد انصراف المسلمين منها وخلاصها للبربر والروم .

(١) المالكى ، رياض النفوس ، ص ٩

الباب السابع

تمـام الفتح

— ١ —

حملة زهير بن قيس البلوى على إفريقية

إفريقية بعد تهودة

ارتدّ المسلمون بعد « تهودة » إلى برقة ، وسقطت القيروان فى يد البربر ، وقام فى سهل تونس شبه دولة بربرية مسيحية ، وبهذا خيِّل للرائى أن كل أثر للمسلمين قد امحى من البلاد ، فعادت سيرتها الأولى كأن لم تمسسها أقدامهم ، وأكد ذلك فورنل بقوله : « وهكذا بعد أن أريق كل هذا الدم العربى مدى سبع وثلاثين سنة ، أصبح البربر سادة لإفريقية والقيروان نفسها[1] » . أى أن دولة بربرية قوية قامت محل العرب وحكمت إفريقية من برقة إلى المحيط ، وهى دعوى ظاهرة الخطأ قال الأستاذ كودل فى مناقشتها : « إلى هذه الغاية يريد المؤلف أن ينتهى ، لقد انتصرت نظريته المحببة إليه[2] — فيما يبدو — انتصاراً لا يقبل مناقشة ولا جدالا : أصبح البربر سادة فى القيروان ! وهذا هو الواقع ، ولكنه فى رأى فورنل فتح عظيم لا مجرد معسكر أقامه جماعة من اللصوص وأسَّسُوه تأسيساً واهياً على قدر ما يسمح الفن الحربى البربرى ، بلغ من ضعف تحصينه أن أصحابه اضطروا إلى التخلى عنه عندما تهدده الأعداء أول مرة . . . أإذا كان البربر فى القيروان قيل إنهم أصبحوا سادة إفريقية ؟ بالطبع لا . لقد خُدع فورنل هنا بأقوال رواة العرب ، فهؤلاء لا يفهمون من موت عقبة فى تهودة إلا أن إفريقية قد ضاعت من المسلمين وأصبح كسيلة سيدها وصاحبها[3] » . ثم يقول بعد ذلك بقليل فى وصف حكومة كسيلة التى أقامها فى القيروان : « لم تكن هناك حكومة ولا يستطيع المرء أن يقول إن البلاد — التى حكمها جرجير من قبل ونهبها العرب مراراً عديدة — أصبحت اليوم محكومة بسلطان كسيلة ، لأن هذا الأخير لم يفعل

(١) Fournel, op. cit, I. p. 181

(٢) ألف فورنل كتابه للدفاع عن البربر وإظهار أنهم خير من العرب وسادة لهم ، وحاول أن يبرهن فى كل صفحة من صفحاته على أن العرب إن هم إلا لصوص ، لا يحفلون إلا السلب والنهب ، وتلك هى النظرية المحبوبة التى سخر منها كودل فى هذا التعليق — أنظر صفحة ١٤١ من هذه الرسالة .

(٣) Caudel, op. cit. II. p. 141

أكثر من احتلالها ، وهذا أمر يختلف عن الحكم تمام الاختلاف ، فلم يزد الأمر على أن حلت القبيلة البربرية محل جموع العرب ، وضربت خيامها جوار العيون التى كان العرب يستقون منها . . . فلم يكن كسيلة يحكم بالمعنى الذى نفهمه من هذه الكلمة ، إذ لو كان يحكم حقاً لتوقع عود العرب ولاتخذ العدة لذلك ، وسترى أن شيئاً من ذلك لم يكن[1] » أصاب كودل فى مناقشة فورنل ، ووفق إلى وصف حكومة كسيلة وصفاً قريباً من الحقيقة ، ولكن غابت عنه أمور أخرى على جانب عظيم من الخطورة والأهمية ، وهى الآثار التى خلفها العرب فى البلاد بعد هذه الحملات الكثيرة .

أنصار العرب من أهل البلاد

سبقت الإشارة إلى ما كان من مناصرة بعض قبائل البربر للعرب وانضمامهم لهم ، وما كان من دخول بعضهم فى الإسلام ، وسبق القول بأن أغلب هؤلاء الأنصار كانوا من بربر الجنوب لا من بربر الشمال أو من قبائل الأوراس أو من نواحى مرطانية ، أى أنهم كانوا من قبائل البدو من أمثال نفوسة ولواتة وبعض زناتة ونفر من برغواطة ، وأن مناصرة هذه القبائل للعرب لم تقتصر على مجرد الترحيب بهم أو التزام الحياد معهم — كما فعل قبط مصر مثلا — بل كانوا يخفّون لعون العرب كلما تحرج بهم الأمر ، كما خفت زناتة لنجدة العرب عند وليلى ، وكما أسرع ابن مصاد صاحب قفصة لاستنقاذ أسارى المسلمين بعد تهودة ، بل لم يسكن هؤلاء الأنصار بعد مبارحة العرب للبلاد ، وإنما لبثوا يشغبون على كسيلة ومن معه من البرانس بحيث أصبحت البلاد « ناراً » طوال الفترة التى غابتها العرب عنها كما قال النويرى .

لذلك لا يصح القول بأن كل أثر للعرب قد امحى من البلاد ، وإن كان على خليفة عقبة أن يبدأ كما بدأ عمرو بن العاص قبل ذلك بنحو خمسين سنة ، وإنما

(١) Caudel, op. cit. II. pp. 142,143

الأصح أن يقال : إن مهمته كانت إخماد ثورة فى بلاد كانت للعرب وانتقضت عليهم.
وإذا كان أصحاب الأمر فى الدولة الإسلامية مخيرين فيما مضى بين أن يواصلوا
الفتوح أو ينصرفوا عنها ، وإذا كانت الغزوات على المغرب قد ظلت إلى الآن
رهناً برغبة الخليفة أو إلحاح عامل مصر ، فقد أصبحت إعادة ما كان قد تم فتحه
إلى الطاعة وإتمام فتح بقية البلاد ضرورة لا بد منها ، لا للمسلمين وحدهم
بل للمغرب وأهله كذلك . فأما المسلمون فلهم رعية فى البلاد وأنصار ينبغى
إنقاذهم من الأسر الذى خضعوا له بانتصار كسيلة ، وما برحت القيروان ومسجدها
الجامع يذكران المسلمين بضرورة العود ؛ وأما البربر فقد وجدت بعض قبائلهم
فى المسلمين نصيراً لهم على الروم وأحلافهم من القبائل المسيحية أو المتأثرة بالحضارة
اللاتينية ، ورحبت بجنودهم التماساً للفتح معهم والاشتراك فى الأسلاب وإياهم
فانحازت إلى جانبهم . فلما كانت هزيمة تهودة وارتد المسلمون إلى برقة ، لبثت
على عداء كسيلة وحكومته ، وظلت تنتظر عود العرب لتنضم إليهم وتؤازرهم على
القضاء على كسيلة ومن معه ، وذلك هو الأمر الذى غاب عن فورنل وكودل ،
وهو على أكبر جانب من الأهمية والخطورة ، لأنه الثمرة الوحيدة التى نتجت
عن جهود العرب طوال هذه السنوات ، ولأنه يفسر لنا السهولة الظاهرة — نسبياً —
التى استطاع بها العرب إخضاع البلاد . وكان كسيلة نفسه يشعر بذلك ويبذل
وسعه فى اتقاء شره : كان يعلم أن البلاد ليست خالصة له ولأنصاره ، ولهذا حرص
على أن لا يمس من بالقيروان من المسلمين بأذى حتى فى الساعة التى أنذره العرب
فيها بعودهم ؛ فمع أن وجود هؤلاء المسلمين كان يقلقه ويثير مخاوفه ، ومع أنه كان
فى استطاعته أن يتخلص منهم دون أن يكون عليه بأس من ذلك ، فإنه لم يفعل
ثم الانتقال بنفسه من القيروان إلى ممش حذراً من وثوبهم به . وقد سبق القول
بأن هؤلاء المسلمين الذين خلفهم زهير فى القيروان إن هم إلا : « الذرارى وذوو الأثقال

من التجار » كما يقول المالكي ، فكيف يعلل خوف كسيلة منهم وقوله : « فإن بالقيروان خلقاً كثيراً من المسلمين ، ولهم علينا عهد فلا نغدر بهم ، ونخاف إن قاتلنا زهيراً أن يثب هؤلاء من ورائنا ، فإذا نزلنا ممس أمنّاهم[1] » ؟ ليس من المعقول أنه فعل ذلك اتقاء غضب العرب أو مصانعة لهم ، ولا يصح تعليله بميل الرجل إلى العدل وكرهه للدماء ، فإن المذبحة التي دبرها لعقبة تنفي ذلك ، وإنما تعليلها الوحيد أنه وجد لهؤلاء المسلمين أنصاراً من أهل البلاد تثيرهم الإساءة إليهم ، ولا بد أن هؤلاء الأنصار كانوا من الكثرة بحيث يخشاهم كسيلة ويؤثر مصانعتهم ، ولا بد كذلك أنه كان يعرف أنهم يضمرون له الشر ويتربصون به الدوائر، فحرص أشد الحرص على أن لا يثير ثائرتهم في اللحظة التي أبصر فيها خيل العرب مسرعة نحوه للأخذ بثأر تهودة .

— ٢ —

عود النشاط إلى الروم

سكن الروم فترة طويلة بعد هزيمة سبيطلة ، لأن أحوال الدولة المركزية اضطربت وتهددها العرب من الشرق ومن الغرب بالإغارات والهجمات المتوالية ، فانقطعت الأمداد عن إفريقية ، وأخذ أمر رومها في الضعف حتى انعدمت مقاومتهم أصلا كما رأينا في حملة معاوية بن حديج والسرايا الصغيرة التي بعث بها إلى بنزرت وسوسة وغيرهما من كبريات مدائن الروم . وقد لوحظ كذلك أن روم إفريقية بدأوا يظهرون بعض النشاط بعد هذا الخمول ، وكان ذلك بعد خلاص الدولة من حصار القسطنطينية الثاني الذي استمر تأثيره عليها حتى نهاية حملة أبي المهاجر . فلما بدأ عقبة حملته الكبرى سنة ٥٥ هـ ظهر بجلاء أن الروم نشطوا نشاطاً مفاجئاً ، ترجع أسبابه إلى استرداد الدولة عافيتها بفضل جهود قسطنطين الرابع وإصلاحه الديني ، واجتهاده في وصل ما كان قد وهى من علاقات الدولة مع أملاكها في إفريقية

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٢

وغيرها ، وإلى انتقاض كسيلة على العرب ومحالفته الروم وتعاون الحيين معاً على مقاومة عقبة . ويبدو أن الروم تشجعوا بعد تهودة وانتهزوا فرصة انشغال كسيلة بتنظيم أمره فاستعادوا بعض ما كان لهم فى البلاد ، وحرصوا على أن يثبتوا أقدامهم من جديد . فيؤكد ديل أن : « رجال الإمبراطورية ظلوا يحتلون الولاية القنصلية احتلالا قوياً ، والشريط الساحلى من الولاية الداخلية والجزء الأكبر من نوميدية . وكانوا فى القرن السابع كذلك لا يقتصرون على محارس الساحل وحدها مثل سوسة (Hadrumetum) وقرطاجنة وبنزرت Hippone Diarryte وبونة Hippone بل وضعوا يدهم على عدد كبير من الحصون الداخلية . وقد كان الرباط الثانى سليما لم يمسه الهجوم بعد . وكانت الحاميات باقية على حالها فى نوميدية حتى فى المحارس التى تحمى الأوراس ، بل يمكن القول بأن علاقة ما — تشبه ما بين السيد والتابع — كانت تصل الحكومة البيزنطية فى إفريقيــة بمملكة كسيلة ، وعلى أى الأحوال فقد كان الأمير الوطنى على صلة ضعيفة بالبيزنطيين[1] » ، وربما جاز أن نشك إلى حد ما فى بعض ما جاء بعبارة ديل هذه ، فالقول بأن : « الرباط الثانى كان إلى ذلك الحين سليما لم يمسسه هجوم » غير صحيح ، لأن المعروف أن معاوية بن حديج اخترقه فى بعثه الذى أرســله إلى بنزرت والبعث الآخر الذى وجهه إلى سوسة ، وأن دينـار أبا المهاجر هاجم قرطاجنــة وحاصرها ولم ينصرف عنهـا إلا بعد أن نزل الروم له عن جزيرة شريك الواقعة داخل الرباط الثانى ، ثم إن مركز أعمال العرب كان منطقة ساحلية تنحصر بين الهضبة وساحل سوسة وهى منطقة قمونيــة الداخلة فى هذا الرباط . وليس هناك كذلك ما يدل على وجود الحاميات التى ذكرها ديل فى محارس الأوراس وحصونه ، وإنمـا لا شك أنه لم يخطىء حين أكد وجود صلة ما بين روم إفريقية وكسيلة .

(١) Diehl, op. cit. p. 519.

وإنما يمكن تصحيح عبارة ديل بالقول بأن روم إفريقية أخذوا يستعيدون نشاطهم بعد سنة ٥٥ هـ ، وأن ظروفهم وظروف الدولة نفسها أعانت على ذلك ، فاستطاعوا أن يستعيدوا مدائن الساحل وبعض محارس الداخل وأن الدولة نشطت فأخذت توافيهم بالأمداد ، ولم يرد لهذه الأمداد ذكر صريح فى هذه السنوات التى نقص أخبارها ، وإنما سنجد أحدها فى برقة سنة ٧١ هـ أثناء عود زهير ابن قيس من إفريقية ، وكان انشغال العرب بكسيلة وتوجه اهتمامهم للقضاء عليه فرصة طيبة استطاع الروم فيها أن يشدوا أمرهم ويثبتوا أقدامهم استعداداً لصراع حاسم يشتد أواره فى حملة حسان بن النعمان سنة ٧٨ هـ .

— ٣ —

زهير يعود إلى مصر بعد انسحابه من إفريقية

تتفق المراجع كلها ما عدا فتوح مصر والمغرب على أن زهيراً أقام ببرقة طوال السنوات الأربع التى انقضت بين انسحابه من إفريقية سنة ٦٥ هـ ثم مسيره إليها سنة ٦٩ هـ ، ولكن ابن عبد الحكم ينفرد هذه المرة — كما انفرد فى سابقتها — برواية شديدة الغموض بينة الاختلاف عما انعقد عليه إجماع غيره ، فيقول بعد ذكر عدة حوادث فيها خطأ كثير : « إن الروم أغاروا على أنطابلس (برقة) وبقوا فيها أربعين ليلة أنزلوا بها أثناءها من الفساد شيئاً كثيراً ، وبلغ ذلك عبد العزيز ابن مروان ، فأرسل إلى زهير بن قيس وكان خرج مع حسان ، فلما بلغ مصر أقام بها ، فأمره عبد العزيز بالنهوض إلى الروم ، ولم يجتمع لزهير من أصحابه إلا سبعون رجلا ، وكان عارض من الصدف يقال له جندل بن صخر — وكان فظاً غليظاً — فقال زهير لعبد العزيز بن مروان : أما إذا أمرتنى بالخروج فلا تبعثن معى جندلا عارضاً فيحبس على (عنى) الناس لشدته وفظاظته ، وكان عبد العزيز عاتباً على زهير بن قيس ، لأنه كان قاتله حين وجهه أبوه مروان بن الحكم من ناحية أيلة من قبل أن يدخل مصر ، فقال له : ما علمتك يا زهير إلا جلفاً جافياً ! فقال

له زهير . . . : أنا منطلق فلا ردنى الله إليك ! فخرج[1] » . وهذه الرواية منسوبة إلى الليث بن سعد ، ونقلها عن يحيى بن بكير ، وليس هناك ما يؤيدها ، ولكنها تضم إشارات على جانب عظيم من الأهمية مما يميل بنا إلى قبول معناها جملة . فهى تدل على أن زهيراً لم يلزم برقة طوال هذه السنوات الأربع و إنما عاد إلى مصر وأقام بها فترة من الزمن ، وعاد معه أصحابه كذلك وتفرقوا يلتمسون الراحة وتقاعد أكثرهم عنه حين هم بالعود إلى إفريقية . ويفهم منها كذلك أن ملاحاة وقعت بينه و بين عبد العزيز بن مروان إما للسبب الذى ذكره ابن عبد الحكم أو لأى سبب آخر ، وربما أيد ذلك ما ورد فى الإصابة من تشاحن عبد العزيز ابن مروان مع زهير بن قيس ووقوع النفرة بينهما إذ يقول : « وذكر له قصته مع عبد العزيز بن مروان وقد توجه إلى برقة ، فخاطبه بشيء فأجابه زهير : أتقول لرجل جمع ما أنزل الله على نبيه قبل أن يجمع أبواك هذا ؟ ونهض إلى برقة[2] » وهذا برهان صريح على ما كان بين الرجلين من بغض وكراهية ، وهذا المقام بمصر يفسر لنا السبب الذى دفع بابن عبد الحكم والبلاذرى[3] إلى القول بأن عبدالعزيز ابن مروان هو الذى أرسله ، وهى دعوى لا صحة لها ، وأبسط ما ينهض من الأدلة لدحضها هى الملاحاة والعداء الذى كان بين الرجلين . ويفهم من هذه الرواية كذلك أن سعى عبد العزيز بن مروان لضم إفريقية إلى ولايته بدأ قبل حملة زهير ، فحرص على أن يبعث معه نفراً ممن يكرههم زهير كجندل الصدفى هذا ليعرقل مساعيه ، وهو سعى سيوفق إلى تحقيقه بعد ذلك بزمن طويل ، أى حوالى سنة ٨٤ هـ حين يتمكن من عزل حسان بن النعمان بتابعه موسى بن نصير[4] .

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٠٢ — ٢٠٣

(٢) الإصابة : مادة زهير بن قيس .

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ، نفس الصفحة — البلاذرى ، فتوح ، ص ٢٢٦

(٤) أما أخطاء ابن عبد الحكم التى مرت الإشارة إليها فقوله : « إن كسيلة قتل =

أقام زهير إذن* بعض هـذه الفترة فى مصر و بعضها الآخر فى برقة ، وكان لا يكف أثناء ذلك مستغيثاً بعبد الملك بن مروان حتى يبعث إليه بالجند ليستنقذ المسلمين الذين خلفهم فى إفريقيـة حين عاد ، ولـكن عبد الملك كان فى شغل عنه بما حزبه من أمور وما تهدده من أخطار ، فقد قضى السنوات العشرة الأولى من ولايته فى صراع مع أعدائه الذين تواثبوا عليـه تباعا من بدء ولايتـه ، بل كان قد ولى الخلافة والثورة قائمة فى نواح كثيرة من الدولة ، كالمدينة التى لم يخمد ثورتها انتهاك مسلم بن عقبة المرى إياها وتخريبها سنة ٦٣ هـ ، والـكوفة التى تحرك بهـا الشيعة وظهر التوابون فيها سـنة ٦٥ هـ ، واستمرت هـذه الاضطرابات قائمة على حدتها ولم يبدأ أمرها فى السكون إلا بعد سنة ٧٠ هـ ، أى بعد مقتل مصعب ابن الزبير بدير الجاثليق ومقتل أخيه عبد الله بن الزبير فى جمادى الآخرة سنة ٧٣ هـ .

ولهذا كان طبيعيا أن تذهب صرخات زهير دون جدوى ، ولو تأخر عبـد الملك فى إمداده حتى بعد سـنة ٧٣ هـ لـكان له العذر فى ذلك ، ولـكن الغالب أن عبد الملك ورجاله كان لهم اهتمام بأمر إفريقيـة ورغبة فى تخليص من بهـا من المسلمين ، فعلى الرغم من أن ثورة ابن الزبير وأخيـه واضطرابات الشيعة كانت على أشدها فى سـنة ٦٩ هـ ، فقد استطاع عبد الملك أن يبعث بالأمداد إلى زهير فى هذه السنة ويأمره بالمسير إلى إفريقية ، وفى هذا دليل على أن أمور إفريقية أصبحت تهم أولى الأمر فى الدولة الإسـلامية كما تهمهم أمور العراق والحجاز مثلا ، فقد بُعث زهير إلى إفريقية سنة ٦٩ هـ فى حين لم يسر عبد الملك نفسه لقتال مصعب بن الزبير فى العراق إلا سنة ٧١ هـ ، بل نستطيع القول بأن سبب الاهتمام باسترجاع إفريقية لم يكن مجرد استنقاذ من بهـا من المسلمين و إنمـا كان الرغبة

عبـد الملك يسـير زهيراً إلى إفريقيـة سـنة ٦٩ هـ

= سنة ٦٤ هـ » وهذا أمر لا يستقيم ، لأن زهيراً لم يشرع فى حملته إلا سنة ٦٩ هـ ، وقوله : « إن عبد العزيز هو الذى بعث زهيراً إلى إفريقية » .

فى تهدئة أمورها و إتمام فتحها ، لأن الخلافة أصبحت تنظر إليها كبلاد إسـلامية لا مفر من الاهتمام بأمرها اهتماماً لا يقل عن الاهتمام بالموصل والجزيرة . ومصداق هذا أن هزيمة زهير ومقتله فى برقة لم تثن عبد الملك عن مواصلة العمل على استرجاع إفريقية ، فبعث حسان بن النعمان فى نفس الوقت الذى كان الحجاج يعمل فيه لإخماد ثورة الصفرية فى الموصل والجزيرة سنة ٧٦ هـ .

اهتمام عبـد الملك بحملة إفريقية

ومما يؤيد اهتمام عبد الملك بأمر إفريقية وتقديره أهمية إتمام فتحها أنه عنى بأن يعد الحملة التى يرسلها إليها عناية خاصة ، فأرسل إلى أشراف العرب ليحشدوا إليه الناس من الشام ، وأفرغ عليهم أموال مصر فسارع الناس إلى الجهاد ، واجتمع منهم خلق عظيم فأمرهم أن يلحقوا بزهير فلما وصلوا إليـه خرج بهم إلى إفريقية [١] .

بين المؤرخين اتفاق على تاريخ هـذه الحملة ، فكلهم عدا ابن خلدون [٢] يجعلونها سنة ٦٩ هـ (٦٨٨ م) ، و إذا صدق المالكى فيما ذكر من أن زهيراً وصل القيروان فى عيد الأضحى كان من الممكن القول بأنه شرع فى المسير فى ذى القعدة سنة ٦٩ هـ .

كان اختيار عبد الملك لزهير [٣] قائماً على معرفته به وثقة رجال الدولة فيـه . فقـد روى النويرى أنه : « لما أشير على عبد الملك بن مروان بإرسال الجيش

---

(١) المالكى ، رياض النفوس ، ص ٩

(٢) ذكرها ابن خلدون سنة ٦٧ هـ : طبعة دى فرجير ص ٤

(٣) جاء فى الإصابة ما يلى عن زهير : قال ابن يونس : « يقال له صحبة ، ويكنى أبا شداد ، وشهد فتح مصر ، وروى عن علقمة بن رمثة البلوى ، وروى عنه سويد بن قيس ، وقتلته الروم ببرقة سنة ٧٦ هـ » ثم أعقب ذلك بكلام يؤيد ما سيرد ذكره من وقوع الجفوة بين زهير وعبد العزيز بن مروان عامل مصر إذ ذاك إذ يقول : « وذكر له قصـته مع عبد العزيز بن مروان وقد ندبه إلى برقة فخاطبـه بشىء فأجابه زهـير : أتقول لرجل جمع ما أنزل الله على نبيـه قبل أن يجمع أبواك هذا ؟ ونهض إلى برقة فلقى الروم فى عدد قليل فقاتل حتى قتل شهيداً » .

إلى إفريقيـة قال لا يصلح للطلب بثأر عقبة بن نافع من المشركين إلا من هو مثله فى دين الله عز وجل ، فاتفق رأيهم على زهير بن قيس ، وقالوا هو صاحب عقبة وأعرف الناس بسيرته وأولاهم بطلب ثأره[1] » . وكان قد صحب عقبة منذ سنة ٤٣ هـ واشترك فى فتوح إفريقية من ذلك الحين ، ويبدو أنه كان أعظم رجاله شأناً لأنه خلفه على جنده حين سار فى بعثه الصحراوى ، ثم خلفه مرة أخرى على القيروان حين سار بحملته الكبرى ، وكانت صحبة عقبـة الطويلة قد أثرت فيـه فغلبت عليه هو الآخر مسحة دينية زادها قوة ووضوحاً علوّ سنه حين قام بحملته هذه .

انضمام نفر من البربر إلى زهير

يفهم من قول ابن عذارى : « فكتب إليـه (أى إلى عبد الملك) زهير يعرفه بكثرة من اجتمع على كسيلة من البربر والروم ، فأمده بالخيـل والرجال والأموال ، وحشد إليه وجوه العرب وبعثهم إليـه ، فوفدت الجيوش على زهير وتسرع النـاس معه إلى إفريقيـة[2] » أن الاستعداد لحملة زهير كان عظيما ، وأن الخليفـة لم يقتصر على حشد قوة عظيمة إليـه بل دعا النـاس للسير معه ، فلقيت الدعوة إقبالا من الناس فتسارعوا للاشتراك مع زهير . ويذهب المالكى إلى أن زهيراً لم يقتصر على ما وصله من مدد بل ضم إليـه نفراً كبيراً من البربر تبلغ عدتهم ألفين فى حين كان العرب أربعة آلاف[3] ، ويغلب أن العرب كانوا أكثر من هـذا العدد الذى أورده المالكى ولكن روايته تدل على أن جيش زهير كان فيه نفر كبير من البربر على أى حال . وتلك ظاهرة ستلاحظ فى كل الجيوش العربيـة التى ستتولى إتمام الفتح وسيهتم مؤرخو العرب بتسجيلها ، إذ سنجد

(١) النويرى ، نهاية الأرب ، ص ٧٣ ا ويروى المالكى رواية تشبه هذه من ناحية المعنى وتخالفها فى بعض ألفاظها ، ويفهم منها أن اختيار زهير كان بناء على رغبة نفر كبير من المسلمين لا عبد الملك ورجال بلاطه فقط ، إذ يقول : فاتفق رأيهم ورأى المسلمين على زهير بن قيس البلوى وكان من رؤساء العابدين وأشراف المجاهدين — المالكى ، رياض النفوس ، ص ١٥

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ص ١٦

(٣) المالكى ، رياض النفوس ، ص ٩

المالكى يقول : « إن حساناً كانت ترافقه طائفة من البربر يقال لهم البتر[1] » ، ويؤكد ذلك ابن الأثير حين يقول : « وجمع كسيلة له البرانس[2] » وكل أولئك دلائل تعزز ما سبقت الإشارة إليه من أن البربر البدو الجنوبيين أخذوا جانب العرب ، وانحصرت المقاومة فى القبائل الشمالية التى يسميها نسابة البربر البرانس لأنها كانت بعيدة التأثر بالحضارة البيزنطية والمسيحية ، ولا نزاع فى أن الروم كانوا يوالونها بالعون والإرشاد ، وسيلاحظ بجلاء أن مقاومتها تضعف تماماً بعد قضاء حسان على الروم .

فزع كسيلة لمسير العرب

ظل كسيلة مقيما بالقيروان على حذر من العرب طوال هذه المدة ، فلم تكد الأخبار ترد إليه بمسير زهير نحوه حتى تولاه جزع شديد ، «وجمع حشد البربر والروم وأحضر أشراف أصحابه وقال : قد رأيت أن أرحل إلى ممش[3] فأنزلها ، فإن بالقيروان خلقاً كثيرا من المسلمين ولهم علينا عهد فلا نغدر بهم ، ونخاف إن قاتلنا زهيرا أن يثب هؤلاء من ورائنا ؛ فإذا نزلنا ممش أمناهم وقاتلنا زهيرا فإن ظفرنا بهم تبعناهم إلى طرابلس وقطعنا أثرهم من إفريقية ، وإن ظفروا بنا تعلقنا بالجبال ونجونا ، فأجابوه إلى ذلك ورحل إلى ممش .[4] »

لماذا انتقل كسيلة إلى ممش ؟

أما تعليل انسحاب كسيلة إلى ممش بخوفه من المسلمين الذين بالقيروان فقط

---

(١) المالكى ، رياض النفوس ، ص ٩ (٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٤

(٣) ممش أو ممس Mamma مدينة بيزنطية حصينة قديمة ، كانت من محارس الرباط الثانى الكبرى ، وقد ذكر البكرى عن محمد بن يوسف : « أنها قرية عامرة آهلة بها مسجد وفندق » مما يدل على أنها كانت مزدهرة إلى أيامه ، ويسميها ساقية ممس ، وقد وردت بصور مختلفة فى الروايات العربية فذكرها ابن الأثير ممش ، وذكر ابن خلدون ميس ، والنويرى ممش ، وقد أخطأ الأستاذ دى فرجير فى قراءة لفظ ممس فقرأها عس وأثبتها بالعربية والإفرنجية ، وربما كان ابن مقديش أشد المؤرخين تحريفاً لهذا اللفظ فقد أورده : « معصرة » — البكرى ، وصف إفريقية ، ص ١٤٦ — ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٤ — النويرى ، نهاية الأرب ، ص ٧٣ أ — ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٨٧ — دى فرجير ، ص ٤ و ٢٣ — ابن مقديش ، نزهة الأنظار ، ص ٧٣ (٤) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٤

نضعيف ، لأن هذا النفر كان قليلا لا يخشى منه بأس ، وكان أكثره من غير المقاتلين أو القادرين على المقاومة . وكذلك لا يستقيم تعليل المالكي لهذا الانتقال بأن ممش أكثر ماء من القيروان[1] ، لأن هذا غير صحيح . والحقيقة أن القيروان لم تكن حصينة في حين كانت ممس كذلك ، وكانت القيروان في وسط السهل مما يسهل الالتفاف حولها ومهاجمتها من أي ناحيــة ، ولو هاجمها العرب من الغرب لقطعوا عنها المدد من الجنوب . وأما ممس فعلى شرف من الهضبة تطل بحصنهـا على السهل وتقف حائلا يصد المتقدم من السهل ولا يستطيع العرب مهاجمتها من خلف ، ثم كانت على اتصال بالهضبة وجبال الأوراس ، فيمكن الحصول على الأمداد والمؤن ، فإذا دارت الدائرة على كسيلة تعلق بالجبال كما قال .

ولا بد كذلك أن القيروان كانت محوطة بطوائف من البربر الموالين للعرب . فقد رأينا بعضهم يسلم وعقبة قائم ببناء القروان ؛ وأعان على ذلك قرب موقعها من منازل نفوسة التي ثبت ولاؤها للعرب وإسلام بعضها من أيام عقبة ، وربما كان قول كسيلة : « فإن بالقيروان خلقا كثيرا من المسلمين ولهم علينا عهد فلا نغدر بهم ، ونخاف إن قاتلنا زهيرا أن يثب هؤلاء من ورائنا[2] » إشارة إلى ذلك . فإن خوفه من هؤلاء المسلمين وتفضيله تركهم والانتقال إلى مكان آخر لا يعلل إلا بأنهم كانوا عددا كبيرا يخشى بأسه . وقد عرفنا أن زهيرا لم يخلف بإفريقية إلا عددا ضئيلا من العرب فلا بد أن كسيلة أراد بذلك مسلمي البربر أو أنصار العرب منهم .

اتخذ زهير الطريق الساحلي الذي سلكه عبد الله بن سعد في حملته الأولى حتى أفضى آخر الأمر إلى جوار القيروان[3] وعسكر جوارها دون أن يدخلها[4] ،

---

(١) المالكي ، رياض النفوس ، ص ١٠ (٢) ابن الأثير ، أسد الغابة جـ ٤ ، ص ٤٤

(٣) يقول ابن عبد الحكم : « فخرج زهير في جمع كثير ، فلما دنا من قونية وبها عسكر كسيلة بن لمزم عبأ زهير لقتاله » والأغلب أنه أراد بقونية هذه قونية ، أي موضع القيروان — ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٠٠

(٤) اتفق ابن الأثير والنويري على القول بأنه أقام بظاهر القيروان دون أن يدخلها =

وربما كان هذا موضع تساؤل لأنه إذا كان قد طلب الراحة هذه الأيام الثلاثة ، فإنما بداخل المدن لا بظاهرها يستريح الناس . وربما جاز تعليله بأنه كان مسرعا فخشى أن يطول به الأمد إن هو دخل القيروان ، وربما خشي أن يفاجئه العدو وهو بداخلها وقد خلع لباس الحرب ، ففضل البقاء كما هو على استعداد لكل طارىء .

زهير يهادن الروم

يورد المالكى تفصيلات عظيمة الأهمية فى توضيح أعمال زهير ، فيذكر أن زهيراً لم يسر إلى مِمس وإنما ثبت فى القيروان « حتى زحف كسيلة فى جمع كثير من البربر والروم ، ونقض الروم العهد وخرجوا من حصونهم ، ووافق جميعهم عيد الأضحى فاعتذر زهير ومن معه : أربعة آلاف (كذا) : ألفان من البربر وأربعة آلاف من العرب » فلما رأى زهير ما حل به من الروم والبربر أرسل إلى الروم وقال لهم : « وإنا وإياكم أهل الكتاب وقد حضرنا يوم نعظمه . . . بنا حتى ينقضى العيد فأجابوه إلى ذلك ، فلما انقضى العيد زحف إلى كسيلة فقاتله قتالا شديدا ، فانهزم كسيلة وقتل من أصحابه مالا يحصى وتفرقوا ، فأقام زهير بالقيروان يسيراً ثم رحل إلى مصر[1] » وبذلك لا يكون زهير قد أقام بظاهر القيروان ثلاثة أيام « حتى استراح وأراح ، ثم رحل إلى كسيلة والتقيا[2] » وإنما كان مقام زهير بظاهر القيروان للتدبير وبحث الحالة عن كثب .

وجد زهير أن الحلف الرومى البربرى لا زال قوياً يخشى بأسه ، ولاحظ

= ويخالفهما المالكى فأكد أنه دخلها ، وقد غلبت رأى الإثنين الأولين — ابن الأثير ، أسد الغابة حـ ٤ ، ص ٤٤ والنويرى ،نهاية الأرب،ص ٧٣ أ — المالكى ، رياض النفوس ، ص ٩

(١) المالكى ، رياض النفوس ، ص ٩ — وقد عاد المالكى فأورد بعد ذلك رواية أخرى تتفق تماماً مع ما أجمع عليه المؤرخون الآخرون دون أن يذكر إسناد أى الروايتين ، ويفهم من سياق حديثه أنه يقرر حملتين لزهير وهذا خطأ ؟ ويؤكد خطأه قوله : إن اتجاه الحملتين معاً كان ممس وكسيلة وأنه قتله فى كل منهما

(٢) النويرى ، نهاية الأرب ، ص ٧٣ أ

أن الروم لا زالوا محتفظين بحصونهم القديمة إلى شمال القيروان وشرقها ، ولاحظ أن البربر رصدٌ له بباب الهضبة يردونه عنها إن هو حاول اقتحامها ، ومن ثم خشى أن يتجه إلى إحدى الناحيتين مخافة أن تهم به إحدى الطائفتين من خلف ، فأحب أن يبعد الروم عن الميدان ريثما يخلص من أمر البربر وكسيلة ثم يعود ليرى ما يكون من أمر الروم معه . ويبدو أن الروم مالوا إلى أن يتركوا العرب والبربر يكافح بعضهم البعض ليخلصوا من أيهم فيسهل ذلك لهم استرجاع سلطانهم فى البلاد [1] .

مسير زهير إلى كسيلة

خلص زهير من الروم فانطلق للقاء كسيلة فى ممس التى تحصن بها ولبث ينتظر العرب عندها . وتتفق المراجع كلها على أن اللقاء كان بممس عدا المالكى الذى يذهب إلى أن ذلك كان بناحية قريبة من ممس تسمى قصر عبيدة [2] . ويبدو من مختلف الروايات أن المعركة بين زهير وكسيلة كانت شديدة عنيفة إذ : « اشتد القتال وكثر القتلى فى الفريقين ، وانجلت الحرب عن قتل كسيلة وجماعة من أصحابه ، وانهزم من بقى منهم وتتبعهم الجيش فقتلوا من أدركوه منهم ، فذهب رجال البربر والروم وأشرافهم وملوكهم فى هذه الموقعة وعاد زهير إلى القيروان [3] » كما يقول النويرى . ولم تزد المراجع الأخرى على ذلك شيئاً ، مما يدل على أن الموقعة كانت قصيرة الأمد على رغم أهميتها ، وربما صح تعليل ذلك بأن العرب كانوا مدفوعين لقتال كسيلة بتشوق إلى الانتقام فشد ذلك من عزائمهم ، ولم يثبت لهم كسيلة ولا أحد ممن كان معه . ولا تفوتنا ملاحظة ضعف القوى البربرية أمام العرب حينما تخلف الروم عنهم ، ولو أن الروم كانوا بجانب البربر أثناء موقعة ممس لربما كان شأن العرب فيها كشأنهم فى باغاية

واقعة ممس

(١) المالكى ، رياض النفوس ، ص ٩ (٢) المالكى ، رياض النفوس ، ص ٩
(٣) النويرى ، نهاية الأرب ، ص ٧٣ أ و ب

أو لمبزة وغيرها من الحصون . ولكن كيف لم يفر كسيلة ومن معه حين اشتد عليهم الأمر ؟ لقد عرفنا أن أحد الأسباب التي ألجأت كسيلة إلى ممس هو اقترابها من الهضبة وسهولة الفرار إلى الجبال منها ، فكيف لم يتمكنوا من الفرار ؟ ربما صح تعليل ذلك بأن كسيلة وكبار الزعماء قتلوا في بداية المعركة ، أو بأن زهيراً أجاد توزيع قواته ساعة الهجوم فلم يستطع البربر تنفيذ ما كانوا عزموا عليه من التقهقر إلى الهضاب . وبهذا تم القضاء على مقاومة البرانس في موقعة واحدة . ويبدو أن زهيرا كان يعرف أهمية هذه الموقعة فأصر على القضاء على البرانس قضاء تاما ، فحينما انهزم نفر منهم إلى الجبال وطلبوا النجاة « تتبعهم الجيش فقتلوا من أدركوه منهم ، فذهب رجال البربر والروم في هذه الموقعة وعاد زهير إلى القيروان[1] » .

النتائج السياسية لواقعة ممس

تعرض السلاوي لإيضاح النتائج السياسية لهذه الواقعة ، فأكد أنها كانت شديدة الأثر على البربر والروم كذلك (ويسميهم الفرنجة خطأ) ، وأضاف أن البربر رعبوا من العرب بعدها رعبا عظيما ، فلجأوا إلى الحصون والقلاع وفارقوا الأوراس وتحصنوا بالمغرب الأقصى « في وليلي بين فاس ومكناس بجوار جبل زرهون[2] » وليس هذا الكلام صحيحاً على إطلاقه ، لأن مركز المقاومة لم ينتقل من الأوراس إلى المغرب الأقصى بعد ذلك مباشرة ، وإنما الصحيح أن هذه الموقعة كسرت شوكة البرانس وقضت على مقاومتهم ، وقضت على ما كان معقوداً بينهم وبين الروم من تحالف على العرب وتعاون على طردهم . وسيلاحظ أن خليفة زهير وهو حسان لن يحارب البرانس وإنما البتر ممثلين في قبيلة جراوة . أما قوله إن البربر تحصنوا بالمغرب الأقصى بعد ذلك « في وليلي بين فاس ومكناس بجوار جبل زرهون » فلا تؤيده الحوادث التي وقعت بعد ذلك ، فقد كان مركز

(١) نفس المصدر والصفحة. (٢) السلاوي، الاستقصاء ، ص ٤٣

المقاومة التى لقيها حسان فى الأوراس أيضاً ، ولن يجد موسى بن نصير فى المغرب الأقصى إلا أيسر المقاومة [١].

يذهب المالكى إلى أن العرب تتبعوا الفارين من البربر إلى المغرب الأقصى ، « وتمادت العرب فى طلبهم حتى سقوا خيلهم من ملوية وادى طنجة [٢] » ، وربما كانت تلك مبالغة ، لأن ملوية قريب من طنجة ولا يسهل الاسترسال إليه بهذه السهولة التى تفهم من رواية المالكى .

الاستيلاء على شقبنارية

اكتفى زهير بانتصاره فى ممس فعاد أدراجه يريد القيروان ، ويبدو من قول المالكى : « وفتح شِقَّبنَارِية وقلاعا أخرى ورجع وقد خرج جميع الروم والبربر [٣] » أنه لم يعد إلى القيروان رأساً ، وإنما اتجه إلى الشمال حتى أدرك شقبنارية Sicca Vaneria البيزنطية (الكف الحالية) وبضع قلاع أخرى كما استولى عليها قبل العود إلى القيروان .

— ٥ —

الروم يدبرون لزهير

ترك الروم زهيرا يفعل مع البربر ما يستطيع وانصرفوا هم لتدبير أمر آخر شديد الشبه بما دبروه لعقبة ، وربما دفعهم إلى ذلك أن زهيرا وقع فى نفس الخطأ الذى وقع فيه عقبة ، فلم يؤمِّن طريق عودته بل تمادى إلى إفريقية دون أن يخلف فى برقة أو طرابلس من يحمى طريق عودته ، فاتصلوا بالدولة واستنجدوا بها ، وفصّلوا لها حال إفريقية حتى توافيهم بالإمداد ؛ وفى هذا يقول ابن الأثير : « وكان قد بلغ الروم بالقسطنطينية مسير زهير من برقة إلى إفريقية لقتال كسيلة ، فاغتنموا خلوها فخرجوا إليها فى مراكب كثيرة وقوة عظيمة من جزيرة صقلية ، وأغاروا على برقة

---

(١) كذلك أخطأ البلاذرى فى قوله : « ان زهيراً فتح تونس » لأن تونس كانت قد فتحت قبله مراراً ، ولا يعد انتصار ممس فتحاً لها ، وربما أراد البلاذرى بذلك الغزوات القصيرة التى شنها زهير بعد ذلك على بعض مدائن السهل مثل شقبنارية — البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٢٢٩

(٢) المالكى ، رياض النفوس ، ص ١٠ (٣) نفس المصدر والصفحة .

فأصابوا منها سبياً كثيراً وقتلوا ونهبوا ، ووافق ذلك قدوم زهير[1] » مما يدل على أن الروم انتهزوا فرصة اشتغال زهير بحرب كسيلة وأخذوا يدبرون سبيل الخلاص منه مع روم بيزنطة .

وصول مدد من القسطنطينية

يفهم من رواية ابن الأثير السابقة أن مدداً رومياً وصل إفريقية إذ ذاك ، وألقى مراسيه فى برقة وأغار عليها وأسر نفراً ممن كان بها من المسلمين ، فلماذا اختار هذا المدد برقة دون سواها ؟ وقد كان أولى به وفى مقدوره أن ينزل قرطاجنة نفسها ، أو أية مدينة أخرى من مدائن إفريقية البيزنطية ؟ لا يمكن تعليل ذلك بالقول بأنهم إنما قصدوا بعملهم هذا مجرد السلب والنهب كما يفهم من رواية ابن الأثير ، فلو كان هذا هو غرضهم الوحيد لما كلفوا أنفسهم عناء قتال زهير حين مر بهم ، ولأقلعوا فى سفنهم سالمين موفورين ، بل لكانوا تخيروا مكاناً لسلبهم غير برقة ، إنما الصحيح الذى يفهم من رواية ابن الأثير أن هذه المراكب الرومية[2] أتت بناء على دعوة من الروم (روم إفريقية) وتفاهم معهم ، وأنها تخيرت برقة بناء على رأيهم وبنصيحتهم ، فإذا صدق ذلك جاز القول بأنهم وجدوا زهير يسترسل فى فتوحه دون أن يترك خلفه حامية تؤمن طريقه ، ففضلوا تركه مع البربر يقاتلهم ويضعف من قواته فى حربهم ، حتى إذا كان فى طريق العودة إلى مصر رابطوا له فى برقة فسهل عليهم القضاء عليه ، كما سهل عليهم القضاء على عقبة بأسلوب مشابه لذلك .

وكان نفر من المسلمين قد تخلف عن الجيش ببرقة ، وربما كان هذا النفر

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٤

(٢) يؤكد ابن الأثير أن هذه السفن أقبلت من صقلية ، بينما يذهب ابن خلدون إلى أنها أتت من القسطنطينية نفسها ، وربما صح التوفيق بين الرأيين بالقول بأن الدولة البيزنطية قامت بإعداد هذا الأسطول فى صقلية ووجهته من هناك — ابن الأثير : أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٤ ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٨٧

ممن درج المؤرخون على تسميتهم : « أصحاب الذرارى والأثقال » تخلفوا هناك ليروا ما يكون من أمر زهير مع كسيلة ، فإن انتصر مضوا إلى إفريقية وإلا فهم على مقربة من مصر يسهل عليهم إدراكها فى حالة الهزيمة ، ويبدو من قول ابن عبد الحكم : « وأغارت الروم بعد حسان على أنطابلس وأهل ذمتها فى أيدى الروم فهرب ابراهيم بن النصرانى، وخلى أهل أنطابلس وأهل ذمتها فى أيدى الروم فرأسوها أربعين ليلة حتى أسرعوا إليها الفساد[1] » أن زهيراً كان قد خلف على برقة ابراهيم بن النصرانى هذا ، وربما كان من قبط مصر كما يبين من اسمه ، وسيورد ابن عبد الحكم ذكره فى مناسبة أخرى لمعرفته البلاد ولغة أهلها ، فلما فاجأ الروم برقة ولى هارباً ، وربما كان قول ابن عبد الحكم « وأهل ذمتها » معيناً على فهم مهمة ابراهيم هذا ، إذ كان وسيطاً بين أهل الذمة والمسلمين ، ولم يكن هؤلاء قد تعلموا العربية بعد .

لماذا ارتد زهير مسرعاً عن إفريقية ؟

لماذا ارتد زهير عن إفريقية مسرعا لغير سبب ظاهر بعد انتصاره فى ممس ؟ يبدو أن تعليل المراجع[2] لذلك بقولها : « إنه رأى بإفريقية مُلكا عظيما فأبى أن يقيم وقال : إنما قدمت للجهاد وأخاف أن أميل إلى الدنيا فأهلك ، وكان عابدا زاهدا » تعليل ضعيف ، لأن الزاهد الورع الذى يخاف على نفسه فتنة الدنيا هو الذى يقيم على الثغور ويرابط على باب دار الحرب ، فإذا فضل على ذلك العود إلى العواصم والمدن لم يكن ذلك دليلا على الورع أو بدافعه بل دليلَ أمور أخرى وبدافعها . ثم أين هى رفاهة العيش وسعة الملك التى خافها على نفسه فآثر الانصراف عنها

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٠٢ وقد ذكر اسم حسان خطأ لأنه يقول بعد ذلك : « وبلغ ذلك عبد العزيز بن مروان ، فأرسل الى زهير بن قيس ، وكان خرج مع (حسان) ، فلما بلغ مصر أقام بها ، فأمره عبد العزيز بالنهوض الى الروم ولم يجتمع لزهير من أصحابه إلا سبعون رجلا . . . » ثم يلى ذلك بقية أحداث غزوة زهير ، والراجح أنه أراد أن يقول عقبة فذكر « حسان » .

(٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٤ — النويرى ، نهاية الأرب ، ص ٧٣ ب — المالكى ، رياض النفوس ، ص ١٠ — القيروانى ، المؤنس ، ص ٣٠ — ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٨٧ — الباجى ، الخلاصة النقية ، ص ٩ — والرواية الواردة هنا هى رواية ابن الأثير والنويرى معاً .

زهدا فيهما ؟ لقد كانت إفريقية حتى هذا الزمان دار حرب صرف ، لا أمان فيها ولا سعة فى العيش ولا بسطة فى السلطان ، وسترى من أعمال خليفته حسان أن هذه البلاد لن تصبح دار استقرار وأمان للعرب إلا بعد عشرين سنة ، وبعد حروب طويلة تكاد تعدل أضعاف ما قام به زهير ، فما هى الأسباب الحقيقية التى اضطرت زهيراً إلى هذا العود السريع ؟ يبدو أن زهيرا اعتبر مهمته انتهت بعد قتل كسيلة وتخليص من بإفريقية من المسلمين ، وقد كان هذا الرجل صديقاً لعقبة مقرباً إليه ، فآلمه غدر كسيلة به وقتله إياه ، فحفزه ذلك إلى طلب المسير إلى إفريقية والإلحاح فى ذلك ، حتى إذا أمكنته الفرصة بادر بانتهازها وتوجه مسرعاً إلى إفريقية ، فلما وفق إلى إدراك ثأر عقبة رأى أنه بلغ بذلك غايته من المسير إلى إفريقية ، فترك بالقيروان حامية وأمن أهلها وعاد مسرعاً . ويبدو كذلك أن زهيراً لم يكن مطمئناً إلى عبد العزيز بن مروان ، وقد رأينا الجفاء يسود علاقتهما ، فخشى الرجل أن يشى به عبد العزيز عند أخيه عبد الملك ففضل العود السريع . ويبدو كذلك أن الرجل كان مسناً حين هم بحملته تلك ، وأنه لم يقم بها إلا طلباً لثأر صاحبه عقبة ، فلما فرغ منه عجل بالعود . ذلك قصارى ما يمكن افتراضه لتعليل تلك العودة ، وعلى الرغم من ذلك يبدو أن الأمر لا زال غامضاً يحتاج إلى كثير من الإيضاح .

مقتل زهير ببرقة

تتفق المراجع كلها على ما تذكر من الحوادث التى وقعت لزهير ببرقة وانتهت بمقتله ، فيقول المالكى وهو أكثر المؤرخين تفصيلا فى تلك المناسبة : « ولما بلغ الروم أن زهيراً خرج (إلى) برقة أمكنهم ما يريدون ، فخرجوا إليها فى مراكب كثيرة وقوة عظيمة ، وأغاروا عليها فسبوا وقتلوا ، فوافق ذلك قدوم زهير من إفريقية إلى برقة ، فأخبر بخبرهم فأمر عسكره أن يمضى على الطريق ، وعدل هو فى خيل كثيرة من فرسان أصحابه ، وطمع أن يدرك العدو فيستنقذ منه أسارى

المسلمين[1] » . وفى هــذه الرواية عبارتان على درجة عظيمة من الأهمية ، أولاهما قوله : « إن زهيراً أمكن الروم الغرض بعوده إلى مصر » مما يفهم منــه أن الروم كانوا متربصين له منتظرين فرصة مروره ليبادروها ، وثانيهما قوله : « إنه عدل إلى الساحل فى خِف من أصحابه » ، فقد كان أولى به بعــد أن سمع بوجود الروم بالساحل أن يسرع نحوهم بكل من معــه ليلقاهم ، ولا يعلل ذلك إلا بأن زهيراً لم يكن يتوقع أن يجد الروم فى قوة عظيمة أو عدد كبير ، وإنمـا بلغه أن مراكب روميــة ألقت مراسيهـا بالساحل فخف بنفر يسير من أصحـابه ليستطلع أمرهم وليستولى على هــذه السفن إذا قدر ، فلمـا أشرف على الساحل وجد الأمر أعظم مما كان قدر إذ كان الروم فى مراكب كثيرة ، ولم يقتصر أمرهم على مجرد النزول بالساحل بل إنهم أسروا من مسلمى المدينة عدداً عظيما ، فلم يكد هؤلاء الأسرى يرونه حتى استغاثوا به ، فلم يجد بداً من مهـاجمة الروم لاستنقاذ من معهم من المسلمين ، ومصداق ذلك قول المـالكى بعد ذلك : « فلمـا وصل إلى الساحل أشرف على الروم فإذا هم خلق عظيم ، فاستغاث ذرارى المسلمين وصاحوا والروم يدخلون بهم فى المراكب وعسكر الروم فى البر ، فنادى زهير فى أصحـابه أنزلوا رحمكم الله ، فنزل المسلمون وبرز الروم لقتالهم[2] » مما يدل على أن الروم كانوا معسكرين فى البر على أهبة القتال ، فخافهم من مع زهير وفكروا فى العود ، فاستحلفهم زهير ورجاهم فى النزول ومبادرة الروم فأجابوا ونشب القتال بين الفريقين .

هكذا كانت خاتمة حياة زهير ، إذ استشهد استشهاداً لا يقل روعة ولا جلالا عن استشهاد عقبة ، فأثار مصرعه ثائرة العرب وحفزهم على مواصلة الفتح لإدراك ثأر زهير وأصحابه ، وقد كان لمقتله على يد الروم أثر عظيم فى مسير الفتوح ، إذ كان

(١) المالكى ، رياض النفوس ، ص ١٠

(٢) المالكى ، رياض النفوس ، ص ١٠

زهير قد حسب — بعد قتله كسيلة — أن كل مقاومة للبلاد قد خمدت ، البلاد وأن أصبحت آمنة مطمئنة ، فكان مقتل زهير منبهاً للعرب إلى ما ينجم عن ترك الروم من خطر ، وإلى ما يمكن أن يسببوه للعرب من المتاعب إذا تركوا فى مدائن الساحل يستعيدون ما ضاع من قوتهم ويستمدون العون من بيزنطة نفسها . وكما كان مصرع عقبة محدداً لمهمة زهير ، فصرف همه فى القضاء على مقاومة برانس البربر ، كان مقتل زهير محدداً لمهمة حسان : فأنفق ما قدر عليه من جهد فى القضاء على الروم حتى تمكن من ذلك تماماً .

قضى زهير على مقاومة البرانس فكان هذا القضاء عظيم الأثر فى مستقبل الفتوح ، فقد سبقت الإشارة إلى أن بُتْر البربر كانوا إلباً مع العرب أنصاراً لهم ، وأن برانسهم حملوا لواء المقاومة يمدهم الروم بالعون ، فكانت ضربة زهير قاضية على رأس المقاومة وخاتمة لآمال الروم فى الاستعانة بأهل البلاد على العرب[1] ، وبقيت ضربة أخرى توجه إلى بقايا الروم فى البلاد ليقال بعدها إن البلاد قد فتحت تماماً .

(١) أما ثورة الكاهنة فلم تكن أكثر من ثورة وقتية لها أسبابها الخاصة ، وسيأتى بيان ذلك .

الباب الثامن

تمام الفتح

- ٢ -

حسان بن النعمان

ودوره فى فتح إفريقيـــة

أثر مقتل عقبة فى سير الفتوح

كان مقتل عقبة على يد البربر منبهاً للفاتحين المسلمين إلى ناحية انصرفوا عنها فيما انقضى من المحاولات ، ومبيناً لخلفه زهير بن قيس إلى الخطة التى يتبعها حتى يكون عمله أدنى للغاية وأقوم سبيلا ، ومن ثم كان عمله عظيم الأهمية من الناحية السياسية لأنه جرى على خطة ثابتة واضحة ، إذ قضى على مقاومة بربر الشمال وهم أقوى عناصر المقاومة ، ولكنه أغفل شأن الروم — وهم عنصر المقاومة الثانى — فلم يحفل لهم لأن ريحهم كانت قد سكنت منذ زمن طويل ، ولم يكن يتوقع أن يستيقظ الروم مرة أخرى ويعودوا إلى محاولة استعادة البلاد ، ففاجأوه هذه المفاجأة التى استشهد فيها ببرقة .

لهذا كان مقتل زهير على يد الروم ببرقة منبهاً لخلفه إلى العمل على استدراك ما فاته ، ومبيناً له الخطة التى ينبغى اتباعها حتى يكون عمله خطوة موفقة فى إتمام هذا الفتح ، إذ عرف العرب من هذا الحادث أنه لا تمام لفتح هذه البلاد إلا إذا أزيل من ربوعها كل أثر للروم .

ومن الجلى أن حركة المقاومة كانت تختلف ضعفاً وشدة تبعاً لحالة الروم فى إفريقية وفى بيزنطة كذلك ، فقد ركدت المقاومة بعد سبيطلة ركوداً طويلا استمر طوال السنوات التى شغلت فيها الدولة البيزنطية بصراع العرب فى المشرق . فلما خفت حدة هذا الصراع وتنفست الإمبراطورية الصعداء بعد سنة ٥٠ هـ ، تنفس الروم فى إفريقية وسرى النشاط إليهم ، ومن ثم نشطت المقاومة نشاطاً لوحظ أثره فى المقاومة العنيفة التى لقيها عقبة فى مسيره ، وفى هذا التدبير الذى انتهى بموته . وأعقب ذلك محاولة صريحة من الدولة لاستعادة إفريقية ، فأقلع من بيزنطة الأسطول الذى لقى زهيراً فى برقة فقضى عليه ، فكان معنى ذلك انتصارهم عليه وعودهم إلى ما كانوا عليه من النشاط فى البلاد ، ومن هنا كان على الفاتح الجديد أن يتوجه بهمته نحو الروم ، فإما قضى عليهم فيكون ذلك حداً فاصلا بين إفريقية

البيزنطية و إفريقية الإسلامية ، و إما غلبوه ومحوا الآثار التى تخلفت عن حملات معاوية وعقبة ودينار وزهير وعادت البلاد سيرتها الأولى قبل سبيطلة .

وكان مقتل زهير بعد عقبة عظيم الأثر فى موقف الخلافة من إفريقية ، فقد حفزها إلى إتمام فتحها حفاظاً لهيبة الدولة الإسلامية أن تهبط فى أعين الروم ، فلو وقف المسلمون بالفتوح قبل مقتل هذين القائدين الكبيرين لما نتج من ذلك كبير ضرر ، أما وقد هزمت جيوش الإسلام وقتل قوادها على يد الروم ، فلا بد من العمل على إزالة أثر هاتين الهزيمتين وتلافى ما يكون قد نجم عنهما من مساس بسمعة الجيوش الإسلامية ، وهذا هو سر الاهتمام العظيم الذى سيبديه عبد الملك ابن مروان بأمر إفريقية ، وتعجيله بإرسال الجيوش إليها على الرغم من كثرة مشاغله ووثوب الشيعة فى العراق فى تلك السنوات .

— ١ —

عود النشاط للروم وأسباب ذلك

تتفق المراجع اليونانية على القول بأن انتصار الروم فى برقة أعقبه اهتمام عظيم من جانب الدولة بأمر إفريقية ، فيؤكد ديل (عن صاحب الكتاب البابوى) أن إفريقية عادت إلى طاعة الدولة حوالى سنة ٦٨٥ م (٦٦ هـ)[١] ، ولم يحدد المصدر البيزنطى تاريخاً لتلك العودة ، ولكن ديل جعلها سنة ٦٨٥ م ، وهو تاريخ لا يتفق كثيراً مع ما سبق تفصيله من أحداث إفريقية ، إذ فى ذلك الحين كانت حركة كسيلة فى عنفوانها ، فالأصح جعلها بعد مقتله أى بعد سنة ٦٩٠م (٧١ هـ) وبهذا يكون الترتيب منطقياً . انتصر الروم فى برقة سنة ٦٩٠ م فكان ذلك كافياً ليحكم المؤرخ البيزنطى بمقتضاه بأن إفريقية عادت إلى طاعة الدولة وسلطانها ، وقد أيد ديل ذلك بقوله : « يبدو أن البيزنطيين أفادوا من الاضطرابات

(١) Diehl. op. cit. p. 581.

التى أعقبت مقتل عقبة وانتقاض البربر لكى يعيدوا الولاية الداخلية إلى سلطانهم بشكل أقوى » .

تؤيد الحوادث التالية رأى المؤرخَيْن البيزنطيين ، ويعززه ما يعرف من أن جستنيان الثانى إمبراطور الدولة إذ ذاك كان قد استبان اشتغال عبد الملك بن مروان بالخارجين عليه ، فبادر بالاستفادة من تلك الفرصة وهدد بالهجوم على تخوم الدولة الإسلامية فى المشرق سنة ٧٠ هـ ، ولم يرجع إلا بعد أن صالحه عبد الملك على جزية يؤديها إليه كل عام ، وربما فكر جستنيان فى انتهاز هذه الفرصة والمبادرة بإرسال جيش يستعيد إفريقية فمضى فى إعداد ذلك ، ولكن المنية عاجلته ، فكان إنفاذ هذا المشروع من نصيب خلفه ليونس الذى استهل به حكمه سنة ٦٩٥م (٨٧٩) .

أثر ذلك فى روم إفريقية

وصاحَبَ هذا التغييرَ فى موقف الدولة تغيُّرٌ يناسبه ويؤيده فى موقف روم إفريقية من البربر ، إذ لم تكد تتوارد عليهم الأخبار بعودة الدولة إلى التفكير فى أمرهم وإجابتها مطالبهم — بإرسالها إليهم السفن التى لقيت زهيراً فى برقة — حتى وجدوا أنفسهم فى غير حاجة إلى عون البربر أو الاتحاد معهم ، ومن ثم أخذت عرى الحلف البربرى الرومى تنحل شيئاً فشيئاً ، وقد استبان ذلك حسان ففكر من بادىء الأمر فى القضاء على كل من الفريقين على حدة .

وربما كان قول جوتييه فى معرض الكلام على الكاهنة : « كان للروم إذ ذاك الحاميات المتفرقة فى الحصون المستعصية على الجيش العربى ، وكانت الأسباب موصولة بين قرطاجنة وبيزنطة ، وكانت المدائن بيزنطية ما تزال — فى الواقع الملموس أو المفهوم — وكانت بيزنطة توالى البربر بالمال والجند والرأى ، فوجد العرب حينذاك حلفا يضم المغرب جميعه : روماً وبربراً ، بدواً وحضراً ، وكانت مهمة حسان هي محاولة تحطيم هذا التحالف بالاستيلاء على قرطاجنة ، ولكنه لم يوفق إلى النتيجة المرجوة من ذلك ، لأنه هزم تماماً بعد ذلك بقليل

واضطر إلى إخلاء إفريقية[1] » موضحاً لحال الروم يوم دخل حسان البلاد ، ومبيناً الخطة التي كان عليه أن يسير عليها .

— ٢ —

متى سار حسان ؟

بين المؤرخين اختلاف على تاريخ حملة حسان ، فيذكر ابن عبد الحكم أنه سار سنة ٧٣ هـ وأنه انتهى من حملتيه سنة ٧٦ هـ ، ثم عاد فروى عن الليث بن سعد أن الانتهاء من الحملتين كان سنة ٧٨ هـ[2] ، وذكر ابن الأثير سنة ٧٤ هـ[3] ، وأيده ابن خلدون[4] في ذلك ، وحدد ابن عذارى سنة ٧٨ هـ[5] ، وتردد القيرواني بين سنوات ٧٦ و٧٧ و٧٩ هـ[6] ولم يحدد إحداها ، وذكر الباجي سنة ٧٩ هـ[7] . فما علة هذا التباين الشديد ؟ ربما جاز تعليل ذلك بأن حسان قام بحملتين لا حملة واحدة ، فتح في الأولى قرطاجنة ثم اتجه نحو الكاهنة فانهزم ، واتجه في الثانية نحو الكاهنة ثم فتح قرطاجنة مرة أخرى ، فاختلط الأمر على المؤرخين لتشابه أعمال الرجل في كلتيهما ، وترددوا بين كل السنوات التي انقضت بين مسيره الأول ومسيره الثاني ، ويبدو إلى ذلك كما سيرى أن ابن عبد الملك أعد حملة حسان ثم أبقاها في مصر فترة من الزمن نظراً لما كان يحيط به من أحداث في المشرق ، حتى إذا اطمأن على مركزه أذن لحسان في المسير فسار ، فوقع في ظن المؤرخين أن حسان أفضى إلى إفريقية منذ أمره عبد الملك على الجيش وأعده للمسير .

فإذا كان عبد الملك قد فعل ذلك فيغلب أنه شرع في التفكير في أمر إفريقية جدياً بعد فراغه من ابن الزبير في جمادى الآخرة سنة ٧١ هـ ، ويستبعد أن يكون قد أعد جيش إفريقية بعد ذلك بسنتين أو ثلاث سنوات فقط أي سنة ٧٣ هـ ، لأنه كان محاطاً

(١) Gautier, op, cit. p. 248 (٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٠٠ — ٢٠٢
(٣) ابن الأثير ، أسد الغابة ، جـ ٤ ، ص ١١٣ (٤) ابن خلدون ، جـ ٤ ، ص ١٨٧
(٥) البيان المغرب ، ابن عذارى ، ص ٢٤ (٦) القيرواني ، كتاب المؤنس ، ص ٣١
(٧) الباجي ، الخلاصة النقية ، ص ١٠

إذ ذاك بالخارجين عليه والواثبين به من طوائف الشيعة وغيرهم ، وإنما يغلب أن الحملة سارت سنة ٧٦ هـ أو سنة ٧٨ هـ لأن عبد الملك ما كان ليستغنى عن أربعين ألفاً من جنوده إلا بعد خمود الفتن واستقرار الأحوال ، ولم يكن ذلك إلا بعد سنة ٧٥هـ .

يتفق المؤرخان البيزنطيان تيوفانيس ونقفور[١] على القول بأن حسان هاجم قرطاجنة هجومه الأول سنة ٦٩٥ م أى سنة ٧٦ هـ ، أى أنهما يؤيدان رأى القيروانى ، وقد وافق كودل على ذلك بعد تردد كثير[٢] إذ قال : « إنه يرجح هذه السنة مع إضافة شكوكه إلى شكوك فورنل وأمارى وديل[٣] » . وليس هناك ما يمنع قبول رأيه هذا وتحديد سنة ٧٦ هـ لهذه الحملة .

— ٣ —

اهتمام عبد الملك بحملة حسان

لم يرد لحسان بن النعمان ذكر فى فتوح إفريقية قبل ذلك ، و « كان أول أمير شامى يدخل إفريقية أيام الأمويين[٤] » كما يقول المالكى . ويبدو أنه كان من رجال بنى أمية المقربين الموثوق فيهم ، لأن الباجى والسلاوى يذكران أنه كان يلقب بالشيخ الأمين[٥] ، وسيتضح من أعماله وخططه أنه كان على شىء كبير من القدرة السياسية والمهارة الحربية وبعد النظر ، مما يدل على أن ذلك لم يكن أول عهده بالإمارة والقيادة ، وعلى أن عبد الملك تخيره بالذات لإتمام هذا الفتح الذى انقضت إلى الآن خمسون سنة ونيف دون أن ينتهى إلى نتيجة حاسمة .

اهتم عبد الملك اهتماماً عظيماً بأمر الجيش الذاهب إلى إفريقية، «فلما قتل ابن الزبير

---

(١) Theophanes, op. cit. p. 370.— Neciphore, op. cit. p. 39.— Diehl, op. cit. p. 583.

(٢) Caudel, op. cit. p. 159.

(٣) اختار فورنل سنة ٧٧ هـ أى وقف موقفاً وسطاً بين سنة ٧٦ هـ وسنة ٧٨ هـ وتردد أمارى بين سنة ٧٤ هـ وسنة ٧٥ هـ معتمداً على ابن الأثير ، وقبل ديل سنة ٧٣ هـ نقلا عن ابن عبد الحكم ، وفى عباراتهم جميعاً ترجيح لا قطع .

(٤) المالكى ، رياض النفوس ، ص ١١

(٥) الباجى ، الخلاصة النقية ، ص ١٠ — السلاوى ، كتاب الاستقصاء ، ص ١٢

واجتمع المسلمون عليه جهز جيشاً كثيراً واستعمل على إفريقية حسان بن النعمان الغسانى ، وسيرهم إليها فى هذه السنة (٧٤ هـ) فلم يدخل إفريقية قط جيش مثله[١] » .
ولم يبالغ ابن الأثير فيما ذكر ، لأن عدة الجيش كانت أربعين ألفاً[٢] ، ويبدو أن عبد الملك تردد قبل أن يبعث بهذا العدد الكبير من الجند إلى إفريقية ، لأنه كان محاطاً بالمصاعب والأعداء الذين كانوا يتهددونه بالوثوب به بين ساعة وأخرى ، « فأمر حسان بن النعمان بالمقام فى مصر فى عسكر عدته أربعون ألفاً وتركه عدة لما يحدث ، فكتب إليه بالنهوض إلى إفريقية ويقول : إنى أطلقت يدك فى أموال مصر فاعط من معك ومن ورد عليك من الناس واخرج على جهاد إفريقية على بركة الله[٣] » . ولا نعلم متى أمر حسان بالمقام فى مصر ولا متى شخص إلى إفريقية ، ولكن الظاهر أن حسان لم ينفق هذه الفترة التى قضاها فى مصر سدى ، وإنما جمل يعد جنده لهذا الفتح ، لأن القيروانى يذكر أن عبد الملك أطلق يده فى أموال مصر يعطى منها ما شاء لمن يرد عليه من الناس[٤] .

سير حسان

سار حسان إلى إفريقية مسرعاً ، فاجتاز برقة وطرابلس دون أن يلقى مقاومة حتى أفضى إلى سهل تونس ، ولا نزاع فى أنه كان قد رسم لنفسه خطة العمل قبل مسيره ، لأنه سيتجه إلى قرطاجنة رأساً للقضاء على الروم وسيلح فى ذلك إلحاحاً شديداً حتى يتم له ما يريد ، ويذكر ابن عبد الحكم رواية يفهم منها أنه وجد بطرابلس نفراً من المسلمين — ما بين عرب وبربر — فأخذهم معه إذ يقول : « ثم قدم حسان بن النعمانى والياً على المغرب ، أمّره عليها عبد الملك بن مروان فى سنة ٧٣ هـ ، فمضى فى جيش كبير حتى نزل طرابلس ، واجتمع إليه بها من كان

---

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ، ص ١١٣

(٢) يتفق ابن عذارى والنويرى والقيروانى والباجى والسلاوى على ذلك ، وينفرد المالكى بالقول بأن عدة الجيش كانت ستة آلاف وهو ظاهر الخطأ .

(٣) النويرى ، نهاية الأرب ، ص ٧٤ (٤) القيروانى ، المؤنس ، ص ٣٦

خرج من إفريقية وطرابلس ، فوجه على مقدمته محمد بن أبى بكير وهلال بن شروان (فى بعض النسخ مالك بن مروان وفى بعضها الآخر ابن تومان) وزهير بن قيس[1] »

ولم يرد لهلال اللواتى هذا ذكر فى غير ابن عبد الحكم ، ولم يوضح لنا هذا الأخير حقيقة أمره ، ولكن ذكره هنا عظيم الأهمية فهو يدل على أحد أمرين : إما أن هلالا هذا أسلم وانضم للعرب ، وإما أنه ناصرهم وأخذ جانبهم فوثقوا فيه ، وأقاموه فى مقام كبير من جيشهم ، ويفهم منه فى كلتا الحالين أن المسلمين كسبوا لأنفسهم أنصاراً من أهل البلاد ، يدلونهم فى مسيرهم وينصرونهم ويقاتلون معهم جنباً إلى جنب، وهذا أمر عظيم الأهمية لهذا الفتح، وكونه لواتياً يعزز الرأى الذى سبق بيانه من أن جل أنصار العرب فى البلاد كانوا من البربر الجنوبيين البدو ، وقد سبقت إلى ذلك إشارات طفيفة ، ولكن عبارة ابن عبد الحكم هذه صريحة لا تحتمل إلا تأويلا واحداً ، وهو أن نفراً من لواتة دخل فى الإسلام أو حارب فى صفوف العرب ودخل فى خدمتهم ، إذ لا نزاع فى أن العرب كسبوا منها أنصاراً كثيرين غير هلال هذا .

وصول حسان إلى القيروان

وصل حسان إلى القيروان ودخلها وأقام فيها آمن السرب لايهدده أحد ، وهذا ينهض دليلا على بطلان دعوى « ديل » أن الروم استعادوا الولاية الداخلية كلها بعد انتصارهم فى برقة ، فلو قد صدق فى ذلك لوجد حسان للروم أثراً فى مسيره فى هذه الولاية التى دخلها بعد عبوره بقابس ؛ بيد أن قول النويرى إن حسان سأل عن أعظم ملك بقى بإفريقية فقيل له صاحب قرطاجنة[2] ، يدل على أن الموقف السياسى تغير فى البلاد بعد مقتل كسيلة ورحيل العرب ، فانتقلت الزعامة من البربر إلى الروم ، وأن قرطاجنة نهضت مرة أخرى واشتد ساعدها وأقام فيها حاكم

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٠٠

(٢) النويرى ، نهاية الأرب ، ص ٧٤ أ

مرهوب الجانب من أهل البلاد ، فيعترفون بأنه أعظم ملك بقى بافريقية . ولا يبعد أن تكون الدولة البيزنطية قد عينت فى إفريقيـة بطريقاً جديداً يقوم بشئونها بعد إذ تركها العرب وعادت سيرتها الأولى .

مسير حسان إلى إفريقيـة

والغالب أن الروم لم يكونوا يتوقعون مسير العرب إليهم بهـــذه السرعة ، ففوجئوا بجيش حسان قبل أن يتخذوا الأهبة لرده ، وعرف حسان أهمية التعجيل بالعمل فلم يبطىء ، بل جمع جنـده ومضى إلى الشمال ، على أن الغالب أن عودته ومسيره نحو قرطاجنة أقلق الروم ونفراً من البربر فتسارعوا نحو هذا البلد ، ويقول ابن الأثير : « فلمـا ورد القيروان تجهز منها وسار إلى قرطاجنة وكان صاحبها أعظم ملوك إفريقية ، ولم يكن المسلمون قط حاربوها (كذا) فلما وصل إليها رأى بهـا من الروم والبربر مالا يحصى كثرة ، فقاتلهم وحصرهم وقتل منهم كثيراً ، فلما رأوا ذلك اجتمع رأيهم على الهرب ، فركبوا مراكبهم وسار بعضهم إلى صقلية وبعضهم إلى الأندلس ، ودخلها حسان بالسيف فسبى ونهب [1] » ممـا يدل على أن وقوف حسـان بقرطاجنة لم يطل ، وأنه لم يكد ينازل الروم بظاهرها حتى طلبوا النجاة ، فأسلموا المدينة وفروا فى سفنهم وبهذا سقطت قرطاجنة بدون عناء كبير [2] .

---

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، جـ٤ ، ص ١١٣

(٢) روى البكرى أن : «حسان بن النعمان سار إلى أرطة فقاتل الروم بفحص تونس ، فسأله الروم أن لا يدخل عليهم وأن يضع الخراج عليهم ويقوموا له بمـا يحمله وأصحابه ، فأجابهم إلى ذلك ، وكانت لهم سفن معدة من ناحية الباب الذى يقال له باب النساء ، فاحتملوا فيها أهلهم وأموالهم وهربوا ليلا وأسـلموا المدينة ، فدخلها حسان فحرق وخرب وبنى فيها مسجداً وبقى هناك طائفة من المسلمين » وهذا كلام غير مفهوم ، لأن تونس لم تكن قامت حتى الآن ، ولم تكن القرية التى أقيمت عليها واقعة على البحر حتى يقلع الروم منها فى سفنهم ، ممـا يدل على أن هذا القتال لم يقع فى تونس بل فى مدينة أخرى ، ثم يعقب ذلك بذكر حادث جرى لحسان مع صاحب قرطاجنة فى تلك الحملة ، مما يؤكد أن البكرى أراد بقوله هـذا حملة حسان على قرطاجنة ، فإذا صـدق ذلك كان دليلا على أن قرطاجنة كان فيهـا بطريق إذ ذاك يقال له سرناق ، وأن أهلها فوجئوا بحسان فلم يجدوا بدا من الفرار ليعودوا مع مدد قوى كما يرى ، وهـذا =

لم يلبث حسان أن انصرف عن قرطاجنة عائداً إلى القيروان ، وكان أهلها الذين هربوا منها قد تفرقوا فيما يحيط بها من النواحي طلباً للنجاة . فلما وجدوه يبرحها على عجل عادوا إليها مسرعين للاعتصام فيها . وكان الخوف من العرب قد بلغ منهم مبلغاً عظيما ، فأسرعوا يحصنون المدينة ويصلحون أسوارها ، فتسامع حسان بذلك فأهمه ، وعرف أن لهذا الأمر معناه ، فعاد بمن معه مرة أخرى إلى قرطاجنة « ونزل عليها فحاصرها حصاراً شديداً حتى دخلها بالسيف ، فقتلهم قتلا ذريعاً وسباهم ونهبهم ، وأرسل لمن حواليها فاجتمعوا إليها مسارعين خوفاً من عظيم سطوته وشدة بأسه ، فلما أتوه ولم يبق منهم أحد أمرهم بتخريب قرطاجنة وهدمها فخربوها حتى صارت كأمس الغابر »[1] ويبدو أن ابن عذارى بالغ فى وصف ما فعل حسان بقرطاجنة ، لأن الأحداث المقبلة تدل على أن المسلمين لم يخربوها تماماً ، وإنما بقيت على درجة كبيرة من المنعة ، حتى أن الروم سيتحصنون بها مرة أخرى بعد ذلك بسنوات ، وهذا ما يفهم من قول النويرى : «فهدم المسلمون ما أمكنهم منها»[2] .

تنبه حسان بعد ذلك الحادث إلى أن الروم لا زالوا على شيء من القوة والكثرة فى نواحى كثيرة مما يحيط بقرطاجنة ، وأنه لا زالت لهم مدائن وحصون يحتمون بها بعد إذ انقطع رجاؤهم من قرطاجنة نفسها ، أى أن القاطعة القنصلية كانت عامرة الجوانب بهم ما تزال ، ولهذا لم يعجل بالعود إلى القيروان وإنما أعد المدة لضربة أخرى ينزلها بالروم .

عودته إلى قرطاجنة

يقول ابن الأثير : « ثم بلغه أن الروم والبربر قد اجتمعوا له فى صَطفُورة وبنزرت وهما مدينتان ، فسار إليهم وقاتلهم ولقى منهم شدة وقوة ، فصبر لهم المسلمون

= يدل على أن فتح المدينة لم يكن إلا مجرد محاولة كما يفهم من قول ابن عبد الحكم : « وخرج إلى مدينة قرطاجنة وفيها الروم فلم يصب فيها إلا قليلا من صنائعهم فانصرف » — وقد نقل ابن الباجى رواية البكرى حرفياً.

ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٠٠ . البكرى وصف إفريقية ، ص ٣٧

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ص ٢٠ (٢) النويرى ، نهاية الأرب ، ص ٧٤ ب

فانهزمت الروم وكثر القتل فيهم واستولوا على بلادهم ، ولم يترك حسان موضعاً من بلادهم إلا وطئه ، وخافه أهل إفريقية خوفاً شديداً ، ولجأ المنهزمون من الروم إلى مدينة باجة فتحصنوا بها ، وتحصن البربر بمدينة بونة ، فعاد حسان إلى القيروان ، لأن الجراح قد كثرت فى أصحابه فأقام بها حتى صحوا[1] » وقد نقل النويرى هذه الرواية عنه ، وأوردها ابن خلدون وابن عذارى باختلاف قليل فى الألفاظ [2] مما يؤيد صدقها ويؤكد أن حسان أعقب حملته على قرطاجنة بسير إلى الشمال حيث لقى جموعا من الروم اعتصمت فى هذا الجزء البحرى للهروب فى السفن فى الغالب ، ويبدو من افتراق الروم عن البربر واتجاه كل منهما ناحية أن الفزع والجبن معاً استوليا عليهم فلم يعودوا يطلبون إلا النجاة .

بهذه الضربات الثلاث اطمأن حسان إلى أنه قضى على الروم القضاء الذى لن تقوم لهم بعده قائمة ، ويبدو أن طول القتال قد نال من أصحابه وأصاب منهم كثيراً ، فمال إلى العودة إلى القيروان ليريحهم بعد ذلك العناء الطويل ، فانصرف عائداً إلى القيروان غير عالم بأنه مادام روم إفريقية[3] محتلين بعض مدائن الساحل مستطيعين الاتصال ببلاد الدولة لطلب المدد والعون فلا قضاء عليهم .

---

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ١١٣ . وسطفورة إقليم بحرى وصفه ابن حوقل بأنه إقليم بحرى فسيح ، يضم ثلاث مدن قريبة جداً من تونس وهى : أنبلونة وباجة وبنزرت ، أما الإدريسى فيذكر ثلاثة المدن هكذا : أشلونة وشنجة وبنزرت وكلا الوصفين غير دقيق ، وربما صح القول جملة بأن إقليم سطفورة هو شبه الجزيرة الواقع شمالى تونس الذى تقع فيه بنزرت ، وقد ذكرها ياقوت سطفورة ، وابن الأثير اصطفورة ، وقد اعترض فورنل على ذكر باجة فى هذا الموضع حاسباً أن المراد بها بجاية .

(٢) النويرى ، نهاية الأرب ، ورقة ٧٤ ب — ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٨٧ — ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٢٠

(٣) أخطأ المالكى فذكر أن حسان أنشأ دار الصناعة فى تونس فى هجومه هذا على قرطاجنة لأن ذلك تم فى حملته الثانية التى سيأتى ذكرها ، وقد وافقه كودل فى ذلك على عادته — المالكى ، رياض النفوس ، ورقة ١١

ثورة الكاهنة

عاد حسان إلى القيروان ليريح أصحابه مما أصابهم فى حملة قرطاجنة ، وأغلب الظن أن أخبار الكاهنة لم تكن قد وصلت إلى أسماعه قبل ذلك العود ، لأن المراجع تذكر أنه عرف أخبارها وسأل عنها بعد عوده إلى القيروان ، فيذكر ابن الأثير أنه قال : « دلونى على أعظم من بقى من ملوك إفريقية ؟ فدلوه على امرأة تملك البربر تعرف بالكاهنة[1] » ويؤيده فى ذلك مؤرخون كثيرون .

من هى الكاهنة ؟

يختلف الناس فى شأن الكاهنة اختلافاً بيناً ، بل يميل بعضهم إلى إنكارها أصلا معتمداً على ما يشوب أخبارها كلها من المسحة الأسطورية ، ومن هؤلاء ليبو الذى يزعم أن هذه الكاهنة ما هى إلا البطريق يوحنا نفسه[2] ، مؤكداً أن ذلك الرأى قال به نفر من أوثق العلماء ذكر فى مقدمتهم أوتر Otter ، وهذا مذهب لا يقل خيالا أو خطأ عن روايات المؤرخين المسلمين الذين سخرهم منهم ، فعلاوة على ما سيتضح بعد قليل من أن البطريق يوحنا وحملته مذكوران فى الكتب العربية بوضوح إلى جانب قصة الكاهنة ، فقد أكد فورنل أن ليبو اختلق على أوتر ذلك القول ، إذ لم يقل الرجل منه شيئاً .

تجتمع الآراء كلها على وجود الكاهنة وعلى ذكر الدور العظيم الذى قامت به أثناء فتوح إفريقية ، ولكن شخصيتها وحقيقة أمرها لازالت غامضة فى حاجة إلى كثير من التوضيح والتفصيل .

---

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، جـ ٤ ، ص ١٤٣

(٢) قال ليبو : « أحاط العرب — الذين يغرمون بغريب الحديث غراماً شديداً — قصة هذه الثورة بجو من الخيال ، فيذهبون كما تزعم رواياتهم إلى أنه كانت هناك ملكة للبربر تسمى الكاهنة تمكنت من هزيمة العرب أول الأمر ، وهذه الكاهنة — كما استبان لنفر من أوثق العلماء — ليست إلا البطريق يوحنا نفسه ؛ أظهره المؤرخون فى شكل امرأة لأنه كان خصياً » وقد ذكر أنه أخذ ذلك الرأى عن أوتر ولكن فورنل أكد أن أوتر لم يقل ذلك .

يذكر السلاوى رواية عن هانىء بن نكور الضريسى : « أن الكاهنة كان لها ثلاثة أبناء ورثوا رياسة قومهم عن أبيهم » ويبدو أنهم كانوا صغاراً ، « فاستبدت بهم وصارت رياسة قبيلة جراوة لها » ثم يذكر أنها ملكت البربر خمسا وثلاثين سنة وأن انتقاضها على حسان لم يكن أول عهدها بكفاح العرب ، وإنما كان لها ضلع فى مقتل عقبة إذ أغرت به برابرة الزاب فقتلوه ، وأن زعامة البربر صارت إليها بعد مقتل كسيلة ، إذ اجتمعوا إليها ونصرها منهم نفر غفير فيهم : « بنو يفرن ومن كان بإفريقية من قبائل زناتة وسائر البتر[1] » ويذكر ابن عذارى أنه : « كان لها ابنان : أحدهما بربرى والآخر يونانى[2] » وهاتان هما الروايتان الوحيدتان اللتان تعطياننا فكرة واضحة بعض الشىء عن حقيقة هذه المرأة وأصلها .

كانت الكاهنة إذن فى أول أمرها زوجا لرئيس من رؤساء قبيلة جراوة ، وجراوة إحدى قبائل البتر الحضر المقيمين فى الأوراس ، ويفهم من رواية ابن عذارى أن جراوة كانت على صلة بالروم وثيقة بعض الشىء فى هذه الأيام ، صلة تسمح بالمصاهرة والنسب ، ثم توفى عنها زوجها وخلف لها ابنين أوصى لهما بر ياسة القبيلة من بعده ، والظاهر أنها كانت مسموعة الكلمة فى قومها ، مهيبة الجانب بين ذويها ، فاستطاعت أن تحفظ الأمر لابنيها القاصرين ، ويستبعد أن تكون استأثرت بالأمر من دونهما أو استبدت بهما كما يذكر السلاوى ، لأن الحوادث التالية تدل على أنها كانت شديدة الحب لهما ، لا تتردد عن تضحية نفسها فى سبيلهما .

أما علاقة الكاهنة بكسيلة وقومه وثورته فغير واضحة ، ويبدو أنها غير صحيحة ،

---

(١) السلاوى ، الاستقصاء ، ص ٤٢ — ٤٣

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٢١

بل يغلب أن القول بأن الكاهنة قادت ثورة البربر بعد كسيلة ضعيف لا تؤيده الحوادث ولا المعروف عن البلاد وأهلها ونظام قبائلها ، والحقيقة أن لا صلة بين كسيلة والكاهنة ولم تكن بين الاثنين علاقة ما .

ثورة كسيلة هى مقاومة البرانس المستقرين يمزهم الروم وينصرونهم لأنهم نصارى أو آخذون بأسباب الحضارة البيزنطية ، ودفاعهم كان عن النواحى العامرة الفسيحة التى كان هؤلاء البرانس الحضر يعمرونها ويفلحون أرضها ويرسلون سوائمهم فى مراعيها وسفوحها ، وهى ثورة مدبرة مرسومة الخطة فيها معنى الانتقام لما أصاب كسيلة من المهانة على يد عقبة .

حقيقة ثورة الكاهنة

أما ثورة الكاهنة فثورة قبيلة يهودية احتفظت ببقايا من الحضارة القديمة ، وطال عهدها بالاستقلال لضعف الحكام البيزنطيين وعجزهم من إخضاع البتر فى الصحراء والهضاب ، والراجح أن هذه المرأة لم ترفع راية العصيان إلا حين تسامعت بمسير حسان إليها ، وأنها كانت مطمئنة فى نواحيها ترقب مصير كسيلة ثم مصير الروم على يد حسان ، فلما رأت حسان ينوى المسير نحوها أخذت تستعد للقائه ورده عن بلادها ، ويغلب أنها ما كانت لتثور أو تنتقض لولا مسير حسان نحوها وتهديده بلادها ، فإذا أضفنا إلى ذلك أنها كانت شديدة الحب لابنيها عظيمة الحرص على أن تستبقى لهما الملك الذى خلفه لهما أبوهما ، عرفنا أن مسير حسان نحوها أفزعها على مصيرهما ، ودليل هذا أنها مالت إلى التسليم حين اطمأنت على مصير ولديها عند حسان ، وأن القبيلة كلها بدأت تدخل الإسلام وتأخذ جانب العرب عقب مقتل الكاهنة مباشرة .

أما رفض قصة الكاهنة والشك فى أمرها لمجرد أنها امرأة لحجة ضعيفة ، يؤكد بطلانها أن المرأة لا تكاد تقل مقاماً أو احتراماً عن الرجل عند كثير من قبائل البربر ، بل من النساء البربريات صالحات يقمن إلى اليوم مقام الأولياء الرجال ،

يتكهن ويستشيرهن الناس ويحجون بالزيارة والدعاء إلى أضرحتهن [١]، بيد أن ذلك لا يمنع من القول أن المؤرخين بالغوا فى وصف سلطان الكاهنة مبالغة غير محمودة، فقول ابن عذارى: « فدلوه على امرأة بجبال أوراس يقال لها الكاهنة وجميع من بإفريقيـــة من الروم منها خائفون وجميع البربر لها مطيعون .... فإن قتلتها دان لك المغرب كله ولم يبق لك مضاد ولا معاند » [٢] يوهم بأن سلطان هذه المرأة كان يشـمل المغرب كله وأنها كانت مرهوبة الجانب فى كافة أنحاء البـلاد، وليس هنالك دليل واحد يؤيد ذلك، ولعل أقرب أقوال هؤلاء المؤرخين إلى الصحة هو قول ابن خلدون يصف حال البربر بعد استشهاد زهير: « واضطربت إفريقية ناراً وافترق البربر وتعدد سـلطانهم فى رؤسائهم، وكان من أعظمهم شأناً يومئـذ الكاهنة داهيا بنت ماتية بن تيفان ملكة جبل أوراس، وقومها من جراوة ملوك البتر وزعمائهم » [٣]. فهذا تصوير صحيح يضع الأمور فى نصابها ويجعل الكاهنة زعيمة على جراوة فقط.

---

(١) راجع: Fournel, op. cit. I. p. 217، وقد ذكر الدكتور إدوارد وسترمارك أن هؤلاء الصالحات كثيرات الوجود بمراكش، وأن هذه البلاد تنفرد بذلك عن عامة بلاد المسلمين، وأكد أن مسلمى مراكش استبقوا ذلك من أيام وثنيتهم الأولى. وذكر إيفير امرأة شديدة الشبه بالكاهنة كانت لها شبه زعامة على بعض البربر الذين كانوا يناوئون الفرنسيين واسمها لالاّ فاطمة Lalla Fatma أنظر: E. Westermarck, Ritual and belief in Moroco, vol. I. p. 51
Enc. de l'islam : Kahina (G. Yver).

(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١، ص ٢٠

(٣) ابن خلدون، ج ٦، ص ١٠٩. ولا يستطاع تحقيق هذا الإسم الذى أطلقه ابن خلدون على الكاهنة، وقد حرفه غيره فجعله دامية، وظاهر أن « الكاهنة » لقب أطلقه العرب عليها لا إسم علم، ولكن جوتييه حاول أن يثبت أنه إسم علم أصله فينيقى، لأن كلمة « كاهنة » عبرية لا عربيـة، وأنها مؤنث كوهين، وذلك رأى غير مستقيم أساسه عبث بالألفاظ، وقد علل ابن الأثير سبب إطـلاقه عليها بقوله: « وكانت تخبرهم بشىء من الغيب فسميت الكاهنة » — ابن الأثير، أسد الغابة، ج ٤، ص ١٤٣ Gautier, op. cit p 245.

بيد أن المؤلفين الفرنسيين يرون فى الكاهنة رأياً آخر ، و يفسرون حركتها تفاسير تذهب بالقارىء مذاهب لاتقل خطأ عن آراء من اتبع الخيال من العرب ، فهم يرون فيها زعيمة للجنس البربرى منافحة عن استقلاله أمام العرب الغاصبين المعتدين ، حتى كودل وجوتييه على الرغم من اعتدالهما وإنصافهما (فى أكثر الأحيان) فأنهما رأيا فى الحركة لوناً من الوطنية ، بل أكد كودل أن الكاهنة أثارت فى البلاد روحاً وطنياً [1] ، وبهذا أصبح هذا الحادث العادى مشكلة من مشاكل التاريخ البربرى ، لايكاد الفكر يستقر فيه على رأى بين خيال الرواة ودعاوى الفرنسيين .

خوف الكاهنة من مسير حسان

أغلب الظن أن الكاهنة كانت تتوقع مسير العرب إليها ، لأنها لم تكد تتسامع بمسير حسان إليها حتى رحلت من الجبل فى عدد « لا يحصى ولايدرك بالاستقصا » كما يقول ابن عذارى [2] ، فلو لم تكن تتوقع مسيره لما سهل عليها جمع هذا العدد العظيم والانتقال بهم إلى الجبل مسرعة ، وحطت رحالها عند بَاغَايَةَ وهى مدينة حصينة على سفح الأوراس تقوم من الجبال مقام الباب من الدار ، وقد أرادت

---

(١) من ذلك قول مرسييه يعلق على انتصار الكاهنة على حسان ومعاملتها لأسرى المسلمين: « وهكذا ضرب البربر المتوحشون — للمرة الثانية — مثلا فى الإنسانية لهؤلاء الذين لم يكونوا يتخذون أساليب أخرى غير العنف والقتل » ثم قال مرة أخرى فى معرض الكلام عن تخريب الكاهنة لإفريقية : « كانت هذه تضحية وطنية ، وقد أقدم عليها الوطنيون أكثر من مرة إذ يفضلون خراب بلادهم على الاستعباد » أما فورنل نصير البربر الذى ألف كتابه ليظهر أنهم أشرف من العرب وأفضل ، وأنهم أصحاب البلاد والعرب دخلاء فقد حرص أثناء كلامه على أن لا يكف متندداً بالعرب ساخراً منهم كقوله عن الكاهنة : « والمرأة عند البربر مخلوق محترم وليست كما هى عند العرب مخلوقاً محتقراً مهاناً » وهكذا . ويؤكد كودل أن الكاهنة أثارت فى البلاد روحاً وطنياً وحفزت القوم إلى الاستعداد للقاء العرب ، وستأتى مناقشة آراء جوتييه لأنها على جانب كبير من الأهمية فى توضيح الحالة السياسية للبلاد .

Mercier, op. cit. I, pp. 214-215 . Fournel, op. cit. I, pp. 217-219.

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ص ٢٠ ، وقد ذكر مرسييه أن الكاهنة كانت — أثناء اشتغال حسان بالحملة على قرطاجنة — تثير القبائل وتحمسها لقتال العرب ، وليس هناك ما يؤيد ذلك وإن كان ممكن التصديق .Mercier, op. cit, vol. I. p. 211

الكاهنة بذلك أن تكون على مقربة من مواطن جراوة الأصلية في الأوراس ، لكي تستمد منها العون أو تطلب النجاة فيها إذا دارت الدائرة عليها ، ولم يكد المقام يستقر بها هناك حتى خشيت أن يتحصن العرب في باغاية ، فيحتلوا ذلك الحرس الهام الذي يشرف على مدخل الأوراس ، فأمرت بهدمها فهدمت وهذا العمل يدل دلالة واضحة على أن الكاهنة كانت تحارب منفردة بدون عون من الروم ، ولو كان هؤلاء إلى جانبها كما كانوا إلى جانب البربر أثناء حملة عقبة وثورة كسيلة لنصحوا لها بالتحصن في باغاية والاحتماء من العرب فيها ، فقد سبق أن استطاع هذا الحصن أن يصمد للعرب ويستعصى عليهم ، ولكن حركة الكاهنة كانت حركة بربرية صرفة لا تعرف حرب الحصون ولا المناجزة خلف الأسوار ، وإنما أسلوبها هو اللقاء في الأرض الفضاء بالحراب والسيوف وما إلى ذلك ، وكان حسان مثلها لا يفكر في الاحتماء بالحصون ، فلم يعرج على ذلك الحصن وسار إليها فالتقوا على نهر نيني [1] .

بذلك يمكن تصور الطريق الذي اتخذه حسان : خرج من القيروان وسار محاذياً «واد فِكّاً» الذي يسمى في مجراه الأدنى « واد حاطوب » ومضى حتى أدرك تِبِسّة على المجرى الأعلى لواد مِلِّجْ ، ومن تبسة اتجه شمالا بشرق في واد كثير النهيرات والأخوار والزروع حتى أدرك واد نِيني ، ويغلب أنه أحد النهيرات التي تصب في « جرعة الطرف » [2] ، وهناك عسكر وجعل ينتظر الكاهنة .

---

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ١٤٤

(٢) يسميه ابن عذارى وادى سكتانة ، وابن خلدون مسكيانة ، ولم يرد لنهر نيني ذكر إلا في ياقوت الذي وصفه بأنه واد شهير في طرف إفريقية ، وقد جاء في شو أن نيني Neeny مدينة كبيرة شرق بجاية — ابن عذارى ، البيان المغرب ، ص ٢١ — ابن خلدون ، ج ٤ ، ص Shaw, Voyoges, op. cit. I, p. 164 وقد ذهب إيفير إلى أن مسكيانة قريبة من موضع قسنطينة الحالية Enc. de L'Islam : Kahina.

والعة نيني كانت معركة نيني شديدة حامية اضطر حسانُ جندَه إلى خوض غمارها وهم بعد مجهدون من آثار حملة قرطاجنة وما تلاها ، ولهذا تخونهم التوفيق والعزم . وإذا أضفنا إلى ذلك أن العرب كانوا يقاتلون هذه المرة قوماً مثلهم ؛ بدواً يجيدون النزال فى الميدان ، طال عهدهم بصراع البيزنطيين ، وأن الكاهنة استطاعت بما لها من السلطان عليهم والمكانة من نفوسهم أن تثيرهم وتحفز هممهم لقتال العرب وردهم عن الأوراس ، إذا ذكرنا هذا كله أمكننا أن نتصور كيف ثبت البربر للعرب هذه المرة ، بل كيف استبانوا ضعفهم فتحمسوا تحمساً شديداً وهجموا عليهم جميعاً هجوماً لم يكونوا يتوقعونه ، فدارت الدائرة على العرب واضطروا إلى التقهقر بعد قتال شديد يصفه ابن عذارى بقوله : « فلما أصبح الصباح التقى الجمعان وصبر الفريقان صبراً لم ينسبه أحد إلى بعضه فضلا عن كله ، إلى أن انهزم حسان بن النعمان ومن معه من المسلمين الشجعان ، وقتلت الكاهنة العرب قتلا ذريعاً وأسرت ثمانين رجلا من أعيان أصحابه ، وسمى ذلك الوادى وادى العذارى، واتبعته الكاهنة حتى خرج من عمل قابس[٢] » وبهذا لم تكتف الكاهنة بهزيمة العرب فى قلب الأوراس وإنما تتبعت حسان حتى أخرجته من حدود إفريقية واطمأنت على سلطانها منه ثم عادت أدراجها .

---

(١) قال كودل : « تقاربت القبائل البربرية تحت ضغط العرب ، وجمعوا جمعهم وبحثوا عن رئيس ، فوجدوا فى المرة الأولى الحاكم اليونانى جرجير فانضووا تحت لوائه لجرمهم معه حين انهزم ، فلم يلبثوا أن تجمعوا مرة أخرى واختاروا أميراً من جنسهم وهو كسيلة فقاسموه الظفر ثم الهزيمة الأخيرة ، وفى هذه المرة ارتضوا لأنفسهم امرأة رئيسة » ثم أعقب ذلك كلام عن مركز المرأة فى المجتمع البربرى ، وفى هذا ما يفهم أن البربر أمة واحدة تشعر بشعور واحد وتحس إحساساً وطنياً ولا تفتأ تقاوم العرب ، وأنهم — بترا وبرانس يونان وبربر — كانوا إلباً واحداً على العرب ، وليست الحقيقة كذلك ، بل كودل نفسه يكذب هذا الرأى فى الجزء الأول من كتابه : Caudel, op. cit. II. pp. 160-161

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٢٠ — ٢١

انهزام حسان إلى برقة

اكتفت الكاهنة بذلك ، وكان فى إمكانها أن تسير إلى القيروان ولكنها لم تفعل ، مما يدل على أنها لم تكن على تمام العلم بما أتاه كسيلة حين انتصر على عقبة ، ثم سار إلى القيروان رأساً فطرد زهير واتخذ العاصمة الإسلامية له مركزاً ، ولو كانت الكاهنة تريد أن تقيم إمبراطورية كالتى ينسبها إليها كودل[1] لما ترددت فى المسير إلى القيروان ، ولكنها لم تكن ترجو شيئاً بعد خلاص منازل قبيلتها وملك أبنائها فى الأوراس ، فاكتفت بإبعاد العرب ، وكانت القيروان إذ ذاك و بعد انصراف حسان عامرة بالمسلمين كما يفهم من قول ابن عبد الحكم ، « وأفلت حسان ونفذ من مكانه إلى أنطابلس ، فنزل قصوراً من حيز برقة ، فسميت قصور حسان واستخلف على إفريقية أبا صالح[2] » ويبدو كذلك أن حسان لم يجد من الفراغ ما يسمح له بالمرور بالقيروان واصطحاب من كان خلفه بها من المسلمين ، و إنما اضطر إلى التعجيل بالتقهقر إلى قابس ، فلم يجد بداً من أن يرسل أحد رجاله — أبا صالح — إلى القيروان ليبلغ أهلها ما نزل بالمسلمين ولينبههم للفرار أو اتخاذ الحذر ، وهذا ما يفهم من قول الدباغ فى معالم الإيمان : « وطفق يرفق فى سيره طمعاً فيمن نجا من أصحابه أن يلحقوا به[3] » .

القيروان فى غياب المسلمين

ومهما يكن من شىء فقد بقيت القيروان على حالها لم تمسسها الكاهنة بسوء ، فأقام من بها من المسلمين يقوم بأمرهم أبو صالح هذا ، ولم تحفل الكاهنة لهم و إنما عادت إلى الأوراس ، وبهذا لا نخطىء إذا وصفنا حركة الكاهنة بأنها لم تكن أكثر من ثورة محلية فى ناحية من نواحى البلاد لا حركة انتقاض تام ، وكان حسان يفهم الحركة هذا الفهم ، ولهذا أقام فى طرابلس ينتظر المدد و ينظم أموره هناك ، فابتنى لنفسه منازل على مقربة من صرت سميت قصور حسان ؛ «وكانت أنطابلس ولوبية

---

(1) Caudel, op. cit. II, p. 160

(2) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ج ١ ، ص ٥٧ (3) الدباغ ، معالم الإيمان ، ج ١ ، ص ٥٧

ومراقيـــة إلى حد أجدابية من عمل حسان [1] » وأرســـل حسان يبسط لأمير المؤمنين عبد الملك ماحدث له ، فوصل كتاب حسان إلى عبد الملك فى فترة اصطلحت عليه فيها الأحداث ، فأرسل يستمهل حسان ويأمره أن يقيم حيث هو : « فكتب حسان إلى أمير المؤمنين عبد الملك يخبره بذلك ، وأن أمم المغرب ليس لها غاية ولا يقف أحد منها على نهاية ، كلما بادت أمة خلفتها أمم وهم من الحفل والكثرة كسائمة النعم ، فعاد له جواب أمير المؤمنين يأمره أن يقيم حيثما وافاه الجواب ، فورد عليـه فى عَمَل برقة فأقام بهـا و بنى هناك قصوراً تسمى إلى الآن قصور حسان [2] » .

— ٥ —

حال البـلاد بعد انصراف حسان

يبدو من مجموع الروايات أن البلاد لم يهدأ أمرها بعد مسير العرب منهـا ، فيذكر ابن الأثير : « وملكت الكاهنة إفريقيـة كلها وأساءت السيرة فى أهلها وعسفتهم وظلمتهم » [3] أى أن الاضطرابات سادت البلاد طوال الفترة التى تغيب العرب عنها خلالها، وذلك طبيعى لأن البربر لا يميلون بطبعهم إلى الخضوع لقوم منهم ، فلما حاولت الكاهنة أن تؤلف منهم جبهة لاتقاء هجوم العرب عارضها نفرمنهم فاضطرت إلى اصطناع الشدة معهم فثاروا بها . فانتشر الاضطراب فى البلاد بل فكر بعضهم فى الاستنجاد بالعرب واستدعائهم كما سيرى . فلم يخطىء ابن الأثير فيما ذهب إليه ، وإنما أخطأ مرسييه حين قال : « بهذا خضع الغرب من أقصاه إلى أقصاه لطاعة الكاهنة » .

وكانت الكاهنة قد أسرت نفراً من المسلمين فى موقعة نينى ولم تشأ أن تقتلهم ،

(١ — ٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٢١

(٣) ابن الأثير ، أسد الغابة ، جـ ٤ ، ص ١٤٣

وإنما فضلت الإبقاء عليهم لتتعرف منهم أخبار العرب وحقيقة أمرهم[1] ولهذا تجمع الروايات على أنها أحسنت معاملة هؤلاء الأسرى وأنزلتهم منزلا كريما، بل يذهب بعض المؤرخين إلى أنها أطلقت سراحهم، وكان من بين هؤلاء الأسرى رجل من المقربين إلى حسان وهو خالد بن يزيد العبسى، فتخيرته من بين هؤلاء الأسرى، ورأت أن تستميله إليها ليعلمها بنوايا حسان ومراميه، وبالغت فى إكرامه حتى آخته بولديها، وجعلته كأحد قومها حتى يأنس إليها ويتخذ جانبها ويتخون قومه العرب، وهذا هو التعليل المعقول لقول ابن عذارى: «وحبست عندها خالد بن يزيد، فقالت له يوماً: ما رأيت فى الرجال أجمل منك ولا أشجع، وأنا أريد أن أرضعك فتكون أخا لولدى، وكان لها ابنان: أحدهما بربرى والآخر يونانى، وقالت له: نحن جميع البربر لنا رضاع إذا فعلناه نتوارث به، فعمدت إلى دقيق الشعير فلفته بزيت وجعلته على ثديها، ودعت ولديها وقالت: كلا من على ثديى، وقالت لهم: قد صرتم إخوة»[2].

ولكن خالداً لم يكن عند ظن الكاهنة به، فانتهز فرصة عناية الكاهنة بأمره وإبعاد الرقباء عنه، وجعل يراسل حسان ويصف له أمر الكاهنة وحال إفريقية فى حكمها، فكان عينا على البربر، وأفاد حسان من ذلك فائدة كبرى كما سنرى.

الكاهنة تخرب إفريقية

ثم لاحظت الكاهنة أن العرب مايكادون ينزلون البلاد حتى تتوجه همتهم إلى المدائن والنواحى العامرة يبذلون وسعهم فى الاستيلاء عليها، فإذا تم لهم ذلك انقضوا على الخيرات والنفائس والأموال فانتهبوها ولم يخلفوا وراءهم منها شيئاً، ثم ينصرفون بعد ذلك عن إفريقية كأنما كانوا يأتون لهذا وحده، فوقع فى ظنها

(١) انتهز مرسييه موقف الكاهنة هذا ليقول: «وهكذا ضرب البربر المتوحشون العرب — الذين زعموا أنهم رسل الله والذين كانوا لا يستعملون وسائل أخرى غير العنف والقتل والتخريب — مثلا عظيما فى الكرم والعفو» Mercier, op. cit. vol. I. p. 214

(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، جـ ١، ص ٢٢

أن العرب لا يريدون من فتح هذه البلاد إلا أمراً واحداً : الأموال والغنائم والأسلاب والسبي ، فأحبت أن تقطع رجاء العرب في البلاد بأن تقضي على كل معالم العمران فيها فتجعلها قاعاً صفصفاً لا أرب فيها لناهب أو سالب ، وقد أخطأت في ذلك وخفي عنها التطور الكبير الذي شمل حركة الفتوح الإسلامية من بدء حملة عقبة الأولى وبعد قيام القيروان ، فقد كانت وجهة الفتوح قبل ذلك لا تختلف كثيراً عما رأته الكاهنة ، ولكنها أصبحت بعد ذلك ترمي إلى استكمال فتح البلاد وإدخال أهلها في الإسلام ، ومن ثم نزلت الأسلاب والغنائم إلى الموضع الثاني من اهتمام العرب ، ولم تعد همتهم منصرفة إلى المدائن والمزارع وإنما إلى أهل البلاد أنفسهم ، ولهذا لن يكون لعمل الكاهنة هذا أثر في نفس حسان ولا سياسته ، ولم تجن الكاهنة منه إلا سخط أهل البلاد عليها وتركهم إياها وميلهم إلى جانب العرب ، وهذا ما يفهم من قول ابن عذارى : « فلما رأت إبطاء العرب عنها قالت للبربر : إن العرب إنما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة ، ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعي[1] ، فلا نرى لكم إلا خراب بلاد إفريقية كلها حتى ييأس منها العرب فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر ، فوجهت قومها يقطعون الشجر ويهدمون الحصون ، فذكروا أن إفريقية كانت ظلا واحداً[2] ،

---

(١) هذا القول يؤكد أن حركة الكاهنة حركة بترية خالصة ، فلم يكن في صفوفها أحد ممن يسكنون المدن أو يتناولون الصناعة ، ولهذا أجابوها إلى ما سألت ، أما الذين عارضوها فهم البرانس والمستقرون وأهل المدائن .

(٢) سبقت الإشارة إلى هذا الوصف عند الكلام على حال إفريقية عندما فتحها العرب ، وهي أوصاف مبالغ فيها بعض الشيء كقول ابن عذارى : « فذكروا أن إفريقية كانت ظلا واحداً من أنطابلس إلى طنجة : قرى متصلة ومدائن منتظمة حتى لم يكن في أقاليم الدنيا أكثر خيرات ولا أوصل بركات ولا أكثر مدائن وحصوناً من إقليم إفريقية ، والمغرب مسيرة ألفا ميل في مثله ، وهذا مبالغ فيه مبالغة ظاهرة ، وقد روى النويري هذا الوصف بعبارة أكثر اعتدالا ولكنها ظاهرة المبالغة كذلك ونسبها إلى رجل أسماه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم — النويري ، نهاية الأرب ، ورقة ٧٥ أ — ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٦ ، ص ٢١

فخربت الكاهنة لعنها الله ذلك كله ، وخرج يومئذ من النصارى والأفارقة خلق كثير مستغيثين مما نزل بهم من الكاهنة ، فتفرقوا على الأندلس وسائر الجزر البحرية[1] »

أثر سياستها

أضر هذا العمل بقضية الكاهنة ضرراً عظيما ، لأنه إذا كان قد وُجد من أهل البلاد من يؤيدها فى مناهضة العرب وطردهم من البلاد ، فليس فيهم من يقف مكتوف الأيدى إزاء هـذا التخريب الذريع الذى اختارته الكاهنة للبلاد على يديها . وفيم جهادهم العرب إذن ؟ وعلام يبذلون النفس فى صدهم عن البـلاد إذا كان مصير البلاد إلى الخراب على أى الحالين ؟ سواء أدخل العرب أم لم يدخلوا ؟ ولهذا لم يلبث الاستياء أن عم البلاد من تصرف الكاهنة ، وأسرع بعض أهلها فاستغاث بحسان واستقدمه ، وأخذوا يعارضون الكاهنة ويناجزونها ، فاضطرب الأمر بيدها وزادت البـلاد سوءاً على سوء ، ولما كان رجاء الناس قد انقطع من الروم فقد تعلقت آمالهم كلها بالعرب ، ويؤكد النويرى ذلك بقوله : « فلما قرب حسان من البلاد لقيه جمع أهلها من الروم يستغيثون به من الكاهنة ، فسره ذلك وسـار إلى قابس فلقيه أهلها بالأموال والطاعة[2] » أى أن أهل البـلاد أصبحوا ينظرون للعرب كمخلصين ، وهذا تطور له أهميته فى علاقة البربر بالعرب واعتبار كل منهما للآخر ، وسيكون له أبعد الأثر فى إتمام فتح البلاد .

— ٦ —

عـود الروم للعمل فى عهد ليونتيوس

وجد الروم فى خروج حسـان من إفريقية فرصة سانحة لاسـتعادتها وبسط سلطانهم عليها من جديد ، وكان الإمبراطور الجديد ليونتيوس — الذى خلف جستنيان الثانى سنة ٦٩٥ م[3] (٧٤ هـ) — قد أهمه سقوط قرطاجنة فى يد العرب

(١) ابن عذراى ، البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٢١ (٢) النويرى ، نهاية الأرب ، ورقة ٧٥ أ

(٣) فى سنة ٦٩٥ م ثار ليونتيوس (ليونس) على جستنيان الثانى فتمكن من عزله — بعد أن حكم سنة وبضعة أشهر — ثم عذبه وقطع أنفه وأعلن نفسه إمبراطوراً .

Theophanes, op. cit I, p. 566
Fournel, op. cit. I. p. 214.

وتخريب حسان لها إذ : « لم يجد تسليم هذا الجزء الكبير من الإمبراطورية — دون مقاومة — أمراً سهلا على نفسه[1] » كما يقول ديل . لم تكد أخبار هزيمة حسان على نهر نيني ترد إليه حتى عجل بالعمل .

أعد الإمبراطور حملة كبيرة لإفريقية ، ويبدو أنه بذل فى إعدادها جهداً عظيما ، لأنه تخير لقيادتها قائداً من أشهر قواد الدولة وأقدرهم وهو البطريق يوحنا Patricius Jean [2] وأعد أسطولا كبيراً لنقل الجند إلى إفريقية .

الروم فى إفريقية

ظهر الأسطول البيزنطى فى مياه قرطاجنة فى سنة ٦٩٧ م (٧٨ هـ) ، وتمكن من الاستيلاء على المدينة فى يسر ، وطرد المسلمين الذين كانوا فيها (الذين كان على رأسهم أبو صالح) ، وقسا فى معاملة من وقع تحت يده من المسلمين قسوة زائدة حتى أنه كان ليقتل الكفار بيده كما يقول تيوفانس ونقفور[3] ، فلما تم له ذلك اكتفى به وأراح فى قرطاجنة طيلة شتاء هذه السنة غير حاسب لعودة العرب حساباً ، فلم يكلف نفسه عناء الشروع فى عمل آخر .

ذهب فورنل إلى أن أخبار استيلاء الروم على قرطاجنة غابت من العرب فلم يذكرها منهم أحد ، وعلل ذلك بأنهم شغلوا بأخبار الكاهنة فلم يتبينوا حملة يوحنا[4] ، ولكنه لم يكن موفقا فى ملاحظته تلك ، لأن اثنين من أعلام مؤرخى هذا الفتح أشارا إليها إشارة مقتضبة ولكنها صريحة الدلالة : أولهما البكرى الذى يقول : « وأغارت الروم من البحر على من كان بقى من المسلمين بمدينة تونس (كذا) ، خرجت إليهم فى المراكب ، فقتلوا من بها وسبوا وغنموا ولم يكن للمسلمين شىء يحصنهم من عدوهم ، إنما كانوا معسكرين هناك ، و بلغ حسان ذلك (فرحل

(١) Diehl, op. cit. p. 583

(٢) Diehl, op. cit. p. 581

(٣) Theophanes, op. cit. p. 370 — Neciphore, op. cit. p. 39 — Diehl, op. cit. p. 583

(٤) Fournel, op. cit. I. p 213

إلى تونس) وأرسل أربعين رجلا من أشراف العرب إلى عبد الملك بن مروان ، وكتب إليه بما نال المسلمين من البلاء ، وأقام هناك مرابطا ينتظر رأى عبد الملك[1] »
وثانيهما التيجانى الذى قال : « وكان الروم أغاروا عليها (أى على قرطاجنة) فى ولاية عبد الملك بن مروان فى مراكب لهم فقتلوا من بها وسبوا وغنموا » ثم يذكر بعد ذلك أن حسان انتقل إليها وأقام بها مرابطا ، وبعث أربعين من أشراف المسلمين إلى عبد الملك يستنجدون به ويخبرونه بما نال المسلمين من الجهد فعظم ذلك عليه[2] .

بهاتين الحركتين — حركة الكاهنة وحركة البطريق يوحنا — تم انتقاض إفريقية على العرب وخرجت من يدهم جملة ، ولم يبق فى طاعتهم شبر واحد من الأرض مما يلى قابس غربا ، وكان التقاسم بين البطريق والكاهنة سهلا لا اختلاف فيه : أقامت هى فى الجنوب فى السهل الداخلى بينما اهتم يوحنا بأن يعيد الرباط الذى يمتد من سوسة Hadrumetum إلى شِقّبنَّارية[3] .

— ٧ —

حسان على مقربة من صرت

أقام حسان هذه السنوات على مقربة من صرت — فى المكان المسمى قصور حسان — يلح على الخليفة فى موافاته بما طلب من العون والمدد ، وكان الخليفة

---

(١) البكرى ، وصف إفريقية ، ص ٣٧ — ٣٨ ويلاحظ أن البكرى يخطىء دائما فيذكر تونس محل قرطاجنة ، لأن تونس لم تكن قد اتخذت مدينة للمسلمين بعد ، بل كانت إذ ذاك قرية صغيرة اسمها Tynes ، وقد أخطأ البكرى كذلك فى قوله : « فرحل إلى تونس » لأن حسان بقى حيث هو وأرسل يستنجد بعبد الملك .

(٢) رحلة التيجانى ، ورقة ٣ أ ، ويلاحظ أن التيجانى نقل هذه العبارة بالنص من البكرى ، وربما أخذ الإثنان من مرجع واحد ، ولما كان المعروف أن التيجانى يستقى النقط التى يذكرها من هذا الفتح من ابن الرقيق ، فربما صح القول بأن البكرى اعتمد على ابراهيم بن الرقيق فى بعض تاريخه .

(٣) Caudel, op. cit. II. p. 171.

قد أمره : « بالمقام إلى أن يأتيه أمره[1] » فأقام بعمل برقة خمس سنين ، فلما فرغ عبد الملك من مشاغله سارع بإرسال المدد إلى حسان وأمره بالمسير إلى إفريقية في أواخر سنة ٨١ هـ .

ويبدو أن المراسلات كانت متصلة أثناء ذلك بين حسان وخالد بن يزيد ، فلما توافت عليه — أي على حسان — فرسان العرب ورجالها من قبل أمير المؤمنين دعا برجل يثق به وبعثه إلى خالد بن يزيد بكتاب فقرأه وكتب في ظهره : « إن البربر متفرقون لا نظام لهم ولا رأي عندهم فاطوِ المراحل وَجِدّ في المسير[2] » وتجمع المراجع على أن الكاهنة كانت تشعر بضعف أمرها وتتوقع مسير العرب إليها وقضاءهم عليها بين الحين والحين ، وللمؤرخين في ذلك روايات أشبه ما تكون بالقصص مثل قول ابن عبد الحكم إن حسان لما توجه إليها : « خرجت ناشرة شعرها فقالت : يا بني انظروا ماذا ترون في السماء ؟ قالوا : نرى شيئاً من سحاب أحمر ، قالت : لا وإلهي ولكنها وهج خيل العرب[3] ! » وفي هذه العبارة وأمثالها تصوير قصصي لطيف لهذا الخوف الذي داخل الكاهنة من العرب « حتى كانت تنظر إلى رأسها يركض به إلى ناحية المشرق[4] » كما يقول القيرواني ، وتلك كلها دلائل على أنها استيقنت أن البربر بدءوا ينفضون من حولها ، وأن كثيرين منهم كانوا ينتظرون عود حسان بفارغ الصبر لينقضوا عليها ويثبوا بها ، فأخذت تفكر

---

(١) النويري ، نهاية الأرب ، ورقة ٧٥ أ — المبرد ، الكامل ، ج ٢ ، ص ١٤٣ — ويبدو أن مقام حسان ببرقة لم يطل هذه المدة كلها ، لأن المعلوم أن مسيره الأول إلى إفريقية كان سنة ٧٦ هـ ، وليس لدينا تحديد ثابت لتاريخ عودته إلا ما ذكره ابن عذارى من أن حسان فرغ من أمر الكاهنة وعاد إلى القيروان في رمضان سنة ٨٢ هـ ، وعلى هذا الحساب يكون قد بدأ المسير إلى الكاهنة في أوائل سنة ٨٢ هـ أي أن مقامه ببرقة استمر إلى ما بعد سنة ٨١ هـ ، وبهذا يكون قد أقام ببرقة ثلاث سنوات وبضعة شهور لا خمس سنوات — ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٢٢

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٢٣

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٠١

(٤) المؤنس ، القيرواني ، ص ٣٥

فى وسـيلة تنقذ بها ولديها اللذين دفع بها حبهما إلى مناهضة العرب وحربهم ، فأحبت أن تسالم العرب وتستأمن لنفسها وأولادها من حسان ، ولـكنها خشيت إن هى فعلت ذلك أن ينفض عليها من بقى على الولاء لها ، وتؤكد المراجع أنها استحيت أن تسلم نفسها لحسان ووجدت ذلك عاراً عليها ، وربما خشيت أن يأسرها العرب ويحملوها سـبية إلى دمشق ، ففضلت أن تسـتأمن لولديها عند حسان وأن تظل هى — ومن بقى على الولاء لها — على حرب العرب ، فاستقدمت خالد ابن يزيد وقالت له : « إنما كنت تبنّيتك لمثل هذا اليوم ، فأوصيك بأخويك هذين خيراً ، فقال خالد : إنى أخاف إن كان ما تقولين حقاً ! ألا يُستبقيا ؟ قالت : بلى ويكون أحدهما عند العرب أعظم شأناً من اليوم ، فانطلق فَخُذ لها أمانا ، فانطلق خالد فلقى حسان فأخبره خبرها وأخذ لابنيها أمانا ، وكان مع حسان جماعة من البربر البتر فولى عليهم حسان الأكبرَ من ابنى الكاهنة وقربه »[1] كما يقول ابن عبد الحكم ، ورواية ابن عذارى تضم إشارات على جانب عظيم من الأهمية إذ يقول : « فرحل حسان إليها وبلغ الكاهنة خبره ، فرحلت من جبل أوراس فى خلق عظيم ، ورحل إليها حسان ، فلما كان فى الليل قالت لابنيها : إنى مقتولة ! وأعلمتهم أنها رأت رأسها مقطوعاً موضوعاً بين يدى ملك العرب الأعظم الذى بعث حسان ، فقال لها خالد : فارحلى بنا وخلى له عن البلاد ، فامتنعت ورأته عاراً لقومها ، فقال لها خالد وأولادها : مانحن صانعون بعدك ؟ فقالت : أما أنت ياخالد فتدرك ملـكا عظيما عند الملك الأعظم ، وأما أولادى فيدركون سلطانا مع هذا الرجل الذى يقتلنى ، ويعقدون للبربر عزاً ، ثم قالت : اركبوا واستأمنوا إليه[2] » ، ورواية الحوادث على هذا النسق أدخل فى باب القصص منها فى التاريخ ، ولـكن جوتييه

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٠١

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ص ٢٢ — ٢٣

يؤكد أنه لايبعد أن يكون هذا هو الواقع بعينه بدون زيادة أو اختراع ، ويورد مثلاً حياً حدث أثناء حرب الفرنسيين مع البربر شديد الشبه بقصة الكاهنة ، إذ استأمن زعيم بربرى لأولاده عند القائد الفرنسى ، وأقام هو على الحرب فكان أولاده يقاتلونه فى الميدان [1] فى الموقعة التى مات فيها .

عودة حسان إلى افريقية

على أى الأحوال يمكن القول بأن حسان وجد الكاهنة سنة ٨١ هـ على غير الحال التى خلفها عليها سنة ٧٨ هـ ، فقد خلفها بالأمس قوية الجانب عزيزة الأنصار وعاد اليوم ليجد الروم والبرانس ونفراً من البترمنفضين عنها يستحثون حسان فى القضاء عليها ، بل يبدو إلى جانب ذلك أن أهل البلاد كانوا قد سئموا طول كفاح العرب ومالوا إلى التسليم ، ولهذا لن تطول المقاومة هذه المرة إلا ريثما تقتل الكاهنة ، ثم يهدأ الأمر بعد ذلك ويسود البلاد هدوء ، فيبدأ العرب فى تنظيم أمورها . بل يبدو من قول النويرى : « فلما قرب حسان من البلاد ، ولقيه جمع من أهلها من

---

(١) قال جوتييه فى التعليق على هذه القصة : « هذه القصة فى الواقع بربرية لحماً ودماً سببها تقسيمهم إلى بتر وبرانس ، ويجد الإنسان شبيهاً لها — فى مراكش فى القرن العشرين — حدث للفاتح الفرنسى ، إذ استطاع رئيس قبيلة جبلية يسكن منطقة زيان واسمه موحا أو حمو أن ينتصر على الفاتح الفرنسى انتصاراً حاسماً ، وبعد انقضاء بضع سنوات أيقن أن جانبه قد ضعف وأن المقاومة مستحيلة ، فماذا يعمل ؟ لجأ إلى حل خاص جداً ، هو بعينه ما فعلت الكاهنة ، وهو عمل يدهشنا كما أدهش العرب عملها منذ خمسمائة وألف سنة ، هل يدع القتال ؟ لا ! كما فعلت الكاهنة ، رأى ذلك عاراً عليه ، ولكنه أمر أولاده أن يستأمنوا عند الفاتح ويسلموا له ، وأطاع هؤلاء دون تفكير واشتركوا فى الموقعة الفاصلة الأخيرة التى قتل فيها أبوهم ، أى أنهم اشتركوا فى قتله ، ثم أصبحوا بعد ذلك أنصاراً أعزاء لبوعراو Poeymirau خليفة حسان البعيد » ثم قال بعد ذلك معلقاً : « لقد فسرت فى مكان آخر العامل النفسانى فى تصرف غريب كهذا ، ويكفى الآن أن يقال إن البربر فى القرن العشرين — كما كانوا فى القرن السابع — لا يعرفون معنى الوطنية ، بل لا يفهمون المغرب كوحدة عليهم واجبات نحوها ، بل هم لا يحسون بالحب نحو وطنهم الصغير مثل نوميديا أو منطقة زايان ، فليست لديهم هذه الفكرة ، أما الأمر الوحيد الذى يتحمس له البربرى ولا يتردد فى بذل نفسه فى سبيله فهو قومه وقبيلته . والمرجع الذى كتب فيه المقال الذى فسر فيه ذلك هو مجلة Hespéris عدد الثلاثة أشهر الثالثة لسنة ١٩٢٤ وعنوان المقال : «Un passage d'Ibn Khaldun et du Bayan»

الروم يستغيثون به من الكاهنة ، فسره ذلك ، وسار إلى قابس فلقيه أهلها بالأموال والطاعة ، وكانوا قبل ذلك يتحصنون من الأمراء[1] » أن أهل البلاد تسارعوا للقاء العرب وانضموا تحت لوائهم ، ويؤيد ذلك قول ابن عذارى : « وكان مع حسان جماعة من البربر يستأمنون إليه[2] » .

ينفرد الدباغ بإيراد بعض التفاصيل التي تتصل بالصراع الأخير بين العرب والكاهنة ، فيذكر أن حسان لم يكد يعبر بقابس حتى: « لقيته الكاهنة في جيوش عظيمة ، فقاتلهم حسان ، وهزمهم الله وهربت الكاهنة منهزمة تريد قلعة بِشر تتحصن بها ، فأصبحت القلعة لاصقة بالأرض ، فمضت تريد جبال أوراس ومعها صنم كبير من خشب تعبده ، فتبعها حسان حتى أدركها وانتصر عليها وقتلها عند بئر الكاهنة ، فنزل حسان الموضع الذى قتلت فيه ، ويقال إنها قتلت عند طبرقة[3] » .

هكذا قضى العرب على آخر حركة قام بها أهالى البلاد لردهم ، إذ كانت الكاهنة هى الحصن الأخير الذى احتمى وراءه أهل البلاد ، فلما سقطت انتهت كل مقاومة ، ولم يبق أمام العرب بعد ذلك إلا « غبار قبائل » كما يقول جوتييه: « ولم تبق إلا ضربة صغيرة تنفض عن البلاد هذا الخيال البيزنطى الذى استقر فى قرطاجنة » حتى يمكن القول بأن فتح البلاد قد تم .

مسير حسان إلى قرطاجنة

يشير البكرى والمالكى والدباغ إشارات طفيفة إلى مسير حسان إلى قرطاجنة وإجلائه الروم عنها ، ولكن المؤرخين البيزنطيين تيوفانيس ونقفور[4] يسدان هذا

---

(١) النويرى ، نهاية الأرب ، ص ٧٥ أ

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ص ٢٣

(٣) الدباغ ، معالم الإيمان ، جـ ١ ، ص ٦٠ — ٦١ ويستبعد أن تكون المعركة الأخيرة التى قتلت فيها الكاهنة قد دارت عند طبرقة ، لأن هذه المدينة تقع على البحر شمال قرطاجنة ، وإنما المعقول أنها كانت فى جبل أوراس .

(٤) Theophanes, op. cit. p. 370—Neciphore, op. cit. p. 39. — Diehl, op. cit. p. 584.

النقص وينفصلان هـذا الأمر بعض التفصيل ، فيذكران أن الأسطول البيزنطى هزم فى موقعة كبيرة سقطت بعدها قرطاجنة فى يد حسان ، فأدرك اليأس البطريق يوحنا ، فجمع أجناده وتولى إلى بيزنطة ليعود منها مرة أخرى بعدة أقوى ، ولكنه كان واهماً لأن الظروف لم تسمح له بعد ذلك بالعودة إلى قرطاجنة قط[1] .

بهذا خلصت إفريقية لحسان ، ولم تعد هناك قوة تعارضه أو تنتقص من إمارته على البلاد ، نعم بقيت بضع نواح لم يصل إليها العرب بعد ، وبضع قبائل لم تعلم بمقدمهم ، ولكن ذلك لا يمنع من القول بأن الفتح الحربى قد تم ، وأن واجب الأمير العربى الآن أن يرفع السيف ليهتم بناحية أخرى ، وهى نشر الإسلام فى البلاد وتقرير أمورها وخراجها وشئونها وما إلى ذلك .

إنشاء تونس

بيد أن حسان لم يطمئن إلى ما نزل بقرطاجنة على يديه ، ووجد أن سقوطها فى يده لا يمنع الروم من الإغارة عليها من البحر مرة أخرى والتحصن فيها من جديد ، فأحب أن يضع حداً لمحاولات الروم ويقفل باب إفريقية فى وجههم ، ففكر فى أن لا يكتفى باحتلال الداخل وترك الساحل ، وإنما يحتل الساحل نفسه وينشىء فيه محرساً قوياً حصيناً يلقى الروم إذا حاولوا النزول إلى البر . هكذا بدأ حسان يفكر فى إنشاء ميناء جديدة فى إفريقية لتحل محل قرطاجنة ، فلا يعود أهل البلاد يفكرون فى تعمير هذه الأخيرة وسكناها لشئون التجارة البحرية ، ولتكون محرساً لإفريقية الإسلامية من الروم الذين كانوا لا يفتأون ينقضون على الساحل بين الحين والحين ، ويهددون البلاد كلها ، وليبنى فيها أسطولا يغير به على « ساحل الروم فيشغلهم بأنفسهم عن الإغارة على إفريقية »[2] كما يقول التيجانى .

---

(١) يحدد المؤرخان البيزنطيان لهذا الحادث سنة ٦٩٨ م أى سنة ٧٩ هـ ، ولما كنا نعلم أن حسان لم يفرغ من أمر الكاهنة إلا فى رمضان سنة ٨٢ هـ ، فلا بد أن مسيره إلى قرطاجنة كان بعد ذلك بقليل ، أى فى شهر شوال أو ذى القعدة أو ذى الحجة سنة ٨٢ هـ أو أوائل سنة ٨٣هـ أى سنة ٦٩٦م وهذا هو التاريخ الصحيح لهذا الأمر .

(٢) رحلة التيجانى ، ص ٢٣ أ

لهذه الأسباب أنشأ حسان يبحث عن موضع على البحر يستطيع أن ينشىء فيه ميناءه الجديدة ، فوجد إلى جنوب قرطاجنة بلداً قديماً يطل على سبخة فسيحة لا يفصلها عن البحر غير برزخ صغير فاسترعى انتباهه ، لأن وقوعه على شاطىء السبخة أى إلى الداخل قليلا يحبب العرب فى سكنى المدينة التى تنشأ عنده ، لأنهم لم يكونوا إذ ذاك يطمئنون كثيراً إلى سكنى المدن الساحلية الصرفة ، ثم إن موقعها هذا يجعلها بمأمن من غارات الروم المفاجئة ، فيكفى احتراس مدخل السبخة لكى يتنبه أهل الميناء الجديدة إلى الخطر قبل وقوعه ، وكان هذا البلد القديم ميناء يونانية قديمة ذكرها ديودور الصقلى ووصفها بالبيضاء ، لميل التلال المحيطة بها إلى البياض لكثرة ما تحويه تربتها من أملاح بيضاء ΛΕΥΚΟΝ ΤΥΝΕΙΑ وزاد حسانَ إعجاباً بموقعه أن كان له فُرْضَةَ صغيرة على البحيرة تسمى آدس (Ades) [1] فلم يلبث أن وقع اختياره عليه فأقبل إلى موضعه وبدأ يخططه من جديد ، ويبدو أن المدينة اليونانية كان قد اضمحل أمرها حين أنشأ العرب يعيدون بناءها ، ولم يبق منها إلا دير يقيم فيه بعض الرهبان ، ومصداق ذلك قول ابن أبى دينار : « وذكر غيره — أى غير ابن الشماع — أن العرب كانوا يسمعون أصوات بعض الرهبان طول الليل فى صلواتهم فيتأنسون بهم فقالوا : هذه البقعة تونس» [2] .

كان عليه أن يبدأ بحفر البرزخ الذى يفصل البحيرة عن البحر ، وأن يحفر فى ماء البحيرة الضحلة قناة عميقة تسير فيها السفن حتى تصل إلى البلد ، وبهذا تتصل البحيرة بالبحر وتصبح تونس ميناء بحرية تحميها البحيرة الواسعة من أمواج البحر ، ثم يعقب ذلك بإنشاء ميناء بحرية « دار صناعة » للبلد الجديد حتى تستطيع السفن

---

(١) Shaw : Observations, pp. 155-156 وهذا الميناء هو الذى جعله جغرافيو العرب رادس ، فيقول ابن أبى دينار مثلا : « ويقال لبحرها بحر رادس » القيروانى ، المؤنس ، ص ٦

(٢) القيروانى ، المؤنس ، ص ٨

أن ترسو فيها وتقلع منها فى أمان ، وهـذا ما أراده القيروانى بقوله : « إن حسان هو الذى خرق البحر إلى تونس [١] » ثم أراد أن يستعين بنفر من أهل مصر فى إنشاء الميناء ، فأرسل إلى الخليفـة يطلب إليه نفراً ممن لهم خبرة بإنشـاء دور الصناعات و بناء السفن ، «فكتب عبد الملك بن مروان إلى أخيه عبد العزيز وهو والى مصر ، أن يوجه إلى معسكر تونس ألف قبطى بأهـله وولده ، وأن يحملهم من مصر ويحسن عونهم حتى يصـلوا إلى ترشيش [٢] وهى تونس ، وكتب إلى ابن النعمان أن يبنى لهم دار صناعة تكون قوة وعدة للمسلمين إلى آخر الدهر ، وأن يجعـل على البربر جر الخشب لإنشاء المراكب ليكون ذلك جاريا عليهم إلى آخر الدهر وأن يصنع بها المراكب و يجاهد الروم فى البر والبحر ، وأن يغير منهـا على ساحل الروم فيشتغلوا عن القيروان نظراً للمسلمين وتحصيناً لشأنهم ، فوصل القبط إلى حسان وهو مقيم بتونس ، فأجرى البحر من مرسى رَادِس إلى دار الصناعة ، وجر البربر الخشب وجعل فيها المراكب الكثيرة وأمر القبط بعمارتها [٣] » .

بهذا استطاع حسان أن ينشىء مدينة ثانيـة بإفريقية ، و إذا كانت القيروان قد أصبحت من يوم أنشئت محرسا لبلاد الداخل ومعسكراً للجند الإسـلامى ،

---

(١) القيروانى ، المؤنس ، ص ٣٣

(٢) يذهب كثيرون من العرب أن اسم تونس — قبل تمصير العرب لها — كان ترشيش أو طرشيش ، وقد علق دى‌سلين فى ترجمته للبكرى على تلك الدعوى بقوله : « طرشيش هى Tharsis التى ورد ذكرها فى التوراة ، وقد ذهب العرب فى القرن الأول الهجرى يطلقون هذا اللفظ على تونس ، والحقيقة أنه لا وجود لمدينة باسم ثارسيس فى إفريقية ، ولم يورد أحد من اللاتين أو اليونان مدينة بهـذا الاسم فيها . وقد ذهب وستنفلد إلى أن هناك مدينة اسمها Tartessus جنوب أسـبانيا ، وقد تكون تلك هى التى ورد ذكرها فى الإنجيـل Journ. Asiat. 1844, p. 505.

(٣) البكرى ، وصف إفريقية ، ص ٣٨ — ٣٩ ويلاحظ أن حسان لم يتصل بعبد العزيز ابن مروان رأساً وكان يستطيع ذلك — ولكنه اتصل بالخليفة مما يدل على أن العلائق بينهما لم تكن على ما يرام ، وستؤكد الحوادث التالية ذلك .

فستصبح تونس كذلك رباطا يحمى القيروان ومحرسا للبحر وميناء جديدة للبلاد يقوم مقام قرطاجنة ، ولو قد أوتى حسان من فراغ الوقت أكثر من ذلك لتعهد المدينة بالرعاية وأكمل إنشاءها ، فأقام فيها مسجداً وخطط دورها وما إلى ذلك ، ولكن العزل عاجله ، فبقى إنشاء المدينة ناقصاً حتى بدأ إكماله عبيد الله بن الحجاب بعد ذلك بثلاثين سنة ، فأنشأ مسجد المدينة وبدأ يخططها وينظم أمورها[1] .

نتائج قيام تونس

بقيام هذه المدينة حيل بين الروم وبين إفريقية ، فلم يعودوا يستطيعون النزول إلى أرضها ، فأمن العرب شرهم وأصبح جهدهم منصرفاً إلى تنظيم البلاد وتمهيدها للإسلام ، دون أن يزعجهم الروم بهجماتهم المفاجئة بين الحين والحين ، وكان حسان موفقاً كل التوفيق حين اهتم بتعمير تونس بهذه العائلات التى جلبها من مصر ، لتخلق فى المدينة الجديدة جواً بحرياً حتى تصبح ميناء ، وحتى ينشأ أهلها على حب البحر ومعرفة صناعة السفن ، وسيلاحظ أن المسحة البحرية ستسود المدينة الجديدة ، وسيكون لها أبعد الأثر فى تاريخ البحر الأبيض المتوسط ، إذ كانت هى النافذة التى أطل منها عرب المغرب على غربى هذا البحر ، والباب الذى خرجوا منه إلى صقلية وسردانية وإيطاليا ، ليلعبوا دورهم الخطير فى هذه النواحى[2] .

— ٨ —

العلائق بين حسان وعبد العزيز ابن مروان

سبقت الإشارة إلى ما كان من فساد العلائق بين عامل مصر عبد العزيز ابن مروان وعامل إفريقية زهير بن قيس ، وكيف حاول عبد العزيز أن يستبد

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٨٨

(٢) خلفت الكاهنة بعد مماتها أثراً عميقاً فى نفوس الأهلين . وتحولت بمرور الزمن إلى شخصية أسطورية يتداول أهل البلد قصصها وأخبارها ، ومن ذلك ما ورد فى رحلة التيجانى فى سياق وصفه لمدينة ألجم (الأجام) : « ويقال إن الكاهنة المعروفة بكاهنة لواتة حصرها عدوها فى ذلك الحصن ، فحفرت منه سرداباً فى الحجر الصلد نفذت منه إلى مدينة سلقطة ، وكانت أختها هناك فكان الطعام يجلب إليها فى ذلك السرداب على ظهر الدواب » — رحلة التيجانى ، ص ٢٣ أ و ب .

زهير فتلاحيا ، ودأب عبد العزيز على أن يدس لزهير فى جيشه من يعصاه فيفسد عليه الأمر ، ويبدو أن عبد العزيز كان يرجو أن يتخلص من زهير حتى يخلص له أمر إفريقية ، فيفيد منها الغنائم الوفيرة والسبي الكثير ، فلما قتل زهير وتولى حسان خاب ظنه واضطغن على حسان ، وأخذ يترقب الفرصة للإيقاع به والخلاص منه ، وقد سبقت الإشارة إلى أن حسان كان يشعر بذلك، فرغب عن كل اتصال بعبد العزيز ، ولهذا سأل عبد الملك المعونة حين أراد القبط وكان يستطيع أن يسألها عبد العزيز بن مروان ، ويروى ابن عبد الحكم رواية يفهم منها أن الرجلين كانا يتبادلان سوء الظن والريبة، وقد أراد عبد العزيز أن ينتهز فرصة هزيمة حسان الأولى وتقهقره من إفريقية ليطعن فى قدرته ويتذرع بذلك لعزله عن إفريقية ، فوجه إلى طرابلس رجلا من عنده يقوم بأمرها ، فلما قدم حسان فى مسيره الثانى إلى إفريقيــة ، قال لعبد العزيز : « أكتب إلى عبدك بالإعراض عن أنطابلس ، فقال له عبد العزيز : ما كنت لأفعل بعد إذ ضيعتها فاستولت عليها الروم ، فقال حسان : إذن أرجعُ إلى أمير المؤمنين ، فقال عبد العزيز : . . . أرجع »[1] وهذا حديث أقل ما يدل عليه أن عبد العزيز كان يرجو أن تكون له إفريقية مع مصر ، وأن حسان كان يخشاه ويرتاب فى أمره ، فكان لا يفتأ يحتمى فى الخليفة ويستعين به كلما بدت له بوادر الشر من جانب عبد العزيز.

أقام عبد العزيز بمصر يتسقط أخبار حسان فى حملته الثانية ، فساءه ما وفق إليه من نصر وتوفيق ، وعول على أن لا يدعه يفلت بما فاز به من أموال وغنائم ، فأقام يرتقبه بمصر حتى يأتى بالغنائم فيأخذ منه ما يريد ، فعلم حسان ما أراد عبد العزيز بن مروان أخو عبد الملك ، فعمد إلى الجوهر والذهب والفضة فجعله فى قرب الماء ، وأظهر ما سوى ذلك من الأمتعة وأنواع الدواب والرقيق وسائر

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٠٣

أنواع الأموال ، فلما قدم على أمير مصر عبد العزيز بن مروان أهدى إليه مائتى جارية من أبناء ملوك الروم والبربر ، فسلبه عبد العزيز جميع ما كان معه من الخيل والجمال والأمتعة والوصائف والوصفان ، ورحل حسان بالأثقال التى بقيت له حتى قدم على الوليد ، فشكا له ماصنع عبد العزيز فغضب الوليد لذلك ، ثم قال حسان لمن معه : « إتونى بقرب الماء » ففرغ منها من الذهب والفضة والجوهر والياقوت ما استعظمه الوليد ، وعجب من أمر حسان فقال له الوليد : « جزاك الله خيراً يا حسان » فقال : « يا أمير المؤمنين إنما خرجت مجاهداً فى سبيل الله، وليس مثلى يخون الله ولا الخليفة » فقال له الوليد : « أنا أردك إلى عملك وأحسن إليك وأنوه بك » فحلف حسان : « لا ألى لبنى أمية أبداً ! »[1] وبهذا لم يستطع حسان — على رغم مابذله من جهد — النجاة من انتقام عبد العزيز ، وكان هذا يستغل مكانه من الخليفة ويسىء استعماله فأساء إلى زهير كما سبق . ثم آذى حسان ولم يزل به حتى أخرج إفريقية من يده وجعلها من ولايته . وقد اتضح بجلاء أن الرجل لم يكن يريدها ليضاح أمرها أو يتم إسلام أهلها ، وإنما كان يريدها للغنائم والأسلاب . ولهذا لم يرض عن الفاتحين الأمناء المخلصين من أمثال زهير وحسان ، وسارع فأسند أمرها لرجل من أتباعه ومن هم على شاكلته وهو موسى بن نصير . ويبدو أنه أوصاه بالاهتمام بالأموال والغنائم ، فصرف موسى همه إلى ذلك . وكان عبد العزيز يقوم فى مصر بين الخليفة وإفريقيـة ، فكان قميناً أن يقتدر على الكيد إذا هو أراده . وكان أخا للخليفة يستطيع أن يأتى من الأمر ما يبغى . وكان حسان إذ ذاك رجلا مسناً وقوراً لا قبل له بالكيد أو التدبير ،فآثر النجاة بنفسه وأبى أن يعود . لعله كان يريد أن يقول: « لا ألى لبنى أميـة أبداً » ما دام عبـد العزيز فى مصر فخشى مغبة ذلك ، فأصر على رفضه وسكت .

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ص ٢٣ — ٢٤

ولم يذكر لنا المؤرخون مصير حسان بعـد ذلك ، وكل ما يقولونه أنه لم يلبث إلا يسيراً حتى توفى[1]. مما يدل على أنه قضى الفترة القصيرة التى بقيت من حياته هادئاً مطمئناً . ونستطيع القول بأنه توفى نهاية سنة ٨٥ هـ . لأننا نعلم أن موسى ابن نصير بدأ عمله فى إفريقية فى أواخر أيام عبد الملك أىَ فى أواخر سنة ٨٥ هـ . وبهذا تكون عودة حسان من إفريقية فى أواخر هذه السنة كذلك . فإذا صح تقدير هذه الفترة القصيرة التى لم يلبث حسان أن توفى بعدها — ببضعة شهور — جاز القول بأن حسان توفى فى أوائل سنة ٨٦ هـ .

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٠٣

الباب التاسع

انتشار الإسلام فى المغرب

والنظام الإدارى الذى وضعه العرب له

لماذا طالت مدة الفتح العربي للمغرب ؟

ليس من السهل تحديد تاريخ ثابت لانتهاء الفتح الإسلامى لبلاد المغرب ، لأن هذه البلاد ليست قطراً واحداً يتم خضوعه بمعاهدة شاملة أو بموقعة فاصلة . وليس من الميسور كذلك أن نقطع بأن أهل المغرب تم إخضاعهم و إسلامهم فى سنة بعينها ، لأن : « أمم المغرب ليس لها غاية ، ولا يقف أحد منها على نهاية ، كلما بادت أمة خلفتها أمم ، وهم من الحفل والكثرة كسائمة النعم[1] » كما قال ابن عذارى على لسان حسان بن النعمان ، وربما كان هذا الاضطراب الذى يسود تكوين المغرب السياسى والاجتماعى والطبيعى هو السبب الأول فى طول مدة الفتح واختلاط سبله على الفاتحين .

ولنضف إلى ذلك الصعوبات الأخرى التى لقيها العرب ، والتى لم تنشأ عن طبيعة البلاد أو أحوال أهلها و إنما عن ظروف العرب أنفسهم ، وما نزل بهم من الأحداث التى شغلتهم عن الفتح أو حالت بينهم و بين أن يتعهدوه بما ينبغى له من العناية والاهتمام ، كالفتن الطويلة التى كانت تحول بين أولى الأمر من العرب و بين إرسال الحملات إلى إفريقية، و بُعدِ المغرب الذى جعل إرسال الحملات والبعوث إليه أمراً يتطلب العدة العظيمة والنفقة البالغة ، والخصومات بين جند العرب مما كان له أسوأ الأثر فى سير الفتوح كالذى حدث بين عبد الله بن سعد وعبد الله بن الزبير مما كان من أسباب فشل حملة عبد الله بن سعد على رغم ما أدركه العرب من نصر فيها ، والنزاع بين ولاة مصر وقواد إفريقية ، ورغبة الأولين فى السيطرة على هذه البلاد والتصرف فى مالها وغنائمها ، مما رأينا أثره فى تعطيل الفتح ومنع الفاتحين من إنفاذ برامجهم و إدراك الغايات التى سعوا إليها بعد أن بذلوا الجهد العظيم لإدراكها ، كما رأينا فى عدوان مسلمة بن مخلد على عقبة وعزله إياه وحرمانه من ثمرة جهوده ومنعه من تنفيذ برنامجه ، وعداء عبد العزيز بن مروان لزهير بن قيس

---

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ص ٢١

وحسان بن النعمان مما انتهى بعزل الثانى وحرمان البلاد من خبرته واقتداره ، وتحويل الفتح نحو وجهة مادية لا تبغى ضم البلاد إلى العرب وإدخالهم فى الإسلام بقدر ما تعنى بالمغنم الحافل والمال الوفير .

ولا ننسى كذلك فتح إسبانيا الذى اجتذب اهتمام العرب وأنظارهم ، فانصرف الكثيرون منهم عن إتمام فتح إفريقية وإسلام أهلها وقد كاد الأمران يتمان على خير وجه من أواخر أيام حسان بن النعمان ، والعصبيات العربية التى شغلت جانباً عظيما من اهتمام حكام المغرب وصرفتهم عن الاهتمام الواجب بفتح البلاد وإسلام أهلها ، مما يلاحظ أثره بشكل واضح جداً فى خصومة المضريين والقيسيين التى سادت إفريقية طوال العصر الأموى ، وجعلت البلاد مسرحاً لحوادث شتى من الاضطهاد والظلم والمصادرة مما سيتضح أثره السيىء بعد قليل . ولا ينبغى أن ننسى الأخطاء الشديدة فى الحرب والسياسة التى وقع فيها جند العرب وقادتهم ، والتى كانت ناشئة عن ضعف كفايات بعضهم وعن جهلهم بطبيعة البلاد .

انصراف الخلافة عن فتح المغرب

ويلاحظ كذلك أن فتح المغرب لم يأخذ هيئة الفتح المنظم الذى تصدر الدولة فى إتمامه عن خطة مرسومة أو سياسة ثابتة ، وإنما كان الساعون فى إتمامه نفراً من جند العرب فى مصر فى أغلب الأحيان ، وربما كان سبب انصراف الخلفاء عن الاهتمام الواجب بفتح هذه البلاد هو تبينهم صعوبة فتحها وعظم الجهد الذى يستلزمه إتمام ذلك الفتح ، فقد كان عثمان قد اهتم بأمر إفريقية وأولى فتحها جانباً ملحوظاً من عنايته ، ولا نزاع فى أنه كان يؤمل كثيراً من وراء إتمام هذا الفتح ، فكانت عودة عبد الله بن سعد بدون نتيجة تذكر قاضية على كثير من آمال العرب فيها ، ثم كانت فتن المشرق وأحداثه قاضية على مابقى من الأمل فى سرعة فتح هذه البلاد ؛ فانصرفت الخلافة عنه انصرافاً يكاد يكون تاماً فترة طويلة من الزمان .

جند العرب فى مصر يصرون على فتح إفريقية

طبيعى إذن أن لاتكون عند أولى الأمر من العرب فكرة واضحة عن أحوال بلاد المغرب وعن الخطة التى ينبغى اتباعها لإتمام فتحها ؛ وأن تظل جهودهم فيها أشبه الأشياء بالغارات السريعة التى لاتنتهى إلى شىء ؛ هذا بينما كان جند العرب فى مصر لايفتأون بين الحين والحين يخرجون إلى إفريقية فى غارات بسيطة ؛ ولم يمنعهم عن الخروج لغزوها فى حملات كبيرة إلا اشتغال الدولة عنهم وانصرافها عن إمدادهم بما تحتاج إليه هذه الغزوات ، فتكونت لديهم فكرة عن طبيعة البلاد وأسلوب فتحها ؛ وجعلوا ينتظرون الفرصة المواتية للقيام بهذا الفتح ؛ إما جهاداً فى سبيل الله أو رغبة فى مغنم أو طلباً لحظوة عند الخلفاء .

عقبة بن نافع

وكان عقبة بن نافع أكثر جند مصر اتصالا بإفريقية وأشدهم تعلقاً بفتحها وأطولهم مقاماً فى ربوعها ، فكان أقربهم إلى فهم طبيعتها وطبيعة أهلها ؛ ومن ثم تفطن إلى أهمية إنشاء بلدة للمسلمين فيها تكون محطاً لرحالهم ومنزلا لمن أراد المقام منهم فيها ومستودعاً لسلاحهم ومركزاً تصدر منه الغزوات فى كل وجه .

النتائج السياسية لإنشاء القيروان

استتبع إنشاء القيروان نتائج على درجة عظيمة من الأهمية سواء فى موقف المسلمين من المغرب أو موقف المغرب من المسلمين ، إذ لم يكد يتم تخطيطها حتى ظهرت « ولاية المغرب » واتضحت خاصيتها بعض الشىء وبدأت أنظار العرب تتجه إليها ، إذ أصبح لهم فيها عاصمة يتبعها الإقليم المحيط بها ، وقام بها مسجد جماعة يخطب فيه باسم أمير المؤمنين ، ونزلتها طوائف من المسلمين فأصبح الخليفة مكلفاً رسمياً بالدفاع عنها وحماية أهلها من أى اعتداء خارجي أو داخلى ، وبدأت وجهة القواد الذين تولوا الفتح فيها تتغير ، فأصبحوا يحرصون على اكتساب حقوق سياسية لا على أخذ أموال ومغانم ، وقد سبقت الإشارة إلى ما كان من تفضيل معاوية ابن حديج أخذ جزيرة شريك وإقامته والياً عليها لكي يراقب منها قرطاجنة ويؤمن القيروان وما حولها .

طمع عمال مصر فى ولاية المغرب

لهذا أخذت أنظار عمال مصر تتجه نحو هذا الميدان الجديد ، ففيه اتساع لسلطانهم ومجال للغزو والفتح وميدان للغنم العظيم ، وتنبه الخلفاء لذلك فحرصوا ما أمكنهم على أن يحولوا بين ولاة مصر وما يريدون ، وعلى أن يشرفوا بأنفسهم على أمور المغرب ، ومن هنا بدأ نزاع طويل استمر بين الخلفاء وعمال مصر على حكومة إفريقية .

النزاع بين عمال مصر والخلفاء على ولاية إفريقية

استمر هذا النزاع زماناً طويلا وكان سبباً فى تأخر ظهور شخصية المغرب الكاملة وأخذه صفة الولاية المستقلة فظل تابعاً لمركز الخلافة رأساً رسمياً خاضعاً لسلطان عمال مصر فعلا ، ومن هنا أخطأ الكثيرون من مؤرخى إفريقية فذهبوا إلى أن ولاية المغرب كانت جزءاً تابعاً لمصر حتى نهاية ولاية حسان بن النعمان ، وأنها لم تصبح ولاية مستقلة الشخصية إلا من بدء ولاية موسى بن نصير ، والحقيقة أن الخلفاء اعتبروها ولاية قائمة بنفسها من أول الأمر ، وحاولوا أن يلوا أمورها بأنفسهم فنازعهم فى ذلك ولاة مصر ، وسمح الخلفاء لهم بذلك كارهين ، إما لقرب عامل مصر منهم ومكانته عندهم كمسلمة بن مخلد ، أو لقرابته من الخليفة كما حدث بين عبد الملك بن مروان وأخيه عبد العزيز .

ومصداق ذلك أن معاوية حرص على أن يخرج المغرب عن يد عامل مصر وتولاه هو بنفسه ، فلم يقر القائد الذى كان عمرو بن العاص أرسله فى فتوحه وهو عقبة بن نافع ، بل تخطاه وندب لهذا الأمر رجلا من رجاله وهو معاوية بن حديج ، وحرص كذلك على أن يكون إليه مرجع شئون الحملة وأمورها ، فإذا اختصم معاوية ابن حديج مع عبد الملك بن مروان على قسم فىء جلولاء ، رفع الأمر إلى معاوية ابن أبى سفيان لا إلى أخيه عقبة عامل مصر إذ ذاك .

ومن الواضح أن معاوية لم يكن راضياً عن تعدى مسلمة على شئون المغرب ، ولم يمنعه من إيقافه عند حده إلا عرفانه ليد مسلمة عنده ومكانه من عثمان ،

ومن الواضح كذلك أن عبد الملك بن مروان كان ساخطاً أشد السخط على أخيه عبد العزيز لتدخله فى أمور المغرب وعزله واليه وتوليته موسى بن نصير عليه ، وهذان شاهدان على أن الخلفاء كانوا يرون أن المغرب ولاية قائمة بذاتها لهم وحدهم إدارة شئونها ، وربما كان دافع الخلفاء إلى استخلاص المغرب من يد عمال مصر هو عرفانهم أن عامل مصر لا يريده ليتم فتحه أو لينشر الإسلام بين أهله ، وإنما لمغانمه وأسلابه وخيراته .

الأضرار التى لحقت المغرب من تدخل عمال مصر فى شئونه

وقد كان الخلفاء على الحق فيما تخوفوا من نيات عمال مصر ، فقد أصاب المغرب من تدخل عمال مصر ضرر كبير ، ويكفى أن نذكر أن تدخل عبد العزيز ابن مروان فى شئون المغرب ومخاصمته زهير وحسان أوقف السياسة التى كان حسان قد بدأ ينفذها ، والتى كانت ترمى إلى تنظيم البلاد وإصلاح ما بين أهلها والعرب وتحبيب الإسلام إليهم ، وكان سبباً فى بدء سياسة جديدة لا ترمى إلى شىء من خير البلاد أو خير الدولة الإسلامية ، وإنما إلى عسف الأهلين وإرهاقهم بالمغارم والجبايات مما نفرهم من الإسلام وبغض العرب إليهم ، وأوجد بين الحيين — من بادىء الأمر — شعوراً من الخوف والريبة والحذر ، ودفع بأهل المغرب إلى أحضان الدعاة والخارجين .

لم يكن المغرب إذن ولاية تابعة لمصر رسمياً إلا فترة قصيرة جداً من الزمان ، انتهت بتولية معاوية بن أبى سفيان معاوية بن حديج قيادة الفتح فيه ، ومن ذلك الحين كان المغرب معتبراً فى نظر الخلفاء ولاية تابعة لهم ، يتولون أمورها بأنفسهم واعتبروا تدخل عمال مصر عدواناً لا حق لهم فيه .

وتعتبر ولاية موسى بن نصير آخر مظهر من مظاهر تدخل عمال مصر فى شئون المغرب ، إذ حرص الخلفاء أشد الحرص على أن لا يدّعوا عمال مصر يغتصبون هذا الحق بعد ذلك .

ولما كانت غزوات موسى بن نصير قد أتمت إخضاع المغرب كله من برقة إلى المحيط ومن ساحل البحر إلى واحات الصحراء ، فإن محمد بن يزيد — خلف موسى — يعتبر أول ولاة المغرب الإسلامى بمعناه المعروف لدينا ، بل أضيفت إليه الأجزاء التى فتحها المسلمون فى إسبانيا .

— ٢ —

النظام الإدارى الذى وضعه العرب للمغرب

وكان حسان قد أعد المغرب العدة ليصبح ولاية قائمة بنفسها مستقلة بإدارتها لاتعتمد على مصر فى شأن من شئونها ، « فدوّن الدواوين وصالح على الخراج وكتبه على عجم إفريقية وعلى من أقام معهم على دين النصرانية[1] » ، واهتم اهتماماً ملحوظاً بعاصمة الولاية الجديدة ، فأراد أن يجدد بناء مسجدها فهدمه « — حاشى المحراب — وبناه وحمل إليه السارتين الحمراوين الموشاتين بصفرة ، اللتين لم ير الراءون مثلهما من كنيسة كانت للأول فى الموضع المعروف اليوم بالقيسارية بسوق المغرب[2] » ، ولا نزاع فى أن القيروان كانت فى حاجة إلى الإصلاح و إعادة التنظيم لكى تليق بالولاية الكبيرة التى أصبحت عاصمتها ، ولكن حسان لم يهتم بإعادة تخطيطها و إصلاحها ، وربما كان سبب ذلك أنها لم تكن أصبحت سوقاً تجارياً أو مركزاً كبيراً حتى ذلك الحين ، وأنها لم تكن أكثر من مركز للجند ومأمن لنسائهم ومستودع لسلاحهم .

انشاء تونس وأثره

ولاحظ حسان أن بقاء قرطاجنة خطر على الولاية الجديدة فهدمها ، وأراد أن يأخذ الساحل على الروم فأنشأ شمالى القيروان محرس تونس ، واجتهد فى أن يجعل منها ميناء بحرياً تشرف منه ولاية المغرب على البحر الأبيض كما سبق بيانه[3] .

---

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٢٣ (٢) البكرى، وصف إفريقية ، ص٢٢

(٣) البكرى ، وصف إفريقية ، ص ٣٧ وما بعدها .

ليس لدينا نص ثابت نستطيع التعويل عليه فى معرفة النظام الإدارى الذى وُضع للمغرب إذ ذاك ، وكل مالدينا إشارات طفيفة أوردها بعض مؤرخى المغرب فى سِيَرِ صالحى إفريقية وعلمائها وقضاتها وملاحظات يمكن استنتاجها من أحداث البلاد إبان العصر الأموى، ولو قد كان المغرب شبيهاً بغيره من الولايات الإسلامية لجاز القول بأن العرب طبقوا فيه أنظمتهم المعروفة فى الإدارة والمال ، أما والمغرب فريد فى نظامه فليس من المأمون قبول فرض كهذا ، لأن أرض المغرب ليست أرض زروع يقدر على محصولها خراج مقدر ، بل أغلب أرضها مراع وقفار لا تغل شيئاً مذكوراً ولا يقدر عليها شيء ثابت ، فكيف نظم العرب أمور المغرب ؟

يقول المالكى : « ثم إن الروم والبربر تخوفوا بعد ذلك ، واجتمعوا على قتال حسان وقاتلوه فهزمهم الله تعالى ، فلم يقبل أمانهم حتى أعطوه من جميع قبائلهم إثنى عشر ألف فارس تكون مع العرب مجاهدين ، فأجابوه وأسلموا ، فعقد لولدى الكاهنة بعد إسلامهما لكل واحد منهما على ستة آلاف فارس من البربر والياً عليهم ، وأخرجهم مع العرب يفتحون إفريقية ويقتلون الروم ومن كفر من البربر ، فمن ذلك صارت الخطط للبربر بإفريقية ، فكان يقسم الفيء بينهم والأرض ، وحسنت طاعتهم فدانت له إفريقيــة ودون الدواوين ، ثم قدم القيروان فأمر بتجديد بناء المسجد الجامع فبناه بناء حسناً ، وجدده فى شهر رمضان سنة ٨٤ هـ[1] » . ومن هذه العبارة نستنتج بضعة أمور :

١ — أن حسان حرص على أن يشرك معه نفراً من أهل القبائل فى حروبه وجعل اشتراكهم معه فى الحرب شرطاً لتأمينهم ، ومن هذا نفهم أن جند المغرب من ذلك الحين لم يكونوا من العرب وحدهم ، بل اشترك فيه نفر من أهل البلاد .

وكانت تلك خطة موفقة استطاع بها حسان أن يضمن ولاء البربر، وأن يحبب

(١) المالكى ، رياض النفوس ، ص ١١

إليهم الإسلام ، فالبربر شعب محارب ميال إلى الغزو والسلب ، فأرضاهم اشتراكهم مع المسلمين فى الحرب جنباً إلى جنب ، ولم يلبثوا أن أسلموا بدليل قول المالكى إنهم : « أجابوه وأسلموا » .

ولم يكتف حسان بأن يشرك هؤلاء البربر فى حروبه ويجعل لهم نصيباً من الغنائم ، وإنما رتب لهم أعطيات تصرف لهم من بيت المال ، وسار على ذلك موسى بن نصير بعده ، فقد عثر الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب على قطع من العملة النحاسية والبرنزية ، ضربها موسى بن نصير فى إفريقية يرجع تاريخها إلى سنة ٩٢ هـ[1] ، لكى يعطى من انضم إلى جيشه من البربر أعطياتهم ، وذهب إلى أن استعمال العرب للنقود فى إفريقية لا يرجع إلى تاريخ ضرب هذه العملة فقط ، وإنما كان عمال إفريقية قبل ذلك يستعملون نقوداً رومية مما وجدوه فى إفريقية ، أو أخذوه فى الجزى والجبايات والمغارم ، ولا نزاع فى أن هذه النقود الرومية كانت واسطة التعامل بين العرب فى إفريقية ، وظلت كذلك حتى ضرب موسى عملته فاستعملها الناس .

٢ — أن حسان قسم المغرب خططاً للبربر ، أى اختص كل قبيلة بخطة تتصرف فيها وتؤدى مالها وتكون مسئولة عنها ، وهذا نظام معقول يتفق مع طبيعة البلاد ونظام أهلها الاجتماعى ، فلم يكن فى المغرب إذ ذاك مزارع واسعة تتركها الحكومة فى يد أصحابها يزرعونها ويؤدون مالها للدولة ، وإنما نواح اختصت كل قبيلة بناحية منها تكون مسئولة عنها أمام عامل المغرب .

٣ — أن حسان كان يسوى بين العرب والبربر فى قسم فىء الحروب ومغانمها ، أى أنه لم يعتبر العربى حاكماً والبربرى محكوماً ، بل تساوى الاثنان فى الحقوق

---

(١) راجع مقال الأستاذ عبد الوهاب الذى عنوانه « Un temoin de la conquête de l'Espagne », La Revue Tunisienne, 1932 No. 10 ، ويلاحظ أن موسى لم يضرب غير عملة برنزية ، لأن النقود الذهبية (الدينار) والفضية (الدرهم) كانت من حق الخلافة المركزية وحدها .

والواجبات ، وفى الاشتراك فى الحرب واقتسام الغنيمة ، ويبدو أن حسان راعى فى اشتراع هذا المبـــدأ طبيعة البربر وأخلاقهم ، فهم ليسوا زراعاً ألفوا الخضوع والسكون وتأدية المال لسيد الأرض وصاحبها ، وإنما هم شعب محارب قوى أنوف لا يقل عن العرب غراماً بالحرية ، فـكان أمثل السبل لقيادته هى معاملته معاملة الند للند .

وسيلاحظ أن البربر حرصوا دائماً على أن لا يعاملهم العرب معـاملة شعب خاضع محكوم ، وأنهم لم يترددوا فى الثورة على العرب حين حاول هؤلاء الترفع عليهم أو اعتبارهم رعايا يجوز للحاكم عسفهم والتصرف فى شئونهم كما يهوى .

٤ — أن حسان اعتـبر أرض المغرب مفتوحة صلحاً لا عنوة ، فأقر البربر على ما بيدهم من الأرض ، وهذا ما أراده المـالـكى من قوله : « فمن ذلك صارت الخطط للبربر بإفريقية ، فـكانـ يقسم الفىء بينهم والأرض » . أى أنه جعل لـكل قبيـلة خطة تُسأل عنهـا وتؤدى العشر منهـا ، والغالب أنه لم يفعل ذلك إلا مع الذين أسـلموا منهم ، لأنـ الشرع يبيح ترك الأرض لمن أسـلموا يتوارثونها ويتبايعونها[1] .

٥ — أن حسان دَوّنَ الدواوين ، أى نظم شئون الحـكومة ، وأقام العمال على نواحى الإدارة من خراج وزكاة وجند وما إلى ذلك ، مما كان موجوداً فى غير إفريقية من بلاد الدولة إذ ذاك .

ويبدو أن المسلمين اتبعوا فى بعض نواحى حكومة إفريقية النظام العام الذى جروا عليه فى حكم غيرها من ولاياتهم ، فـكان الخليفة لا يعين العامل فقط بل القاضى أيضاً ، وهذا ظاهر من قول الدباغ : « إن عمر بن عبد العزيز اختار لقضاء إفريقية

---

(١) راجع كتاب الخراج لأبى يوسف ، الفصل الذى عنوانه : « فى إسلام قوم من أهل الحرب وأهل البادية على أرضهم وأموالهم » .

عبد الله بن المغيرة بن بردة الكنانى[1] » . ولكن الخلفاء لم يعينوا قائداً لجند المغرب وإنما تركوا ذلك للعامل ، فإما قاد الجند بنفسه أو ندب لقيادته من أراد .

وكان عامل المغرب مطلق اليد فى اختيار العمال لشتى نواحى الإدارة ، ودليل ذلك أن موسى بن نصير ولى أبناءه قيادة الفتوح فى مختلف النواحى ، وأن: « حسان ابن نعمان (كذا) ولى على صدقات الناس والسعى عليهم حنش بن عبد الله الصفانى التابعى رضى الله عنه[2] » .

والبينات كثيرة على أن حسان حرص على أن يترضى أهل البلاد ويكرمهم وأن لا يمسهم بأذى ، وأن النظام الذى وضعه كان يحمى حقوقهم ويجعلهم وأموالهم فى مأمن من عدوان الحكام ، فمن ذلك ما ذكره البكرى من أن عامل هشام ابن عبد الملك على إفريقية كتب إليه يعلمه : « أن الجامع يضيق بأهله ، وأن بجوفيه جنة كبيرة لقوم من فهر ، فكتب إليه هشام يأمر بشريها وأن يدخلها المسجد[3] » ، مما يدل على أن الخلفاء حرصوا على إقامة العدل فى البلاد . ومن دلائل ذلك أيضاً أن يزيد بن حاتم عامل إفريقية سنة ١٥٥ هـ : « اشترى العمود الأخضر بمال عريض جزل ووضعه فيه[4] » فلم يغصبه أصحابه ولم يبخسهم حقهم .

ويبدو أن المسلمين اعتبروا من بقى فى البلاد من الروم والأفارقة موالى لهم ، ولم يعتبروهم كالبربر مساوين لهم فى الحقوق والواجبات ، وربما كان دافعهم إلى ذلك تخوفهم من الروم والأفارقة ، واعتبارهم إياهم شعباً مفتوحاً لهم حق التصرف فيه ، والغالب أن الروم والأفارقة قبلوا هذا الوضع على مضض ، وأنهم كانوا يترقبون الفرصة للوثوب بالحكم الإسلامى وإثارة البلاد ، ودليل ذلك كله ما ذكره أبو المحاسن فى حوادث سنة ١٢٢ هـ إذ قال : « فيها خرج بالمغرب ميسرة الحقير

---

(١) الدباغ ، معالم الإيمان ، جـ١ ، ص١٥٤ (٢) نفس المصدر ، جـ١ ، ص٦٣ — والمراد هنا الصنعانى
(٣) البكرى ، وصف إفريقية ، ص ٢٣ (٤) نفس المصدر والصفحة .

وعبد الأعلى مولى موسى بن نصير متعاضدين ومعهما خلائق من الصفرية[1] » ، أى أن عبد الأعلى هذا كان مولى لموسى بن نصير ، وأنه كان من أول الواثبين على المسلمين ، وأنه كان معه نفر كبير من جنسه ، فإذا عرفنا أن عبد الأعلى هذا هو « عبد الأعلى بن جريج الإفريقى رومى الأصل ومولى للعرب[2] » ، لاتضح أن الروم والأفارقة كانوا يعتبرون موالى للمسلمين ، إذ لم يكن عبد الأعلى وحده وإنما كان : « إمام الصفرية فى انتحال مذهبهم فقام بأمرهم مدة[3] » .

ومن هذا نستطيع أن نستنتج أن العرب اعتبروا الأراضى التى كانت للروم مفتوحة عنوة ، فاستحلوها واعتبروا أهلها ومن وجدوه عليها موالى لهم ، يتصرفون فى شئونهم كما يريدون ، فى حين اعتبروا الأراضى التى كانت للبربر مفتوحة صلحاً، فتركوها فى يد أصحابها يؤدون عنها المال للدولة ، واعتبروا البربر أنفسهم أحراراً، لهم ما للعرب من الحقوق وعليهم ما عليهم من الواجبات ، فكانت النتيجة الملموسة لهذه السياسة هى اختفاء العنصر الرومى واللاتينى من البلاد شيئاً فشيئاً حتى انعدمت آثارهم من البلاد تقريباً ، ولم تبق إلا آثار قليلة منهم فى الجريد ونواحى ساحلية أخرى ، واختفت تبعاً لذلك اللغات اليونانية واللاتينية والفينيقية التى كان يستعملها هؤلاء الروم والأفارقة ، وأدت هذه السياسة كذلك إلى نهوض الشعب البربرى وأخذه بأسباب الحضارة الإسلامية وتعلقه بلغة العرب ودينهم ، مما انتهى به إلى درجة من الرقى مكنته من أن يقيم حضارات زاهرة فى البلاد بعد ذلك بسنوات طويلة ، وينشىء دولا ذوات قوة وإدارات منتظمة ، وبهذا كانت السياسة الإسلامية فى إفريقية أساساً لهذا التطور العظيم فى تاريخ هذه البلاد ، فلم تعد شريطاً ساحلياً يسكنه جماعة من المستعمرين المتحضرين، وفيما يلى ذلك « أهال »

---

(١) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٨

(٢) السلاوى ، الاستقصاء ، ج ١ ، ص ٤٩ (٣) نفس المصدر والصفحة .

متوحشون على درجة يسيرة جداً من الرقى ، و إنما أصبحت بلاداً واحدة يسكنها شعب مسلم قوى متحضر ، ينشىء الدول و يساهم فى العلم والحضارة الإنسانية بنصيب مشكور .

وكان الوالى مكلفاً بأن يعطى من معه من الجند والعمال مما يجبيه من الأموال وما يفيئه الله عليه من الغنائم ، والغالب أن الجند كانت لهم أرزاق وأعطيات غير مايصيبونه فى الحروب، ودليل ذلك ماذكره اليعقوبى من أن يزيد بن أبى مسلم حين قدم إفريقية وجد عبد الله بن موسى سجيناً بها : « فقال له أعط الجند من مالك أرزاقهم لخمس سنين ، فقال : لا أقدر على ذلك[1] » ، مما يدل على أن أرزاق الجند كانت تصرف من أموال المغرب .

بيد أن تاريخ المغرب إبان العصر الأموى لايدل على أن العمال كانوا يجرون فى حكم هذه البلاد على سياسة موضوعة ثابتة ، أو أن الخلفاء كان لديهم نظام ثابت يأخذون به حكامها ، إنما كان الحكام يسيرون فى سياستها على غير هدى ، وكان النزاع الدائم بين أهل البلد والحكام دليلا على أنه لم يكن هناك نظام موضوع .

ولم يكن جهد الحكام متجهاً إلى وضع نظام للبلاد أو البحث عما يلائمها من أساليب الحكم والإدارة ، و إنما اقتصر على إقامة العدل على قدر ما استطاعوا ، ولم يكن الخلفاء يطلبون إلى الحاكم أكثر من ذلك، لأنهم كانوا يعرفون صعوبة حكم هذه البلاد وسياسة أمورها ، ومصداق ذلك ما ذكره النويرى من أن سليمان ابن عبد الملك استعمل : « محمد بن يزيد مولى قريش، وقال له عند ولايته : يا محمد اتق الله وحده لاشريك له ، وقم فيما وليتك بالحق والعدل ، اللهم اشهد ! فخرج محمد وهو يقول : مالى عذر إن لم أعدل[2] » وهذه العبارة وحدها تدل على صعوبة

---

(١) تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ، ص٣٧٦ — ويلاحظ أن عبارة اليعقوبى يفهم منها أن الرجل تأخر فى دفع الأعطيات خمس سنوات . (٢) النويرى ، نهاية الأرب ، ص٨٢ ب

حكم هذه البلاد وحيرة الحكام فى الطريق الذى يسلكونه فى حكومتها وعلى شعور الخلفاء بذلك .

— ٣ —

اضمحلال أمر المسيحية فى البلاد

كانت سياسة الروم فى إفريقية سبباً فى القضاء على ما كان قد انتشر من المسيحية بين أهلها إذ وقف الأهلون موقف العدو من الروم وكل مايتصل بهم من دين وحضارة ، بل أخذ بعضهم يهاجم الأديرة والكنائس : « وحينما ضعف أمر الإمبراطورية الرومانية فى القرن الخامس أخذت قبائل شتى من هذا الشعب العظيم — الذى سماه الرومان المور أو النوميديين والليبيين — تُغير من الجنوب لتخرب المدائن العامرة الغنية التى على الساحل ، وكان هؤلاء الغزاة وثنيين من غير شك ، فأخذ الليبيون — الذين يصف لنا سينيسيوس القيريني أعمال تخريبهم — ينهبون الكنائس ويحرقونها ويأخذون منها الآنية المقدسة إلى معابدهم الوثنية ، وكان من أثر هذا التخريب أن الرخاء لم يعد أبداً إلى ولاية برقة ، بل كادت المسيحية أن تكون خيالا زائلا إبان الفتح الإسلامى للبلاد[1] » ، كما قال الأستاذ أرنولد ، ويمكننا تصور اضمحلال المسيحية فى إفريقية إذ ذاك إذا ذكرنا أن عدد الأسقفيات فى البلاد كان قبيل الغزو الوندالى خمسمائة بينما لم يزد عددها على مائة أسقفية فى سنة ٥٣٤م ، أى قبيل الفتح العربى ، ولا بد أن يكون عدد المسيحيين قد تضاءل جداً بعد الاضطهاد الشديد الطويل المستمر الذى نزل بهم خلال الفترة الأخيرة من الحكم البيزنطى ، وفى خلال القرن الذى انقضى قبل إقبال العرب : « اجتمعت غارات البربر — الذين حصروا الروم فى المدائن ومراكز العمران الأخرى واحتفظوا لأنفسهم بالجبال والصحارى والسهول — إلى الفوضى الشاملة وسوء الإدارة ، إلى الطواعين المخربة التى وفدت على البلاد

(١) Th. Arnold, Preaching of Islam. p. 122.

فى النصف الثانى من القرن السادس ، اجتمعت هذه كلها على خراب البلاد [١] » .

الكنيسة الإفريقية

يضاف إلى ذلك أن الكنيسة الإفريقية لم تكن — خلال العصر البيزنطى — على حال تبعث على الأمل فى مستقبل المسيحية فى البلاد، فكانت إدارتها مختلة: « إذ تلاشى النظام الكنسى واقترف القسس ذنوباً كثيرة تدل على العصيان أو التدهور الأخلاقى والفساد ، وكان قساوسة الولاية الداخلية يعارضون أسقفهم الأكبر فيما يصدر لهم من أوامر ، وكان آخرون يبذرون الشقاق فى الأديرة بإثارة الرهبان على رؤسائهم ، وكانت الكنيسة كلها فى اضطراب دائم وتدهور مستمر ، إذ كانت وظائفها تباع جهاراً ، ولم يكن كبار القساوسة يتأخرون عن معاقبة صغار الرهبان بعقوبات بدنية ، واشتهر من المفسدين أسقف تيجس الذى كان يبيع وظائف الكنيسة » [٢] .

وكانت الدوناتية وخصومتها المشبوبة مع الكنيسة البيزنطية عاملا آخر من عوامل إضعاف المسيحية فى البلاد ، إذ كان دعاتها يفرون إلى داخل البلاد نجاة من العقاب ، ويندسون بين القبائل والأهلين ويثيرونهم على الكنيسة ، فنفر منها الناس ، بل أخذ البعض يعمِّد نفسه من جديد وفق طقوس الدوناتيين .

لهذا لم يخطىء بيكيه حين قال : « ويبدو أن البربر لم تكن لهم أديان ثابتة قبل الإسلام ، كانوا وثنيين أو يهوداً ، وكانوا قد اعتنقوا المسيحية فى القرون الأولى ثم نسوها حين استعادوا استقلالهم [٣] » وإن كان قد أخطأ فى تعليل تلك الظاهرة بقوله : « إنهم شعب غير متدين » وكان ينبغى أن يرد ذلك إلى مساوىء الحكم البيزنطى ، وفساد كنيسة إفريقية .

---

(١) Th. Arnold, Preaching of Islam, pp. 122-123.

(٢) Greg, Epist. p. 24.
Diehl, op. cit. pp. 506 Sqq.

(٣) V. Piquet, op. cit. p. 60

وإذا كان قد بقى فى البلاد نفر من المسيحيين فقد أخذوا يغادرونها أثناء الفتح العربى ، بحيث يمكن القول بأن البلاد لم يكن فيها إلا أقل آثار من المسيحية بُعَيْدَ تمام الفتح العربى لها .

* * *

هل أقبل البربر على الإسلام من زمن مبكر؟

يروى ابن خلدون رواية يفهم منها أن أهل البلاد أقبلوا على الإسلام من زمن مبكر جداً ، فيقول : « وانساح المسلمون فى البسائط بالغارات ، ووقع بينهم وبين البربر أهل الضواحى زحوف وقتل وسبى ، حتى لقد حصل فى أسرهم يومئذ من ملوكهم وزمار بن صقلاب جد بنى حذر وهو يومئذ أمير مغراوة وسائر زناتة ورفعوه إلى عثمان بن عفان فأسلم على يده ومنّ عليه وأطلقه وعقد له على قومه »[1] أى أن وزمار هذا بادر إلى الإسلام منذ الساعة الأولى التى دخل العرب البلاد فيها ، وبديهى أن ابن خلدون أراد أن يقول إن قوم صقلاب تبعوه فيما فعل .

وللبلاذرى رواية تؤيد رأى ابن خلدون هذا يفهم منها أن إسلام أهل البلاد إذ ذاك لم يكن بسيطاً أو محدوداً ، وإنما أقبل عليه نفر غفير استدعى التنظيم والعناية ، فيقول : « إن عمرو بن العاص أرسل إلى عمر بن الخطاب كتاباً : يعلمه أنه قد ولى عقبة بن نافع الفهرى المغرب ، فبلغ زويلة ، وأن من بين زويلة وبرقة سلم كلهم ، حسنة طاعتهم ، قد أدى مسلمهم الصدقة وأقر معاهدهم بالجزية ، وأنه قد وضع على أهل زويلة ومن بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه ، وأمر عماله جميعاً أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء فيردوها فى الفقراء ، ويأخذوا الجزية من الذمة فتحمل إليه بمصر »[2] فكيف استطاع العرب أن يوفقوا هذا التوفيق كله فى ذلك الزمن المبكر ؟ وإذا كان هذا مبلغ إقبال أهل البلاد على الإسلام من أول الأمر ، فكيف

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ١٠٨

(٢) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٢٢٤

تأخر تمام إسلامهم قرناً آخر من الزمان فلم يظهر بشكل واضح إلا فى حكومة عمر بن عبد العزيز ؟ .

الواقع أن رواية ابن خلدون مشكوك فى صحتها ، لأن أحداً من مؤرخى المشرق لم يشر إلى حضور وزمار هذا إلى عثمان ، و أمر كهذا له أهميته ، ولم يكن ليفوتهم وهم الذين كانوا يحصون كل شاردة وواردة مما كان يحدث بالمدينة فى هذه الأيام . أما رواية البلاذرى فقد سبق ترجيح أن عمراً كتب كتابه هذا فى ولايته الثانية على مصر لافى ولايته الأولى ، وأنه كتبها لمعاوية بن أبى سفيان لا إلى عمر بن الخطاب وأنه — إن كان قد كتبها حقاً — لم يرد بها تقرير الواقع ، وإنما أراد بها أن يستحث معاوية على موافاته بالجند والمال لفتح إفريقية التى كان قد أرسل عقبة بن نافع ليمهد لغزوها إذ ذاك ، هذا إلى أنه لا يسعنا إلا الشك فى قيمة هذا الكتاب ودلالته ، فإن مايلى ذلك من الأحداث لايدل على أن الإسلام لقى من أهل فزان وودان وطرابلس هذا القبول العظيم الذى يفهم منها .

بيد أن المراجع تؤكد لنا أن نفراً من أهل البلاد دخل الإسلام بعد ذلك بسنوات قلائل ، أى خلال السنوات الخمس التى قضاها عقبة فى تخطيط القيروان ، فاتفق ابن الأثير والنويرى فى القول بأن بعض البربر أسلم حين رأى عقبة يخرج الحيات من موضع القيروان [1] ، ثم عاد ابن الأثير فأكد أن الإقبال على الإسلام زاد بعد بنائها ، إذ أن عقبة : « كان فى أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا فتغير وتنهب ، ودخل كثير من البربر فى الإسلام ، واتسعت خطط المسلمين وقوى جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان ، واطمأنوا على المقام ، فثبت الإسلام فيها [2] » فهل أسلم كثيرون من أهل هذه النواحى حقاً بين سنتى ٥٠ و ٥٥ هـ ؟

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، جـ ٣ ، ص ١٨٤ — النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٢٢ ، ص٦٨ أ
(٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، جـ ٣ ، ص ١٨٤

إننا نعرف أن القبائل التى كانت تسكن الناحية التى أقيمت فيها القيروان أو تحيط بها إنما هى لواتة ونفزاوة ونفوسة ، وأن هذه القبائل معدودة من قبائل البدو الذين لبثوا على عداء الروم زمانا طويلا ، ونعرف أن تأثير المسيحية فى هـذا الفريق من البربر كان طفيفاً جداً ، فهل يكون ذلك مؤيداً لرواية إسلامهم السريع ؟ أى هل كان عداؤهم للروم وكراهيتهم لهم سبباً من أسباب دخولهم الإسلام ؟

ينبغى أن نذكر قبل ذلك أن البربر الذين أكد البلاذرى إسلامهم فى روايته التى سبق بيانها هم لواتة ونفوسة وهوارة ، أى أنهم من البدو ، وأن المراجع تذكر لنا فيما تلا ذلك من الأحداث أن هذا الفريق من البربر كان مؤازراً للعرب مناصراً لهم من أول الأمر ، واستمر على ذلك زمانا طويلا . وأن رجاله كانوا يدلون العرب على مسالك البلاد وطرقها ، فيذكر ابن عبدالحكم أن حسان بن النعمان : « وجه على مقدمته محمد بن أبى بكر وهلال بن شروان اللواتى[1] » وأنه : « كان معه جماعة من البربر من البتر[2] » وقد سبقت الإشارة إلى : « نشوء جماعات إسلامية لم تكن قليلة ، وإنما كانت كثيرة نوعا : فيها بعض زناتة وبعض نفوسة وبعض مصمودة » ، وإذا لوحظ أن هذه القبائل التى بدأت تدخل الإسلام أو تميل إليه من ذلك الحين كانت تسكن الجنوب فتتدخل فيها برغواطة وزناتة ونفوسة ، كان من السهل تكوين فكرة عن بدء إسلام إفريقية الفعلى واتجاهه : بدأ عند القبائل الجنوبية الكثيرة الشبه بالعرب التى تميل للرحلة وتحيا حياة مشطورة بين الظعن والإقامة ، ثم أخذ يمتد إلى الشمال شيئاً فشيئاً » أى أن حركة الإسلام فى إفريقية أو حركة الانضمام للعرب بدأت أول الأمر عند القبائل المتبدية الجنوبية ، أما القبائل المتحضرة نوعاً فيبدو — من هذه الروايات — أن إسلامها وانضمامها للعرب تأخر بعض الشىء .

وربما أعاننا على تفسير هذا الأمر أن نذكر ما نعلم من عداء هـذا الفريق

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٠٠ (٢) نفس المصدر ، ص ٢٠١

من البربر للروم من قديم الزمان ، وحربهم الطويلة وإياهم ، ووقوفهم من الروم دائماً موقف العدو الذى يأبى الخضوع و يرفض الطاعة ، وتلمسهم الأسباب للخلاص منهم وطردهم من البلاد ، ونظرة واحدة إلى تاريخ العلاقات بين هؤلاء البربر والروم تؤكد أن الذى حدث هو الطبيعي المحتمل الوقوع .

وليس معنى هذا أن أهل البلاد انقسموا إلى قسمين عظيمين : أحدهما يضم قبائل الحضر والآخر يضم قبائل البدو ، وأن الأولين ظلوا على عداء العرب فى حين سارع الآخرون إلى عونهم واعتناق دينهم ، لأن هؤلاء البربر الحضر كانوا أقلية ضئيلة جداً إذا نسبت إلى البدو ، و بقاؤهم على عداء العرب فترة من الزمان لا يعنى أنّ نصف البربر ظلّ بعيداً عن الإسلام . فلم يكن هؤلاء البربر الذين تأثروا بالحضارة البيزنطية إلا بضع قبائل قليلة تسكن نواحى الزاب وتحيط بالرباطات ، وكانت بعد هذه الجهود الطويلة التى أنفقها العرب فى فتح البلاد قد ضعف أمرها بحيث لم يعد يحسب لها حساب ، ومن هنا لم يكن جوتييه موفقاً حين عاق على هذا الفريق من البربر أهمية عظمى و بنى على هذا الأساس نتائج خطيرة تتصل بإسلام أهل البلاد ، وظاهر أن سبب خطئه هو أنه ذهب إلى أن كل القبائل التى سماها نسابة البربر برانسَ حضرٌ ، وكل التى سموها بترابدو ، وليست الحقيقة كذلك كما هو ظاهر من ابن خلدون نفسه ومن اعتراض الأستاذ وليم مارسيه على هـذا الرأى [1] . والغالب أن حركة إسلام البربر كانت قد بدأت من زمن مبكر جداً، إذ لا خلاف فى أن نفراً منهم أسلم والعرب يختطون القيروان ، وأن الإقبال على الإسلام استمر من ذلك الحين ، ومصداق ذلك ماتنبئنا به المراجع من إسلام الزعيم البربرى — كسيلة — بعد ذلك بنحو ثمان سنوات ، وقد سبقت الإشارة إلى أهمية حادث كهذا ودلالته ، فقلنا إنه: « لا نزاع فى أن كسيلة لم يسلم بمفرده و إنما تبعه

(١) A. Julien, pp. 323-325. راجع الفصل التمهيدى الأول .

نفر كبير من قومه من القادة والأقارب والأتباع والأصاغر . . . وستتضح أهمية هذا الحادث بعد ذلك بثلاثين سنة فقط حين نجد رجالا من البربر وأهل البلاد مسلمين على ثقة وتمكن من دينهم ، يسيرون مع العرب جنباً لجنب لفتح البلاد ونشر راية الإسلام ، وكيف نفسر ظهور رجل كطارق بن زياد عربى الإسم عربى الأب فى سنة ٩١ هـ ، إلا بأن أباه زياداً قد تزوج من أهل البلاد فى مثل هذا الوقت الذى نتحدث فيه ؟ ، وانما ضربنا المثل بطارق لكى نؤكد أن حركة الاختلاط بين العرب والبربر — بالزواج والإسلام — كانت تسير جنباً إلى جنب مع الفتوح التى شغل الرواة بأخبارها [1] » .

بهذا بدأت حركة الإسلام بين البربر من زمن مبكر ، ثم كانت حملة عقبة الثانية ومغامراته فيها واستشهاده فى ختامها ذات أثر بعيد فى نفوس الأهلين ، تؤيد ذلك الروايات التى بين أيدينا عن هذه الغزوة ، فهى تصورها لنا كما انطبعت فى أذهان الأهلين : قصة طريفة حافلة بأعمال الشجاعة والإيمان والمعجزات والكرامات والاستهانة بالموت ، وهذا التصور دليل ناطق على أن الأهلين كانوا ينظرون لعقبة بالإعجاب، وأنهم ظلوا على ذلك زماناً طويلا ، وإذا كنا قد لاحظنا أنّ بعض القبائل هم لنصر عقبة وأصحابه حين كاثرهم الأعداء ، فبديهى أن يقال إن البلاد وجدت بها — من ذلك الحين — جماعات إسلامية ، أو تميل إلى المسلمين على الأقل ، وأن يقال إن حركة الإسلام كانت سائرة سيراً حثيثاً بين الأهلين .

بهذا لا يكون إقبال أهل البلاد على الإسلام أيام حسان أمراً غير طبيعى أو ظاهرةً ينبغى الشك فى حقيقتها ، لأن المقدمات كلها تنتهى إليها ، فهؤلاء البربر الذين أقبلوا على الإسلام إقبالا ضعيفاً من نحو ثلاثين سنة ، واستمروا على ذلك طوال السنوات الماضية ، فكان طبيعياً أن يشتد إقبالهم عليه حين يتم نصر العرب

(١) راجع ص ١٧٥ — ١٧٦ من هذه الرسالة .

وحين يوفقون إلى القضاء على كل لون من المقاومة فى البلاد . و إذا كان العرب قد اعتبروا أهل المغرب أنداداً لهم وأشركوهم فى جيوشهم وأعطوهم الأعطيات وسمحوا لهم بالاشتراك فى المغانم، فمن الطبيعى أن يقبل على الإسلام من لم يكن قد أقبل عليه منهم بعد ، فلم يعد الإسلام كسباً روحياً فقط و إنما مادياً يعود على من يعتنقه بالخير الوفير .

يقول ابن عذارى فى ختام أعمال موسى بن نصير فى إفريقية ، أى بعد عوده إلى القيروان : « وفى هـذا التاريخ[1] تم إسلام المغرب الأقصى ، وحولوا المساجد التى كانت بنتها المشركون إلى القبلة ، وجعلوا المنابر فى مساجد الجماعات ، وفيها صنع مسجد أغمات هيلانة »[2] فماذا يريد ابن عذارى من قـوله : « المغرب الأقصى ؟ » ولماذا لم يقل المغرب فقط ؟ أيريد أن أهـل إفريقية والمغرب الأوسط كان قد تم إسلامهم قبل ذلك ولم يكن قد بقى إلا أهل المغرب الأقصى ؟ أم يريد أن بربر المغرب الأقصى فقط هم الذين تم إسلامهم و بقيت فى بقيـة نواحى المغرب أحياء من البربر لم تسلم بعد ؟ فأما الفرض الأول فلا يؤيده ما سبقت الإشارة إليه من أن برغواطة — إحدى قبائل السوس — كانت من أول القبائل إسلاما ، وأن أهل هذه النواحى أقبلوا على الإسلام من زمن بعيد ، وأما الفرض الثانى فلا يستقيم مع ما سبق ذكره من إسلام زناتة وصنهاجة وهوارة ، وهى ثلاثة القبائل الكبرى التى تعمر المغرب الأوسط ، فلم يبق إذن إلا القول بأن ابن عذارى أراد المغرب كله بهذا القول . وربما جاز أن نفهم من قوله : إن هؤلاء الذين أسلموا فى ذلك الحين : « حولوا المساجد التى كانت بنتها المشركون إلى القبـلة ، وجعلوا المنابر فى مساجد الجماعات » ، أن معظمهم كان من الحضر الذين يسكنون المدن التى فيها كنائس ، يمكن تحويلها إلى مساجد بتحويلها إلى القبلة و إقامة المنـابر فيها ، فإذا صح هـذا

(١) يذكر ابن عذارى سنة ٨٥ هـ وهو خطأ وقد سبق بيان ذلك .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ص ٢٨

التأويل ، كانت عبارة ابن عذارى على جانب عظيم من الأهمية ، لأنها تدل على أن طائفة البربر الحضر — الذين كانوا متأثرين بالحضارة اللاتينية واعتنق النصرانية منهم نفر — بدأت تقبل على الإسلام ، وأن إسلامها كان صحيحاً بحيث اقتضى إقامة المساجد عندهم ، ومما يؤيد ذلك قول ابن عذارى قبل ذلك ، إن موسى ترك عند بربر طنجة : « سبعة عشر رجلا من العرب يعلمونهم القرآن » ويعزز ذلك الرأى أيضاً قول ابن عذارى : « وقد كان عقبة بن نافع الفهرى ترك فيهم بعض أصحابه يعلمونهم القرآن والإسلام، منهم شاكر وغيره ، ولم يدخل المغرب الأقصى أحد من ولاة خلفاء بنى أمية بالشرق إلا عقبة بن نافع الفهرى ، ولم يعرف المصامدة غيره ، وقيل إن أكثرهم أسلموا طوعاً على يديه ، ووصل موسى بن نصير بعده »[1] مما يدل على أن شخصية عقبة كانت شديدة الأثر فى أهل هذه النواحى ، وأن ذكراه ظلت عالقة بأذهانهم حتى أيام موسى بن نصير . وإذا كانت الوقائع لا تؤيد ابن عذارى فيما ذكره من إسلام أهل هذه النواحى من ذلك الحين ، فلا أقل من مجاراته فى القول بأن المصامدة لم يعرفوا غير عقبة ، أى أنه كان الدافع الأول لإسلامهم .

بيد أنه ليس من الصواب أن يقال إن جميع هؤلاء البربر الذين أسلموا إنما فعلوا ذلك عن إيمان وثيق واقتناع بالدين الجديد ، لأنه إذا كان نفر منهم قد أقبل على الدين مدفوعاً بهذا الشعور ، فلا نزاع فى أن كثيرين أقبلوا عليه طمعاً فى غنيمة أو فراراً من جباية أو بدافع العداء للروم أو خوفاً من العرب ، فقد قال المقرى بعد أن سرد حروب موسى بن نصير: «فلما رأى بقية البربر نزل بهم استأمنوا»[2] أى أنهم خافوا أن ينزل بهم موسى ما أنزل بغيرهم من القبائل من الحرب الشديدة والسبى وما إلى ذلك ، فتسارعوا إليه يعلنون إسلامهم حتى يأمنوا على أنفسهم

(١) نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ٢٨ (٢) المقرى ، نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ١١١

وعلى أموالهم ، وحتى يصبح لهم الحق فى ملكية ما بيدهم من الأرض وحتى يتاح لهم الاشتراك فيما يقبل من فتوح العرب وغنائمهم .

والبينات كثيرة على أن الخلفاء كانوا على نية الخير لإفريقية وأهلها ، فقد سبقت الإشارة إلى وصاة سليمان بن عبد الملك لمحمد بن يزيد وقوله له : « اتق الله وحده لا شريك له ، وقم فيما وليتك بالحق والعدل ، وقد وليتك إفريقية والمغرب كله[1] » ، مما يفهم منه أن سليمان كان يحرص الحرص كله على أن تحسن معاملة أهل إفريقية ويُعدل فيهم ، وقد لوحظت كذلك رغبة الخلفاء فى إفراد إفريقية بولاية خاصة ، وتخليصها من سلطان عمال مصر خوفاً من أن يستبد هؤلاء بأهل البلاد ويعنتوهم ، وقد استمر الخلفاء على حرصهم هذا طوال العصر الأموى ، ومن دلائل ذلك ما وقع بين موسى ابن نصير وسليمان بن عبد الملك ، مما يؤول دائماً بأنه كان سخطاً من سليمان على موسى لإسراعه بما معه من الأموال حتى أدرك الوليد ، وسببه فى الواقع أن سليمان لم يكن يرضى عن سياسة موسى ، وساءه منه تعاظمه وتصرفه تصرف الملك المستبد بأمره لا العامل المولى من قبل الخلافة ، وأحفظه إسرافه فى عسف الناس وظلمهم وسبيهم وتقسيمه نواحى المغرب والأندلس بين أبنائه وذويه ، ومن دلائل ذلك أيضاً أن يزيد بن عبد الملك لم يسخط على أهل إفريقية لقتلهم عامله عليهم يزيد بن أبى مسلم ، وإنما أجابهم بالرضا وأقر محمد بن يزيد على عمله[2] ، مما يفهم منه أنه هو الآخر كان ساخطاً على يزيد لمسلكه فى البربر لأنه : « عزم أن يسير فيهم بسيرة الحجاج فى أهل العراق الذين سكنوا الأمصار ممن كان أصله من السواد من أهل الذمة فأسلم بالعراق ، فإنه ردهم إلى قراهم ، ووضع الجزية على رقابهم على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم كفار[3] » ، ومصداق ذلك أن يزيد بن عبد الملك كتب إليهم يقول : « إنى لم أرض عما صنع يزيد بن أبى مسلم[4] » .

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٣٢ — ٣٣

(٢) ابن خلدون ، جـ ٤ ، ص ١٨٨ (٣) ابن الأثير ، أسد الغابة ، جـ ٥ ، ص ٣٨

(٤) نفس المصدر والصفحة .

لهذا لا ينبغى القول بأن المسلمين أساءوا السيرة فى إفريقية ، أو أن غرض الحكم الإسلامى إنما كان عسف البربر والاستبداد بهم والفوز منهم بالغنائم والأسلاب ، وإنما الأصح أن يقال إن العمال أنفسهم هم الذين أساءوا السيرة ومالوا إلى الاستبداد بالناس إسرافاً منهم فى إرضاء الخلفاء بالإكثار من الهدايا والمغالاة فيما يرسل إلى الدولة من المال كل عام ، وقد سبقت الإشارة إلى ما كان من إسراف موسى ومغالاته فى ذلك حتى قال الناس : « ابن نصير والله أحمق ؛ من أين له عشرين ألفاً ! » ولابن عذارى رواية تدل على ذلك صراحة ، وذلك حيث يقول فى نقده لسياسة عبد الله بن الحبحاب فى إفريقية : «وكان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب ويبعثون فيها إلى عامل إفريقية ، فيبعثون لهم البربريات المسبيات ، فلما أفضى الأمر إلى ابن الحبحاب مناهم بالكثير ، وتكلف لهم أو كلفوه أكثر مما كان ، فاضطر إلى التعسف وسوء السيرة[1] » ، ففى هذا القول إشارة صريحة إلى تكلف عامل المغرب فى هداياه للخلفاء ، وإسرافه فى ذلك ، ودليل على أنه كان قد عقد العزم يوم تولى على أن يبعث للخلفاء بالهدايا الوافرة الكثيرة فى كل عام ، ويلاحظ كذلك أن إشارة ابن عذارى إلى رغبة الخلفاء فى لطائف المغرب لا تدل على أنهم لم يكونوا يريدون الكثير منها ، « وإنما كانوا يستحبونها فقط[2] » ولدينا الدليل على أن الخلفاء لم يكونوا ليرضوا من عمالهم هذا الإسراف فى إرسال الأموال والهدايا وما إليها ، وأنهم كانوا يتعففون فى كثير من الأحيان عن أخذ مايصل إليهم من المال إذا تبينوا أن العامل لم يعدل فى قسمة أو أسرف فى جمعه من أهل البلاد ، فقد روى ابن عبد الحكم أن سليمان بن عبد الملك حينما وصلته هدايا موسى بن نصير انبعث رجل من أصحاب موسى يقال له عيسى بن عبد الله الطويل من أهل المدينة ، وكان

---

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب جـ ١ ، ص ٣٩

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٣٩

على الغنائم فقال : « يا أمير المؤمنين إن الله قد أغناك بالحلال عن الحرام ، وإنى صاحب هذه الغنائم ، وإن موسى لم يخرج خمساً من جميع ما أتاك به ، فغضب سليمان وقام عن سريره فدخل منزله ثم خرج إلى الناس فقال : نعم قد أغنانى الله بالحلال عن الحرام ، وأمر بإدخال ذلك بيت المال [1] » .

وكان البربر أنفسهم يعرفون أن الخلافة تنوى بهم الخير ، وأن ما قد ينزل بهم من العسف والجور إنما سببه العمال ، ولهذا لم يسخطوا على الخلفاء وإنما على العمال ، ومن دلائل ذلك قول ابن الأثير : « وكانوا — أى أهل إفريقية — يقولون : لا نخالف الأئمة — أى الخلفاء — بما تجنى العمال ، فقالوا — أى الدعاة الذين كانوا يحرضون البربر على الفتنة — لهم إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك ، فقالوا : حتى نخبرهم ! فخرج ميسرة فى بضعة وعشرين رجلا ، فقدموا على هشام فلم يؤذن لهم ، فدخلوا على الأبرش فقالوا : أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا وبجنده ، فإذا غنمنا نفلهم ولم ينفلنا ويقول: هذا أخلص لجهادكم ... ، فقلنا: لم نجد هذا فى كتاب ولا سنة ونحن مسلمون ، فأحببنا أن نعلم أعن رأى أمير المؤمنين هذا أم لا ؟ فطال عليهم المقام ونفذت نفقاتهم، فكتبوا أسماءهم ودفعوها إلى وزرائه ، وقالوا : إن سأل عنا أمير المؤمنين فأخبروه ، ثم رجعوا إلى إفريقية ، وبلغ الخبر هشاما فسأل عن النفر فعرف أسماءهم فإذا هم الذين صنعوا ذلك» مما يدل على أن أهل البلاد كانوا يشعرون أن ما يصيبهم من الأذى إنما كان عن رأى الأمراء لا الخلفاء ، وربما لاحظنا من هذه الرواية أنه حيل بينهم وبين الخليفة حتى لا تصل شكواهم إلى مسامعه ، وهو فرض محتمل الحدوث فى هذه الأيام ، فلا يبعد أن تكون بطانة الخليفة من نفس الحزب أو القبيلة التى ينتمى إليها العامل الذى أقبل البربر يشكونه ، فعملوا على أن لا يصل صوتهم إلى الخليفة، وربما أيد ذلك قول ابن الأثير : « إن الخليفة سأل عن وفد

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢١١

البربر بعد انصرافه » مما يدل على أنه كان يريد مقابلته والتعرف على شكواه .

أثر فتح الأندلس فى إسلام أهل المغرب

بيد أن حركة فتح الأندلس كانت عظيمة الأثر فى إفريقية ، فقد كان النصر السريع الذى حازه الفاتحون الأول حافزاً لمن تخلف من البربر المسلمين إلى عبور البحر والاشتراك فى الحرب والمساهمة فى الغنم الوفير ، ثم دافعاً لمن كان قد بقى على دينه إلى الدخول فى الإسلام حتى يتاح له الالتحاق بجند المسلمين ، ومن ثم كان فتح الأندلس معجلا بإسلام البربر على رغم سوء سياسة أمراء إفريقية وعدم حفلهم بنشر الإسلام بينهم، وسواء أكان إسلام هؤلاء الذين اشتركوا فى الفتح عن عقيدة أو لمطامع أخرى ، فإن غلبة الروح الدينى على الفتح ، واختلاط جند البربر بالعرب المسلمين قد أدى إلى تثبيت إسلام البربر وإظهارهم على اللغة العربية ، وقد كان العرب قد أخذوا يفدون بكثرة إلى الأندلس للحرب وللإقامة ، فكثر مرورهم فى إفريقية واختلاطهم بالبربر ومصاحبتهم لهم ، ومن ثم أتيحت للبربر الفرصة ليتعلموا أصول الإسلام عن العرب ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن كثيراً من مهاجرى العرب إلى الأندلس كانوا من أعرق القبائل العربية وأعرفها بالدين واللغة ، وأن خصومة المضرية والقيسية كانت تحمل إلى الأندلس كل يوم نفراً من أهل المدينة وعرب الشام ، ممن يعرفون الإسلام والعربية حق المعرفة ، لأمكن تصور الأثر الكبير الذى أحدثه فتح أسبانيا فى إفريقية ، ذلك أن المغرب كان الطريق الذى يسلكه هؤلاء كلهم فى سبيلهم إلى الأندلس ، فكثر مرورهم بين القبائل البربرية ، وربما تخلف فيها نفر منهم وأقام بين البربر رجاء أن يعتز بنصرهم أو يكسبهم إلى جانبه ، فأخذت القبائل عنهم الدين واللغة مما كان له أبعد الأثر فى الإسراع بهذه البلاد نحو الإسلام والعربية .

وكانت منازعات الأحزاب على أشدها طوال العصر الأموى ، وعصفت برجال الدولة ثارات العصبية ، فكثر الاضطهاد وتعددت الخصومات ، وكان

الأمويين طائفة عظيمة من الأعداء السياسيين لا يكفون عن الشغب ولا يكف الأمويون عن تعقبهم بالأذى ، فكثر فرار هؤلاء من البلاد والتماسهم الأمان فى ناحية بعيدة عن مركز الدولة ، وكان المغرب من النواحى التى كثر التماس هؤلاء الفارين للأمان فيها لاتساعها وتشعب مسالكها وكثرة قبائلها ، وكان الكثير من هذه القبائل ينطوى على السخط على العمال لما يصيبها من الأذى على أيديهم ، فكانت ترحب بهؤلاء اللاجئين لأنهم وإياها على هوى واحد ، ولهذا كثر وفودهم على المغرب والتجاؤهم إلى قبائله ، وهذا ظاهر ملموس من رواية ابن الأثير التى سبق ذكرها ، ففيها تحريض من هؤلاء الفارين من العرب للبربر على الثورة والعصيان، فإذا قال البربر إن سبب الشرّ هم الأمراء لا الخلفاء قالوا لهم : « إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك » .

ويبدو مما وقع بعد ذلك من الأحداث أن هؤلاء المحرضين لم يكونوا قليلين ، وإنما حفلت البلاد بنفر غفير منهم ، بل بلغ من كثرتهم أنهم استطاعوا أن يؤثروا فى كثير من هذه القبائل ويدفعوها إلى الثورة على الأمويين ، ويبدو أن هؤلاء المحرضين كانوا لا يدخرون وسعاً لإدراك هذه الغاية ، وأنهم كانوا يسلكون كل سبيل يمكن أن يؤدى إلى ثورة البربر على الخلافة ، ومن ذلك أنهم أخذوا يتحببون إلى البربر بامتداحهم ، واختلاق الأحاديث النبوية التى تعظم إفريقية وتعد المجاهدين من أهلها أجزل الثواب ، ومن هنا لا غرابة فى أن نجد فى كتب التاريخ المغربى طائفة عظيمة من الأحاديث النبوية عن البلاد وبعض نواحيها كالمنستير ورادس[1] وغيرهما ، وربما كان هذا هو السبب فى انتساب بعض قبائل البربر الكبرى كصنهاجة وكتامة إلى العرب ، إذ لا يبعد أن يكون الدعاة قد اختلقوا

(١) لفظ المنستير لاتينى الأصل ولا زال باقياً إلى اليوم فى لفظة Monastère الفرنسية ، وقد سبق بيان أصل لفظ رادس ، وهناك طائفة أخرى من الأحاديث تذم إفريقية وأهلها ، يرجح أنها هى الأخرى مظهر من مظاهر التطاحن الحزبى .

الأنساب العربية لتلك القبائل ، حتى يوجدوا بين أنفسهم و بين البربر نسباً يمكنهم من الزعامة عليهم و يمكن لهم فى نفوسهم ، وأعان على ذلك الشبه الشديد بين الشعبين فى الطبيعة والظروف الاجتماعية .

***

أصل حركات الخارجية فى المغرب

من هنا نشأ ما يسمى فى تاريخ المغرب بحركات الشيعة والخارجية ، إذ أن المعروف أن كثيراً من أعداء الأمويين كانوا من هذين الفريقين ، وأن كثيراً منهم فر إلى المغرب حيث صادفت دعايتهم مرعى خصباً بين القبائل البربرية ، ولهذا كان ظهور حركات الخارجية والصفرية سريعاً فى المغرب ، إذ اندلعت نيران الثورة الخارجية فى ولاية عبيد الله بن الحبحاب فى سنة ١٢٢ هـ . قادها : « ميسرة السقاء ثم المدغرى وكان خارجياً وصفرياً »[1] ، وهى ثورة لا تحتاج إلى دليل لإثبات يد هؤلاء الدعاة من الشيعة والخوارج فيها .

بيد أن هذه العوامل كلها كانت عظيمة الأثر فى انتشار الإسلام بين أهل البلاد ، فهؤلاء الدعاة الذين انبثوا بين القبائل كانوا يعملون على نشر الإسلام بينها ، وربما كان وجودهم بين هذه القبائل حافزاً لها على تعلم العربية ومحاولة معرفتها حتى تستطيع التعرف على ما يدعون إليه ، وأعان على ذلك سخط الجانبين — القبائل والدعاة — على عمال الأمويين ، فأقبل البربر على هؤلاء الدعاة والتفوا حولهم وأولوهم العون العزيز ، وصح إسلام الكثيرين منهم وكان عن هذا السبيل .

بهذا سار إسلام البربر سيراً حثيثاً من غير أن يكون للخلفاء أو الأمراء أثر ظاهر فى ذلك ، بل لو كان إسلام البربر قد توقف على سياسة هؤلاء واهتمام أولئك ، لما تقدم على النحو الذى مر بيانه ، لأن كثرة المشاغل وتعدد الثورات والفتن حالت بين الخلفاء و بين الاهتمام بناحية دقيقة كهذه ، وجعلت يد الأمراء مطلقة ، فساقوا

---

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، جـ ٥ ، ص ٧٠

أهل المغرب سوقاً عنيفاً ، وانصرفوا كل الانصراف عن الاهتمام بإسلامهم ، بل منهم من كان يرى أن هـذا الإسلام لا يتفق وصالح الدولة ، فأخذ يفرض الجزية على من أسلم من الأهلين ، وهو أعلم الناس بأن سياسة كهذه من شأنها أن تنفرهم من الإسلام والعرب جملة .

فإذا كانت هـذه هى سبيل البربر إلى الإسلام ، فطبيعى أن يكون إسلام الكثيرين منهم حتى ذلك الوقت — خلافة سليمان بن عبد الملك ٩٦ — ٩٩ هـ — سطحياً لا يقوم على أساس صحيح من العلم بالدين وقواعد الإسلام .

* * *

عمر بن عبد العزيز يعمل على إسلام أهل المغرب

فلما تولى عمر بن عبد العزيز تنبه لذلك وأحس خطره ، وكانت لعمر سياسة إسلامية تنحو إلى نشر الإسلام وإدخال رعيته كلهم فى رحابه ، ويبدو أن سياسة سلفه سليمان فى إفريقية لم تلق عنـده القبول ، فعزل واليه محمد بن يزيد القرشى وولى على إفريقية والياً من لدنه ، يثق فيه ويطمئن إلى اهتمامه بإسلام أهل البلاد وهو اسماعيل بن عبيد الله تولاه : « فى المحرم سنة ١٠٠ هـ على حربها وخراجها وصدقاتها [١] »

* * *

إسماعيل بن عبيد الله

تتفق المراجع على أن إسماعيل بن عبيد الله : « دعا من بقى من البربر إلى دين الإسلام [٢] » وأنه : « كان خير أمير وخير وال ، ومازال حريصاً على دعاء البربر إلى الإسلام حتى أسلم بقية البربر بإفريقية على يديه فى دولة عمر بن عبد العزيز ، وهو الذى علم أهل إفريقية الحلال والحرام [٣] » وأنه : « لم يزل حريصاً على دعاء البربر للإسلام حتى تم دينهم على يده [٤] » .

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢١٣ (٢) النويرى ، نهاية الأرب، ج ٢٢ ، ص٨٣ أ
(٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١، ص٣٤ (٤) السلاوى ، الاستقصا ، ص ٤٦

التابعون العشرة الذين أرسلهم عمر ابن عبد العزيز إلى المغرب

أوصى عمر واليه على إفريقية بأن يبذل كل ما يملك من جهد فى سبيل إسلام البربر، ويبدو أن إسماعيل نفسه كان على إسلام وثيق وإيمان ثابت، إذ يصفه الدباغ بأنه : « كان فقيها صالحاً فاضلا زاهدا[1] » ، وقال ابن الناجى : « قال معن التنوحى ما رأيت فى هذه الأمة غير اثنين : محمد بن عبد العزيز وإسماعيل ابن عبيد الله المخزومى ، وبلغ من زهده أنه كان إذا أقبل من الغزو فى الصايفة افترش درعه فنام عليها ، وكان هو وأم ولده وفرسه فى بيت واحد زهدا منه فى الدنيا وتواضعاً[2] » فكان خير من يعهد إليه بمثل هذه المهمة ، وكان عمر قد بعث معه «عشرة من التابعين أهل علم وفضل ، ومنهم عبد الرحمن بن نافع وسعيد بن مسعود التجيبى وغيرهما[3] » .

ويغلب أن هؤلاء التابعين انبثوا بين البربر وأخذوا يعلمونهم أصول الدين ويبصرونهم بقواعده وأشراطه ، ويبدو أن أهل إفريقية كانوا على جهل تام بتلك القواعد والأصول ، لأن ابن عذارى يقول : « وكانت الخمر بإفريقية حلالا حتى وصل هؤلاء التابعون فبينوا تحريمها رضى الله عنهم[4] » ، ولم يفصل لنا مؤرخو المغرب أعمالهم على الرغم من عنايتهم بتتبع أخبارهم ، ولا السبيل التى سلكوها فى تحويل الأهلين إلى الإسلام ، وإنما الغالب الذى يمكن استنتاجه من تواريخهم أن معظمهم أقام بالقيروان حيث ابتنوا مساجد يعلمون فيها الإسلام ، ويبدو أن الأهلين كانوا يغدون على هذه المساجد فيستمعون إلى هذه الدروس التى كانت تلقى بها . ومن المساجد التى بنيت على يد هؤلاء التابعين: مسجد «الرباطي» بناه أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المعافرى الإفريقى ، و « جامع الزيتونة » بناه إسماعيل بن عبيد الله المعروف بتاجر الله[5] ، وقد أخذ عن هؤلاء التابعين

(١) الدباغ ، معالم الأيمان ، ج ١ ، ص ١٥٤ (٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٣٤ (٤) نفس المرجع والصفحة .
(٥) الدباغ ، معالم الأيمان ، ج ١ ، ص ١٣٨ و ١٤٨

نفر طيب من أهل إفريقية ، ذكر المالكى منهم : سوادة الجزامى وعبدالرحمن بن سياد (أخذا عن اسماعيل بن عبيد الأنصارى[1]) ، بل يبدو أن هؤلاء التابعين كانوا على درجة وافرة من العلم ، بحيث انتشر صيتهم ووفد الناس من شتى النواحى للأخذ عنهم ، فقد روى المالكى أن : « عمران بن عوف الغافقى من أهل مصر أخذ العلم عن اسماعيل بن عبيد[2] » .

وكان هؤلاء المتعلمون من أهل المغرب يقضون بعض الوقت فى الدراسة فى القيروان ، ثم يعودون إلى قبائلهم ونواحيهم فيولون وظائف الدين والقضاء ، ويعلمون الناس أصول الإسلام ، فقد جاء فى سيرة أسد بن الفرات بن سنان أن أباه : « قدم إفريقية وأمه حامل به ، فولد أسد بتونس سنة ١٤٥ هـ ، وقرأ على علىّ بن زيادة ولزمه وانتفع به وتعلم منه وتفقه عليه ، ثم تصدى بعد ذلك لصناعة التعليم فأقرأ القرآن فى بعض قرى بَجَرْدَة[3] » .

ويبدو أن العرب الذين نزلوا إفريقية إذ ذاك حرصوا على أن يتخذوا لأبنائهم المعاهد الصغيرة الملحقة بالمساجد ، يدرسون فيها القرآن والحديث والدين واللغة ، فوفد عليها نفر من أهل إفريقية يتعلمون العلم ، فقد قال الأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب : « إنهم عندما أناخوا بمعسكرهم وخطوا « قيروانهم » أول ما أنشأوا الدور والمساجد ، ثم التفتوا إلى تعليم صبيانهم ، فاتخذوا لهم محلا — كُتّاباً — بسيط البناء ، يجتمعون فيه لقراءة كتاب الله العزيز[4] » ، ويبدو أن هذه الكتاتيب قد انتحت منذ زمن مبكر جداً ، أى من أول إنشاء القيروان ، لأن الدباغ يقول : « حكى غياث ابن أبى شبيب قال : كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر علينا ونحن غلمة بالقيروان ، فيسلم علينا فى الكتّاب وعليه عمامة قد أرخاها من

---

(١) المالكى ، رياض النفوس ، ص ١٩ (٢) نفس المرجع والصفحة . (٣) الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب ، فى ذيل : « آداب المعلمين » ، صفحة ز (٤) نفس المصدر ، ص ١٨

خلفه[1]» . فإذا علمنا أن سفيان بن وهب هذا دخل إفريقية سنة ٧٨ هـ[2]، عرفنا أن الكتاتيب كانت قائمة قبل ذلك التاريخ بالقيروان .

بهذا كله انتشر الإسلام فى المغرب وعم قبائله ، وليس من المعقول طبعاً أن يكون البربر كلهم قد أسلموا على يد إسماعيل بن عبيد الله — كما تقول المراجع — وإنما لا خطأ فى القول بأن معظم البربر كان قد أسلم حتى ذلك الحين ، بل لا مبالغة فى القول بأن المغرب الإسلامى يبدأ إذ ذاك ، وإذا كانت قد بقيت فى البلاد أقلية لم تدخل فى الإسلام بعد ، فستدخله على مر الأعوام .

وإذا كان انتشار العربية قد تأخر فى قطر كمصر لأن أهله كانت لهم لغتهم الواحدة التى يتكلمون بها جميعاً ويكتبها بعضهم ، فإن أهل المغرب كانوا فى حاجة إلى لغة يتفاهمون بها كلهم ، وطريقة يكتبون بها ما يريدون كتابته ، ولما كانت العربية هى لغة الإسلام والقرآن فقد بدأوا يقبلون عليها ويتعلمونها ، ويبدو أن إقبالهم هذا كان عظيماً واسع المدى ، لأن كثيرين منهم لم يلبثوا أن اتجهوا إلى المشرق للاستزادة من العلم والتثبت من اللغة ، فلم تلبث العربية أن انتشرت بينهم ، ولم يلبث أن ظهر فيهم — خلال القرن الثانى — فئات تكتب العربية وتؤلف بها ، وقد أعان على ذلك دعاة العرب الذين مر ذكرهم والكتاتيب التى أنشأها المسلمون ، وساعد على ذلك أيضاً أن البربر كانوا فى حاجة إلى لغة يتفاهمون بها جميعهم ويكتبون بها ، فكان إقبالهم على التعلم عظيماً ، بل لم تلبث القيروان أن أصبحت مركزاً من مراكز العلم والثقافة فى العالم الإسلامى ونبغ من بين أهل البلاد أعلام لهم مقامهم فى العلم والدين واللغة مثل سحنون بن سعيد صاحب المدونة المعروفة .

---

(١) الدباغ ، معالم الأيمان ، جـ ١ ، ص ١٢٠

(٢) الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب : آداب المعلمين ، ص ١٩

بهذا اكتملت للمغرب الأسباب ليصبح بلاداً إسلامية صرفة يحكمها عامل الخليفة للمسلمين ، ويدين أهلها بالإسلام ، ويتخذون العربية لغة « نحن الآن فصاعداً دخل فى الإسلام كل من كان ذا علم من أهل المغرب ، وكل من أحس بالحاجة الملحة إلى لغة مكتوبة أو إلى أدب ، كل هؤلاء دخلوا الإسلام جملة دون تحفظ ، وذلك حدث عظيم ، فمعناه تطور المغرب جميعه[1] » كما يقول جوتييه ، وسواء أكان السبب الأكبر فى ذلك هو بساطة العقيدة الإسلامية[2] أو لم يكن ، فإن المغرب القديم اختفى بأديانه ومذاهبه المختلفة ، وحضاراته الواهنة ، وحل محله المغرب الإسلامى : أمة واحدة ذات دين واحد ولغة واحدة وحضارة واحدة ووجهة واحدة ، وبدأ هذا القطر المتحد يأخذ طريقه ليلعب دوره المجيد فى تاريخ الإسلام والحضارة العالمية ، وكان فاتحوه من العرب قد مهدوا له الطريق لذلك ، فمهدوا له الساحل ، وأنشأوا عليه تونس الميناء الإسلامى الجديد ، الذى أطل منه أهل المغرب على البحر الأبيض ، ليلعبوا دورهم الخطير فيه ، وفتحوا له أبواب إسبانيا فانبسط أمام أهله ميدان جديد للفتح والعمل والحياة ، إذ كان الأندلس ميداناً فسيحاً أظهر البربر المسلمون فيه كفاية وقدرة ما كانتا لتظهرا لولا الفتح العربى . وكان المغرب القرطاجنى أو الرومى لا يعدو الساحل ، فشمل المغرب الإسلامى شمال إفريقية كله وامتد حتى أدرك درعة ، وصافح واحات الصحراء القاصية عند تارودانت وغيرها ، فبدأت الحياة تتنفس فى هذه النواحى التى ظلت حتى الساعة شيئاً مهملاً فى حساب الحضارة والتاريخ ، وبدأت فى ظل الإسلام تأخذ سبيلها إلى الحياة السياسية والعقلية ، وأخذ أهل هذه النواحى ينتظمون دولا قوية ذات حضارة تقوم بأدوار ذات خطر فى التاريخ ، وتساهم بنصيب مشكور فى بناء صرح الحضارة البشرية .

---

(١) Gautier, op. cit. p. 257.

(٢) Piquet, op. cit. p. 60.

ذيـــل
عن
مصادر هـــذا البحث

(ا) مصادر عربية .
(ب) مصادر إفرنجية .
(ج) بحوث ومقالات .

١ — المصادر العربية :

مشرقيـة :

١ — ابن عبد الحكم (المتوفى سنة ٢٥٧ هـ) « فتوح مصر والمغرب والأندلس »
كتب عبد الرحمن بن عبد الحكم كتابه هذا فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى ، فهو بذلك أقدم من وصلت إلينا كتاباتهم عن فتح المغرب ، وتقسيم كتابه يدل على أنه عنى بفتح المغرب استكمالا لتاريخ فتح مصر ، ولهذا لم يختصه إلا بصفحات لا تكاد تعدل نصف ما كتبه عن أخبار مصر قبل الفتح العربى ، أو ربع ما أورده عن فتحها .

بيد أن أخباره — رغم إيجازها — دقيقة على جانب عظيم من الأهمية ، وسياق روايته وإسناده يدل على أنه استقى أخباره من رواة مشرقيين ومغربيين ، وربما كان هؤلاء الأخيرون من طلبة العلم الذين كانوا يفدون من إفريقية إلى مصر ليدرسوا على علمائها فى ذلك الحين ، ولهذا نجد فى روايته إشارات شديدة الدلالة على أنه استقاها من أهل البلاد أنفسهم ، كإشارته إلى إبراهيم بن شروان اللواتى الذى اشترك فى حملة حسان ، وقوله : « وكان مع حسان جماعة يقال لهم البتر » ثم قوله :

« إن حرس يزيد بن أبى مسلم كانوا من البتر — من البتر خاصة ليس فيهم برنسى »
وغير ذلك من الإشارات التى لا تصدر إلا عن علم دقيق ببلاد المغرب ونظام أهلها .

ورواية ابن عبد الحكم لفتح إفريقية كاملة ، بدأها من المحاولات الأولى فى بنطابلس وطرابلس وانتهى بها فى نهاية العصر الأموى تقريباً ، ولم يكتف فى كثير من الأحيان برواية واحدة للخبر الواحد ، بل أورد روايتين مختلفتين . ولا نزاع فى أن كتابه كان مرجعاً خصباً استقى منه معظم الذين تناولوا تأريخ فتح المغرب بعده ، ويلاحظ هذا بوضوح فيما أورده البكرى وابن الأثير والتيجانى ، بل ربما نقل بعضهم عنه رأساً كما فعل البكرى فى مناسبات عدة .

وأخبار ابن عبد الحكم خالية من المبالغات التى تغص بها كتابات غيره ، وتنفرد بعبارات على جانب عظيم من الأهمية لأنها شديدة الاتفاق مع منطق الحوادث ، ولأنها — فى كثير من الأحيان — تفسر الأحداث تفسيراً خاصاً معقولا ، ومثال ذلك إشارته إلى تتبع كسيلة (ابن الكاهنة) لعقبة وتغويره الماء فى طريقه مما أيد الرأى القائل بأن كسيلة دبر مصرع عقبة ، وجعل الحوادث تترابط وتتصل على نسق لطيف مفهوم ، ولهذا لا مبالغة فى القول بأن أخباره أهم ما بين أيدينا عن هذا الفتح ، خصوصاً وقد كان الرجل يتحرى الدقة فيما ينقل من الأخبار ، ومن دلائل ذلك شكه فى قصة عبد الله بن الزبير ودوره فى الفتح . وقد أعانه على ذلك أنه كان على علم دقيق بأخبار مصر ، وكانت مصر إلى ذلك الحين مرجع إفريقية ، ولهذا وردت فى كتابه عبارات لها أهميتها كذكره ما قاله مسلمة عن دينار أبى المهاجر حين ولاه إفريقية مكان عقبة مما ألقى شعاعا من الضوء على حياة هذا الأخير . وروايته الحديث بين حسان بن النعمان وعبد العزيز بن مروان ، وهى رواية ثقة ملم بالحوادث دقيق الفهم ، وكذلك ذكره رأى الناس فى أعمال موسى وغير ذلك كثير مما لا حاجة لإثباته بالشواهد والبينات .

وأخطاء ابن عبد الحكم قليلة إذا قيس إلى غيره ، وأكثرها فى تحديد التواريخ ، وهذا خطأ شائع يشترك فيه مع غيره من المؤرخين ، كقوله إن : «معاوية بن حديج غزا إفريقية ثلاث مرات فى سنوات ٣٤ و ٤٠ و ٥٠ هـ» وغير ذلك ، ولم تخل روايته

من بعض القصص كتفاصيل بعث عقبة فى الصحراء وقصة ماء الفرس واختطاط القيروان وغير ذلك .

وقد نشر شارل تورى Torrey النص الكامل لروايته سنة ١٩٢٠ م فى مطبعة جامعة ييل ، وترجم دى سلين الجزء الخاص بفتح إفريقية حتى غزوة عقبة الكبرى ونشره كذيل لترجمة تاريخ البربر لابن خلدون .

٢ ــ البـلاذرى ــ (توفى سنة ٢٦٠ هـ) « فتوح البلدان » : كتب البلاذرى أخباره عن فتوح إفريقية حوالى التاريخ الذى دون فيه ابن عبد الحكم أخباره ، ولهذا كانت لأخباره قيمتها لأنها من أقدم ماوصل إلينا .

وأخبار البلاذرى مقتضبة اقتضابا يجعل الفائدة منها قليلة ، وربما كان هذا الإيجاز الشديد هو الذى نأى بأخباره عن الخطأ ، إذ يلاحظ أن الفقرات التى أورد فيها بعض التفاصيل حافلة بالأخطاء ، وقد روى معظم أخباره عن الواقدى وهذا سبب من أسباب أهميتها ، إذ أنها تكاد تكون البقية الباقية الموثوق فيها من مغازى إفريقية الذى كتبه الواقدى . بدأ البلاذرى روايته مفصلا بعض التفصيل ولكن تفاصيله ليست فى أخبار الفتح وإنما فيما يتصل بهـــا فى المشرق كما أورد لنا رأى اثنين من التابعين فى برقة ، وكما أورد الخطاب الذى بعثه عمرو إلى عمر بن الخطاب سنة ٢٢ هـ وغير ذلك ، وليس فى أخباره من جديد ينفرد به ولكنها موثوق فيها ، وربما وردت فيها لمحات ذات أهمية كتحديده عقوبة لمكان موقعة سُبيطلة وتأكيده أن عبدالله ابن سـعد عاد : « ولم يول على إفريقية أحداً ولم يكن بها يومئذ قيروان ولا مصر ولا جامع » وهى رواية ألقت بعض الضوء على معنى لفظ قيروان .وقد ذكر البلاذرى بعض الصحابة والتابعين ممن صاحبوا عبد الله بن سعد فى غزواته ، فورد بينهم ذكر المِسْوَر بن مَخْرَمة بن نوفَل بن أُهَيْب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، فكان ذكره لهذا الرجل بنسبه الكامل معينا على تعرف شخصية الزُّهرى الذى نسب إليه النويرى طائفة كبيرة من أخباره ، ولولا هذه الإشارة العارضة لظلت شخصية هذا المحدث ـــ الذى يعتبر مصدراً لكثير مما بأيدينا من أخبار إفريقية ـــ خافية بعد أن حاول دى سلين كشفها من غير توفيق .

وقد أورد البلاذرى قصـة عبد الله بن الزبير ودوره فى الفتح مقتضبة اقتضاباً

شديداً ، وأسندها إلى عبد الله بن الزبير نفسه ، فأعطانا بذلك مفتاح هذه الأسطورة التي شغلت جانباً عظيما من اهتمام مؤرخي المغرب، وأثبت بالبرهان القاطع أنها مكذوبة لا أساس لها من الصحة .

وما يلي ذلك من أخبار الفتح التي رواها البلاذري كثيرة الخطأ بحيث لا يؤمن التعويل عليها كقوله : « إن معاوية بن حديج ولي عقبة بن نافع إفريقية » وقوله في أخبار حملة عقبة الكبرى إنه : «جول فيها هناك لايعرض له أحد ولا يقاتله فانصرف» مما يدل على أن أخبار إفريقية انقطعت عنه وإلا فلم تكن لتغيب عنه أخبار مقتل عقبة في تهودة ، وهي أخبار متواردة معروفة عند من لهم أقل العلم بشؤون المغرب ، وربما كان سبب ذلك أن البلاذري كان يعتمد على مراجع شرقية قليلة العلم بإفريقية ، إذ أنه علاوة على اقتضابه يخلط خلطاً شديداً في أخبار مايلي حملة عقبة ، فيذكر مثلا أخبار ولاية كلثوم بن عياض وولاية محمد بن الأشعث قبل أخبار موسى بن نصير .

٣ — اليعقوبي (المتوفى سنة ٢٨٢ هـ) أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب : « تاريخ اليعقوبي » و «كتاب البلدان» .

٤ — الطبري (المتوفى سنة ٣١٠ هـ) «تاريخ الأمم والملوك» : لم ينل المغرب وأخباره من عناية الطبري إلا جانباً يسيراً جداً ، فلم ترد فيه إلا شذرات يسيرة لا يخلو بعضها من خطأ ، ومثل ذلك قوله : « إن معاوية بن حديج كان من عمال مصر لمعاوية بن أبي سفيان » واعتباره عقبة بن نافع عاملا لمعاوية بن حديج على إفريقية ، ولما كان الطبري هو المرجع الأول لمعظم مؤرخي المشرق فقد نقل الكثيرون عنه هذه الأخطاء ، فنجدها متواردة عند الكثيرين منهم بحيث لم يسلم من الوقوع فيها إلا من راجع أخباره على مؤرخين مغربيين كابن الأثير ، وقد اشتد الطبري في الحكم على عبدالله بن سعد فكان ذلك سبباً في تحامل الكثيرين من المؤرخين عليه وتقليلهم من شأنه .

وعلى أي الأحوال فأخبار المغرب الواردة في الطبري تصور لنا موقف أهل المشرق من المغرب وحظه من عنايتهم .

٥ — الكندي (توفي سنة ٣٥٠ هـ) « كتاب الولاة » : أورد الكندي في أخبار قضاة مصر وولاتها أخباراً طريفة عن محاولات المسلمين الأولى في إفريقية ،

خصوصاً ما يتصل منها بفتح برقة وطرابلس ، إذ الغالب أن الكندى كان يرى أن هاتين الولايتين كانتا تابعتين لمصر فى أول الأمر فذكر أخبارهما ملحقةً بأخبارها ، إذ لا تتم أعمال والى مصر إلا إذا ذكرت جهوده فى إفريقية ، ولهذا أحصى أعمال عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد ومعاوية بن حديج ، وأورد تفصيلات على جانب عظيم من الأهمية كمحاولات عمرو فى إفريقية فى ولايته الثانية ، وقد وردت فى سياق ذلك أطراف من المفاوضات بين سكان البلاد والفاتحين العرب ، كشفت لنا عن موقف العرب من هذه البلاد ، وحال أهلها من الناحية الشرعية فى سنوات الفتح الأولى .

وقد أخذ الكندى عن نفر من أقطاب الرواية الأولى كعلى بن قديد وعبيد الله ابن سعد بن عفير وابن لهيعة ، ولهذا كانت لأخباره أهميتها ، ولا سبيل إلى استكمال أخبار فتوح إفريقية إلا بالاطلاع على ما ورد بهذا الكتاب من أخبارها .

وقد طبع فى مطبعة الآباء اليسوعيين فى بيروت سنة ١٩٠٨ م ضمن مجموعة Gibb - Memorial Series

٦ — البكرى — (المتوفى سنة ٤٦٠ هـ) لم يبق لنا من كتاب : «المسالك والممالك» للبكرى غير هذا الجزء اليسير عن إفريقية ، وجزء آخر أصغر منه — وأقل قيمة — عن مصر . وقد كتب البكرى كتابه فى السنوات العشر الأولى من النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى ، أى بعد وفاة إبراهيم بن أبى الرقيق بسنوات قلائل ، فلم تكن المراجع التى اعتمد عليها هذا الأخير قد اندثرت وخفيت معالمها ، فاستطاع أن يرجع البكرى بنفسه إلى المراجع الأولى ويأخذ عنها ، ولهذا نجده يسند بعض أخباره إلى الليث بن سعد ومسلمة بن عبد الملك وابن لهيعة . ولم يكتب البكرى كتابه هذا وصفاً لرحلة قام بها أو مشاهدات صاحبها عينه ، وإنما جمع هذه المعلومات الوافرة بما وقع تحت تصرفه من الوثائق والمؤلفات والبيانات الرسمية التى عثر عليها فى الأندلس ، ولهذا جاء وصفه لإفريقية وافياً دقيقاً عظيم الفائدة على الرغم من أنه لم يزرها قط .

حرص البكرى على أن يذكر بين الحين والحين ما يتفق له من المعلومات التاريخية التى تتصل بالمكان الذى يصفه ، ويغلب أن يسند معلوماته هذه تارة إلى محمد بن يوسف الوراق المؤرخ المغربى أو إلى الليث بن سعد المحدث المصرى ، فأما الأخبار

التى أسندها إلى الثانى فتكاد تتفق حرفاً بحرف مع ما رواه ابن عبد الحكم مسنداً إلى هذا المحدث ، مما يدل على أن الرجل اطلع على المراجع الأولى التى اطلع عليها ابن عبد الحكم نفسه ، وأما الأخبار التى ينسبها إلى الوراق (٢٩٢—٣٦٣ هـ) الذى يلقب بالتاريخى فعلى جانب عظيم من الأهمية لأن كتاب الوراق — الذى لا يوجد الآن — كان مرجعاً من أوثق وأخصب ما كتب عن المغرب .

وإشارات البكرى التاريخية التى تتصل بالفتح الأول قليلة لأن اهتمامه كان منصرفاً إلى ذكر أخبار البلد الذى يصفه فى أيامه أو قبلها بقليل ، ولهذا نجد أخبار الفتح شذرات متفرقة لا يعثر عليها القارىء إلا بجهد جهيد ، وربما أخطأ البكرى فى رواية بعضها كقوله : « شريك بن سحيم المرادى » وصحته شريك بن سمى ، وقوله : « إن عقبة بن نافع اتجه إلى القيروان بعد أن أتم بعثه الصحراوى » مع أنه عاد إلى برقة لا إلى القيروان التى لم تكن قد اختطت بعد .

وقد أورد البكرى تحت عنوان : « ذكر إفريقية وبلادها ولم سميت إفريقية » معلومات طريفة ، لخص فيها رأى الإسلاميين فى أصل اسم إفريقية وحدودها التى كان متعارفاً عليها فى أيامه وأورد طرفاً من الأحاديث النبوية وجانباً من أخبار القيروان ومسجدها ، ويبدو أن جزءاً من هذا الوصف سقط لأن المؤلف يشير بعد ذلك إلى أشياء ذكرها فى الكلام على القيروان فإذا التمسناها فى الوصف لم نجدها .

وقد نشر هذا الجزء دى سلين بين سنتى ١٨٥٧ و ١٨٥٨ م بعنوان :
Description de l'Afrique Septentrionale
ثم عاد فنشر النص وصححه سنة ١٩١١ م فى الجزائر وقدم له بمقدمة عن البكرى ومؤلفاته .

٧ — ياقوت — شهاب الدين أبو عبد الله الحموى (توفى سنة ٦٢٦ هـ) :
« معجم البلدان » طبع القاهرة سنة ١٣٢٣ هـ

اعتمد ياقوت فى بعض ما أورده من وصف نواحى إفريقية وأعلامها على البكرى وروى بعضه الآخر عن رواة آخرين كأبى عبد الله القضاعى ، ويبدو أن أمثال هؤلاء الرواة كانوا ممن استوطنوا إفريقية ولهذا جاءت أخبارهم طريفة تضم أخباراً لا تخلو من أهمية وقد اعتمد على الطبرى فى بعض ما كتب .

وقد ضبط ياقوت أكثر ما أورد من الأعلام الجغرافية فأعان ذلك على صحة قراءتها ، ومن هنا غلب الاعتماد على الصورة التى وردت فيه ، وقد حاول أن يتعرف أصل لفظ إفريقية فأورد فى ذلك رأياً جديداً يختلف عن كل ما أورد البكرى ، وروى لتدعيم رأيه شعراً لا نزاع فى أنه مصنوع وقد حقق ياقوت معظم الأماكن المغربية الهامة ولم يفته إلا القليل منها .

٨ — ابن الأثير — (المتوفى سنة ٦٣٠ هـ) « الكامل فى التاريخ » كتب عز الدين بن الأثير تاريخ فتح إفريقية فى أوائل القرن السابع الهجرى تقريباً أى بعد أن كتب ابن عبد الحكم والبلاذرى بخمسة قرون ، وبعد أن أصبحت إفريقية بلاداً إسلامية صرفة يتحدث أهلها العربية ويؤلفون فى تاريخ بلادهم . فإذا كان ابن عبد الحكم والبلاذرى قد اعتمدا على رواة العرب وحدهم فقد كان ابن الأثير فى غنى عن ذلك بما ذاع فى أيامه من المعلومات بإفريقية وما تواتر على سمعه من أخبارها وما ذكره له من اتصل به من أهلها وما وقع له من مؤلفاتهم ، فجاء كتابه أو فرمادة وتفصيلا وأكثر دقة لما اجتمع له من وسائل التثبت بتعدد الروايات، ولا نزاع فى أن ابن الأثير قد وقعت له بعض مؤلفات عن تاريخ إفريقية ، فقد ذكر صراحة أنه يعتمد على ما كتب المغربيون عن بلادهم ، وقال إنه يفضل أخبار هؤلاء على ما يتصل به من أخبار المغرب عن طريق المؤلفين الشرقيين .

وتاريخ ابن الأثير أول الكتب التى أفاضت فى أخبار إفريقية وألقت ضوءا مبيناً على أحداثها ، ولا نزاع فى أن كتابه كان مرجعا اعتمد عليه كثيرون ممن تعرضوا للكتابة عن فتوح إفريقية . وقد انفرد بتفاصيل كثيرة لها أهميتها كإشارته الواضحة إلى غزوات عقبة فى إفريقية إبتداء من سنة ٤١ هـ مما جعل حداً فاصلا بين ما فعله عقبة بين سنتى ٢٢ و ٢٣ هـ وما فعله بعد ذلك ، وقد خلط معظم المؤرخين فى ذلك خلطاً شديداً ، ولم يشترك معه فى إيراد هذه الأخبار إلا الكندى فى كتاب الولاة . وله كذلك ملاحظات طيبة تكشف الكثير من أسرار الفتح وحقائقه عند تأملها وتدبرها كقوله : « وكان قد بلغ الروم بالقسطنطينية مسير زهير من برقة إلى إفريقية . . . وخرجوا إليها فى مراكب كثيرة » مما دل على أن الروم كانوا يتربصون لزهير وأن مصرعه فى برقة لم يكن مصادفة كما يفهم من روايات غيره .

٩ — ابن عـذارى — (حوالى نهاية القرن السابع الهجرى) « البيان المغرب فى أخبار المغرب » ج ١ و ٢

تكاد رواية ابن عذارى تلى رواية ابن الأثير فى كثرة التفاصيل ووفرة المادة ، ولا نزاع فى أنه اعتمد اعتماداً تاماً على ابراهيم بن أبى الرفيق وأخذ عنه معظم أخباره . غير أننا لا نرى أن أهميـــة كتاب البيان المغرب تنحصر فى ذلك فقط كما ذكر الأستاذ رينيه باسيه فى دائرة المعارف الإسلامية ، وإنما ينفرد ابن عذارى بأخبار لها أهميتها استقاها من مراجع أخرى يغلب على الظن أنها مغربية ، كتبها نفر من أهل البلاد ، ومثال ذلك التفاصيل الوافية التى أوردها عن موقعة سبيطلة ، وهى تفاصيل لا يشوبها إلا القليل من القصص ، وتصور لنا الواقعة تصويراً دقيقاً لا نظفر به عند غيره من المؤرخين ، ولولم تكن نسخة ابن عذارى — التى بين أيدينا والتى نشرها دوزى — ناقصة فى مواضع كثيرة ، تالفة فى مواضع أخرى ، لكانت روايتـه عن أخبار هذا الفتح أوفى ما بين أيدينا من الروايات .

وقد روى ابن عـذارى قصة الفتح كاملة من مقدمات عمرو إلى نهاية العصر الأموى ، وكلما اقترب من نهاية هذا العصر كانت أخباره أوفى وأكمل وأكثر تفصيلا وأهمية . والجزء الثانى من البيان يتناول أخبار الأندلس فاعتمدت عليه فيما مست الحاجة إليه من أخبار فتح الأندلس وعلاقته بإفريقية .

وقد نشره دوزى بين سنتى ١٨٤١ و ١٨٥١ م ، وترجم فانيان الجزء الخاص بإفريقية إلى الفرنسية ، ونشره بعنوان: Histoire de l'Afrique et de l'Espagne فى الجزائر سنة ١٨٩١ م .

ونشر ليفى بروفنسال الجزء الثالث الخاص بالأندلس سنة ١٩٢٩ م

١٠ — النويرى — (توفى سنة ٧٣٢ هـ) « نهاية الأرب فى فنون الأدب » :

كتب النويرى هذا الجزء الخاص بإفريقية فى أوائل القرن الثامن الهجرى ، ولا نعرف بالضبط موقعه من تاريخه لأنه لم يصل إلينا متصلا بما قبله وما بعده ، وإنما وجدته جزءاً منفصلا فى كتاب مخطوط قائم بذاته ، والغالب أن المؤلف أورد هــذه الأخبار عقب أخبار مصر . ولم يورد النويرى المراجع التى أخـذ عنها فى كثير من الأحيان ، والغالب أنه نقل عن مؤلفات كانت موجودة فى أيامه .

أسند النويرى طائفة كبيرة من أخباره إلى شخص يسميه الزهرى ، وهذا بدوره يروى عن ربيعة بن عباد الديلى . وقد حاول دى سلين أن يتعرف شخصية الزهرى هذا ، وانتهى إلى أن النويرى اصطنعه اصطناعا ليعطى لتاريخه هيئة التاريخ الصحيح المسند ، وكان ذلك من أقوى المآخذ التى أخذها على النويرى فى كتابه الطويل الذى وجهه إلى المسيو هاز فى شأن النويرى فى المجلة الأسيوية سنة ١٨٤٨ م .

ولكنه لم يكن موفقاً فى ذلك لأن مرجعين من أوثق مراجعنا يكشفان عن حقيقة شخصية الزهرى هذا ، ويؤكدان أنه كان راوية معروفا أخذ الكثيرون عنه كثيراً من أخبار فتح إفريقية . فقد ذكر البلاذرى بين الصحابة الذين صاحبوا عبد الله بن سعد رجلا يسمى المسور بن مخرمة بن نوفل بن أهيب بن عبد مناف ابن زهرة بن كلاب ، أى أن المسور هذا زهرى من زهرة ولا غبار على تسميته بالزهرى اختصاراً ، ثم إن المالكى روى طائفة كبيرة من أخباره عن المسور بن مخرمة هذا ، أى أن هذا الشخص كان من المحدثين الذين أخذ عنهم أهل المغرب أخبار بلادهم ، لأن المالكى استوعب فى تاريخه كثيراً من الأخبار التى وردت فى الكتب المتقدمة التى كتبت فى المغرب . وعلى هذا فالزهرى الذى أخذ عنه النويرى شخصية معروفة لها قيمتها العلمية ونسبة أخباره إليها يزيدها ثقة ولا يضعفها .

كتب النويرى تاريخه فى عصر كثرت فيه الأخبار والمعارف عن إفريقية وأهلها ، بل بعد أن ظهر فى ميدان العلم مؤلفات وضعها نفر من ثقات أهل البلاد كابن الرقيق وابن رشيق وابن شداد ويوسف الوراق وغيرهم ممن تناولوا الكتابة فى تاريخ المغرب ، مما مكن النويرى من أن يكتب كتابة وافية مسهبة . بيد أن ما بين النويرى وأيام الفتح من طول الأمد جعل الأحداث تختلط بكثير من القصص ، فحفلت رواية النويرى بطائفة عظيمة من الأقاصيص والأساطير .

يتوارد معظم أخبار النويرى فى كتب المؤلفين المغربيين الذين سيرد ذكرهم ، بل هى أشد شبهاً برواية المالكى ، فإذا علم أن الإثنين يعتمدان على المسور بن مخرمة الزهرى ، وإذا لاحظنا أن النويرى لم يفعل فى أحيان كثيرة أكثر من أنه اختصر رواية المالكى ، لكان فى استطاعتنا القول بأن النويرى كان يكتب فى وفرة من المراجع والأسانيد ، ولكننا لا نستطيع القول بأن النويرى أخذ عن المالكى ، لأن

رواية الأخير تنفرد بمعلومات وتفاصيل غاية فى الأهميــة ما كانت لتفوت النويرى لو أنه كان ينقل عن المالكى ، ولكن الغالب أن كليهما كان ينقل عن كتاب متصل فى تاريخ إفريقيــة وفتوحها ، كُتب فى زمن مبكــر وبقى حتى أيام النويرى ثم ضاع بعد ذلك .

وقد أكد لى الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب أن الأدلة كثيرة على أن كتاباً اسمه : «مغازى إفريقية» كتبه مؤلفٌ مجهول مات فى حدود القرن الهجرى الثانى ، وأن فقرات كثيرة من هذا الكتاب لا تزال فى كتاب البكرى وغيره من أوائل المؤرخين ، فإذا ذكرنا أن البلاذرى يروى طائفة كبيرة من أخباره عن الواقدى ، فغلب على الظن أن هذا الكتاب الذى كتب عن فتوح إفريقية واعتمد عليه معظم المؤرخين إن هو إلا مغازى الواقدى الذى ضاع . والأدلة قليلة على أن كتاب الواقدى هذا عمر كثيراً ، فلو أنه بقى حتى القرن الثامن الهجرى لأخذ عنه النويرى والتيجانى ولكننا نجد المؤرخين ابتداء من القرن السابع ينسبون أخبارهم إلى إبراهيم بن الرقيق : هكذا فعل ابن عذارى والنويرى وابن خلدون والتيجانى والحسن الوزان (ليون الإفريقى) ، ومن هنا يجوز القول بأن كتاب الواقدى ظل مستعملا حتى ظهر كتاب الرقيق فأخمله ، ولما كان ابن الرقيق قد توفى خلال النصف الأول من القرن الخامس الهجرى ، فإنه يمكننا القول بأن كتاب الواقدى عن « مغازى إفريقية » كان ذائعاً حتى أواخر القرن الرابع الهجرى ، وأن ذكره لم يخفت وأهميته لم تقل إلا بعد ظهور كتاب الرقيق ، ومما يؤيد ذلك أن أبا العرب تميم ، الذى يعد من أول مصادر التاريخ المغربى الإسلامى ، يعتمد على الواقدى بدليل تشابه رواياته مع روايات البلاذرى ذلك أن أبا العرب تميم قد توفى خلال النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ، أى أنه كتب كتابه فى فترة وجد فيها كتاب الواقدى .

من هنا كانت أهمية رواية النويرى ، فقد اجتمع له أصلان من أهم الأصول التى حفظت أخبار هذا الفتح ، فروى عن الزهرى هذا ، وأخذ عن إبراهيم بن الرقيق ، ولهذا نجد روايته غنية بالتفاصيل مما لم يجتمع لغيرها من المؤرخين ، كذكره أسماء الحكام الروم الذين تولوا أمور إفريقية بعد انصراف عبد الله بن سعد ، وتفصيله أمر المدينة التى انتقل إليها أبو المهاجر ، واهتمامه بذكر عناية عثمان بفتح إفريقية

وغيرذلك . ولا يحتاج الإنسان إلى كبير جهد ليتتبع قصة الفتح الحقيقية خلال ما أورد النويرى من أساطير وتفاصيل .

١١ — النووى — (توفى سنة ٦٧٦ هـ) « تهذيب الأسماء واللغات » طبعة المطبعة المنيرة بالقاهرة .

١٢ — ابن خلدون — (توفى سنة ٨٠٨ هجرية)

(ا) كتاب العبر ج ٤ و ٦

(ب) Histoire des Berbères لدى سلين

(حـ) Hist. de l'Afrique et de la Sicile لدى فرجير

ربما كان من الغريب أن يقال إن كتاب ابن خلدون لم يكن ذا أهمية خاصة فى دراسة هذا الفتح (إذ المعروف أن العبر هو المرجع الأوفى الذى لا يستغنى عن النظرفيه من يبحث شيئاً من أخبار المغرب) . وربما كان سبب ذلك أن ابن خلدون أورد أخبار فتح إفريقية متفرقة فيما أورد من أخبار الخلفاء ، فلم يذكر أكثر من بضعة سطور موجزة أشد الإيجاز عن كل حلقة من حلقات هذا الفتح مما لا يعين على تتبع سيرته كاملة .

ولكن ابن خلدون عاد فكتب فصولا ثلاثة ، مهد بها لتاريخ البربر الذى يكوّن الجزء الثالث من تاريخه : أولها فى « ذكر مواطن هؤلاء البربر بإفريقية والمغرب » ، وثانيها فى « ذكر ما كان لهذا الجيل قديماً وحديثاً من الفضائل الإنسانية والخصائص الشريفة » ، وثالثها فى « ذكر أخبارهم على الجملة من قبل الفتح الإسلامى ومن بعده إلى ولاية بنى الأغلب » ، فوصف فى الفصل الأول بلاد المغرب وصفاً فريداً لم يوفق إلى مثله غيره من جغرافىّ العرب ، ففيه تصوير دقيق لأقاليمه وتضاريسه وتقسيمه الطبيعى ، لا يقل انسجاماً أو دقة عن أى وصف جغرافى حديث لهذه البلاد ، ويكفى أنه أحسن تصوير البيئة المغربية التى كان لها أبعد الأثر فى تكوين الشعب المغربى . وأوجز فى الفصل الثانى أخبار البربر منذ الفتح الإسلامى إيجازاً سريعاً ، وردت فيه بضع ملاحظات على جانب عظيم من الأهمية كإشارته إلى أسر العرب لوزمار بن سولات وأخذهم إياه لعثمان وإسلامه ، وكذلك حديثه عن كسيلة والكاهنة وقوله إن صاحب

قفصة خلص المسلمين وإن موسى « أخذ رهائن المصامدة وأنزلهم بطنجة » وغير ذلك من الملاحظات التي ينفرد بها ، والتي أخذها عن نفر من أهل البلاد مثل هانىء بن نكور الضريسى وغيره .

وقد أخطأ ابن خلدون فيما أورد من التواريخ أخطاء كثيرة ، ربما كان بعضها خطأ من الناسخين ، ولكن الراجح أن ابن خلدون مسئول عن كثير منها ، وربما كان سبب ذلك أنه لم يعن كثيراً بأخبار الفتح الأول .

(ب) وقد نشر البارون دى سلين الجزء الخاص بالبربر فى مجلدين سنة ١٨٤٧ م ، ثم ترجمه إلى اللغة الفرنسية ترجمة وافية ، ظهرت فى الجزائر بين سنتى ١٨٥٢ م و ١٨٥٤م فى أربعة مجلدات Histoire des Berbères وتولى الأستاذ بول كازانوفا طبع هذه الترجمة طبعة جديدة مصححة ومعلقاً عليها بتعليقات ذات أهمية ظهرت سنة ١٩٢٧ م فى باريس .

والترجمة مذيلة بما ورد فى ابن عبد الحكم والنويرى عن فتح العرب لشمال إفريقية ، وعلق المترجم على ترجمة ابن عبد الحكم بذكر كل ما أورده تيوفانيز عن هذا الفتح ، فاستطعنا أن نحصل بذلك على نص كامل لأخبار الفتح كما أوردها تيوفانيز .

(ج) ونشر دى فرجير الفقرات الخاصة بالفتح حتى بداية الدولة الأغلبية فى كتاب خاص بعنوان : Histoire de l'Afrique et de la Sicile سنة ١٨٤١م ، وترجم هذه الفقرات ترجمة فيها بعض الأخطاء خصوصاً فى رسم الأعلام ، وقد علق على الترجمة بتعليقات وافية أى استقى معظمها عن الترجمة الناقصة التى كان أوتّر قد قام بها للنويرى .

١٣ — ابن حجر العسقلانى — (توفى ٨٥٣ هـ) « الإصابة فى معرفة الصحابة » .

١٤ — أبو المحاسن — (توفى سنة ٨٧٠ هـ) « النجوم الزاهرة » .

أورد أبو المحاسن تفاصيل قليلة جداً عن فتح إفريقية ولم يذكر لنا أسانيده التى اعتمد عليها . والغالب أنه لم يورد أخبار إفريقية إلا لاتصالها بمصر ، واعتباره أنها كانت جزءاً منها . ولما كان أبو المحاسن قد أورد ما أورد من أخبار فتح إفريقية ضمن أخبار مصر أو أخبار العالم الإسلامى التى كان يحرص على ذكرها فى نهاية كل عام ، فإنه كان ذا فائدة عظمى فى تاريخ الحوادث وترتيبها وربطها بحوادث مصر ؛ وربما كان هذا أكبر مادعى إلى ذكره والتعويل عليه .

بيد أن أبا المحاسن انفرد بأخبار لها أهميتها كذكره التفاصيل الخاصة بحملة دينار أبي المهاجر على قرطاجنة ، وهي أخبار أغفلها كافة مؤرخي المشرق، ولو لم يكن أبو المحاسن قد عني بإثباتها لظلت أعمال أبي المهاجر سراً مغلقاً لا نعرف عنها إلا الشذرة اليسيرة التي أوردها ابن خلدون عن حملة تلمسان .

١٥ — الإدريسي (المتوفى سنة ٥٥٨ هـ) «صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس المأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » طبعة دوزي ودي غويه سنة ١٨٦٦ م بليدن .

١٦ — ابن حوقل — (النصف الثاني من القرن الرابع الهجري) « المسالك والممالك » طبعة دي غويه (المكتبة الجغرافية) سنة ١٨٧٠ — ١٨٧٩ م

١٧ — ساويرس بن المقفع — كتاب (سير الآباء البطاركة) نشر المطبعة الكاثوليكية بيروت (زيبولد).

مغربيـــة :

١٨ — أبو العرب تميم — (توفي سنة ٣٣٣ هـ) « طبقات علماء إفريقية » طبعة محمد بن شنب سنة ١٩١٥ م ١٩٢٠ م بالجزائر

من الواضح أن الطبعة التي بين يدينا من هذا الكتاب ليست كتاباً كاملا ، وإنما هي شذور بقيت من الكتاب الأصلي الكبير الذي وضعه أبو العرب تميم ، ولهذا لا ينبغي الحكم على قيمة هذا الكتاب بنسبة المعلومات والأخبار الواردة في النسخة المطبوعة . والكتاب عبارة عن تراجم لطائفة يسيرة من علماء البلاد وفقهائها وصالحيها تتقدمها طائفة من أخبار فتح إفريقية وسير بعض من اشتركوا فيه .

ويروي أبو العرب أخباره عن سحنون أبي سعيد عبد السلام بن سعيد التنوخي « الفقيه المغربي » كما يقول ابن خلكان وربما روى عن ابنه محمد بن سحنون أو عن أحد معارفه ورجاله كصاحب مظالمه مثلا ، على أن الأخبار تسند بعد ذلك إلى واحد من أقطاب الرواية الأولى كالليث بن سعد مثلا . والقيمة العلمية لما في الكتاب من الأخبار قليلة جداً إذا قيست إلى ما في غيره من المراجع الأخرى ثم إن أخباره موجزة إيجازاً شديداً ومتفرقة لا تتصل ولا تترابط ! وفي تواريخه أخطاء شتى.

١٩ — رياض النفوس — أبو بكر عبد الله بن محمد المالكى (توفى فى نهاية القرن الرابع الهجرى)

لم ينته العلماء إلى رأى ثابت فى حقيقة مؤلف هذا الكتاب أو تاريخ كتابته فكل مانعلمه عن المؤلف أنه كان فقيها ، وذكر الأستاذ فانيان أنه عاش فى القرن الرابع الهجرى وتوفى خلاله ، وذكر الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب أنه عاش فى القرن الخامس أو السادس الهجرى لأن أستاذه أبا العرب الذى نقل عنه توفى فى منتصف القرن الرابع الهجرى ، ولأنه — أى المالكى — لم يكتب فى القرن الذى تلاه وإنما فصلت بينهما فترة عاصر فيها التجيبى القيروانى صاحب كتاب «الافتخار» الذى يعتمد المالكى عليه أيضا ، وعلى أى الحالين فكتاب رياض النفوس يعدمن أقدم مابين يدينا من المؤلفات عن المغرب وتاريخه .

كتب رياض النفوس فى المغرب وقد جمعه مؤلفه من أهل البلاد ولم يرجع إلى أحد من أهل المشرق غير الواقدى — والغالب أنه اطلع على كتابه — والمسور بن مخرمة ، وقد نقل هذه الأخبار عنه غيره ممن كتب بعده كالدباغ .

وقد حفظ لنا رياض النفوس أطرافاً من مؤلفات وروايات قديمة ضاع معظمها ، ولو لم يثبتها فى كتابه لتفرقت ولم نعثر عليها ، والبينات على ذلك كثيرة ، فقصة المجلس الذى عقده عثمان للمشاورة فى فتح إفريقية أظهرت اهتمام عثمان بيد الفتح ، وذكره القبط فى حملة عبدالله بن سعد دل على أن نفراً من أهل مصر اشترك فى فتح إفريقية ، وتفاصيله الدقيقة التى أوردها عن موقعة سبيطلة أعانت على تصورها وتتبع أدوارها ولا ننسى تعليله لعودة عبد الله بن سعد المفاجئة لأنه ألقى بذلك شعاعاً من الضوء على ناحية ظلت خافية ، وكذلك رأيه عن موضع القيروان الأول ، وغير ذلك كثير مما يجعل لهذا الكتاب أهمية عظمى فى دراسة هذا الفتح .

ولا يخلو الكتاب من زيادات كثيرة ومبالغات شتى ، و فى بعض أجزائه اضطراب يغلب على الظن أن سببه تبديل فى صحائف الكتاب مما أدى إلى اضطراب السياق ، وأخبار الفتح لاتشغل فيه إلا نيفاً وعشر صفحات من القطع الكبير ، وبقية الجزء الأول من الكتاب تراجم لعلماء المغرب وصالحيه وعلمائه ، ولا تخلو هذه التراجم من إشارات لها أهميتها عن إدارة البلاد والحركة العلمية فيها .

٢٠ — التيجانى — (النصف الأول من القرن الخامس الهجرى) « الرحلة التيجانيـــة »

ذهب فورنل إلى أن التيجانى عاش فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى واستنبط ذلك من بضع عبارات وردت فى سياق حـديثه ، فى حين ذهب الأستاذ عبد الوهاب إلى أن هذا الـكتاب كتب فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى .

والتيجانى من بيت علم وفضل من بيوت تونس الـكبيرة ، اشتغل أهله برآسة الدواوين نحو قرن من الزمان ، ونبغ من آبائه نفر اشتغل بالعلم ، فتوفرت له كتب كثيرة فى تاريخ إفريقية وجغرافيتها ، فجاء كتابه غنياً بالأخبار الدقيقة والملاحظات الهامة . وكتابه وصف رحلة يصف فيه كل قرية ينزلها ، ثم يعقب الوصف بما يتصل بعلمه من تاريخها ، ويظهر أن جل اعتماده فى ذلك كان على ابراهيم بن الرقيق ، وهو أى التيجانى أحد خمسة حفظوا لنا أجزاء من هذا المؤلف الهام ، وهم : ابن عذارى والنويرى وابن خلدون والحسن الوزان والتيجانى هـذا . وملاحظاته الجغرافية على جانب عظيم من الأهمية ، فهو الذى أعاننا على تعرف قمونية وحدد لنا موقعها ويمتاز عن البـكرى بأنه رأى الأماكن التى يتحدث عنها ، ولهذا يأخذ حديثه هيئة المذكرات التى ربما ضمت بعض ماوقع له فى البلد وبعض ما اتفق له من الحديث مع أهله حين نزله . أما المـادة التاريخية فلا تقل فى هـــذا الـكتاب عن البـكرى مثلا ، لولا أنها قليلة جـداً ، وفى روايتـه كثير من الأخطاء التى يتوارد مثلها عنـد غيره ، وربما وردت فيه ملاحظات ينفرد بها كقوله : إن أهل برقة « كانوا استعانوا بقبيل من البربر يقال لهم نفوسة دخلوا معهم فى دين النصرانية » مما فسر لنا السبب الذى حدا بعمرو بن العاص إلى إرسال بعث إلى فزان فى نفس الوقت الذى سار هو فيه إلى طرابلس .

٢١ — الدباغ — (٦٠٥ — ٦٩٦ هـ) « معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان » .

ألف هذا الـكتاب أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن على بن عبد الله الأنصارى الأسيدى ، ولم تصل إلينا نسخته الأصلية ، وإنما وصلتنا فقرات منه مع تعليق عليها بقلم قاض من أهل القرن التاسع ، يعرف بابن الناجى قاسم بن عيسى أبو الفضل (المتوفى سنة ٨٣٧ هـ) وقد اعتمد الدباغ اعتماداً عظيما على المالـكى ، ونقل عنه فقرات

كثيرة ، بحيث لانخطىء إذا قلنا إن معالم الإيمان صورة أخرى من رياض النفوس (فيما يتصل بقصة الفتح على الأقل) . ولم ينفرد الدباغ إلا بأخبار يسيرة كعرضه بضع آراء فى تفسير معنى لفظ قيروان . وأخذ كذلك عن أبى العرب فحفظ لنا فقرات من هذا الكتاب لم ترد فى النسخة المطبوعة منه ، لهذا كانت رواية الدباغ مكملة لروايتى أبى العرب والمالكى ، فعوضت ماعسى أن يكون قد فاتهما من الأخبار . أما تعليقات ابن الناجى فقليلة الأهمية ومعظمها استدراكات لا معنى لها ، إذ يغلب أن يكون الاعتراض أشد خطأ وأقل أهمية من الخبر الأصلى . وقد اعتمد عليه كودل اعتماداً عظيما واستعمله لتصحيح رواية المالكى ، ولكنه أخطأ فنسب الكتاب كله إلى ابن الناجى لا إلى الدباغ .

٢٢ — ابن أبى دينار القيروانى — (توفى سنة ١٠٩٢ هـ) «المؤنس فى تاريخ إفريقية وتونس »

ينتسب ابن أبى دينار إلى الفاتح المعروف دينار أبى المهاجر ، فبيته كان من البيوت العريقة التى تناول أفرادها مناصب الدولة وشئون العلم ، وكتابه حديث كتب فى القرن الحادى عشر .

ولا يميل ابن أبى دينار إلى التطويل وطول التفسير ، بل يوجز فى عبارته ويقتصر على المهم . ويبدو أن الظروف السيئة التى أحاطت ببلده كانت مؤثرة فيه أثناء اشتغاله بالتأليف ، لأنه لاينفك راثياً وطنه متأسياً لمصابه مادحاً إياه مدحاً مبالغاً فيه ، وفى عباراته حنين لطيف لوطنه وإشادة نادرة المثال بذكره وفضائله وخيراته .

وقد قدم المؤلف لتاريخه بمقدمة جغرافية عن إفريقية وتونس لم يجىء فيها بجديد ، بل أعاد ماتوارد فى غيره من الكتب عن أصل إفريقية وأصل لفظ تونس. وكتابه يسد فراغا ويعيننا على استكمال قصة الفتح ، وعلى الرغم من أنه لم ينفرد إلا بالقليل الذى لا أهمية له ، إلا أنه قدم لنا مادة نستطيع — بمقارنتها بغيرها — أن نصحح بعض الروايات والأخبار .

وقد نشر للمرة الأولى فى تونس سنة ١٢٨٦ هجرية (١٨٦١ — ١٨٦٢ ميلادية). واهتم الفرنسيون به اهتماماً خاصاً فقام Pellissier et Reynard. بترجمته .

٢٣ — محمد الباجى — (توفى سنة ١٢٥٣ هـ) « الخلاصة النقية » : كتاب متأخر ولهذا لم يكن الاعتماد عليه عظيما ، وإنما رجعت إليه فى تحقيق بعض الأعلام والأماكن

التى لم تتيسر قراءتها فى الكتب المخطوطة الأخرى . ولم ينفرد الباجى إلا بالقليل من الأخبار لأن كتابه خلاصة من معظم الكتب التى تقدم ذكرها . ومما انفرد به قوله : « إن دينار بن أبى المهاجر بعث حنش الصنعانى ليحتل جزيرة شريك فى حين عاد هو إلى القيروان » .

٢٤ — سعيد بن مقديش — (توفى سنة ١٢٢٨ هـ) — « نزهة الأنظار » : كتاب شديد الشبه بكتاب « الخلاصة النقية » ، فقد ألف فى القرن الثالث عشر لأن مؤلفه مات سنة ١٢٢٨ هـ فأخذ عن كل الكتب الهامة التى تقدمته ، وكل أهميته تنحصر فى أنه يكمل المجموعة المغربية التى سبق الكلام عنها .

٢٥ — السلاوى — (توفى سنة ١٣١٩ هـ) « الإستقصا لأخبار المغرب الأقصى» طبع القاهرة سنة ١٨٩٤ م

هذا الكتاب من أحدث الكتب العربية التى وضعت فى تاريخ المغرب ، وهو موسوعة شاملة للتاريخ المغربى ، استقصى فيه مؤلفه كل ما اتصل به من الأخبار عن المغرب فأوردها كاملة بدون تلخيص مسندة إلى أصحابها : كالكلبى والطبرى وابن الرقيق وابن الأثير وابن حزم وابن خلدون ، فربما وردت فيه فقرات من كتب قديمة ضاعت ولم يبق لها أثر . ومن الأمور التى انفرد بها تعرضه لمسألة وضع المغرب من الناحية الشرعية ، وهل فتح صلحاً أم عنوة ؟ وروى فى ذلك رواية نقلها عن كتاب « شرح الموطأ للشيخ أبى الحسن القابسى » . وقد ذهب جوليان إلى أن السلاوى ربما اعتمد على مؤلفين أوروبيين .

وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أنه كان إلى حين قريب الكتاب العربى الوحيد المطبوع فى تاريخ المغرب. ولهذا كثر الاعتماد عليه والاستشهاد به وبلغ من أهميته أن تصدى لترجمته Graulle الفرنسى فترجم الجزء الأول منه ونشره سنة ١٩٢٣ م

المصادر الأفرنجية :

(٢٦) Ch. Diehl : l'Afrique Byzantine

يعد الأستاذ ديل من أكبر الأساتذة الذين توفروا على دراسة التاريخ البيزنطى، إذ أنه ظل زماناً طويلا يشغل كرسى الأستاذية لهذه المادة فى جامعة باريس . وكتابه

هذا عن إفريقية البيزنطية فريد في بابه ، درس فيه تاريخ إفريقية من الفتح البيزنطى إلى الفتح العربى ، واستقصى فيه كل ما كتب حتى زمانه عن هـذا الموضوع ، فجاء حجة لا يستغنى عن النظر فيها من يتناولون تاريخ المغرب القديم .

بيد أن طول البحث واستطراد المؤلف فى بعض النواحى وتوسعه فى الكثير منها أفسد نظام الكتاب وأضاع وحدته فأصبح غير متصل الحديث ، وربما طلب الإنسان فيه استقصاء حادث بعينه ، فلا يزال المؤلف يستطرد به فى تفصيل الحوادث حتى يصرفه عما طاب ، وتكفى المقارنة بين ما كتبه وبين كتاب مؤلف محدث مثل جوليان فيما يتصل بحضارة إفريقية البيزنطية وانتشار المسيحية فى المغرب حتى يتضح ذلك .

وقد ختم المؤلف بحثه بتلخيص لحوادث فتح إفريقية ، اعتمد فى أكثره على ما كتب تيوفانيس ونقفور وفورنل وروث وفـيل وبيورى وأمارى ومترجمات لبعض المؤلفات العربية ، وهى خلاصة وافية دقيقة وفق المؤلف فيها إلى استقصاء ما كتبه مؤرخو الروم ، وأضاف إليه ما وجده فى المؤلفات العربية ، فاستطاع بذلك أن يقارن النصوص ببعضها ومكننا من الوصول إلى آراء الروم والظهور على بعض ما كتبوا عن هذا الفتح .

(٢٧) Roth : Okba-ibn-Nafi, Gttingen, 1859.

وصف المؤلف كتابه بأنه دراسة فى علم التاريخ عند العرب ، وقد أصاب بهـذا الوصف ، لأنه أنفق أكثر من ثلثى كتابه فى الحديث عن المصادر والمراجع ، وخص عقبة بن نافع وأخباره بالثلث الباقى .

ويبدو أن الرجل اضطر إلى ذلك ، فقد كتب رسالته هذه فى زمن مبكر جداً قبل أن يعرف أحد شيئاً عن المراجع العربيـة الأولى أو يقرأها فى نسخها الخطية ، فلم يجد بداً من أن ينفق وقتاً طويلا فى نقد هذه المراجع ومناقشة مؤلفيها ورواة أخبارها مناقشة انتهى منها إلى نتائج هامة ذات خطر تتعلق بكتابات : ابن عبد الحكم والبلاذرى وأبى المحاسن والنويرى وغيرهم ممن اعتمد عليهم فى استقصاء أخبار عقبة .

أما حديثه عن عقبة فمفكك غير متماسك الفقرات لأن هـذا الاستطراد شغله بين الحين والحين عن أن يستمر فى بحثـه . ويبدو أنه ظن أن عقبة هو الذى فتح إفريقية كلها ، فبدأ بذكر دوره فى فتح فزان وفصل ذلك تفصيلا طيباً ، ثم تحدث

عن القيروان حديثاً موجزاً ، ثم ختم البحث بترجمة ما حدث لعقبة فى حملته الكبرى ، ناقلا عن ابن عبد الحكم دون أن يتوخى النقد أو يهتم بالتعليق .

فالكتاب بذلك يتناول حلقة صغيرة جداً من حلقات الفتح ، وربما صح أن ننقد فكرة الكتاب كله فى اعتبار عقبة فاتح إفريقية كلها . ولما كان كل أخباره مترجماً ترجمة حرفية ، فلم يكن الاعتماد عليه بذى غناء فى تعرف أحداث الفتح ، ويكفى للتدليل على ذلك أنه أقر الكتاب الذى أورده البلاذرى ، وذهب إلى أن عَمْراً أرسله إلى عُمَر فى حملته الأولى بدون تعليق .

(٢٨) H. Fournel : Les Berbéres, Etude sur la Conquète de l'Afrique par les Arabes, d'aprés les textes arabes inprimés 1815—1861.

كتب فورنل كتابه هذا منذ قرن تقريباً ، أى بعيد الاحتلال الفرنسى للجزائر ، فكان بذلك من أوائل المستشرقين الفرنسيين ، وقد قضى نحو العشرين سنة فى تصنيف كتابه هذا فجاء نتيجة طيبة لأبحاث متصلة وعمل مجهد فى المراجع العربية الأولى .

وكان فورنل لايكتب لمجرد استقصاء أخبار إفريقية وتعرف أحوالها ، وإنما كان قد وضع لنفسه نظرية معينة أراد أن يثبتها بتأليف هذا الكتاب ، وهى أن الفتح الإسلامى لم يكن أكثر من فتح حربى قليل الأثر ، وأنه كان نكبة منى بها المغرب إذ أذلت الأهلين وأفسدت الأرضين ، وأن البربر ظلوا — رغم ما بذل العرب من جهود — مستقلين فى بلادهم يديرون شئونها ويسودونها ، لأن أمر العرب لم يلبث أن صار إلى الضعف والانحلال .

لكى يثبت فورنل هذا الرأى ، اضطر من حين إلى حين إلى تحويل الحقائق وتفسيرها تفاسير لا تتفق والواقع ، واضطر إلى الوقوف من العرب موقفاً لا نبالغ إذا قلنا إنه عدائى ، فانتقد الفاتحين جميعاً انتقاداً مراً ولم يرض عن شىء أتاه أحدهم ، واعتبر الغزوات العربية كلها غارات لا تبغى غير السلب والنهب ، وذلك هو عيب هذا الكتاب الذى يشيع فيه من أوله إلى آخره ، والذى يقلل من قيمته ككتاب علمى يصح الاعتماد عليه والأخذ منه ، ولهذا قل من المؤرخين المحدثين من يقدر هذا الكتاب أو يرجع إليه على أنه مصدر علمى له قيمته . فكودل مثلا ينتقد فكرة الكتاب عامة ويؤكد أنها أفسدت البحث جميعه .

وقد كتب الرجل كتابه قبل أن يظهر شيء من المؤلفات الغربية التي سبق ذكرها، فكان جل اعتماده على المراجع الشرقية : كابن الأثير وابن عذارى والنويري ، وكان هذا سبباً من الأسباب التي جعلت بحثه قديماً من الناحية العلمية ، بل إن الأستاذ ليفي . بروفنسال يشك فيما ورد فيه من المعلومات لهذا السبب من ناحية ، ولأن فورنل اعتمد على ترجمات كثيرة الخطأ من ناحية أخرى .

بيد أن الكتاب موسوعة وافية غنية بالمعلومات عن أحوال البلاد وجغرافيتها وتاريخها وسكانها ، فما من مدينة مر ذكرها إلا علق عليها بهامش طويل ذكر فيه القراءات المختلفة لاسمها وما قال مؤرخو العرب عنها ، ولا ينسى أن يذكر ما قاله الرحالة الإنجليزى شو Shaw والسائح الإنجليزى السير جرنفيل تِمْبِـلْ عنها ، وما من مناسبة تسنح له للتحدث عن أحداث المشرق إلا أسهب وأفاض فى ذلك إفاضة ربما خرجت بالقارىء عن موضوع البحث .

— E. Mercier

I — Histoire de l'Afrique Septentrionale (Berbérie) (٢٩) depuis les temps les plus reculés jusqu à l'a conquète Française. Constantine 1888 – 1891

كتاب شامل فى مجلدات ثلاثة ، استقصى المؤلف فيه أخبار المغرب من العصر القديم حتى الفتح الفرنسى ، وهو كتاب قديم كتب فى النصف الثانى من القرن الماضى .

صنف المؤلف كتابه وهو مقيم بقسطنطينة ، معتمداً على ما اتصل به من الكتب العربية وخاصة ابن خلدون ، فاستطاع أن يستخرج من النصوص الأولى موجزاً لطيفاً كهذا . وإذا قيست أخطاؤه إلى العصر الذى عاش فيه ونظر إلى الوثائل القليلة التى أتيحت له تبين مقدار الجهد العظيم الذى بذله .

والجزء الخاص بالفتح العربى قصير جداً ، ولكن مرسييه استطاع مع ذلك أن يوجز الحوادث وأن يستخرجها ويرويها فى أسلوب بسيط جاف ، فلم يقع له من الخطأ إلا قليل لا يكاد يذكر.

ومرسييه من أضراب فورنل يتحمس للبربر فى غير داع وينتقص العرب ويهاجمهم فى غير مبرر معقول ، ومن ذلك مقارنته الكاهنة بجان دارك واعتباره إياها

نصيرة الحق والإنسانية ، أمام العرب المتوحشين كما وصفهم ، وما من مناسبة أتيحت له ليزرى بالعرب إلا انتهزها مبادراً ، مما جعل لكتابه لوناً من التعصب قلل من قيمته العلمية كثيراً . وقد كان الرجوع له للاستعانة بموجزه على تتبع سير الحوادث ، فقد كان موفقاً جداً فى إيجاز حوادث العصر البيزنطى ، ولكن كتابه ليس إلا سرداً للحوادث ، دون محاولة لتفسيرها واستنباط أحكام منها .

2 — Histoire de l'Etablissement des Arabes dans l'Afrique Septentrionale, Constantine, 1895.

يبحث هذا الكتاب فى تاريخ القبائل العربية التى هاجرت إلى إفريقية حوالى القرن الثالث الهجرى ، ولهذا أوجز فى الفصل الرابع كل حوادث الفتح الأول كتمهيد للكلام على غزوة العرب الهلاليين . وقد أرفق المؤلف بالكتاب خريطتين للمغرب ، بين فيهما منازل القبائل البربرية بعد هذه الغزوة ، وقد رسمهما بحسب ما ورد فى ابن خلدون ، فاستعنا بهما لتعرف مواقع هذه القبائل .

٣٠ — <u>Le Baron de Slane :</u>

Histoire des Berbères et des dynasties Musulmanes de l'Afrique Septentrionale. Nouvelle édition publiée sous la direction de Paal Casanova

أعلن ظهور هذا الكتاب بدء عصر جديد فى تاريخ الدراسات العلمية والتاريخية بوجه خاص فى المغرب ، فقد ترجم المؤلف فيه الجزء الثالث من تاريخ ابن خلدون الخاص بالبربر ، ففتح بذلك أمام الباحثين الأوروبيين ميداناً فسيحاً للدرس والبحث بما قدم إليهم من المعلومات والتفصيلات عن هذه البلاد . وكان دى سلين قد نشر الكتاب نفسه قبل ذلك بسنوات ، وعلق على الكثير من عباراته وأعلامه تعليقات غاية فى الفائدة . ولهذه الترجمة من الفائدة ما يجعل النظر فيها من ألزم الأمور للباحثين فى شئون المغرب .

وأعقب البارون ترجمته لابن خلدون ، بترجمة كاملة لما ورد فى النويرى وابن عبد الحكم عن الفتح العربى للمغرب ، وعلق على ترجمة ابن عبد الحكم بإيراد النصوص التى كتبها تيوفانيس عن هذا الفتح ، فقدم لنا بذلك نصاً من أهم النصوص التى كتبت عن هذا الفتح .

٣١ — Caudel: 1 — L'Afrique du Nord, les Byzantins, et les Berbères, avant les invasions arabes, Paris, 1900.

2 — Les premières invasions arabes de l'Afrique du Nord. Paris, 1900.

يكاد هذا الكتاب الصغير أن يكون المؤلف الوحيد الذى وضع عن الفتح العربى للمغرب خاصة ، والكتاب جزءان : الأول مقدمة طويلة بعض الطول عن بلاد المغرب والبيزنطيين والبربر والعرب ، وفق المؤلف فيها إلى تصوير العصر البيزنطى تصويراً موجزاً دقيقاً ، اعتمد فى كتابته على ديل ، فقدم خلاصة وافية أبدى فيها كثيراً من الآراء الطريفة التى ربما خالف فيها ديل نفسه ، بل امتاز عنه بأسلوب فيه دعابة خفيفة ، أما حديثه عن البربر والعرب فكلام إنشائى لا غناء فيه . وفى الجزء الثانى يقص كودل قصة الفتح العربى للبلاد ، اعتمد فى كتابته على ثلاثة الكتب المغربية التى سبقت الإشارة إليها وهى : « رياض النفوس » و « معالم الإيمان » و « المؤنس » ، وربما استعان بابن الأثير وابن عذارى والنويرى بين حين وحين . أخذ كودل إذن قصة الفتح عن علماء مغربيين فكان أكثر توفيقاً من فورنل ، إذ أمدته مراجعه بتفاصيل وافية غزيرة المادة مكنته من أن يسهب فى الحديث والتفصيل ، فاقتدر على تتبع أحداث الفتح تتبعاً معقولا مفهوماً ، وربما أخذ عليه اعتماده تماماً على هؤلاء المغربيين .

والمآخذ عليه كثيرة ، منها اعتماده على مراجع ثانوية ومنها قلة حفله بأقطاب الرواية الأولى ، ومنها خطؤه فى القول بأن كتاب معالم الإيمان كله من تأليف ابن الناجى ، وليس الأمر كذلك ، ومنها تناقضه فى الحكم على أبى المهاجر وإهماله بحث مسألة إسلام البربر واهتمامه بالتفاصيل القليلة الأهمية ، وفيما خلا ذلك لا نزاع فى أن كودل منصف لم يتابع مدرسة فورنل ، وإنما كان مثلا طيباً للمؤرخ المعتدل ، أنصف العرب كثيراً وأخذهم بما رأى من مآخذ فى رفق ، وربما حاول الدفاع عنهم ، وله فى ذلك استدراكات وجيهة وأحكام صادقة .

٣٢ — Gautier, E. F. Le Passé de l'Afrique du Nord (Siècles Obscures, Paris, 1937.

ليس هذا الكتاب تاريخاً للمغرب فى عامة عصوره ، ولا دراسة لعصر منها قائماً

بذاته ، وإنما هو دراسة شاملة للمجتمع المغربي والحضارة المغربية من العصر الحجري إلى نهاية العصر الإسلامي .

والكتاب كله يقوم على نظرية واحدة، هي أن التاريخ المغربي كله ليس إلا صراعاً بين طائفتي البربر وهما البتر والبرانس ، وقد ذهب المؤلف إلى أن البتر ليسوا فريقاً من أهل البلاد ، وإنما هم غزاة دخلوها في أول العصر القرطاجني ، وقد أتوا المغرب من الشرق فبعضهم فينيق ، ولهذا يرى المؤلف أن البتر ساميون ، فالخلاف بين الطائفتين لا يقتصر في رأيه على انتساب كل من البتر والبرانس إلى جد أسطوري قديم ، وإنما يرجع إلى أن كلا منهما شعب أو جنس مستقل بذاته .

على هذا الأساس درس جوتييه التاريخ المغربي ، وعلى هذا الضوء فسر أحداثه ، ولا نزاع في أنه بالغ كثيراً في الاعتقاد بهذا الرأي ، ومال إلى تفسير التاريخ المغربي تفاسير غير مفهومة لكي يعزز رأيه ، كقوله : « إن الأفارقة كلهم كانوا يتحدثون الفينيقية ساعة فتح العرب البلاد ، وإن اصطباغهم بهذه الصبغة الفينيقية أي السامية سهل دخولهم في الإسلام ويسر لهم تعلم العربية » وهذا رأي ضعيف جداً بناه المؤلف على أسانيد قليلة الأهمية .

وللمؤلف حديث شائق عن الكاهنة وكسيلة ، فاعتبر الأولى ممثلة للحضارة السامية اليهودية ، وذهب إلى أن كاهنة مؤنث كوهين ، واعتبر كسيلة ممثلا للعصبية البربرية المسيحية التي تأثرت بالحضارة البيزنطية ، وتلك كلها آراء لا يستطيع الإنسان قبولها . وله كذلك رأي طريف في حركات الخارجية والصفرية التي عمت إفريقية طوال العصر الإسلامي ، فقارن بينها وبين الدوناتية ، وذهب إلى أن كلتيهما مظهر لمقاومة العنصر السامي (البتري) في البلاد .

وملاحظات المؤلف على الفتح العربي قليلة ولكنها دقيقة شاملة ، تلقي ضوءاً مبيناً على هذا الفتح ، وقد كانت نظرياته وآراؤه موضع جدل عنيف بين المستشرقين .

---

٢ — واعتمد على المراجع الآتية فى المواضع المشار إليها أثناء البحث :

٣٣ ALBERTINI, E.: *L'Afrique Chrétienne.*

34 AMARI, MICHEL: *Storia dei Musulmani di Sicilia,* Firenze 1854-1867.

35-36 BASSET RENÉ: *Histoire de l'Algérie par les Monuments,* 1900.
Mélanges Africains et Orientaux, 1915.

37 BERBRUGGER: *L'Algérie Historique.*

38 BOSSIER, (G.): *L'Afrique Romaine,* 1895.

39 BIGUET, GAL-FAURE: *Histoire de l'Afrique Septentrionale sous la domination des Musulmans,* 1905.

40 CARDONNE: *Histoire de l'Afrique et de l'Espagne sous la domination des Arabes.*

41 CAGNAT: *L'Armée Romaine de l'Afrique et l'occupation militaire sous les Empereurs* 1912 (2ème. éd.).

42 CARETTE, E.: *Recherches sur les origines et les migrations des principales tribus de l'Afrique Septentrionale et particulièrement de l'Algérie,* 1853.

43-44 CAUDEL, M.: (1) *L'Afrique du Nord, les Byzantins, les Berbères avant les invasions,* 1900.
(2) *Les premières invasions de l'Afrique du Nord,* 1900.

45 DEFRÉMÉRY: *Mémoires d'Histoire Orientale,* Paris, 1854.

46 DESPOIS, J.: *La Tunisie.*

47-48 DOZY: A — *Histoire des Musulmans d'Espagne.*
B — *Recherches.* (2ème. éd.)

49 DOUTTÉ, E. (1): *Notes sur l'Islam Maghribin, Les Marabouts,* 1900.
(2): *Magie et religion dans l'Afrique du Nord,* Alger, 1909.

50 DUPRAT: *Les Races anciennes et Modernes de l'Afrique.*

51 FAGNAN: *Extraits inédits relatifs au Maghreb,* Alger, 1924.

52 FOURNEL: *Les Berbères; étude sur la conquête de l'Afrique par les Arabes, d'après les textes arabes imprimés,* 1875-1881.

53 GIBBON: *Decline & fall,* Giant éd. 1937.

54 GSELL, STEPHANE: *L'Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord,* 8 Vol. 1913.

55 GSELL, G. MARÇAIS ET G. YVER: *L'Algérie.*

56 HARDY, G. et P. AURES: *Les grandes étapes de l'Histoire du Maroc,* 1921.

57-58 MARÇAIS, G.: *Manuel d'Art Musulman,* 1926-1927.

59 MEAKIN, BUDGET: *The Moorish Empire, A Historical epitame,* London, 1899.

60-61 MERCIER, E.: (1) *Histoire de l'Afrique Septentrionale (Berbérie) depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française.* 3 vols. Cons. 1888-1891.

(2) *Histoire de l'établissement des Arabes en Berbérie Constantine.*

62 MESNAGE, P.: *L'Afrique Chrétienne,* 1912.

63 RINN: *Etude sur l'Islam en Algérie.*

64 WESTERMARCK: *Ritual and belief in Marocco,* 2 vols., London, 1926.

65 VASILIEV, A. A.: *History of the Byzantine Empire,* Vol. 1, *from Constantine the great to the epoch of the Crussades,* Madison, 1928.

٣ — مقالات وبحوث : وردت فى الصحف العلميـــة الآتية وأشير إليها فى مواضعها من البحث :

Hespéris: Archives berbères. Bulletin de l'Institut des hautes études marocaines.

Journal Asiatique.

Revue Africaine: publiée par la Société historique Algérienne.

Revue des études islamiques.

Revue du Monde Musulman.

Recueil des notices et mémoires de la société archéologique du département de Constantine.

Revue d'Histoire Africaine: Moyen Age et Temps modernes

ذيل ٢

التواريخ الهـامة

(١) الأباطرة والخلفاء

١ — أباطرة الدولة البيزنطية

جستنيـان	٥٢٧ — ٥٦٦ م
جستن الثانى	٥٦٦ — ٥٧٨
تيبريوس الثانى	٥٧٨ — ٥٨٢
موريس	٥٨٢ — ٦٠٢
فوكاس	٦٠٢ — ٦١٠
هرقل الأول	٦١٠ — ٦٤١
هرقل الثانى	٦٤١
هرقل الصغير (هرقلوناس)	٦٤١
قنسطنط الثانى	٦٤١ — ٦٦٨
قنسطنطين الرابع (بوجونات)	٦٦٨ — ٦٨٥
جستنيان الثانى (رينوتميتوس)	٦٨٥ — ٦٩٥
ليونتيوس	٦٩٥ — ٦٩٨
تيبريوس الثانى (ابسياروس)	٦٩٨ — ٧٠٥
جستنيان الثانى	٧٠٥ — ٧١٢
فيليبيكوس بَرْدَانِس	٧١٢ — ٧١٣
انستاسيوس الثانى (ارتميوس)	٧١٣ — ٧١٦
تيودوسيوس الثالث (ادرامُيتينوس)	٧١٦ — ٧١٧
ليون الإيسورى	٧١٧ — ٧٤١
قنسطنطين الخامس (كبروفيموس)	٧٤١ — ٧٧٥

٢ — الخلفاء

	هـ.	م.
أبو بكر	١١ — ١٣	٦٣٢ — ٦٣٤
عمر	١٣ — ٢٣	٦٣٤ — ٦٤٤
عثمان	٢٣ — ٣٥	٦٤٤ - ٦٥٦
على	٣٥ — ٤٠	٦٥٦ — ٦٦١
معاوية بن أبي سفيان	٤٠ — ٦٠	٦٦١ — ٦٨٠
يزيد بن معاوية	٦٠ — ٦٣	٦٨٠ — ٦٨٣
معاوية الثانى	٦٣	٦٨٣
مروان بن الحكم	٦٤ — ٦٥	٦٨٣ — ٦٨٥
عبد الملك بن مروان	٦٥ — ٨٦	٦٨٥ — ٧٠٥
الوليد بن عبد الملك	٨٦ — ٩٦	٧٠٥ — ٧١٥
سليمان بن عبد الملك	٩٦ — ٩٩	٧١٥ — ٧١٧
عمر بن عبد العزيز	٩٩ — ١٠١	٧١٧ — ٧٢٠
يزيد بن عبد الملك	١٠١ — ١٠٥	٧٢٠ — ٧٢٤
هشام بن عبد الملك	١٠٥ — ١٢٥	٧٢٤ — ٧٤٣
الوليد بن يزيد بن عبد الملك	١٢٥	٧٤٣
يزيد بن الوليد	١٢٦	٧٤٤
ابراهيم بن الوليد	١٢٧	٧٤٥
مروان بن محمد	١٢٧ — ١٣٢	٧٤٥ — ٧٤٩

(ب) الحوادث

١ — العصر البيزنطى

٢٢ يونيو سنة ٥٣٣ نزول بلزاريوس إفريقية وبدء الحكم البيزنطى فيها.

٥٣٤ — ٥٤٦ ولاية سليمان .

٥٤٥ — ٥٤٦ ثورة عامة فى إفريقية وطرابلس ومقتل سليمان .

١٤ نوفمبر سنة ٥٦٥	وفاة جستنيان .
٥٢٧ — ٥٧١	ثورة عامة فى إفريقية — سقوط قرطاجنه فى يد البربر — ارْطَبان يخمد الثورة .
٥٨٨	ثورة فى إفريقية يخمدها جناديوس .
٦٠٨	ولاية هرقل الكبير وبدء حكم أسرة جريجوريوس.
٦٤٢	وصول القوات العربية فى برقة .

٢ — الغزوات العربية

م	هـ	
سبتمبر سنة ٦٤٢	ذى القعدة سنة ٢١	عقبة بن نافع يخرج فى بعث صغير ليستطلع أحوال إفريقية .
	أوائل سنة ٢٢	مسير عمرو إلى برقة وفتحها .
	منتصف سنة ٢٢	فتح فزان .
	أوائل سنة ٢٣	فتح طرابلس وصبرة — بعث ودان.
	أواخر سنة ٢٣	عود عمرو من إفريقية .
٦٤٧	أواخر سنة ٢٧	وصول عبد الله بن سعد إلى برقة .
	أوائل سنة ٢٨	موقعة سبيطلة .
٦٦١ — ٦٦٣	٤١ — ٤٣	بعث عقبة التمهيدى فى الصحراء .
٦٦٥ — ٦٦٥	٤٥	وصول معاوية بن حديج إلى إفريقية.
	أوائل سنة ٤٨	عودة الحملة .
٦٦٩ — ٦٧٠	٤٩	مسير عقبة إلى إفريقية فى حملته الأولى.
	٥٠ — ٥٥	اختطاط القيروان .
٦٧٤ — ٦٧٥	٥٥	وصول دينار أبى المهاجر إفريقية .
	٥٥ — ٥٨	غزوة البربر فى تلمسان .
	٥٩ — ٦١	أبو المهاجر يحاصر قرطاجنة .
	أوائل ٦٢	عودة دينار من إفريقية وعزله .
٦٨١ — ٦٨٢	رجب سنة ٦٢	موت مسلمة بن مخلد عامل مصر

م	هـ	
	منتصف سنة ٦٢	بدء ولاية عقبة بن نافع الثانية .
	٦٢ — ٦٤	حملة عقبة الكبرى .
٦٨٣ — ٦٨٤	٦٤	موقعة تهودة ومقتل عقبة .
	٦٥	إنسحاب زهير بن قيس إلى برقة وإخلاء إفريقية .
٦٨٨ — ٦٨٩	٦٩	مسير زهير إلى إفريقية .
	٧٠	واقعة ممْس .
	٧١	مقتل زهير فى برقة .
٦٩٥	٧٦	مسير حسان بن النعمان إلى إفريقية وحملته الأولى على قرطاجنة .
	٧٧	واقعة نيني وارتداد حسان عن إفريقية.
	٧٩	البطريق جان ينزل إفريقية ويستولى على قرطاجنة .
	٨٠	الكاهنة تخرب إفريقية .
	٨١	مسير حسان الثانى إلى إفريقية .
	٨٥	عزل حسان .
٧٠٥	أواخر ٨٥	بدء ولاية موسى بن نصير .
	٨٦	فتح زغوان .
	٨٩	حملته على المغرب الأوسط .
	٩٠	حملته على المغرب الأقصى .
٧٠٨ — ٧١٠	٩١	إرسال الطلائع إلى إسبانيا .
	٩٢	عبور موسى إلى الأندلس .
	٩٤	عوده إلى الشرق .
	٩٨	موته بالمشرق .

٣ — العصر الأموى

	هـ .	م .	
يزيد بن أبى مسلم .	١٠٢ — ١٠٥	(٧٢٠—٧٢١) — (٧٢٣—٧٢٤)	
بشر بن صفوان .	١٠٥ — ١٠٩	(٧٢٧—٧٢٨)	
عبيدة بن عبد الرحمن .	١١٠ — ١١٤	٧٢٨	٧٣٥
عبيد الله بن الحجاب .	١١٤ — ١١٦	٧٣٥	
(حملته على صقلية)			
(ثورة ميسرة)			
كلثوم بن عياض — واقعة الأشراف .	١٢٣ — ١٢٤	٧٤٠	٧٤٢
حنظلة بن صفوان . واقعة القرن والأصنام .	١٢٤ — ١٢٦	٧٤٢	٧٤٣
عبد الرحمن بن حبيب .	١٢٦	٧٤٣	٧٤٤

فهارس الكتاب

١ — فهرس الأعلام

فهرس الأعلام

فهرس الأعلام

فهرس الأعلام

فهرس الأعلام

فهرس الأجناس والشعوب والقبائل والألفاظ الاصطلاحية

ج — فهرس الأماكن

فهرس الأماكن

فهرس الأماكن

فهرس الأماكن الجغرافية

فهرس الأماكن

فهرس الأماكن

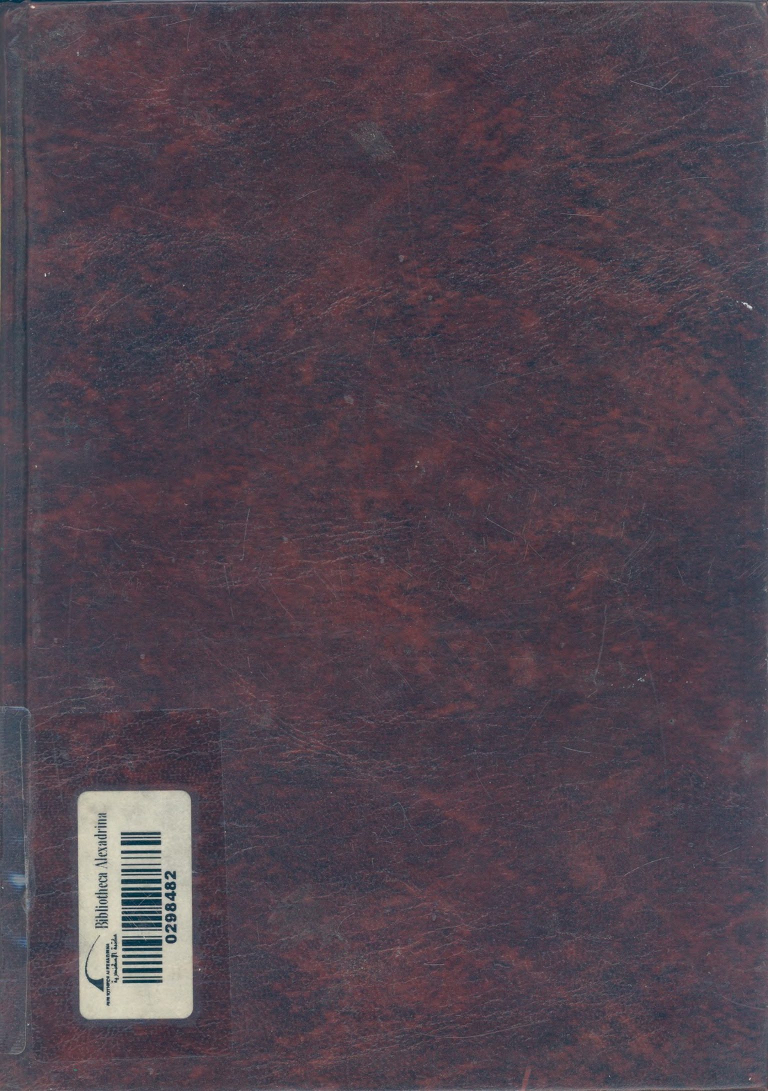
فهرس الأماكن

فهرس الأماكن

د — فهرس الألفاظ الأفرنجية الواردة في البحث

د — فهرس الألفاظ الأفرنجية الواردة فى البحث

فهرس الألفاظ الأفرنجية الواردة فى البحث


Bibliotheca Alexadrina
0298482